العتبة الحسينية المقدسة

المصباح

مجلةٌ فكريةٌ فصليةٌ متخصصةٌ
تعنى بالدراساتِ والأبحاثِ القرآنيةِ

تصدرُ عن
الأمانةِ العامةِ
للعتبةِ الحسينيةِ المقدسةِ

العدد الثامن - شتاء (٢٠١٢م-١٤٣٣هـ)

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۚ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ ۖ
الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ۖ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ
مُّبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَّا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ
نَارٌ ۚ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ ۗ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ ۚ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ
لِلنَّاسِ ۗ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ ﴿٣٥﴾

صَدَقَ اللَّهُ الْعَلِيُّ الْعَظِيمُ

المشرف العام

سماحة الشيخ

عبد المهدي الكربلائي

الأمين العام للعتبة الحسينية المقدسة

رئيس التحرير

محمد علي هدو

المشرف التنفيذي

د. حميد مجيد هدو

سكرتير التحرير

نوار صبيح الحسيني

الهيئة الاستشارية

أ.د. حسام الدين الالوسي
جامعة بغداد – العراق

أ.د. عبد الجبار ناجي
جامعة بغداد – العراق

أ.د. صباح نوري المرزوك
جامعة بابل – العراق

أ.د. عبد النبي اصطيف
جامعة دمشق – سورية

أ.د. عبد الامير كاظم زاهد
جامعة الكوفة – العراق

أ.د. عبود جودي الحلي
جامعة اهل البيت – العراق

أ.د. محمد الخطيب
جامعة كربلاء – العراق

المصباح

مجلة فكرية فصلية متخصصة

تعنى بالدراسات والأبحاث القرآنية

تصدر عن

الأمانة العامة

للعتبة الحسينية المقدسة

العدد الثامن - شتاء (٢٠١٢م - ١٤٣٣هـ)

موقعنا على شبكة الإنترنيت

www.al-missbah.com | www.al-missbah.net

www.al-missbah.org

البريد الإلكتروني

info@al-missbah.com

almosbah1431@hotmail.com | almosbah1431@yahoo.com

هاتف رئيس التحرير

٠٠٩٦٤-٧٨١٠٥٣٥٥٢٤

٠٠٩٦٤-٧٧١١٦٣٤٣٤٤

هاتف سكرتير التحرير :

٠٠٩٦٤-٧٧٠٦٠٠١١٨٥

هاتف المشرف التنفيذي

٠٠٩٦٤-٧٨١٠٨٠٠٦٢٧

العنوان البريدي

الأمانة العامة للعتبة الحسينية المقدسة

كربلاء المقدسة-جمهوريّة العراق

هـ. أ. ٣٢١٧٧٦-٠٠٩٦٤٣٢

داخلي ٥٦١

الترقيم الدولي:

ISSN: 2226-5228

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد

١٤١٤ لسنة ٢٠١٠ م

التنسيق والمتابعة

د. عمار عبودي نصار (العراق)

د. أنمار عبد الجبار (ألمانيا)

طلال فخر الدين (لبنان)

محمد سليم العضل (سورية)

عدنان الاردكاني (ايران)

معتمد الترجمة الإنكليزية

سعد شريف طاهر

الاخراج والتصميم والمتابعة الطباعية

نوّار الحسيني

تنضيد البحوث

قاسم سالم

البحوث وماتتضمنها من أفكار وآراء تعبر عن رأي كتابها

المحتويات

• كلمة الإفتتاح/ رئيس التحرير محمّد علي هدّو..... ٧

بحوث العدد

• العقل ومصادر التشريع -رؤية قرانية- / خالد سيساوي..... ١١

• العدول في النص القرآني / أ.د . حسن منديل العكيلي..... ٣٧

• الشيخ البلاغي وعلم الاديان المقارن/ القسم الثالث/ أ.م.ستار الفتلاوي.....٧٥

• منهج تفسير القرآن بالعلوم البحتة/ محمد علي هدو.....١١٩

• حقيقة النسخ في القرآن الكريم (القسم الثاني) / د.علي رحيم هادي الحلو.....١٤١

• دلالة كلمة (البحرين) في القرآن الكريم/ أ.د.محمد كريم الشمري.....١٦٥

• مستوى الدلالة القرآنية في نهج البلاغة/ د.عادل عباس النصرواي..... ١٩١

• نظرة في تجسُّم القرآن الكريم/ عبد الحليم عوض الحلي ٢١١

• الطغاة وسنن التاريخ في ضوء المنهج القرآني/ الشيخ موسى نصار.....٢٣١

• العدد في آيات الخليقة وآيات الاحكام/ حوراء مهدي عبد الصاحب.....٢٥٧

• سورة الشمس – دراسة اسلوبية-/ احمد حسين خشان الهاشمي.....٢٨١

• دلالة (السمع) في القرآن الكريم/ م.م. ضرغام كريم الموسوي.....٢٩٩

• بحوث العلامة الهندي-الجزء الرابع/ ترجمة سعد شريف طاهر.....٣٢٩

نافذة المصباح

• قراءة في كتاب (براءة آدم) لسماحة السيد جعفر العاملي/ عبد الحسين مجيد هدو ٣٥٦

بيان

لقد اعلنت مجلة المصباح الفصلية الفكرية المتخصصة بالأبحاث القرآنية عن هويتها منذ صدور العدد الاول منها كما اعلنت عن المحاور التي تبحث فيها والضوابط المترتبة على البحث الذي ينشر فيها وأهم تلك الضوابط:

أن يأخذ ما يُكتب فيها شكل البحث العلمي الأكاديمي المنهجي في سياقه، المستقل في مضمونه، الجديد في طرحه وموضوعه، البعيد عن الانحياز والتطرف، القوي في أسلوبه ونظمه، وكأن الباحث الكريم قد دخل في مباراة لاختيار أحسن بحث.. وان لا يكون البحث قد سبق نشره ضمن كتاب أو في مجلة داخل العراق وخارجه او على موقع الكتروني، اللهم الا اذا كان منشوراً بلغة أخرى وتُرجم الى العربية... وقد دأبنا على أن نجعل المكافأة مجزية لبحث يحمل هذه السمات فضلاً عن اجر الله سبحانه الذي أعده لحملة فكر القرآن ومروّجيه.

بيد أن الذي فتّ في اعضادنا، ورود ابحاث نكتشف لاحقاً انها تخالف بعض بنود خطتنا في الاختيار، كأنْ تكون منشورة في مجلات مماثلة في طرحها وموضوعها، أو انها نمطية في مواردها قد أشبعت بحثاً وتحليلا، أو انها تنهج نهج اثارة مالا يعمل على وحدة الكلمة ورص الصفوف خلف القرآن العظيم من خلال اعتماد المصادر والاسانيد الضعيفة مما لا يخدم سياسة المجلة في الدعوة الى بسط فكر القرآن الكريم ومراميه السامية في الوحدة ونبذ الفرقة.

ونحن في الوقت الذي ندعو فيه الى توخي الحذر والحيطة من مثل هذه التيارات، ندعو كل الباحثين الأجلاء الى أن يجسدوا موقعهم العلمي ومستواهم الفكري في ما يكتبون، مما يمثل لهم تاريخاً فكرياً يعتدّون برصانته ويَفخرون بطرحه، ويحتسبون أجره عند الله -سبحانه- بجدارة المجاهد بقلمه وعلمه، وصدق القول المأثور: زكاة العلم نشره. وقد وظفت المجلة كل امكاناتها من أجل اختزال ما لا يتماشى وسياستها أو ما سبق نشره في مجلة أو كتاب، او ما لا يصمد امام التقويم والتحقيق والتدقيق او ما فقد الموضوعية في الطرح، اذ وكلت ذلك الى ذوي الاختصاص من أهل الرأي والمشورة، وبناءاً على ذلك فأن البحوث التي تنشرها المجلة تعبّر عن اراء كتّابها حصريا وليس بالضرورة عن رأي المجلة ولكل من يريد أن يردّ أو يناقش فالباب مفتوح امامه وسوف نلتزم بنشر الرد والمناقشة كما هي في (نافذة المصباح) التي خصصت للنقد والعرض والتعريف.

ولا يفوتنا أن نؤكد للسادة الباحثين أن المجلة ملزمة باشعار الكاتب بموقفها من بحثه شريطة أن يرسل الينا عنوانه ورقم هاتفه، وبخلافه فلا سبيل له الى عتابنا... وفق الله الجميع لما فيه خدمة القرآن المجيد.

مجلة المصباح

كلمة الافتتاح

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله والصلاة والسلام على من اصطفى، محمد وآله الطاهرين واصحابه الأخيار المنتجبين ومن تبعهم باحسان الى يوم الدين...وبعد.

لم تكن (المصباح) لتطفيء الشمعة الثانية من عمرها، وتتهيأ لإذكاء الشمعة الثالثة، بصدور العدد الثامن منها، لولا توفيق الله-سبحانه-وبركات أبي الأحرار، سيد الشهداء، ابي عبد الله الحسين عليه السلام وجهود من اسهموا في هذه الخدمة القرآنية الجليلة، باقلامهم وبجهودهم من دون ما كلل أو ملل أو إحباط في العزيمة.لقد شقّت المجلة لجة الصعاب بشكيمة قوية وهمة عالية، لم يقصُر فيها جهدٌ لأحد، ولم تخمد عندها نار لمصطلٍ، وكان الله -جلَّ في علاه- هو الموفق وهو الهادي الى سواء الصراط ﴿أَفَمَن يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ أَحَقُّ أَن يُتَّبَعَ أَمَّن لَّا يَهِدِّىٓ إِلَّآ أَن يُهْدَىٰ ۖ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ﴾.

واذا كنا نطلب الهداية التي ارادها الله -سبحانه -لنا، فلا محيص لنا من أن نلتمسها في القرآن الكريم الذي هو خط الشروع في الاهتداء الى طريق الله -تعالى-: ﴿إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ وَيُبَشِّرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ أَجْرًا كَبِيرًا﴾.ذلك انه من عند الله، ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ ۚ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾.

ان دعوتنا الباحثين الى أن يكتبوا، نابعة من صبرنا وإصرارنا على أن تحافظ (المصباح) على علوّ قدرها بين المجلات المتصدية للبحث في علوم القرآن، لتأخذ مكانها في المجتمع الحوزوي والاكاديمي الجامعي والطبقة ذات المستوى المتقدم في الثقافة القرآنية. وعلى هذا الأساس بنينا ترحيبنا بكل بحث جديد في ميدانه، موضوعي في طرحه، اكاديمي في مبناه، منهجي في بسطه، محايد في استنتاجه أو استقرائه، يخدم الرآي الآخر ويحاوره بالحجة القوية

الثابتة، بعيد عن التهكم والهزل والاستخفاف بالرأي... وتطول القائمة بالضوابط التي لا يجهلها الباحثون أولي الرآي السديد والمنهج الحصيف.

وقد اعترضت تقويمنا للبحوث مشكلة الاشارة الى المصادر (وبالخصوص القديمة منها) فالرجوع اليها للتثبت من صحة اقتباس المعلومة منها (الجزء والصحيفة) اصبح من الصعوبة بمكان، بسبب تعدد الطبعات وتعدد المحققين، وعدم اشارة الكاتب الى ذلك في الهامش. وهذا يحملنا الى تفضيل أن يذكر الباحث اسم الفصل أو المادة أو الموضوع أو رقم الحديث. واكثر ما تتجلى الحاجة الى ذلك، في معاجم اللغة أو الموسوعات العلمية أو التاريخية أو التفاسير بانواعها. فحين يعرض الباحث لمعنى كلمة في (لسان العرب) يقول: (لسان العرب مادة كذا) وحين يعرض لتفسير آية، يقول مثلاً: (انظر تفسير الآلوسي أو مجمع البيان للآية كذا في سورة كذا...الخ) وحين يستشهد بصحيح البخاري، أو مسلم مثلا يقول (صحيح البخاري -باب كذا فصل كذا الحديث رقم كذا) فهذه الكتب قد صدرت طوال ثلاثة قرون بطبعات لا تحصى عدداً، واحتمال الوهم في الاستناد الى الجزء والصحيفة وارد قطعا، وقد عانينا كثيراً من مثل هذه الأمور واضطررنا -ونحن نقوّم البحث وندققه -الى إلغاء النصوص التي يتعذر علينا مطابقتها مع دعوى الباحث انه استند اليها.

وبناءاً على ما تقدم... فاننا نقول للاخوة من العلماء والكتاب والباحثين، ان ابحاثهم محمولة عندنا على محمل الجد والتقدير والاحترام، وهذا مردّه شعورنا بانهم يعربون عن طول باعهم في علوم القرآن وصدق نياتهم في ما يبذلون من جهد وعلى هذا نرسم طريقنا في تقديم المزيد والأفضل ان شاء الله تعالى: ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾.

صدق الله العلي العظيم

رئيس التحرير

بحوث العدد

بحث استدلالي يغوص فيه السيد الباحث في لجج التعريف بالعقل كما اراد معناه القرآن الكريم. فيبدأ ببسط معنى العقل لغةً واصطلاحاً والاصول التاريخية للعقل في موروث الفكر العربي اذ يعرض لاستعمالات العقل في ما يخص مبدأ الادراك ونتائج ذلك الادراك. ويعرض تقسيمات العلماء من: عقل نظري وعقل عملي. ثم عقل الطبع وعقل التجربة. وللوصول الى كبد الموضوع وهو (الرؤية القرآنية للعقل) يتوسل السيد الباحث بمقدمة يشرح فيها مكانة العقل في تحقق الايمان وعالمية القرآن الكريم وأساليب المعرفة فيه وأن العقل والقرآن توأمان فرّق بينهما الجهل. بعدها يدخل الى موضوع (الخطاب القرآني للعقل).

وكأمثلة للطرح القرآني لمفهوم العقل يأخذ السيد الباحث انموذجين اثنين لعالمين جليلين لهما اختصاص في هذا الجانب هما: السيد الطباطبائي (صاحب الميزان) والشيخ جوادي آملي. ويختم بحثه بالتحذير من ترك العقل والآثار النورانية له من خلال مأثورات رويت عن المعصومين فضلا عن القرآن الكريم.

العقل ومصادر التشريع
(رؤية قرآنية)

السيّد خالد سيساوي
تبسة - جمهورية الجزائر
استاذ اصول الفقه - جامعة الامام الخميني
قم - ايران الاسلامية

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة:

لقد تفضل الباري (عزّوجلّ) على بني آدم بأن كرّمهم بأكرومة العقل فجعلها خاصتهم من دون باقي موجوداته. إنّ هذا المخلوق الكريم إختصّ به الانسان في مسيرته الوجودية، وارتقى بمعيته منازل الكمال، حيث أدرك به الكليات وفرق من خلاله بين المضرّات والمسرّات، وترقى به في مظان سبل المعارف والمكاشفات. وكرّم الله الإنسان مرة أخرى، فأنزل على لسان أنبيائه كتبا سماوية تنير طريق عقله وتربطه بربه. وتفاضل المرسلون فكان نبينا المصطفى أفضلهم بما أرسل الله معه من نور مبين وفرقان عظيم ناسخ لكتب من سبقه من العالمين. وقد جعل الله بين القرآن والعقل سنخية عجيبة، وهذا إن دلّ على شيء فإنّما يدل على أنّ طريق الوفود على رحمته ونعمائه وفضله لن يتحقق إلاّ بتوأمة نور العقل والقرآن.

معنى العقل:

لغة: بعد مطالعتي لقواميس اللغة العربية، وجدت أنّ"العقل "لفظ موغل في القدم متداول لدى أقدم الأدبيات والتراث والثقافة، والشعر قبل الإسلام إلى القرآن فالحديث، وصولاً إلى التراث الثقافي العربي الذي أسس على مصادر العربية.

إنّ كلمة العقل تعبر عن مدلولات عدة، فقد تعنى المعرفة بالشيء فنقول:

عَقَلَ الشيء؛ أي عرفه وأدركه، ونقول: هل يعقل هذا؟ أي هل بالإمكان إدراكه أو معرفته، وهو قصد إستفهامي لما هو غريب الوقوع. وفي تراث العرب يقال "عقلاء القوم" أي؛ ذوو الخبرة والدراية بالأمور. وأصل العقل في اللغة المنع والحجر والنهي والحبس؛ كعقل البعير بالعقال لمنعه من الحركة، ولدى الإنسان قوة تسمى بالعقل، وهي التي تصونه عن الجهل وتحميه الإنحراف فكرًا وعملاً.

و لهذا قال رسول الله ﷺ: "العقل عقال من الجهل»[1].

إصطلاحا:

العقل كما عرّفه أبوحيان التوحيدي هو منظومة التجارب الإنسانية وكلما كانت تجارب العقل أكثر كانت النفس أتم عقلاً[2].

و قد عرّف أبو بكر الرازي العقل بأنه "الفاعلية" التي يقوم بها الإنسان بوعي وتدبر، بمعنى الوظيفة كأداة للمعرفة النظرية والسلوك العملي والصناعات، وكل ذلك في مقابل الهوى. والعقل ملكة لتحليل الأمور المتفاعلة والمختلفة، أي تحليل الظاهرة إلى عناصرها الأولية من خلال استخراج علاقات السبب والنتيجة بأشكالها البسيطة والمعقدة. كما يعنى الحاكم والفاصل بين الصالح والطالح وتحديد درجة كل منهما، وبعبارة مجملة التمييز بين الأمور واختيار أحسنها.

كما أنّنا إن بحثنا عن معناه في التراث الفلسفي وجدناه مصدرًا لإدراك الوجود بعد تحقيق المفاهيم المنظمة لعمليات "Logos" كما فهمه الفلاسفة اليونانيون، ونظيره العربي "العقل" الذي يقابله في اللغة اللاتينية "Intellect».

الأصول التاريخية للعقل في الفكر العربي

المقصود من العقل العربي في بحثنا هذا أساليب التفكير القائمة على إعمال الدماغ، وهي مقومات بيولوجية، تتطور بتطور الزمن والحقب، كما أن هذه المقومات يتسم بها أغلب الناس. وتحتفظ هذه السّمات في المجتمعات المستقرة البعيدة عن المؤثرات الخارجية

(١) تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، ص ١٥.
(٢) نقلا عن كتاب مكانة العقل في الفكر العربي ص ١٢١.

بظواهرها، وتختل عند فقدان الإستقرار. ومن المؤكد أنّ العرب ولغتهم موغلة فى القدم، تشهد على ذلك بعض الإشارات والآثـار، لكنّ قلة الوثائق المكتشفة لاتُيَسّر كتابة تاريخ مفصل عن أحوالهم فى الأزمنة القديمة. وأولى هذه الحقائق أنّ العرب فى الجزيرة احتفظوا بسماتهم العامة، وكان تأثرهم بالأجانب ضعيفاً، وإنّ الغزوات الأجنبية القليلة التى تعرضت لها كانت مقصورة على بعض أطرافها، قصيرة الأمد، محدودة النطاق.

كما أنّ الأديان التى دخلتها، وأخصّها اليهودية والنصرانية، كانت محدودة الإنتشار سطحية الأثر، علماً بأنّ هذين الدينين ظهرا فى أطـراف الجزيرة وفى أقاليم لأهلها صلات عرقية وثقافية وثيقة بأهل الجزيرة. وقد عَمَد الباحثون العرب منذ عهد قريب إلى توصيف جملة فعاليات"العقل "عند العرب بأنّه عقل عربي، يقوم على أساس وأسـس عربية، وأنـه قابل للتفاعل مع العقول الأخرى، كالعقل الأروبي والعقل اللاتيني والعقل الشرقي.

نحن اليوم مهما فتّشنا فى مصادرنا الفلسفية، وكيفما فحصنا مقولات الفلاسفة فى العقل، لانجد بأي معنى من المعانى أنّ"العقل"المدروس فلسفيا يُمكن أن يُفهم على أنّه تأويلى، بل يُحمل على الخصائص الموضوعية للعملية العقلية التى تنتج المعرفة بأنظمة الكون وقوانينه بالمعنى الدقيق عن العقل الإنساني، والعقل هنا كالتيار الكهربائي، فهو واحد فى حركاته الكونية غير قابل لأن يكون مختلفا عنها فى الوسائل.

إذن من الممكن إدراك أن العقل طاقة كونية، غير موصوف بالآلات الطبيعية الجزئية المشروطة بمفهومه إلا بخصائصها المادية. فمن هنا فقط يقول الفلاسفة على مر العصور إن أنشطة العقل إنما هى الموصوفة بجزئيات الآلات المحسوسة المفهومة عن طريق الإدراك المباشر. والمؤسف أن يكون العقل المشرقي والعربي هو مخترع أداة التفكير قديما، وإن كان فى التاريخ الاسلامي من شذ عن واقع التقليد والجمود، كالمتصوفين، وإخوان الصفا والمعتزلة جميعًا، وابن رشد وآخرين فانطلقوا

عقليًا وروحيًا بشكل مغاير. لكنّ الفكر العربي في مجمله ظل متذبذبًا ما بين نزعتي التحديث والتقليد، ولاسيما بعد تحقق الثورة الفكرية في الغرب، بسبب معطيات يخشى تجاوزها ولو منهجيًا، فلم يتمكن من مواكبة ثورة ديكارت الفكرية، ونقدية كانط العقلية، وجدلية هيغل، ووجدانية كير كيغارد الواقعية، ومادية ماركس، وإنسانية فرويد، بدلاً من تقديم يستمده من مسيرته الفكرية الرائدة.

استخدامات العقل في ما يخص مبدأ الإدراكات:

أ- مبدأ جميع المعارف الاسلامية

و هذا المبدأ تشير إليه الأحاديث التي تفسر حقيقة العقل بـ:"النور"كما ورد ذلك في حديث رسول الله ﷺ:"العقل نور في القلب، يفرَق بين الحق والباطل"[٣].و قال أيضا:"مثل العقل في القلب كمثل السراج في وسط البيت"[٤]، وعن الإمام الكاظم عليه السلام:"إنّ ضوء الروح العقل"[٥].

أو أنها تعتبر النور كمبدأ لوجود العقل أو تنظر إليه كعطية إلهية، وتذهب إلى أنه أصل الإنسان، كما قال النبي ﷺ:"العقل هدية من الله"[٦] وقال الإمام علي عليه السلام:"العقول مواهب والأداب مكاسب"[٧].

فالإنسان -كما يُستكشف من هذه الأحاديث- ينطوي ذاتا على طاقة نورانية إذا كتب لها النّماء والتهذيب تُمكن في ظلّها من إدراك حقائق الوجود والتمييز بين الحقائق الحسية والغيبية واستجلاء الحق من الباطل، ومعرفة الصالح من الطالح. بل يمكن للانسان من خلالها إكتساب إدراكات تجعل دروب عالم الغيب مشرعة أمامه، فيتحول ما هو غيب إلى شهود"عين اليقين".

ب- مبدأ التفكير

الإستعمال الآخر للعقل في النصوص الاسلامية يتمثل في النظر

(٣) ارشاد القلوب، ١٩٨، نقلا عن كتاب العقل والجهل لمحمد الريشهري.

(٤) علل الشرائع: ج١/ ٩٨، نقلا عن كتاب العقل والجهل لمحمد الريشهري.

(٥) تحف العقول: ٣٩٦.

(٦) بحار الانوار، ٧٧/ ١٧٥.

(٧) غرر الحكم: ٢٢٧.

إليه كمبدأ للتفكير، ويعرّف العقل فى مثل هذه الموارد كمنشأ للفطنة والفهم والحفظ وموضعه الدماغ، وتعدّ الآيات والأحاديث التى تحث الإنسان على التعقل والتفكير، نماذج لاستعمال العقل بمعنى مبدأ التفكير.

ج- الوجدان الأخلاقى

وهو قوه كامنة فى أعماق ذات الإنسان تحثه على التّحلى بالفضائل الأخلاقية وتردعه عن ركوب الرذائل. وبعبارة أدق هو شعور بانجذاب فطرى نحو الفضيلة ونفور تلقائى من الرذيلة. إذ لو خلى بين هذا العقل وجميع المعتقدات والتقاليد والأعراف الدينية والإجتماعية، لأمكنه إدراك حسن ما تحكيه مفاهيم العدل والجور، والخير والشر، والصدق والكذب، والوفاء بالعهد ونقض العهد، وقبح أضدادها.

إنّ الشعور بالميل إلى الفضائل والنفور من الرذائل يعدّ من وجهة نظر القرآن إلهامًا إلهيا، حيث ورد فى القرآن الكريم ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ [سورة الشمس: ٧-٨]

وهذا الإلهام يشكل جوهر العطية التي وهبها البارى تعالى للإنسان، وقد أطلقت النصوص الاسلامية على مبدئها -الذى هو ذلك الشعور الخفى الذى يغرس فى ذات الإنسان ميلاً إلى القيم الأخلاقية- اسم" العقل»، وما تلك القيم الأخلاقية المتعددة إلاّ جنود له، يزاحمها ما للجهل من جنود.

إستخدام العقل فى نتيجة الإدراكات:

أ- معرفة الحقائق

تستعمل كلمة"العقل"فى النصوص الاسلامية فى المدركات العقلية ومعرفة الحقائق المتعلقة بالمبدأ والمعاد، وأبرز مثال على ذلك، هى الأحاديث التى تضع العقل جنبا إلى جنب مع الأنبياء وتصفه بالحجة الإلهية الباطنة، قال رسول الله ﷺ:"كن مع الحق حيث كان، وميّز ما اشتبه عليك بعقلك فإن حجة الله عليك وديعة فيك وبركاته عندك»[٨].

و عن الإمام الصادق عليه السلام:"حجة الله على العباد النبي، والحجة فيما بين العباد

(٨) كشف الخفاء: ج ٢ ص ١٣٥-٢٠٢٥، نقلا عن كتاب العقل والجهل.

وبين الله العقل»[٩].

ب- العمل بمقتضى العقل

العمل بمقتضى القوة العاقلة -من باب المبالغة مثل: زيد عدل -هو الاستخدام الآخر للعقل والشاهد على ذلك ما روي عن رسول الله ﷺ حيث قال:"العمل بطاعة الله، وإن العمال بطاعة الله هم العقلاء»[١٠]، كما أن استخدام الجهل يعنى العمل بمقتضى ما تمليه طبيعة الجهل.

العقل النظري والعقل العملي:-

هناك رأيان فى تفسير معنى العقل النظري والعقل العملي، إذ يذهب الرأي الأول إلى أن العقل هو مبدأ الإدراكات، ولايوجد فى هذا الصدد أي فارق بين العقل النظري والعملي، إنما الملاك فى اثنينيتها يكمن فى هدف المدرِك، فإذا كان الهدف من إدراك الشيء هو معرفته لا العمل به، يسمى مبدأ الإدراك حينئذ بالعقل النظري، من قبيل إدراك حقائق الوجود، أما إذا كان الهدف من الإدراك هو العمل، فيسمى مبدأ الإدراك عند ذلك بالعقل العملي، من قبيل معرفة حسن العدل وقبح الجور وما إلى ذلك.

و قد نسب هذا الرأي لمشاهير الفلاسفة ويمثل العقل العملي -و فقاً لهذا الرأي -مبدءًا للإدراك وليس محفزا أو دافعا.

و يذهب الرأي الثاني إلى القول بأن التفاوت بين العقل النظري والعملي؛ يرجع إلى أن العقل النظري مبدأ للدوافع والمحفزات، ومهمة العقل العملي هى تنفيذ مدركات العقل النظري. وأول من قال بهذا الرأي على الأشهر هو ابن سينا، ومن بعده قطب الدين الرازي صاحب"المحاكمات"، وأخيراً المحقق النراقي صاحب كتاب"جامع السعادات".

إنّ النظرية الأولى أقرب إلى معنى كلمة "العقل" والأصح هو تفسير العقل العملي بمبدأ الإدراكات والدوافع، وذلك لأنّ الشعور الذى يتعاطى مع القيم الأخلاقية والعملية هو مبدأ الإدراكات، وهو فى الوقت نفسه مبدأ للدفع والحفز. وقوة الإدراك هذه هى العنصر نفسه الذى

(٩) الكافى: ج١ ص ٢٥-٢٢.
(١٠) بحار الانوار، ج١ ص١٣١.

سميناه سابقا بالوجدان الأخلاقى وقد سمته النصوص الاسلامية بعقل الطبع وهو ما سنوضحه فيما يأتى:

عقل الطبع وعقل التجربة:

بدلاً من تقسيم العقل إلى نظري وعملي وضعت النصوص الاسلامية بين أيدينا تقسيما من نوع آخر، حيث قسمت العقل على "عقل طبع" و"عقل تجربة" أو"عقل مطبوع" و"عقل مسموع" إذ قال الإمام علي عليه السلام فى هذا الصدد: "العقل عقلان: عقل الطبع وعقل التجربة، وكلاهما يؤدى المنفعة»[11].

و مما يستدعى الانتباه فى هذا المجال هو ما رُوي عنه عليه السلام فيما يخص هذا التقسيم، إذ قال: "العلم علمان، مطبوع ومسموع، ولاينفع المسموع إذا لم يكن المطبوع»[12]، والسؤال الذى يتبادر إلى الذهن هو: ما العقل والعلم المطبوع؟ وبِم يختلف عن العقل والعلم المسموع؟ ولماذا لاينفع الإنسان عقل التجربة والعلم المسموع إذا لم يكن العقل والعلم المطبوع؟

و الجواب: الظاهر أن المراد من العقل والعلم المطبوع هو مجموعة المعارف التى أودعها الله سبحانه وتعالى فى طبيعة كل إنسان"العقل الفطري". وقد عبّر القرآن الكريم عن هذه المعارف الفطرية بإلهام الفجور والتقوى وهو ما يسمى بالوجدان الأخلاقى. حيث يعدّ الوجدان الأخلاقى أو عقل الطبع مبدءاً للإدراك والدوافع، ولو قدر له التواصى على أساس التعاليم التى جاء بها الأنبياء لأمكنه الوصول إلى طريق الكمال، أما إذا اضمحل تحت تأثير الأهواء والوساوس وتلوث بأدران النفس الأمارة بالسوء، فلا نفع لأية معرفة فى ايصاله إلى ما يصبو إليه.

مكانة العقل فى تحقق الإيمان:

إنّ التمعن فى عدد الآيات أو المرات التى انفردت بذكر البصيرة وهى الرؤية النفّاذة الحقيقية والتى تتقدم على البصر من حيث تفاعلها مع العقل حيث تم ذكرها فى (٥٤) آية، بينما البصر فى (٨) آيات والأبصار فى (٤٨) آية، يجعلك تدرك أن الإدراك الصحيح قائم على البصيرة. كما أن

(١١) بحار الأنوار، ج ٧٥ ص ٦.
(١٢) نفسه، ج١ ص ٢١٨.

الدعوة إلى الإسلام قد وجهت إلى الذين يعقلون فى (٤٨) آية على أنّ مظهر الإدراك وآثار التفكير هو القلب.

يظهر من خلال استقراء مفردات القرآن الكريم أن سبل المعرفة تعتمد أكثرها على الحواس، وبمقارنة العدد الكبير لتكرر المفردات فى السُبُل الحسية للمعرفة، مع العدد القليل لتكررها فى السبل الغيبية، يتجلى مدى تأكيد القرآن الكريم على الإستعمال السليم للحواس للوصول إلى العلم الحقيقى وفهمه. كما أن تقدير وتجليل القرآن الكريم للمعرفة والعلم يشهد له الذكر المتكرر لهما، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا﴾[سورة فاطر: ٢٨] وقال أيضا: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾[سورة المجادله: ١١].

عالمية القرآن

لقد تسانخت عالمية القرآن مع خلق الله تعالى الإنسان قادرًا على فهم هذا القرآن، وحقَّ له تعالى أن يحفظه بهذا الإعجاز فجعل إلهام الفجور والتقوى المعرفة نفسها، وجعل الإلهام متفرعًا على التسوية وهذه الخلقة المستوية والصحيحة هى القادرة على فهم الكتاب العزيز، وهى خلقة كل الناس. كما أنه تعالى يقول فى مقام عدم إمكان تصرف أحد فى الكتاب العزيز بتعريفه ﴿وَإِنَّهُۥ لَكِتَٰبٌ عَزِيزٌ ۝٤١ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾[سورة فصلت: ٤١-٤٢] ولتعزيز مدعانا نشير إلى مسألتين:

المسألة الأولى: دعوة القرآن جميع الناس للتدبر فى آياته.

المسألة الثانية: تحدي القرآن الإنس والجن بأن يأتوا بمثل هذا القرآن.

و لازم هاتين المسألتين كون القرآن الكريم مفهومًا لديهم غير مستعص عليهم، وإلا كيف يطلب منهم التدبر فى شيء لا يمكن فهمه. ثم إن المولى(عزوجل) أشار إلى النعم التى أنعم بها على الإنسان كما جاء فى سورة الرحمن فقال: ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝١ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ ۝٢ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ ۝٣ عَلَّمَهُ ٱلْبَيَانَ﴾[سورة الرحمن: ١-٤] فجعل نفسه المطلقة المعلم الأول لكتابه الكريم، وجعل التعليم فيضًا من هذه الرحمة حيث عقبه كلمة الرحمن، وجعله؛

أي التعليم أولاً وقبل كل شيء، والتعليم هاهنا خاص بجميع الناس. والتوضيح أجدر وأفضل الطرق لفهم هذا الكتاب العزيز فنقول إنّ أفضل الطرق طريقة العلامة الطباطبائي بتفسير القرآن بالقرآن. ومفاد هذه الطريقة أن يُتدبر فى القرآن ويُتفحص هذا الكتاب الكريم أوله إلى آخره لكي تجمع جميع الآيات التى تتحدث عن موضوع ما وتفحص علقتها القريبة والبعيدة حتى تتضع معالم الآية مورد تفسيرنا. ومرجع ادعائنا لأفضلية هذه الطريقة، أن القرآن الكريم هو تبيان كل شيء فلا يمكن أن لا يكون تبيانًا ونورًا لآياته!؟.

أساليب المعرفة فى القرآن الكريم:-

إنّ آيات القرآن تُظهر أنّه نزل ليخاطب قوم الرسول بلسانهم، وهذا يقتضى أن يخاطبهم بالأسلوب الفكري الذى يفهمونه. إذ يظهر من خلال استقراء الآيات القرآنية وجود أنماط وأساليب معرفية يمكننا جمعها تحت صنفين رئيسين:

النمط الأول: الغيبي بمختلف مستوياته من الوحي والإلهام والكهانة والسحر والشعر.

النمط الثاني: العقلي، بمختلف مراحله من البصر والنظر والتفكر.

أما الوحي فإنّه أسلوب معرفي تمارسه جهات متعددة منها الشياطين ﴿وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ وَإِنَّ الشَّيَاطِينَ لَيُوحُونَ إِلَىٰ أَوْلِيَائِهِمْ لِيُجَادِلُوكُمْ وَإِنْ أَطَعْتُمُوهُمْ إِنَّكُمْ لَمُشْرِكُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٢١] وكذلك البشر، غير أن الوحي الصادق هو ما ينزله الله تعالى على الأنبياء حصراً، علما بأن كلام الله نزل على الرسول ﷺ بالوحي، وأن وحي الله على الأنبياء ختم بما نزّل على خاتم النبيين. وأما الكهانة فقد ذكر كأسلوب للمعرفة ﴿وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الحاقة: ٤٢] غير أنه ليس وحيًا. بينما لم يُذكر الإلهام إلاّ فى آية واحدة فى قوله تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ [سورة الشمس: ٨]. وقد ذكر السحر فى (٧٠) آية، منها (٢٠) آية عن موسى وفرعون، وتسع عن اتهام المشركين الرسول ﷺ، بأن ما جاء به ﴿سِحْرٌ مُبِينٌ﴾ [سورة الاحقاف: ٧]، حيث قرن السحر بالجنون كى تكون

المعرفة منه غير صادقة. ومما عرفه العرب الشعر، وقد ذكرت خمس آيات في القرآن حوت اتهام المشركين النبي ﷺ بأنّه شاعر، وقد وصف القرآن "الشعراء" وفرق بين صالحهم وطالحهم في قوله تعالى: ﴿وَالشُّعَرَاءُ يَتَّبِعُهُمُ الْغَاوُونَ ﴿٢٢٤﴾ أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهِيمُونَ ﴿٢٢٥﴾ وَأَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لَا يَفْعَلُونَ﴾ [سورة الشعراء: ٢٢٤-٢٢٦].

والخلاصة أنّ ما ذكر من أساليب معرفية عدا الوحي الصادق، لا يحمل أهلية ايصال فاعل المعرفة إلى المعرفة الحقة اليقينية لذلك أنكرها القرآن الكريم.

أمّا الصنف الآخر من أساليب المعرفة فيرتكز على الإدراك الحسي، وتفعيل العقل السليم في تعقل هذه المدركات الحسية. إذ يظهر من آيات القرآن الكريم أنّ هذا الصنف هو الأساس في تأصيل العقيدة عند الناس وهدايتهم. فالدين الاسلامي يطلب إعمال الفكر والعمل بمقتضاه، فالعمل يظهر ظواهر التدين. ومن ثم كانت العقيدة القائمة على مرتكزات معرفية سليمة وعملية هي الأساس الأقوى، وقد ميزت آية من القرآن الكريم بين الإسلام الظاهري والايمان القلبي في قوله تعالى: ﴿قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُل لَّمْ تُؤْمِنُوا وَلَٰكِن قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾ [سورة الحجرات: ١٤].

العقل والقرآن توأمان فرق بينهما الجهل:-

١- مرحلة الإعجاب والتبادل:-

عند أول لقاء بين القرآن والعقل، بادر القرآن الكريم إلى بيان هوية العقل من خلال عبارة غزلية بليغة في سورة الأنعام فقال: ﴿أَوَمَن كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ كَمَن مَّثَلُهُ فِي الظُّلُمَاتِ لَيْسَ بِخَارِجٍ مِّنْهَا﴾ الآية ١٢٢. فهتف العقل ردًا على هذا الغزل الإلهي بقوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢].

٢- مرحلة التفاعل:-

أ- إعمال العقل فريضة دينية

إنّ خطاب القرآن للعقل على هذا

النسق المتلاحق المتدرج يدلّ على أن إعمال هذا العقل مناط التكليف. كما جاء في الحديث: "العقل نور يفرق بين الحق والباطل" وبه حقق الله الغاية من خلق الإنسان، فكان إعماله فريضة الفرائض.

ب- حماية العقل من المصادرة

لقد جهد القرآن الكريم في حماية العقل وهو يترقى به إلى قلّة الرشد المعرفي من عوامل مصادرة التقليد وهي:

ب-١/ سلطة الكهّان ورجال الدين: ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ ﴾[سورة التوبة: ٣١].

ب-٢/ سلطة التراث الموروث: ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ﴾[سورة الزخرف: ٢٣].

ب-٣/ سلطة النفوذ الفوقي: ﴿رَبَّنَا إِنَّا أَطَعْنَا سَادَتَنَا وَكُبَرَاءَنَا فَأَضَلُّونَا السَّبِيلَا﴾[سورة الأحزاب: ٦٧].

ب-٤/ سلطة الرفقة الرديئة: ﴿الْأَخِلَّاءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلَّا الْمُتَّقِينَ﴾ [سورة الزخرف:٦٧].

٣- حدود العقلانية في تأويل القرآن الكريم:

قال تعالى في سورة النحل: ﴿وَأَنزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [سورة النحل: ٤٤]. وقال أيضا: ﴿ وَمَا أَنزَلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ إِلَّا لِتُبَيِّنَ لَهُمُ الَّذِي اخْتَلَفُوا فِيهِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لِّقَوْمٍ يُؤْمِنُونَ ﴾[سورة النحل: ٦٤]. تتميز هذه الحدود في أنّه لايصح أن يؤوّل القرآن وفقا للآراء، فعلى المؤوّل توخي ذلك، والسعي جاهدًا في أن يفسر القرآن بالقرآن. وأن يلتفت بأن التأويل العيني لبعض الآيات لا يعلمها إلاّ الله.

٤- عقلانية اليوم تراث الغد:

بما أن القرآن الكريم يحوي الحقيقة المطلقة والفهم النسبي في آن واحد، وكونه خطاباً لكل البشرية إلى يوم القيامة. فهذا يعني أننا مخاطبون به خطابًا مباشرًا بالقدر نفسه الذي خوطب به من سبقنا ابتداء من العصر النبوي إلى يومنا هذا، بل بالقدر نفسه الذي سيخاطب به من يأتي بعدنا.

٥- مرحلة التطبيق:

إن النّص القرآني -في ما سوى

العبادات- ثابت اللفظ، متحرك المعنى بحسب الحاجة المشروعة التى يقررها العقل المعدّ للاستنباط. وهذا أمر أقره القرآن حين قال: ﴿وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنْبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾[سورة النساء: ٨٣]. وهم العلماء العقلانيون، الذين أوغلوا فى العلم والعمل بمقتضى القرآن الكريم ففتحت مناهله وأبوابه عليهم حتى وعوا بواطن ظواهر آياته.

الخطاب القرآنى للعقل:-

إنّ الخطاب القرآني للعقل لم يقتصر على ما يفهمه النفسانيون أصحاب العلوم المدنية من معان، بل فصّل في خطابها المستوعب لجميع وظائف الإنسان العقلية على اختلاف خصائصها. كما أنه تعمد التفرقة بين هذه الوظائف والخصائص فى مواطن الخطاب ومناسباته ليعم كل ما يتسع له الذهن الإنساني من خاصية أو وظيفة. فالقرآن الكريم مخاطب للعقل الغريزي المقابل للجنون والذى هو مدار التكليف، كما يخاطب العقل المكتسب المقابل للجهل الذى هو مناط التكريم.

فالعقل الغريزي هو ما كان مبتدئاً فى النفوس كالعلم بأن الشيء لا يخلو من وجود أو عدم، وأن الموجود لا يخلو من حدوث أو قدم، وأن من المحال اجتماع النقيضين وأن الواحد أقل من الإثنين. وهذا النوع من الادراك لا ينبغى أن ينتفى عن العاقل مع سلامة عقله، فإذا صار عالمًا بالمدركات الضرورية فهو عاقل عقلاً غريزياً منوطاً به التكليف الشرعي وهذا هو العقل الوازع، ومن هنا كان إشتقاقه من مادة"العقل"أو"عقل".

و من خطاب القرآن لهذا العقل الغريزي الوازع قوله تعالى ﴿وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ ۖ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [سورة الأنعام: ١٥١]، وقوله ﴿أَتَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنْسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾[سورة البقرة: ٤٤]، وقوله أيضا: ﴿وَإِذَا نَادَيْتُمْ إِلَى الصَّلَاةِ اتَّخَذُوهَا هُزُوًا وَلَعِبًا ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [سورة المائدة:٥٨]. ذلك العقل الغريزي الذى عناه النبي ﷺ بقوله: "ما خلق الله عزّوجلّ

خلقاً أكرم عليه من العقل".

أما العقل المكتسب فهو نتيجة العقل الغريزي الموصلة إلى منتهى المعرفة وصحة السياسة وإصابة الفكر وليس لذلك حد ينتهى إليه؛ لأنّه ينمو إن استُخدِم، ويفتر إن أهمل، ونماؤه يكون بكثرة الاستعمال إذا لم يعارضه مانع من هوى، ولا صاد من شهوة، ولا قامع من خوف. وهو مناط التكريم المتفاوت بتفاوت نسبة الإكتساب، وهو الذى عناه النبي ﷺ بقوله: "إزدد عقلاً تزدد من الله قربًا".

و الخطاب القرآنى يتدرج مع هذا العقل المكتسب تدرجاً علميًا وعمليًا على حد سواء فقال تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ﴾ [سورة المجادلة: ١١]. وهو يضع هذا العقل المكتسب -على اختلاف درجاته -تحت عنوان عام هو"اللّب"ويطلق على المتميزين به عنوان"أولو الألباب"وبذلك يتبين أن اللّب الذى يخاطبه القرآن الكريم هو عقل مكتسب وظيفته العقلية تحيط بالعقل المدرك، والعقل الحكيم، والعقل الرشيد. وهى عقول تتلقى الحكمة، وتتسلح بالذكر، وتتعظ بالذكرى، وخطابه خطاب لأناس عقلاء جدًا لهم نصيب وافر من الفهم والوعي أوفر بكثير من نصيب العقل الوازع الذى يكف صاحبه عن السوء ولا يرتقى إلى منزلة الرسوخ فى العقول والعلم والتمييز بين الطيب والخبيث، والحسن فالأحسن فى القول.

فأولوا الألباب هم الراسخون فى العلم كما عبر عن ذلك القرآن قائلاً: ﴿وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة آل عمران: ٧]، وهم خبراء التمحيص إذا ما نصبت ألويته كما قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ هَدَىٰهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمْ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة الزمر:١٨]. وهم أهل الحكمة معلموا الناس ومصلحوا الفساد، كما قال تعالى: ﴿يُؤْتِى ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِىَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة البقرة:٢٦٩]. وهم أهل العدل: ﴿وَلَكُمْ فِى ٱلْقِصَاصِ حَيَوٰةٌ يَٰٓأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة البقرة: ١٧٩]. وقد كرم الله أولوا الألباب تكريما لا نظير

له، حيث وعدهم الرفقة بجميع أهليهم يوم القيامة، ليكونوا فى درجته الرفيعة فى الجنة وإن لم يعملوا بعمله ما دام توحيدهم يؤهلهم لدخول الجنة، قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ [سورة الرعد :١٩]، ثم ذكر بعض سماتهم وخصائصهم حتى قال فيهم: ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [سورة الرعد: ٢٢-٢٤]. ثم يعدد درجات أنواع أولي الألباب، فمنهم المدركون ومنهم الحكماء فالعقل المدرك هو الذى يناط به الفهم والتصور والوعي، فهو عقل مفكر، ومتذكر ومتدبر ومبصر إلى ما هنالك من سائر الملكات الذهنية ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [سورة آل عمران: ١٩٠-١٩١]. وقال أيضا: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَٰلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٣]، كما قال تعالى: ﴿وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ [سورة البقرة: ٢٢١].

و أما العقل الرشيد فهو أرقى العقول مكانًا ومكانة، وأعلى خصائص العقل الإنساني ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْءَانًا عَجَبًا ﴿١﴾ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلرُّشْدِ فَـَٔامَنَّا بِهِۦ﴾[سورة الجن: ١-٢].

و وظيفة هذا العقل تعلو وظيفة العقل الوازع والمدرك والحكيم؛ لأن الرشد ابتغاء لجميع هذه الوظائف وعليها مزيد من النضج التام والتميز بميزة الرشاد. إذ قد يؤتى الحكيم من نقص فى الإدراك، وقد يؤتى صاحب العقل الوازع من نقص فى الحكمة، ولكن صاحب العقل الرشيد ينجو به رشاده من هذا وذاك، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ءَاتَيْنَآ إِبْرَٰهِيمَ رُشْدَهُۥ مِن قَبْلُ وَكُنَّا بِهِۦ عَٰلِمِينَ﴾[سورة الأنبياء: ٥١].

ثم جاء دور الرسول ﷺ ليشرح ما أوجزه القرآن الكريم فى مكانة العقل، فقال:"سَيِّدُ الْأَعْمالِ فِي الدَّارَيْنِ الْعَقْلُ وَ لِكُلِّ شَيْءٍ دِعَامَةٌ وَ دِعَامَةُ الْمُؤْمِنِ عَقْلُهُ

فَبِقَدْرِ عَقْلِهِ تَكُونُ عِبَادَتُهُ"(١٣). ومن هنا جاءت التفرقة على لسان رسول الله ﷺ بين العلماء الذين يستعملون عقولهم فى الإبتكار والإستنباط فمدحهم، وبين القرّاء الذين يستعملون ذاكرتهم لمجرد الحفظ والتلقي والتقليد، فذمهم وقال: "أكثر منافقى أمتى قراؤها"(١٤).

الطرق المنطقية لمواجهة أية فكرة أو نظرية فى القرآن الكريم

هناك ثلاث طرق ومتى أمكن نجاح احداها بطل مقابلها:

١- النقض:

يتم من خلال خرق كلية من كليات الخصم، بأن تجرى هذه الكلية فى بعض الموارد فلا تنتج النتيجة المطلوبة؛ وبهذا تسقط الكلية عن صلاحيتها للاستدلال مثلاً: ﴿ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا ﴾[سورة النساء: ٨٢]. فاللسان القرآني يقول: كل مطالب القرآن منسجمة ومتناسبة وهذا دليل على كونه من عند الله، وعليه يجب على الخصم أن يبحث عن مورد واحد فقط لا ينسجم فيه مطلب مع آخر، وهذا يكفى لإسقاط الدعوى وبما أنه لن يجد فلا مجال لدعواه أصلاً.

٢- المنع:

و هو عبارة عن زلزلة إحدى المقدمات، ومنعها بأن يقال مثلاً الصغرى فى الدليل ممنوعة، أو الكبرى، أو لا يوجد تلازم بين المقدم والتالي وغير ذلك، كقوله تعالى: ﴿ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُوا۟ وَلَن تَفْعَلُوا۟ فَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِى وَقُودُهَا ٱلنَّاسُ وَٱلْحِجَارَةُ ﴾[سورة البقرة: ٢٤]، هذه الآية تنطوى على قياس منطقى كالتالى:

لا يقدر أحد ولن يقدر على الاتيان بسورة ومن كان كذلك فليتق النار. فالخصم لو أراد إبطال هذا القياس يجب عليه أن يجد مانعاً يمنع جريان الصغرى يعنى "لن يقدر..." يكون ممنوعاً، وهذا أيضا كسابقه فى عدم جريانه على القرآن الكريم.

٣- المعارضة:

و هذا طريق ثالث يقوم على أساس الإتيان بدليل مستقل معارض تمامًا لدليل الخصم، وهذا الطريق أيضا كسابقيه.

(١٣) بحار الانوار / ج١ ص ٩٦.
(١٤) نفسه، ج ٨٩ ص١٨١.

وبانتفاء هذه الطرق الثلاث فلابد من الإنتقال إلى محاولة الزيادة أو النقصان فى القرآن الكريم وهذا لا يتم إلاّ بعد إحداث التحريف فيما وصل إلى النبي ﷺ قبل إبلاغه للناس، وهذا ما قد نُفى بالطائفة الأولى من بيان المراحل الثلاث وفى قوله تعالى: ﴿ وَإِن كَادُوا۟ لَيَفْتِنُونَكَ عَنِ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ لِتَفْتَرِىَ عَلَيْنَا غَيْرَهُۥ ۖ وَإِذًا لَّٱتَّخَذُوكَ خَلِيلًا ﴾[سورة الاسراء: ٧٣]. وبهذا يتضح لنا أن القرآن محفوظ بحفظ الله وبإعجازه، وهذا الاعجاز إعجاز فى الحدوث وإعجاز فى البقاء.

منهج العلامة الطباطبائى فى تفسير الميزان

لقد توخى العلامة الطباطبائي طريقة تفسير القرآن بالقرآن فى كتابه الميزان وزاد عليها بما أفاض الله عليه من معارف فلسفية ودينية. وقد إبتدأ طريقة منهجه فى التفسير بحديث للنبى ﷺ حيث قال:

«إذا التبست عليكم الفتن كقطع الليّل المظلم فعليكم بالقرآن فإنه شافع مشفع ومَاحِل مصدق، من جعله أمامه قاده إلى الجنة، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار، وهو الدليل يدل على خير سبيل، وهو كتاب تفصيل وبيان وتحصيل وهو الفصل ليس بالهزل، وله ظهر وبطن، فظاهره حكمة وباطنه علم، ظاهره أنيق وباطنه عميق، له نجوم وعلى نجومه نجوم، لاتحصى عجائبه ولاتبلى غرائبه فيه مصابيح الهدى ومنار الحكمة، ودليل على المعروف لمن عرف النصفة، فليرع رجل بصره، وليبلغ الصفة نظره ينجو من عطب ويخلص من نشب، فإن لتفكر حياة قلب البصير، كما يمشى المتسنير فى الظلمات بالنور، يحسن التخلص ويُقيل التربص»(١٥).

وقال علي عليه السلام: "ينطق بعضه ببعض ويشهد بعضه على بعض»(١٦).

و قد احترز العلامة فى كتابه "الميزان" على النكات الأدبية وبوّب كتابه بالمعارف التالية:

١- المعارف المتعلقة بأسماء الله تعالى وصفاته.

٢- المعارف المتعلقة بأفعاله تعالى

(١٥) الكافى/ ج٢/ ٥٩٨.
(١٦) نهج البلاغة ١٩٢.

من خلق، وأمر، وإرادة، ومشية، وهداية، و...

٣- المعارف المتعلقة بالوسائط الواقعة بينه وبين الإنسان، كالحجب واللوح والعرش و...

٤- المعارف المتعلقة بالإنسان قبل نشأة الدنيا.

٥- المعارف المتعلقة بالإنسان في الدنيا، كمعرفة تاريخ نوعه ونفسه والنبوة والرسالة.

٦- المعارف المتعلقة بالإنسان بعد حياته الدنيا، أي البرزخ والمعاد.

٧- المعارف المتعلقة بالأخلاق الإنسانية، ومن هذا الباب ما يتعلق بمقام الأولياء في صراط العبودية من الاسلام والايمان والاحسان والاخلاق والإخبات وغير ذلك.

و أما آيات الأحكام فقد اجتنب العلامة التفصيل فيها لرجوعها إلى الفقه، وقد استفاد من ذلك برفع التأويل أي الحمل على المعنى المخالف للظاهر من بين الآيات. وعزّز ذلك بأبحاث روائية فيها ما تيسر من الآيات المنقول تفسيرها عن النبي وآله صلى الله عليهم أجمعين.

منهج الشيخ جوادي آملي في التفسير: زيادة على تعمق الشيخ (حفظه الله) في البحث العقلي والفلسفي كونه من أساتذه الحكمة المتعالية، والعرفان في الحوزة العلمية، فإنه يتمتع بقدرة عالية عقلية في مقام المناقشة خصوصاً مع الفخر الرازي (رحمه الله) الذي يحاول أن يستظهر من الآيات الكريمة مسألة الجبر من خلال النقاش والبحث العقلي. وبحكم فطانة العقل لديه فإنه انتهج نهج أستاذه العلامة الطباطبائي في التفسير، ورأيه في المحكم والمتشابه أيضا. حيث يرى أنّ أفضل طريقة لتفسير القرآن الكريم سواء كان على مستوى التفسير الموضوعي أم التجزيئي هي طريقة تفسير القرآن بالقرآن؛ وقد بينها وأقام الدليل عليها في دروس مقدمات التفسير.

دلائل قرآنية على استعمال المنهج العقلي:

إلى ذلك يشير قوله تعالى: ﴿وَقُضِيَ بَيْنَهُم بِالْحَقِّ وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ ﴿٦٩﴾ وَوُفِّيَتْ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ وَهُوَ أَعْلَمُ بِمَا يَفْعَلُونَ﴾

[سورة الزمر: ٦٩-٧٠]. فقوله، وهو أعلم بما يفعلون، يدل ويشعر بأنّ وفاة كل نفس أو توفيها إنّما يقوم وفقا لما يعلمه الله سبحانه وتعالى، ويحاسب عليه من أفعال، لا على حسب ما يحاسبه العباد من عند أنفسهم عن غير علم ولاعقل، فإن الله قد سلب عنهم العقل فى الدنيا حينما هيأوا أرضية ذلك حيث قال تعالى حكاية عن أصحاب السعير ﴿لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ [سورة الملك: ١٠]. وفى الآخرة أيضا حيث قال: ﴿وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِ أَعْمَىٰ فَهُوَ فِي الْآخِرَةِ أَعْمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلًا﴾ [سورة الاسراء: ٧٢]، وقال أيضا: ﴿نَارُ اللَّهِ الْمُوقَدَةُ ۝٦ الَّتِي تَطَّلِعُ عَلَى الْأَفْئِدَةِ﴾ [سورة الهمزة:٦- ٧] وقال أيضا فى تصديق هذا السلب: ﴿قَالَتْ أُخْرَاهُمْ لِأُولَاهُمْ رَبَّنَا هَٰؤُلَاءِ أَضَلُّونَا فَآتِهِمْ عَذَابًا ضِعْفًا مِّنَ النَّارِ قَالَ لِكُلٍّ ضِعْفٌ وَلَٰكِن لَّا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة الأعراف:٣٨] فأثبت لكل من المتبوعين وتابعيهم الضعف من العذاب.

فإن قلت: ظاهر الآيات التى تسلب العلم عن المجرمين فى الدنيا والآخرة ينافى آيات أخر تثبت لهم العلم كقوله تعالى: ﴿كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ [سورة فصلت: ٣]، وكالآيات التى تحتج عليهم إذ لا معنى للإحتجاج عليهم؛ أي من باب (السالبة بانتفاء المحمول)، على أن هذه الآيات نفسها مشتملة على أقسام من الإحتجاج عليهم فى الآخرة ولا مناص من اثبات العقل والإدراك لهم فيها، على أن ههنا آيات تثبت لهم العلم واليقين فى خصوص الآخرة كقوله تعالى: ﴿لَقَدْ كُنتَ فِي غَفْلَةٍ مِّنْ هَٰذَا فَكَشَفْنَا عَنكَ غِطَاءَكَ فَبَصَرُكَ الْيَوْمَ حَدِيدٌ﴾[سورة ق: ٢٢] وقوله تعالى: ﴿وَلَوْ تَرَىٰ إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُوا رُءُوسِهِمْ عِندَ رَبِّهِمْ رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: ١٢].

قلت: مرجع نفي العلم عنهم فى الدنيا نفي اتباع ما عندهم من العلم، ومعنى نفيه عنهم فى الآخرة لزوم ماجروا عليه من الجهالة فى الدنيا لهم حين البعث، وعدم انفكاك الأعمال عنهم، كما قال تعالى: ﴿وَكُلَّ إِنسَانٍ

أَلْزَمْنَٰهُ طَٰٓئِرَهُۥ فِى عُنُقِهِۦ ۖ وَنُخْرِجُ لَهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ كِتَٰبًا يَلْقَىٰهُ مَنشُورًا﴾ [سورة الاسراء: ١٣]؛ وقوله: ﴿قِيلَ ٱدْخُلِ ٱلْجَنَّةَ ۖ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى وَجَعَلَنِى مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [سورة يس: ٢٧-٢٨]؛ وقوله أيضا: ﴿قَالَ يَٰلَيْتَ بَيْنِى وَبَيْنَكَ بُعْدَ ٱلْمَشْرِقَيْنِ فَبِئْسَ ٱلْقَرِينُ﴾ [سورة الزخرف: ٣٨].

و قد أجاب الإمام الغزالي عن الإشكال القائم على إنتقال الأعمال بجواب آخر ذكره فى بعض رسائله فقال ما حاصله:

إن نقل الحسنات والسيئات بسبب الظلم واقع فى الدنيا وقت جريان الظلم لكن ينكشف ذلك يوم القيامة، فيرى الظالم مثلاً طاعات نفسه فى ديوان غيره، ولم تنقل فى ذلك الوقت بل فى الدنيا كما قال تعالى:«لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ لِلَّهِ الْواحِدِ الْقَهّارِ»، يعنى أخبر عن ثبوت الملك له تعالى فى الآخرة وهو لم يحدث له هناك بل هو مالك دائما إلاّ أنّ حقيقته تنكشف يوم القيامة، وما لا يعمله الإنسان فليس موجدًا له وإن كان موجودًا فى نفسه، فإذا عمله صار موجودًا له كأنه وجد الآن فى حقه.

فقد سقط بهذا القول قول القائل: كيف ينقل المعدوم؟ فنقول: المنقول ثواب الطاعة لا الطاعة نفسها، ولكن لما كانت الطاعة مرادة لثوابها عبّر عن نقل أثرها بنقل نفسها، وأثر الطاعة ليس أمرًا خارجاً عن الإنسان لاحقاً به حتى يُشكل بأنّه نقله فى الدنيا من قبيل انتقال العَرَضِ المحال، ونقله فى الآخرة من قبيل إعادة المعدوم الممتنعة، وإن كان جوهرًا فما هذا الجوهر؟! بل المراد بأثر الطاعة، أثره فى القلب بالتنوير فإن للطاعات تأثيرا فى القلب بالتنوير وللمعاصى تأثير فيه بالقسوة والظلمة، وبين آثار الطاعات والمعاصى تعاقب وتضاد كما قال تعالى: "إن الحسنات يذهبن السيئات "وقال النبيﷺ: "اتبع السيئة الحسنة تمحها" وقال عليؑ: "الحدود كفارات للذنوب أو الحدود كفارات".

و هناك دلائل أخرى تذعن للعقل وتجعله رائدًا فى استنباط المعنى كما فى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ

يُدۡرِكُ ٱلۡأَبۡصَٰرَ وَهُوَ ٱللَّطِيفُ ٱلۡخَبِيرُ﴾ [سورة الأنعام: ١٠٣].

إنّ عبارة"لاتدركه الأبصار"لوكان المراد ادراك الإحاطة والحضور التام فهو واضح إذ المحيط لا يصير محاطاً؛ والمعلول له حظ الوجود، والشهود على مقدار قصعته لا أزيد ولو كان المراد مطلق الادراك فالمراد الأبصار المادية التى لها وضع خاص، وتكون محاذية لبعض الأشياء دون بعض، وعدم ادراك تلك الأبصار له تعالى أمر عقلي، والحكم العقلي غير قابل للتخصيص.

فالقول بأنّ هذه القضية مخصّصة برؤية المؤمنين اياه فى الآخرة، لقوله تعالى:"وُجُوهٌ يوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ إلى رَبِّها ناظِرَةٌ"فى غير محله؛ لأنّ النظر لا ينحصر فى النظر بالعين الجسمانية، وكذلك الوجه وما يستفاد من كلمة"إلى"لا يكون خصوص ما كان المنتهى إليه النظر أمرًا إمكانيًا، والبطلان على الإمتناع بعد بطلان القول بالجسمية وبطلان كون الله فى مكان على وضع لا يمكن أن يكون فعله أعلى منه، وكونه مجردًا من المكان والوضع والمحاذاة. إذ المعلول يكون أعلى من علته، فالرؤية تستحيل أن لا تكون فى غير المكان وعلى الوضع الخاص والتحاذى. وتوهُم أن الإنسان يرى نفسه بسبب المرآة، ولاوضع خاص ولا محاذاة بينه وبين نفسه حينها كما صدر عن الغزّالي مدفوع؛ بأن المحاذاة قد حصلت بسبب المرآة إذ الشعاع يصل إلى المرآة ولا ينفذ منها فتردّه، فيقع عليك.

وقوله :"وهو يدرك الأبصار"يشير إلى حضور تمام العوالم عنده، ومن جملتها"عالم الكيان، والإبصار من أجزائه". كما قال تعالى: ﴿قَدۡ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمۡ﴾[سورة الأنعام: ١٠٤]؛ أي النوريات الحاصلة للعقول بسبب ادراك البراهين واستجلاء المجاهيل.

التحذير من ترك التعقل:

قال تعالى: ﴿وَلَقَدۡ ذَرَأۡنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِۖ لَهُمۡ قُلُوبٞ لَّا يَفۡقَهُونَ بِهَا وَلَهُمۡ أَعۡيُنٞ لَّا يُبۡصِرُونَ بِهَا وَلَهُمۡ ءَاذَانٞ لَّا يَسۡمَعُونَ بِهَآۚ أُوْلَٰٓئِكَ كَٱلۡأَنۡعَٰمِ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡغَٰفِلُونَ﴾[سورة الأعراف: ١٧٩].و قال أيضًا: ﴿وَيَجۡعَلُ ٱلرِّجۡسَ

عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَعۡقِلُونَ ﴾[سورة يونس: ١٠٠] ؛ ﴿ وَمَن كَانَ فِي هَٰذِهِۦٓ أَعۡمَىٰ فَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ أَعۡمَىٰ وَأَضَلُّ سَبِيلٗا﴾ [سورة الاسراء: ٧٢]؛ ﴿أَمۡ تَحۡسَبُ أَنَّ أَكۡثَرَهُمۡ يَسۡمَعُونَ أَوۡ يَعۡقِلُونَۚ إِنۡ هُمۡ إِلَّا كَٱلۡأَنۡعَٰمِۖ بَلۡ هُمۡ أَضَلُّ سَبِيلًا ﴾[سورة الفرقان: ٤٤]؛ ﴿أُفٖ لَّكُمۡ وَلِمَا تَعۡبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِۖ أَفَلَا تَعۡقِلُونَ ﴾[سورة الأنبياء: ٦٧]؛ ﴿وَقَالُواْ لَوۡ كُنَّا نَسۡمَعُ أَوۡ نَعۡقِلُ مَا كُنَّا فِيٓ أَصۡحَٰبِ ٱلسَّعِيرِ﴾ [سورة الملك: ١٠].

كما قال رسول الله ﷺ:

"استرشدوا العقل ترشدوا، ولاتعصوه فتندموا»[١٧].

و قال الإمام علي عليه السلام:

"من عجز عن حاضر لبّه، فهو عن غائبة أعجز»[١٨].

وعنه عليه السلام:"العاقل يتعظ بالأدب، والبهائم لاتردع إلاّ بالضرب»[١٩]، وعنه أيضا:"إنّ الزهد فى الجهل بقدر الرغبة فى العقل»[٢٠]؛"من قعد به العقل قام به الجهل»[٢١]؛"نعوذ بالله من سبات العقل وقبح الزّلل»[٢٢].

الآثار النورانية للعقل

١- معرفة العلم والحكمة:

٢- قال تعالى: ﴿يُؤۡتِي ٱلۡحِكۡمَةَ مَن يَشَآءُۚ وَمَن يُؤۡتَ ٱلۡحِكۡمَةَ فَقَدۡ أُوتِيَ خَيۡرٗا كَثِيرٗاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾ [سورة البقرة: ٢٦٩]؛ ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكۡرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُۥ قَلۡبٌ أَوۡ أَلۡقَى ٱلسَّمۡعَ وَهُوَ شَهِيدٞ ﴾[سورة ق: ٣٧].

قال الإمام علي عليه السلام:"العقل والعلم مقرونان فى قرن لا يفترقان ولا يتباينان»[٢٣].

وعنه أيضا:«من عقل فهم»[٢٤]؛«العلم عنوان العقل»[٢٥]؛ «الحكمة روضة العقلاء ونزهة النبلاء»[٢٦]؛ "من ملك

(١٧) غرر الحكم: ٨٢٠٩/ ١٠٣٥٢/ ٣٤٤٤/ ٨٧٠١.
(١٨) المصدر نفسه.
(١٩) المصدر نفسه.
(٢٠) المصدر نفسه.
(٢١) المصدر نفسه.
(٢٢) نهج البلاغه، الخطبة ٢٢٤.
(٢٣) غرر الحكم: ١٧٨٣/ ٧٦٤٤/ ٨٢٨/ ١٧١٥/ ٨٢٨٢.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) المصدر نفسه.
(٢٦) المصدر نفسه.

عقله كان حكيما»[٢٧].

٢- معرفة الله:

قال رسول الله ﷺ:"قسّم الله تعالى العقل ثلاثة أجزاء، فمن كنّ فيه كمل عقله، ومن لم يكنّ فيه فلا عقل له، حسن المعرفة بالله، وحسن الطاعة له، وحسن الصبر على أمره (عزّوجلّ)».[٢٨] وقال الإمام الرضا عليه السلام:"بالعقول يعتقد التصديق بالله»[٢٩].

٣- الديـــن:

قال رسول الله ﷺ:"لا دين لمن لا عقل له»[٣٠].

و قال الإمام علي عليه السلام:"ما آمن المؤمن حتى عقل»[٣١]؛"الدين والأدب نتيجة العقل»[٣٢]. وعن الإمام الصادق عليه السلام:"من كان عاقلاً كان له دين، ومن كان له دين دخل الجنة»[٣٣]. كما جاء في توراة موسى عليه السلام:"لا عقل كالدين»[٣٤].

٤- مكارم الأخلاق:

عن رسول الله ﷺ قال:"حسن الأدب دليل على صحة العقل»[٣٥].

و عـن الإمـــام أمـير المـومـنين علي عليه السلام:"أفضل العقل الأدب»[٣٦]؛ "لكل شيء زكاة، وزكاة العقل احتمال الجهال»[٣٧]؛ "إنّ أصل العقل العفاف، وثمرته البراءة من الآثام»[٣٨].

و عن الإمام الصادق عليه السلام:"مجادلة الناس، ثلث العقل»[٣٩].

٥- محاسن الأعمال:

قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿١٩﴾ الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾ [سورة الرعد: ١٩]. و لما سئل النبي ﷺ عن العقل قال:"العمل بطاعة الله، وإن العمّال بطاعة الله هم

(٢٧) المصدر نفسه.
(٢٨) تيسر المطالب: ١٤٨ نقلا عن كتاب العقل في الكتاب والسنة.
(٢٩) تحف العقول ص ٦٦.
(٣٠) تحف العقول، ٥٤.
(٣١) غرر الحكم/ ٩٥٥٣/ ١٦٩٣.
(٣٢) المصدر نفسه.
(٣٣) الكافي، ج ١ ص ١١-٦.
(٣٤) ارشاد القلوب، ٧٤.
(٣٥) ارشاد القلوب، ١٩٩.
(٣٦) غرر الحكم، ٢٩٤٧.
(٣٧) غرر الحكم/ ٧٣٠١.
(٣٨) بحار الأنوار، ج٧٥ ص ٧.
(٣٩) الكافي: ج ٢/ ٦٤٣/ ٢.

العقلاء»[٤٠]. وعن جابر بن عبدالله أن النبي ﷺ تلا هذه الآية: ﴿وَتِلْكَ ٱلْأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ ۖ وَمَا يَعْقِلُهَآ إِلَّا ٱلْعَٰلِمُونَ﴾ قال: العالم الذى عقل عن الله (عزّوجلّ)

فعمل بطاعته واجتنب سخطه»[٤١].

و عن الإمام علي عليه السلام:

«من كمل عقله حسن عمله»[٤٢]؛"من قوّم لسانه زان عقله»[٤٣].

٦- إختيار الأصلح:

عن الإمام علي عليه السلام:«من لم يعرف الخير من الشر فهو بمنزلة البهيمة»[٤٤]؛ «ليس العاقل من يعرف الخير من الشر، ولكن العاقل من يعرف خير الشرّين»[٤٥].

٧- حسن التدبير:

قال رسول الله ﷺ فى وصية لعلي عليه السلام:«لاعقل كالتدبير»[٤٦].

و عن الإمام علي عليه السلام:«أدل شيء على غزارة العقل حسن التدبير»[٤٧]؛

و عنه عليه السلام:«من العقل مجانبة التبذير وحسن التدبير»[٤٨].

٨- الزهد فى الدنيا:

عن الإمام علي عليه السلام:

«حد العقل الإنفصال عن الفاني والإتصال بالباقي»[٤٩]؛ «فضيلة العقل الزّهادة»[٥٠]؛ «ردع النفس عن زخارف الدنيا ثمرة العقل»[٥١]؛ «من عقل قنع»[٥٢].

٩- التزوّد للآخرة:

قال رسول الله ﷺ فى خطبة له يوم الجمعة:"ألا وإن من علامات العقل التجافي عن دار الغرور، والإنابة إلى دار

(٤٠) بحار الأنوار، ج١ ص ١٣١

(٤١) تيسير المطالب، ٤، نقلا عن كتاب العقل فى الكتاب والسنة.

(٤٢) بحار الأنوار، ج١ ص ٨٧.

(٤٣) غرر الحكم/ ٨٣٨١.

(٤٤) الكافى، ج ٨/ ٢٤/ ٤.

(٤٥) بحار الأنوار، ج٧٥ ص ٦.

(٤٦) معانى الأخبار، ج١/ ٣٣٥، نقلا عن كتاب العقل فى الكتاب والسنة.

(٤٧) غرر الحكم، ٣١٥/ ٩٣٣٠.

(٤٨) المصدر نفسه.

(٤٩) نفس المصدر، ٤٩٠٥/ ٦٥٦٠/ ٥٣٩٩/ ٧٧٢٤.

(٥٠) المصدر نفسه.

(٥١) المصدر نفسه.

(٥٢) المصدر نفسه.

الخلود، والتزود لسكنى القبور، والتأهب ليوم النشور»[٥٣].

و عن الإمام علي عليه السلام: "من العقل التزود ليوم المعاد»[٥٤].

وعن الإمام الكاظم عليه السلام: "إنّ العاقل نظر إلى الدنيا وإلى أهلها فعلم أنها لاتنال إلا بالمشقة، ونظر إلى الآخرة فعلم أنها لاتنال إلا بالمشقة، فطلب بالمشقة أبقاهما»[٥٥].

(٥٣) إرشاد القلوب، ٤٥.

(٥٤) غرر الحكم، ٩٣٧١.

(٥٥) الكافي، ج١/١٨/١٢، عن هشام بن الحكم.

المصادر

١- القرآن والعقل تفسير بديع فى أسلوبه، العلامة الكبير الحاج محمد العراقى/ تحقيق حاج محمد حسين كوشنپوره، نشر مؤسسة الثقافة الاسلامية، قم المقدسة.

٢- العقل والجهل فى الكتاب والسنة، محمد الريشهرى، تحقيق وترجمة دار الحديث للطباعة والنشر، نشر دار الحديث للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، ١٤٢١ق -٢٠٠٠م.

٣- الميزان فى تفسير القرآن، العلامة السيد محمد حسين الطباطبائى، الطبعة السادسة، قم المقدسة، مؤسسة النشر الاسلامي لجماعة المدرسين بقم، ١٤٢١ق.

٤- مكانة العقل فى الفكر العربي، مجموعة من المؤلفين، الطبعة الثانية، بيروت، لبنان، مركز دراسات الوحدة العربية، يوليو ١٩٩٨م.

٥- غرر الحكم ودرر الكلم، محمد على الأنصارى، قم المقدسة، دار الكتاب.

٦- الكافي، الشيخ الكليني، الطبعة الثانية ١٣٦٢ش، الدار الاسلامية، طهران.

٧- نهج البلاغة، الشريف الرضي، دار الهجرة، الطبعة الأولى ١٤١٤ ق، قم

٨- إرشاد القلوب إلى الصواب، شيخ حسن ديلمى، دار نشر الشريف الرضى، الطبعة الأولى ١٤١٢ ق، قم.

٩- تحف العقول عن آل الرسول ﷺ، ابن شعبة البحراني، جامعه المدرسين، الطبعة الثانية ١٤٠٤هـ

١٠-بحار الأنوار الجامعة لدرر أخبار الأئمة الأطهار، العلامة المجلسي، الطبعة مكررة، الدار الاسلامية (طهران)

ملخص البحث

العدول أو (الإنزياح) أو (الانحراف) بالسياق القرآني من الناحية اللغوية أو البلاغية أو النقدية ، هو موضوع هذا البحث المعمق في طرحه والذي يعرض لاراء كثير من العلماء العرب المسلمين ونقاد الأدب من الاجانب الذين يرون انه خرق لمقاييس اللغة والنقد البلاغي أو الذين اتخذوا منه هدفا لطعنهم وتشكيكهم باعجاز القرآن الكريم.

وقد ردّ السيد الباحث على تخرصاتهم رداً علمياً من خلال أقوال اللغويين الغربيين انفسهم وليس رداً عاطفيا أو انفعاليا كردّ بعض المسلمين من الغيارى على سمعة القرآن الكريم واسلوبه المعجز.

لقد اتخذ السيد الباحث للبحث منهجاً نأى فيه عن خلط المستويات اللغوية بالنص القرآني. ولا سيما أن بعض الدارسين المعاصرين يرى أن اللهجات تجعل اللغة العربية غير منسجمة مما يؤثر من المواقف القرآنية التي تنفي ان يكون العدول فيها من العيوب البلاغية أو اللغوية التي يعاب عليها كتاب الله المعجز .

العدول في النصّ القرآني بين الأسلوبية المعاصرة والنظام اللغوي للقرآن الكريم

ا.د. حسن منديل حسن العكيلي
كلية التربية للبنات - جامعة بغداد

المقدمة:

الحمد لله الذي شرفني بدراسة لغة القرآن. والصلاة والسلام على سيد الأنام محمد، القائل، (أعوذ بالله من علم لا ينفع). اللهم انا نسألك علما نافعاً ويقينا صادقا، ولا تجعلنا نتشاغل بعلم لا ينفع، أو لا يرضيك. وعلى آله الطيبين الطاهرين وصحبه المنتجبين وسلّم تسليماً كثيراً وبعدُ...

فهل تصلح أطروحات علم اللغة الحديث ونظرياته من حداثة وما بعد الحداثة والاسلوبية الحديثة والمناهج النقدية الحديثة درساً وتحليلاً وتطبيقاً على النصّ القرآني كما هي من غير اعتبار لخصوصية النصّ القرآني ونظامه الذي ينأى عن أنظمة اللغات الغربية ولاسيما الإنجليزية والفرنسية وغيرهما مما كانت ميداناً ومرتكزاً وتطبيقاً للاسلوبية، ناهيك عن الأهداف والغايات التي سعت إليها، ولاسيما موقفها من العدول النحوي والاسلوبي، أو الانزياحات، والأنموذج المعيار لتلك الانزياحات.

انّ مناهج الدراسات اللغوية والنقدية والاسلوبية الحديثة كثيرة ومتشعبة لا يمكن الاحاطة الكاملة بها وبتفاصيلها ودقائقها[1] أو تطبيقها كما هي تطبيقا تقليدياً على النص القرآني، وليس من وكدنا ذلك بقدر الإطلاع عليها وفهمها والاستفادة مما يصلح

(١) علم الاسلوب، فضل ٧.

منها لدراسة النصّ القرآني والعدول في نظامه التركيبي، وانتخاب ما يلائمه من نظريات الاسلوبية العامة ومناهجها كونها تطبيقاً ألسنياً على الأدب او اللغة الإبداعية. والتركيز على أهمية الاتجاه اللساني في دراسة لغة الأدب لا التناول الأدبي والنقدي الفلسفي في ضوء علوم مختلفة.ولا نكرر ما يملأ كتب النقد الأدبي وعلم اللغة الحديث والاسلوبية، ونركز على ما له صلة بالدلالة وظلالها التي تسمى بالمعاني الثانية وهي دلالات فنية إبداعية لا تؤديها اللغة المباشرة التي أطلق عليها المعاصرون: اللغة النفعية الايصالية او المثالية.

إذن ثمة مشكل في التناول الاسلوبي ومحاذير ينبغي الوقوف عليها فضلاً عن علمانية الاسلوبية وارتباطها بالفكر الغربي المادي او الديني على وفق العقيدة المسيحية او العلمانية، التي تتقاطع مع الجانب الروحي للنصّ القرآني والنظرة القدسية له وللغة العربية.

المبحث الأول

الأسلوب والأسلوبية

- الأسلوب Stylistic :

- الأسلوب سمة شخصية لا يمكن أخذه ولا نقله ولا تعديله، بوصفه خاصية في الأداء اللغوي لا يمكن تكرارها، فالاسلوب مرتبط بمبدعه بل هو نفسه وبعضهم ربط بين الاسلوب والعبقرية ورصده من خلال اللفظ والعبارة والفقرة او القطعة المكتملة ومنهم من يرى استقلالية النصّ عن مبدعه، وآخرون يربطونه بالمتلقي، وان المبدع يحاول تلوين اسلوبه بحسب المتلقي وغايته التأثير فيه[٢]. ويكادون يتفقون على ان الاسلوب سلسلة من المنبهات والاستجابات ينبغي التركيز عليها بوصفها انحرافاً عن القاعدة[٣].

لكنهم لم يتفقوا على تعريف معيَّن. لذلك قالوا: "إنّ تعريفاً محدداً للاسلوب لمّا نصلْ إليه لذا نلجأ الى التقريب"[٤].

(٢) البلاغة الاسلوبية ١٦١، ١٦٤-١٦٩.
(٣) المصدر نفسه ١٤٧.
(٤) من قضايا اللغة والنقد والبلاغة ١٠٤.

فمن تعاريفات الاسلوب هو"النمط الذي يتبعه المنشيء في استخدام اللغة على نحو خاص لأداء ما يقصد إليه من تصوير واقتصاد"ونعني بالنمط اختيار الألفاظ بأعيانها وطريقة تركيبها بعضها مع بعض على النحو الذي يشاؤه المنشيء، يستتبع ذلك تصويراً وتأثيراً خاصين، بحيث لا يتفق شخصان على الاسلوب تمام الاتفاق في نقل فكرة ما، أي أن الاسلوب هو الرجل نفسه فلا يتطابق بين رجلين ولو كانا توأمين[٥].

"الاسلوب هو طريقة الأداء للمعاني باللغة بتتبع اللغة والأصوات في هيئة الألفاظ والتراكيب في الصورة النفسية للمعنى بجزئياتها كما تُتَصَوَّر داخل النفس"وهو اختيار الكلمات ووضع الجمل على نحو خاص[٦].

ولدى (الشايب) ورواد النقد، إنه طريقة يستعملها الكاتب في التعبير عن موقفه والإبانة عن الشخصية الأدبية المتميزة عن سواها ولاسيما في اختيار المفردات وصياغة العبارات والتشابه والإيقاع[٧].

لذلك قالوا: اسلوب الناس شبيه بحياتهم، وتبعاً للتقاليد المتوارثة، والأساليب من حيث الشكل والمضمون مختلفة، فمنها السهل الواضح، والمزخرف، والمعتدل، والاسلوب التجريدي وهو الذي يعبر عن الأفكار عوضاً عن الأشياء الحسية والمشاهد والأشخاص[٨].

والاسلوب"طريقة للتعبير عن الفكر بوساطة اللغة"[٩] وبعضهم يراه فن الاختيار الواعي لأدوات التعبير.

ولكثرة تعريفات الاسلوب والاسلوبية هجر بعضهم هذا الاصطلاح، فقد تنوع مفهوم الاسلوب بحسب المناهج المختلفة واللغويين وكبار النقاد وبحسب التأثر بالفلسفات والعلوم: علم النفس، الألسنية، النقد، علم الجمال، علم الاجتماع، علم النفس وغيرها. وبحسب المخاطِب والمخاطَب والخطاب[١٠].

(٥) المصدر نفسه ١١٤-١١٥.
(٦) المصدر نفسه.
(٧) الاسلوب، الشايب ٥.
(٨) نفسه ١٢٠.
(٩) الاسلوب والاسلوبية ١١، ومعجم المصطلحات الادبية المعاصرة ١١٤.
(١٠) الاسلوب والاسلوبية ١٠.

وتنوع المفهوم العصري لعلم الاسلوب فشمل كل ما يتعلق باللغة من أصوات وصيغ وكلمات، وتراكيب، وتداخل مع علم الأصوات والصرف والدلالات والتراكيب والألفاظ. للإبانة عن الخواطر والانفعالات والصور وبلوغ أقصى درجات التأثير الفني[١١].

وبعضهم يرى: أن الاسلوب خارج عن مستويات اللغة الصوتي والصرفي والنحوي أي الشكل وهو ظاهرة ذات أصل فردي[١٢].

وثمة تعاريف أخرى كثيرة لم تسلم من نقد وغموض وتقاطع[١٣]: ولسنا ملزمين بها كلها او احدها بل بحسب الموضوع والهدف وخصوصية النص الذي ندرسه. قال باحث معاصر:"إن الاسلوب مفهوم عائم، فهو وجه بسيط للملفوظ تارة، وهو فن واع من فنون الكاتب تارة أخرى. وهو تعبير عن طبيعة الإنسان تارة ثالثة، لذا فهو يتعدى دائماً الحدود التي يدعى بأنه انغلق عليها..."[١٤].

وقال آخر: "لا يمكن هنا الادعاء بوجود مفهوم واحد للاسلوب كما لا يمكن القول بوجود طريقة واحدة لدراسته بل إن التعدد كائن في البنية المفهومية، كما هو كائن في القراءات التحليلية، ولعل ذلك راجع الى تعدد المداخل نفسها إذ هي تتكئ أحيانا على الجانب العاطفي، وعلى الجانب العقلي أحياناً، وتبتعد عن هذا وذاك أحياناً أخرى لتبدأ من منطقة محايدة..."[١٥].

و أنكر جراي شيئاً اسمه الاسلوب ذلك أنها كلمة (تطلق في حقيقة الأمر على شيء بلا صفات خاصة، لم يقم دليل ما على وجوده مطلقاً وإنما نسب إليه خواص تنتمي الى نظم أخرى مما جعل هذه الخواص المزعومة تتراكم وتتناقض...".

ويرى "أن فكرة الاسلوب نفسها عائق في سبيل التقدم العلمي في فهم الأدب ونقده إذ لا يمكن التدليل المعملي على وجوده ولإقامة البرهان العلمي على جدواه"[١٦].

(١١) المعجم الادبي ٢١.
(١٢) علو الأسلوب ١١.
(١٣) الأسلوبية والأسلوب ١٢.
(١٤) الاسلوبية/ جيرو ٤٧.
(١٥) قضايا الحداثة ٥.
(١٦) علم الاسلوب مبادؤه واجراءاته ٩٤.

وبعضهم يرى الاسلوب زينة وجملة محسنات بديعية من جناسات وطباقات وما شابه ولاسيما لدى القدامى[١٧].

- الأسلوبية: Stylistique :

الأسلوبية علم حديث تأسست قواعدها لدى بالي سنة ١٩٠٢ مستفيداً من استاذه سوسير الذي أرسى الألسنية الحديثة[١٨]. فالاسلوبية الأولى لسانية عند بالي ثم تطورت واتجهت اتجاهات مختلفة، ثم أصبحت تعني الانزياح لكنهم لم يتفقوا على معيار يقيسون به الانزياح[١٩].

في مطلع القرن العشرين ولد تحت كلمة الاسلوبية مفهومان مختلفان:

الأول: دراسة الصلة بين الشكل والفكرة، خاصة في الخطاب لدى القدماء.

الثاني: الطريقة الفردية في الاسلوب او دراسة النقد الاسلوبي، وهي تتمثل في بحث الصلاة التي تربط بين التعبيرات الفردية او الجماعية[٢٠].

"إن التناول الاسلوبي انما ينصبّ على اللغة الأدبية، لأنها تمثل التنوع الفردي المتميز في الأداء بما فيه من وعي واختيار وبما فيه من انحراف عن المستوى العادي المألوف بخلاف اللغة العادية التي تتميز بالتلقائية والتي يتبادلها الأفراد بشكل دائم وغير متميز"[٢١].

"فعلم اللغة يدرس ما يقال، والاسلوبية تدرس كيفية ما يقال مستخدمة الوصف والتحليل في آن واحد"[٢٢].

ولكون الأسلوبية علماً حديثاً ما يزال يتطور لم تكتمل بعد ولوجوهها العديدة وعدم استقرارها وعلميتها، كثرت تعريفاتها كما تعددت تعاريف الاسلوب وتقاطعت.

ومن مرتكزات الاسلوبية ما سمّوه بالاختيار "حيث نجد مجموعة من الألفاظ التي يمكن للمتكلم ان يأتي بواحد منها في كل جملة من جمل الكلام التي توجد في الرصيد المعجمي للمتكلم والتي تقوم بينها علاقات قابلة للبدلية، فإذا وقع

(١٧) علم الاسلوب مبادؤه واجراءاته ٨٩، والنصّ والاسلوبية بين النظرية والتطبيق ٣٦.
(١٨) الاسلوبية والاسلوب، المسدي ٢٠.
(١٩) مفهومات في بنية النص ٦٩.
(٢٠) البلاغة والاسلوبية ١٣٨.
(٢١) المصدر نفسه : ١٨٩.
(٢٢) المصدر نفسه ١٨٩.

الاختيار على احدهما انعزلت البقية"[٢٣] ثم تأتي عملية ترتيب الألفاظ بما يقتضيه علم النحو ومبادئ علم الصرف ويسمى بـ (النظام ألاستبدالي) ولكل لغة نظامها ألاستبدالي الجائز وغير الجائز. عرّف جاكبسون الاسلوب (كونه إسقاط محور الاختيار على محور التوزيع)[٢٤].

وتعنى الاسلوبية بالكشف عن العلاقة بين الدالّ والمدلول وهذا يقودنا الى عمليات التوصيل بعناصرها الثلاثة: المرسل والمتلقي والرسالة، وكلها تثري العملية الإبداعية لتشعب الدلالة من خلال اختيار واستبدال الأصوات والألفاظ الى معانٍ طارئة ذات صيغة جمالية فتعدد دلالات الكلمة والصور والمعاني، والاسلوبية تتناول هذه العلاقات الاستبدالية الجمالية في التعبير الأدبي[٢٥].

وبعضهم عدّ الاختيار خروجاً[٢٦] عن النمط المألوف الى النمط الفني لكن الاختيار محدود الإمكانيات المتعارفة للغة، والانحراف يبتعد عن طرق التعبير الشائعة والاختيار يوجد في اللغة الجارية من غير ان يكون لها سمة فنية و(يمكن عدهما كجناحي الطائر) للأثر الفني في الاسلوبية[٢٧].

ويبدو ان الجامع بين تعاريف الاسلوب والاسلوبية ومفاهيمها انهما اختيار وتوزيع والعدول عن المألوف سواء في البنى والتراكيب والأصوات او في الدلالة، والاهتمام بالتحليل الفني للنصّ.

فالأسلوبية"بحث علمي للطرائق المستعملة في التعبير عن الخواطر، وعلم الاسلوب يرشدنا الى اختيار ما يجب أخذه من اللغة للتوصل الى التأثير في المتلقي شريطة احترام قواعد اللغة"[٢٨].

"تبحث الاسلوبية عن الخصائص الفنية الجمالية التي تميّز النصّ عن آخر، او الكاتب عن كاتب آخر، من خلال اللغة التي يحملها خلجات نفسه وخواطر وجدانه"[٢٩] وتحاول الاسلوبية الإجابة

(٢٣) الاسلوب والاسلوبية ٢٠.
(٢٤) المصدر نفسه.
(٢٥) البلاغة والاسلوبية ١٢٩-١٣٢ بتصرف.
(٢٦) الاسلوبية والاسلوب ٩٨.
(٢٧) الإعجاز الصرفي ١٤٢ واللغة والابداع ٧٨.
(٢٨) قضايا الحداثة ٢١-٢٢.
(٢٩) الاسلوب بين التراث البلاغي العربي والاسلوبية الحداثية ٥.

عن كيف يكتب الكاتب نصّاً من خلال اللغة؟ إذ بها ومنها يتأتى للقارئ استحسان النص او استهجانه.

و"تنفي (الاسلوبية) عن نفسها المعيارية وإرسال الأحكام التقييمية بالقبول او بالرفض يضاف الى ذلك أنها لا تسعى الى غاية تعليمية البتة، ناهيك عن حرصها الشديد على تعليل الظواهر الاسلوبية في مقارباتها النصوص الإبداعية بشيء من العلمية الوصفية، على النقيض مما تعاملت به البلاغة"[٣٠].

ولم تسلم الاسلوبية من الانتقادات كما لم يسلم (الاسلوب) فمن الملاحِظ التي يمكن ان تلاحظ على الاسلوبية ان الاسلوبيين حدّدوا عملها باللغة الإبداعية وتأثيرها بالمتلقي لا اللغة النفعية التواصلية، لكنّ اسلوبية بالي (رائد الاسلوبية المعاصرة) التي تسمى بالتعبيرية حدّدها باللغة اليومية الشائعة (النفعية).

وعلى الرغم من ان الاسلوبية تُعنى بالتأثيرات الجمالية، وتناولها اللغة الإبداعية فان بعض مناهجها تعتمد طرقاً لحساب التكرار النسبي بغية الدقة العلمية واستخدام الحسابات الالكترونية لرسم جداول التكرار للسمات التي يقال عنها انها تصف أسلوباً مميزاً[٣١] مغفلاً وظائف المفردات النحوية في سياقها[٣٢] وهو أمر وان كان علمياً إلا انه يتقاطع مع الجمالية في أحيان كثيرة[٣٣]. واستعمال الجداول الرياضية للجرد الاسلوبي وهو إحصاء الأنماط وقياسية في النصّ واعتمادها على التحليل الوصفي للغة، ثم على النحو التحويلي والبناء السطحي والبناء العميق[٣٤].

كثير من الدارسين عارضوا الاسلوبية والنظريات النقدية المختلفة التي تتبناها، ذلك"بانها صيغت في بيئات وظروف حضارية مباينة كل المباينة لما نحن عليه، وبأن الحاطبين في حبالها ينقلونها الى ثقافتنا غريبة الوجه واللسان ويجعلون من النص العربي قرباناً يسترضون به هذه الصراعات

(٣٠) نفسه ٧.

(٣١) الاسلوبية وتحليل الخطاب ٦٠.
(٣٢) الاسلوبية والبيان العربي ٢١.
(٣٣) النحو والدلالة ١٧٣.
(٣٤) في النقد اللساني ١٦٩.

المتلاحقة في بلاد الغرب[٣٥].

فضلاً عن الإسراف باستعمال المصطلحات الرنانة هدفاً لدى بعضهم ولاسيما الأدباء والنقاد والشعراء غير الاكاديميين الذين بنوا ثقافاتهم على الصحف والمجلات لا التخصص الدقيق الاكاديمي وسعة الإطلاع على الموروث العربي الإسلامي.

"النقد الأهم الذي يوجه الى الاسلوبية يتمثل في عدم عدّها علماً لأنها لم تنجح في حصر موضوعاتها ولا مناهجها، من جهة ثانية انتزع تطور اللسانية الاسلوبية من بعض مجالاتها الأصلية محدثاً بذلك إعادة توزيع لجميع الأعمال التي وضعت حتى الآن بأنها اسلوبية في مجالات جديدة... وقد وصل الأمر الى درجة ان اريفي Arrive أعلن موتها"[٣٦].

- الأسلوبية والدرس اللساني الحديث:

أهم أمرين في صلة الاسلوبية بالدرس اللساني الحديث، انها ولدت من رحم ألسنية سوسير وانها تُعنى بانحراف القواعد وخرقها فنياً وجمالياً نابعاً من اللغة عينها، وللانتهاك وقبحه وحسنه اتجاهات عديدة في تفسيره من خلال القارئ، النصّ المنشئ، موظفة كل مكونات النص وما حوله والعلاقات بينها وتوزعها لخدمة الدلالة.

"أخذت الاسلوبية من اللسانيات الصفة العلمية الوصفية في دراسة اللغة، غير انها درست الخطاب ككل، وما يتركه هذا الخطاب من أثر في نفس المتلقي، في حين نجد ان اللسانيات قد اتجهت الى دراسة الجملة بالتنظيم واستنباط القواعد التي تستقيم معها والقوانين التي من خلالها تكسب طابع العلمية"[٣٧].

يقسم الاسلوبيون المعاصرون -ومنهم العرب- اللغة على مستويين:

- المستوى المثالي في الأداء العادي والإبداعي الذي يعتمد اختراق هذه المثالية وانتهاكها. ويكون عمل الاسلوبي في رصد هذا المستوى وظواهره وتفسيره.

(٣٥) معجم المصطلحات الادبية المعاصرة ١١٥، ٢١ والنحو والدلالة ١٨٠ وحيوية اللغة ٣١٧.

(٣٦) النقد اللساني ٢٣٥.

(٣٧) الاسلوب بين التراث البلاغي العربي ٧ وينظر: ومعايير تحليل الاسلوب ١٦، ٣٤.

هذا هو علم الاسلوب والاسلوبية لدى كثير من الدارسين العرب ولاسيما في دراساتهم التطبيقية. وهو تفسير غربي معاصر للعدول في اللغة بمستوياتها كافة ولاسيما الدلالية منها المتمثلة بالاستعارات والصور الأدبية وغيرها مما سمَّوه بالانزياحات والانحرافات والانتهاكات لكنها صحيحة التركيب من حيث قواعد النحو:

حدّد بالي رائد الاسلوبية الأول مجال عمل الاسلوبية معتمداً على ما طرحه أستاذه دي سوسير في التقسيم الشائع للغة والكلام في الظاهرة الكلامية على:

لغة الخطاب النفعي ولغة الخطاب الأدبي وصنف الخطاب إلى ما هو حامل لذاته وما هو حامل للعواطف والخلجات الانفعالية.

فاللغة تنطوي على جانب يتّصل بالفكر وجانب يتّصل بالوجدان وقد يطغى احدهما على الآخر. والاسلوبية تتبع ملامح الشحن العاطفي في الخطاب من حيث استخدام اللغة بشكل متجدد يختلف عن النمط التركيبي الذي نلمسه في الخطاب النفعي العادي.

وتحاول الاسلوبية استكشاف المشاعر الذي يتلوَّن بها الخطاب. ولدى (كوهين) الاسلوبية والانزياح والشعر متقاربة[٣٨].

ومركز اهتمام الاسلوبية لدى تشومسكي: المظهر الإبداعي للغة حتى على مستوى الاستعمال العادي. وهذا مرتبط بالذات المتناهية التي تنتجها وسائل محدودة، والاسلوبيون يتبعون النحو التحويلي بوصفه المدخل الصحيح لدراسة النص الأدبي من خلال المستوى السطحي والعميق للكشف عن طاقات اللغة[٣٩].

والأمر نفسه نجده في الموروث البلاغي والنحوي إذ فرقوا بين الشعر والنثر او لغة الأدب وأساليبه وبين النثر العادي وان كان اهتمامهم كله منصباً على اللغة العالية وخاصة الشعر.

وهذا التقسيم تناقلته الدراسات العربية الحديثة ونسبوه الى الموروث البلاغي وأكثره في الإبداع الدلالي الذي لا يرى فيها النحوي عدولاً تركيبياً، فثمة

(٣٨) ينظر: بنية اللغة الشعرية ١٢.
(٣٩) البلاغة والاسلوبية ١٤٣-١٤٤، ١٤٧.

نصوص إبداعية كثيرة فيها عاطفة وإبداع ولها تأثير، نجد فيها المستوى النفعي للغة أيضاً، ونجد العكس وربما في الكلام المباشر السهل نجد انزياحات من غير اثارةٍ ولا إبداع، ذلك ان المستوى الإبداعي في اللغة افتراضي لا وجود له إلا في الخيال.

لقد نسب الدارسون العرب المعاصرون تفسير العدول لدى الغربيين الى الموروث البلاغي العربي بين قولهم بأصل الكلام والمعنى والعدول عنهما[٤٠] وبين تقسيم الغربيين للغة على مستويين: مثالي في الأداء العادي وإبداعي يعتمد اختراق هذه المثالية والعدول عن النمط المألوف لتوكيد قيمة جمالية فنية تقوم على أساس الخروج والانتهاك اللغوي لقواعد اللغة تمثل طاقات إيحائية وتكسب الاسلوب ثراءً ومزية، ويقع على محورين:

١- التوزيع، ويتمثل بالعلاقات البنائية للإنسان اللغوية كالتقديم والتأخير وغيره.

٢- الاختيار، ويتمثل بالعلاقات الاستبدالية كإسناد الفعل الى غير فاعله في التركيب، او الاستبدال الدلالي في الصيغ البيانية[٤١].

فالإبداع الأدبي والعناصر الجمالية في اللغة لا تكون إلا بخرق الأداء المثالي او القاعدي في صياغة اللغة والانحراف عنه وهذا هو مفهوم الاسلوبية لدى الكثير من الدارسين لكن الاسلوبيين لم يحددّوا معياراً واضحاً او متفقاً عليه للأداء المثالي في اللغة يمكن قياس الانزياح عليه[٤٢].

ومن هنا قامت مباحثهم في علم المعاني على العدول عن النمط المثالي المألوف في صياغة الكلام عند علماء اللغة للكشف عن العناصر الفنية للتركيب وجمالية تتصل بالمعنى فبحثوا: التقديم والتأخير والحذف والزيادة والتعريف والتنكير والوصل والفصل والالتفات وغير ذلك وكذلك في علم البيان: المجاز والاستعارة والكناية والصور وغيرها، ومباحث علم البديع.

ويبدو أن هذه المباحث هي الظواهر الاسلوبية لدى جلّ الدارسين العرب

(٤٠) مفتاح السكاكي ٣٣.

(٤١) ينظر: معايير تحليل الاسلوب ٥٠ والانزياح، الدرة ١٠.

(٤٢) الاسلوب والاسلوبية ٦٣.

المعاصرين[٤٣]، ذلك ان الاسلوبية المعاصرة هي الوارث لعلوم البلاغة القديمة.

المبحث الثاني

جذور الأسلوبية في الموروث البلاغي العربي:

كثير من الدارسين العرب يرون للاسلوبية الغربية جذوراً وأصولاً في الموروث العربي: البلاغي والنحوي والأدبي والنقدي وفي كتب الإعجاز التي تناولت النصّ القرآني وإعجازه[٤٤] وكتب اللغة والبيان والبلاغة والنقد كابن المقفع والجاحظ والمبرد وابن المعتز وعبد القاهر وقدامة بن جعفر والامدي والقاضي الجرجاني وابن طباطبا العلوي والسكاكي وابن خلدون والتفتزاني وغيرهم.

قال د. عياد: "إن الاسلوب يكون أكثر تحديداً لدى النقاد المغاربة: حازم القرطاجني في منهاج البلغاء ٦٨٤ هـ وابن خلدون ٨٠٨هـ[٤٥].

قال باحث آخر:"نظرت في البلاغة العربية عند القدماء، فوجدت ان قضايا كثيرة عرضوا لها بأسماء مختلفة عن قواعد الاسلوبية الحديثة ونظرية السياق في العصر الحاضر "[٤٦] وقال آخر" علم الاسلوب ليس غريباً عن البيئة العربية ولاسيما في القرنين الثالث والرابع الهجريين[٤٧].

وأوضح صلة بينهما يبدو انهما يقومان على دراسة العدول او الانزياح دراسة فنية، وشبّهوا قول البلاغيين بـ (مطابقة الكلام لمقتضى الحال) وقولهم (لكل مقام مقال)[٤٨] بفكرة بالي حول مسألة علاقة

(٤٣) نظرية اللغة في النقد العربي ٢٠٧، وينظر: من اسرار اللغة ١٩٩ والاصول ١٢٧ والبلاغة الاسلوبية ١١٩، ١٩٨ واسلوب الحوار في القرآن الكريم ١٠٥ واللغة فندريس ١٨٨، ١٩٢ والسور المكية ٢٣٢ والسو المدنية دراسة اسلوبية ٧ وجدلية الافراد والتركيب ١٣٣، ١٨١ والنقد البلاغي عند العرب ١٨١ وما بعدها.

(٤٤) ينظر: الاسلوبية والبيان العربي ٢٧، واللغة والاسلوب ١٥-١٨ والبلاغة في ضوء الاسلوبية ٨-٩، وجدلية الافراد والتركيب ١٥٣، في المصطلح النقدي ١٢٥.

(٤٥) اللغة والابداع ١٩.

(٤٦) البلاغة في ضوء الاسلوبية ونظرية السياق ٧.

(٤٧) اللغة والاسلوب ١٥.

(٤٨) البيان والتبيين ١/ ٦٢ والمفتاح ٩٠.

الأشكال اللغوية بالفكر[٤٩].

ويرون أن الاسلوبية وارثه البلاغة وعلم لغة النص، وهو قول الغربيين ايضاً[٥٠] ولا اعرف كيف يوفقون بين معيارية البلاغة القديمة وعلمية الاسلوبية وتفلتها من المعيارية فضلاً عن انهم ينسبون لكل ناقد قديم او بلاغي فهماً خاصاً للاسلوب والاسلوبية فابن طباطبا ربط مفهوم الاسلوب بصفة مناسبة الكلام بعضه لبعض وعبد القاهر بتوخي معاني النحو وابن خلدون بجعله "الاسلوب" صورة ذهنية مهمتها مطابقة التراكيب المنتظمة على التركيب الخاص لأن الصناعة الشعرية هي بمعنى الاسلوب ترجع الى صورة ذهنية للتراكيب المنتظمة كلية باعتبار انطباقها على تركيب خاص"[٥١].

وجلّهم يعد النظم الذي قال به عبد القاهر هو الاسلوب، لذا رأى بعضهم ان عبد القاهر مؤسس الاسلوبية العربية، وتناولوا البلاغة القديمة بأسماء جديدة، من خلال مشابهة شكلية وتناول تقليدي، او خلط بين المصطلحات القديمة والحديثة[٥٢].

وقارنوا بين عبد القاهر وسوسير وتشومسكي وبالي وكروتشة وغيرهم وعدّوه السبّاق لهم[٥٣].

ورأى د. لطفي عبد البديع ذلك تلفيقاً، قال ساخراً: "يضع قبعة هذا على رأس ذاك ويثبت عمامة ذاك على رأس هذا، ويقول للاول كن كروتشة، وللثاني وانت عبد القاهر"[٥٤].

والحق ان أوضح جهود القدامى يمكن عدّها اسلوبية تنسجم ودراسة النصّ العربي الإسلامي يمكن تسميتها بالاسلوبية

(٤٩) اللغة والابداع ٨.

(٥٠) علم لغة النص ٢٠-٢١، ٤٣ والاسلوبية، جيرو ٢٧-٣٠ وجدلية الافراد والتركيب ٥.

(٥١) الاسلوب بين التراث البلاغي العربي والاسلوبية الحداثية ٤، وجدلية الافراد والتركيب ٨٣.

(٥٢) الاسلوبية والبيان العربي ٢٧، ٨، ٥، والبلاغة في ضوء الاسلوبية ٥-٧ ومحاضرات في تاريخ النقد عند العرب ٢٨٥-٣٥١.

(٥٣) قضايا الحداثة عند عبد القاهر ٢، ٧، والابعاد الابداعية في منهج عبد القاهر ١١.

(٥٤) التركيب اللغوي للادب ص (د).

الاسلامية ولاسيما لدى علماء إعجاز القرآن فقد استعملوا مصطلح (الاسلوب) في بحوثهم حول إعجاز القرآن ويدل لديهم: "على الطرق المختلفة في استعمال اللغة على وجه يقصد به التأثير"[٥٥]، كما لدى الخطابي والباقلاني وابن قتيبة وعبد القاهر الجرجاني وغيرهم[٥٦]. ويبدو ان القدامى يقصدون بالاسلوب ما يخرج عن اللغة المألوفة، وما سموه بطرائق العرب ومجازاتهم واساليبهم في الكلام.

وخير من وظّف مباحث إعجاز القرآن وعلم المعاني وطبقها على النصّ القرآني كله الزمخشري (٥٣٨هـ) فقد ابتكر طريقة جديدة في تفسير النص القرآني لم يسبق اليها[٥٧] أسسها على علمي المعاني والبيان وتبعه مفسرون كثيرون ومايزال المعاصرون يحذون حذوها في الدراسات الاسلوبية القرآنية[٥٨].

(٥٥) اللغة والاسلوب ١٥-١٨.
(٥٦) ينظر: تأويل مشكل القرآن ١٠، ١٩ وبيان اعجاز القرآن، الخطابي ٦٠ واعجاز القرآن للباقلاني ٢٩٨.
(٥٧) مقدمة الكشاف ٢٣.
(٥٨) ينظر: منهج الزمخشري في تفسير القرآن، الجويني ٧٧.

"ارتبط استعمال القدماء لكلمة الاسلوب بمفهوم الكلام الإلهي ومقارنته بالكلام البشري. كما ارتبط بإدراكهم لوجود جانبين للاسلوب، احدهما خفي ملموس، والآخر متجسد في الصياغة اللغوية"[٥٩].

فهي أسلوبية قائمة على النصّ الإسلامي، القرآن والأدب الإسلامي المتأسس على العقيدة الإسلامية وما تتضمنه من تصور للوجود[٦٠]. تقابل الاسلوبية الغربية المستقاة من أدبهم ومعتقداتهم وفلسفاتهم وثقافاتهم ولغاتهم الغربية.

فالأدب الإسلامي "نابع من بيئة ثقافية مغايرة بل معادية لأسس الصياغة الثقافية الغربية المعاصرة التي ترفض الأديان أساساً او تكرس لأخرى. فهو أدب يقوم على مواجهة آداب عبثية او وجودية او آداب مسيحية او يهودية صهيونية، وكل المذاهب الأدبية تصدر عن بيئات ثقافية وأيدلوجية محددة"[٦١].

(٥٩) قضايا الحداثة ٣١.
(٦٠) دليل الناقد الادبي ١٩.
(٦١) المصدر نفسه ٢١.

ويصاحب هذا الأدب الإسلامي نقد إسلامي ينطلق من الأسس نفسها: (العقيدة الإسلامية وتصورها للوجود) وترسيخها وإشاعتها وتَعُدّ ما يخالف تلك التصورات[٦٢].

لقد دعا الشيخ أبو الحسن الندوي في المجمع العلمي بدمشق الى إقامة أدب إسلامي، ثم جاءت كتابات سيد قطب(رحمه الله) في هذا الاتجاه، وتلاه الأستاذ محمد قطب في كتابه (منهج الفن الإسلامي)، ثم كتاب نجيب الكيلاني: (مدخل الى الأدب الإسلامي)، ثم الدكتور عماد الدين خليل خطا خطوة في هذا الطريق بكتابه: (النقد الإسلامي المعاصر) وغيرهم. وقد أخذوا على الأدب المعاصر اتخاذ الغموض غاية، ودعوا الى الالتزام الإسلامي والعقيدة الإسلامية التي تستند الى الوضوح لا الغموض المضلل والعبث او اللهو والزينة والتفاخر كما وصفوا الأدب المعاصر[٦٣].

(٦٢) المصدر نفسه ١٩.

(٦٣) مدخل الى الأدب الإسلامي، د. نجيب الكيلاني ٧.

الاسلوبية الإسلامية خاصةٌ بتحليل النصّ القرآني ذوقياً وتدبرُهُ ومعالجتُه فنياً واستنباط المعاني العالية والبليغة الإيحائية وظلال المعاني او القيم التعبيرية او اللمسات الفنية والأسرار البيانية في النصّ الإسلامي تستنبط من كل أجزاء النصّ: تركيبه وترتيبه، أصواته وحركاته ومباني كلماته فواصله، التذكير والتأنيث، التعريف والتنكير وغيرها.

يقول صبحي الصالح:"فحين تسمع همس السين المكررة تكاد تستشف نعومة ظلّها، مثلما تستريح الى خفة وقعها في قوله تعالى: ﴿فَلَآ أُقۡسِمُ بِٱلۡخُنَّسِ ۝١٥ ٱلۡجَوَارِ ٱلۡكُنَّسِ ۝١٦ وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ۝١٧ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾[سورة التكوير: ١٥-١٨]، بينما تقع الرهبة في صدرك وأنت تُسمع لاهثاً مكروباً صوت الدال المنذرة المتوعدة مسبوقة بالياء المشبعة المديدة في لفظة (تحيد) بدلاً من تنحرف او تبتعد في قوله: ﴿وَجَآءَتۡ سَكۡرَةُ ٱلۡمَوۡتِ بِٱلۡحَقِّۖ ذَٰلِكَ مَا كُنتَ مِنۡهُ تَحِيدُ﴾[سورة قّ:١٩] [٦٤].

إنّ في أسلوب القرآن دلالات بلاغية

(٦٤) مباحث في علوم القرآن ٣٨٥.

وأسراراً بيانية تستنبط من مكونات النص ومن النص كله من خلال المقارنة بين التراكيب المتباعدة ونظامه المتماسك.

ومن خلال الإحصاءات ودقة الملاحظة يستشفها الدارس البلاغي او الاسلوبي. كحذف اداة النداء وإظهارها في النص القرآني كله يشير الى التمييز بين الخالق والعبد، فإذا كان النداء موجهاً من العبد الى الخالق تبارك وتعالى يرد النداء بحذف أداة النداء والعكس كنداء زكريا عليه السلام ربّه سبحانه وتعالى: ﴿قَالَ رَبِّ إِنِّي وَهَنَ الْعَظْمُ مِنِّي وَاشْتَعَلَ الرَّأْسُ شَيْبًا وَلَمْ أَكُنْ بِدُعَائِكَ رَبِّ شَقِيًّا﴾ [سورة مريم: ٤] ونداء الخالق عزّ وجلّ عبده: ﴿يَا زَكَرِيَّا إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَى لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم: ٧] ﴿يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾ [سورة مريم: ١٢][٦٥].

ومن الدلالات الاسلوبية التي تُستَشَفُّ من النص كله: طغيان اسلوب الطلب في سورة مريم بصيغه المتعددة، ذلك ان الأحداث التي تناولتها تحتاج الى هذا الاسلوب الخطابي لغرض التوضيح والبيان، بسبب المباشرة في القول. وقلة ورود الصور البيانية كالمجاز والاستعارة والكناية والتشبيه في سورة مريم يؤكد هذا المعنى الدقيق الذي يستنبطه الدارس من الملاحظة الدقيقة للنصّ القرآني، ومنها غلبة اسلوب التوكيد في سورة مريم التي تشير الى حاجة الأحداث التي تناولتها لاستقرارها في ذهن المتلقي[٦٦].

وهي تنأى عن تحليل الأدب العربي الذي يمكن تطبيق أنماط كثيرة من الاسلوبية الغربية عليه، وان اختلفت في اعتمادها على أمهات مصادر التراث العربي في تشكيل الذائقة والمعرفة الأدبيتين، والمناخ الذي تنتمي إليه، كعمود الشعر الذي وضعه المرزوقي ليُعلم الفرق بين المصنوع والمطبوع مما أطلقوا عليه بـ (المعتمد في الثقافة العربية)[٦٧] وكالمختارات الشهيرة:

(٦٥) البناء الفني في سورة مريم، د. حامد عبد الهادي حسين ٥٤.

(٦٦) المصدر نفسه ٦٨، ٨٦.

(٦٧) دليل الناقد الأدبي ١٤٨.

الحماسة والمفضليات والموسوعات الأدبية وكتابات ابن المقفع وعبد الحميد وبديع الزمان وابي حيان التوحيدي وغيرهم.

وهـذا يختلف عـن الـنص الـقرآني وشروط تفسيره وقدسيته ودوافع تناوله وشخصية متناوليه وثقافتهم الروحية وذائقتهم الخاصة.

ان المنهج الفني الذوقي يختلف عن المنهج الانطباعي الذي يقوم على الانفعال وربما على المغالاة والابتعاد عن الموضوعية وأسس العلم.

هـذه الاسـلـوبيـة الإسـلامـيـة اصل البلاغة العربية التي نشأت من خلال الـدفـاع عـن الـنصّ الـقـرآني والإعـجـاز خاصة وإثباته الذي تناوله عبد القاهر في كتابيه: أسرار البلاغة ودلائل الإعجاز، وإجماعهم على ان إعجاز القرآن يكمن في نظمه واسلوبه.

إلاّ أنّ المتأخرين انتهجوا نهجاً معياريا وصاغوا"قواعد صارمة صيغت باسلوب عقيم"[٦٨] وما نقرؤه في كتب البلاغة المدرسية المعيارية فضلاً عن الخلط في مباحثها: نحو ولغة وبلاغة وأدب.

وقد ميّز الباحثون بين البلاغة الذوقية والبلاغة المنطقية المعيارية وسمّاها بعضهم بالبلاغة القاعدية والبلاغة القيمية. والأولى هي التي تتحدث عن مواطن الشاهد البـلاغي... والثانية"ما يحمل الشاهد من معانٍ وطاقات وقيم تؤدي الى جماليات فنون القول العربي وتكشف عن الإعجاز القرآني.."[٦٩].

الذي نعنى به من الاسلوبية الحديثة، اهتمامها بالخصائص الفنية والملامح الدلالية الدقيقة التي أطلق عليها القدامى أسراراً بيانية، تستنبط من خلال تدبر الـنصّ وطريقة نظمه ومبـاني ألفاظه، مركزين على تفسير العدول في ضوء ذلك، ناهيك عن ان العدول من أهم ميادين الاسلوبية الحديثة. لكنا نحاول تفسيره في ضوء نظام اللغة العربية، وهو تناول أقرب الى مفاهيم الاسلوبية وعلم لغة النصّ اللذين يتداخلان كثيراً.

(٦٨) بحوث بلاغية ١٣٢.

(٦٩) البلاغة العربية في ضوء الاسلوبية، والبلاغة بين المنطق والتذوق، ضمن كتاب (بحوث بلاغية)، مطلوب ١٣٢.

وليس العدول خروجاً عن الأصول الافتراضية فأكثره داخل ضمن اطار النظام التركيبي للعربية وإنّ كثيراً مما قالوا بأنه عدول يرد في اللغة المألوفة العادية وان استنبطوا منه ملامح فنية اسلوبية ومعاني ثانية، لكنه في تراكيب مستقيمة نحوياً سليمة وان أحدثت صوراً وكنايات وتشبيهات وخيالات او ما نسميه بالعدول الدلالي (الانزياح) لدى المعاصرين.

ولا يكشف هذه الملامح الاسلوبية إلا من لديه الموهبة الأصيلة وليس المكتسبة، وإن كان بعض الدارسين خلط بين دلالة الصيغ والدلالة المعجمية كقول احدهم ان كثرة الفعل المعتل في النصّ تدل على اعتلال المبدع النفسي والفعل الأجوف على تأزمه[٧٠]. لقد توصّل الخوسكي في دراسته (الجملة الفعلية في شعر المتنبي)[٧١] الى ان استعمال المضارع نادر في مرثيات المتنبي، أما الفعل الماضي فكثير الورود وعلل ذلك بأنه يشير الى ان في الماضي انقطاع، وفي الانقطاع ألم وندم وحسرة ولوعة وحزن ويأس...وعليه نقل المراثي بزمن الحال او الاستقبال لان الموقف يتطلبها والغرض يقتضيها.

ورأى تامر سلوم في تحليله شعر ذي الرمة بأنه عبّر بالفعل المضارع في مثل: أبكي، أخاطبه، أسقيه وغيرها أفعال تفيد التجدد في البكاء والمناجاة والشكوى، وانها توحي بالاستمرار الشعوري لهذا الحدث او هو يوميء الى ما يصاحب التجدد من حالات وجدانيه. فالفعل المضارع يعطي الموقع الوجداني للظاهرة المتجددة ومن ثم فهو ينقلنا من البكاء والمناجاة الى العزلة النفسية والغربة والانفراد[٧٢].

المبحث الثالث

العدول عن النظام الإعرابي

إن التطبيق الاسلوبي على النص القرآني ينبغي ان يبنى على جوهر العربية وأسرار نظامها، ذلك أنّ نظامها هو اسلوبها الذي يميزها عن سائر اللغات الأخرى. ومن غير ربط التحليل الاسلوبي بالنظام الكلي للغة العربية، تعاني الدراسة الاسلوبية

(٧٠) ينظر: في النقد اللساني ٢٢١.
(٧١) ص ٢٩٠ وعلم الدلالة، لوشن ٨٨.
(٧٢) أثر اللسانيات في النقد العربي ٣ وعلم الدلالة، لوشن ٨٨.

وتطبيقها على النصّ القرآني نقصاً كبيراً، لا تتوصل الى نتائج علمية مستقيمة تتناسب مع أساليب العربية وطبيعتها المختلفة عن أنظمة اللغات الغربية وآدابها التي وضعت لها المناهج الاسلوبية الحديثة دراسة وتحليلاً وتطبيقاً.

إنّ نظام النصوص العربية جزء من دلالاتها وإنّ العدول جزء من هذا النظام، نحاول كشفه، وفي ضوء الاسلوبية العربية الإسلامية للوقوف على أسرار العدول ودلالاته الثانية.

ولسنا ملزمين بمتابعة الأعمال السابقة والقراءات الاسلوبية السابقة وتقليدها، عربية كانت ام غربية، ولا نسعى الى أن يكون تطبيقنا الاسلوبي نسخة معدّله منها، ولا إلى جعل المصطلحات الحديثة المترجمة او المستحدثة هدفاً ولا نتخذ المناهج الوافدة في تحليل النصّ القرآني المقدّس، او دراسة إعجاز القرآن دراسة غربية ملفقة لا تُـري خصوصية لكلام الله تعالى كما فعل ذلك بعض الـدارسين[٧٣] فهي إن صلحت لتحليل الشعر والقصة والأنواع الأدبية الأخرى، لا تصلح لدراسة النصّ القرآني إلاّ إكراهاً.

وكذلك توزيع الدراسة على مستويات لغوية أربع هي: المستوى الصوتي والمستوى الصرفي والتركيبي والـدلالي، فضلاً عن التصويري او البياني، التي لا تكاد دراسة اسلوبية معاصرة او لغوية تخلو منها[٧٤].

ناهيك عن سعة الاسلوبية وعدم استقرارها وكثرة مناهجها ونظرياتها وتطفلها على علوم مختلفة، وعدم الاتفاق على تعريف محدد لها.

لا نعني عدم صلاحية تطبيق الدرس الاسلوبي على العدول في النص القرآني قال د. محمد الدجيلي: "إن تطبيق النظرية الإنسانية على النصّ القرآني ليس إخلالاً

(٧٣) نحو النقد والاعجاز، د. محمد تحريشي.

(٧٤) ينظر: تـأمـلات في سـورة الـدهـر، مجلة المورد ع٣، مج ١٨، والسور المدنية دراسة اسلوبية بلاغية، وتقنيات المنهج الاسلوبي في سـورة يوسف، والسور المكية دراسة بلاغية اسلوبية (اطروحة)، واطار التطبيق في الاسلوبية، د. محمد الهادي الطرابلسي (بحث) مجلة الموقف الادبي ع ١٣٥، ١٣٦، ونظرية التلقي، اصـول وتطبيقات، وما لا تؤديه الصفة وبنى الجـدل في الخطاب القرآني (اطروحة).

بحرمة القرآن، وإنما إضافة بعض موارد الكمال القرآني الى النظرية الإنسانية من مبدأ أن النصّ القرآني ﴿لَّا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِن بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [سورة فصلت: ٤٢]، إما النظرية الإنسانية فمثقلة بالباطل، وقسم منها يدور في فلك الخيال، أما النصّ القرآني فواقع دائماً"(٧٥).

ولا تشترط الاسلوبية أن يكون منهجنا تقليداً أو نسخة من التطبيقات السابقة، فنعقد مباحث لعلم المعاني وخروج الدلالة الى المعاني المجازية أو التنغيم والتكرار اللفظي والصوتي والجناس والفاصلة، والعاطفة والخيال والموسيقى الداخلية والخارجية والمحسنات اللفظية والمعنوية والمجالات الدلالية للسور كالجهاد والتشريع والتقابل والتماثل وغير ذلك(٧٦).

فضلاً عن عدم اتفاقهم على معيار معين للعدول عن القياس، الذي يختلف في دراستنا عن انزياح كوهن وغيره وقد توسعوا به حتى عدّوا الشعر والاسلوبية او الاسلوب كلها انزياحاً وانحرافاً او انتهاكاً للمألوف عن الدلالة لا التركيب.

إنّ مناهج الاسلوبية متعددة وفهمها يختلف بحسب هذه المناهج لكنها تتفق على استنباط الدلالات الإيحائية من النص ومكوناته. ومنهجنا يتصل بالاسلوبية من حيث استنباط الدلالات من نظام العربية والعدول الذي يحدث في ضوء هذا النظام نفسه (والجديد) الذي يمكن ان نقدمه الى ذلك وهو يتصل بموضوع الاسلوبية كونها تعنى بالدلالات غير المباشرة، الدلالات الثانية او الأسرار البيانية التي يؤديها نظام العربية.

فقد تحدّث البلاغيون عن حسن نظم العبارة القرآنية وجمال اسلوبها ودقة اختيار ألفاظها وملاءمتها للمعنى وسبكها في تسلسل منطقي على وفق نظام متماسك، وموقعها وشكل بنيتها والأصوات الموحية بدلالة بنية اللفظ والتركيب بحيث لا نجد بديلاً عنها في دقة التعبير والاحاطة بالمعنى والمعاني المجازية التي تخرج إليها، وما تناوله البلاغيون في علوم المعاني والبيان

(٧٥) تقنيات المنهج الاسلوبي في سورة يوسف ٥.
(٧٦) ينظر: الاسلوب، الشايب دراسات أدبية ونحوية ١٢٠، والسور المدنية دراسة اسلوبية ٧.

والبديع، وعلماء الإعجاز في حسن اسلوب القرآن ونظمه المتناسق: اصواتاً وبُنىً وتراكيب(٧٧). وأعجبهم ذلك حتى عدّوا وجه الإعجاز القرآني،إنما سببه (المشابهة) التي يبني عليها نظام اللغة العربية في مستوياتها، الصرفية والنحوية والبلاغية والدلالية وغيرها، كلها تنساق في ضوء نظام واحد هو تعليق الأصوات والحروف والألفاظ والتراكيب والدلالات بعضها برقاب بعض وتحمل بعضها على بعض، في المستوى اللغوي الواحد من العربية، وفي المستويات بعضها على بعض، نظام واحد مطّرد لأداء المعنى القرآني المطلق الذي لا اختلاف فيه، الثابت كونه يحوي المتغيرات الزمانية والمكانية، فهو كالمعادلات الرياضية الثابتة وان تغيرت الأعداد داخلها بحسب المتغيرات.

هذا النظام هو المعيار الذي نقيس عليه العدول في الاسلوب القرآني، وليس الأصل والفرع لدى القدامى، او اللغة النفعية والإبداعية لدى المعاصرين الغربيين، او نظرية تضافر القرائن لدى بعض الدارسين كما مرّ بنا.

سأتناول خرق النظام الإعرابي في النصّ القرآني بالتحليل الاسلوبي والنحوي في ضوء نظام اللغة العربية مستنبطاً دلالات فنية وملامح اسلوبية. والنظام الإعرابي احد الأنظمة التي تعضد أنظمة العربية الأخرى، النظام الصرفي والنظام النحوي والنظام البلاغي.

وفي النصّ القرآني كثير من نحو هذا، بعضه لم يشر إليه القدامى في تناولهم اسلوب القرآن وإعجازه إلاّ ما ورد عرضاً في التفاسير ولاسيما النحوية واللغوية منها.

وأقدم ما نسب الى بعض الصحابة أنّهم قالوا: "إنّا نجد في القرآن لحناً وستقيمه العرب بألسنتها" ونسبوا الى سعيد بن جبير، (رضي الله عنه) انه قال:"في القرآن أربعة أحرف لحن ﴿وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَعَمِلَ

(٧٧) ينظر: مثلًا: دلائل الإعجاز ٧٩، ونهاية الايجاز ١٩، والبرهان الكاشف للزملكاني ٢٥ واعجاز القرآن للرافعي١٨٥، والمعجزة الكبرى١٣١، ومناهل العرفان ١/ ٥٥ والتعبير الفني في القرآن الكريم١٨٣، وصفاء الكلمة ٥٥ ومن اسرار التعبير في القرآن ١٢١.

صَٰلِحًا فَلَا خَوۡفٌ عَلَيۡهِمۡ وَلَا هُمۡ يَحۡزَنُونَ﴾ [سورة المائدة: ٦٩] ﴿وَٱلۡمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَۚ وَٱلۡمُؤۡتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلۡمُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِۚ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤۡتِيهِمۡ أَجۡرًا عَظِيمًا﴾[سورة النساء: ١٦٢] و﴿وَٱلۡمُوفُونَ بِعَهۡدِهِمۡ إِذَا عَٰهَدُواْۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِي ٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلۡبَأۡسِۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُتَّقُونَ﴾[سورة البقرة: ١٧٧] و﴿قَالُوٓاْ إِنۡ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ يُرِيدَانِ أَن يُخۡرِجَاكُم مِّنۡ أَرۡضِكُم بِسِحۡرِهِمَا وَيَذۡهَبَا بِطَرِيقَتِكُمُ ٱلۡمُثۡلَىٰ﴾ [سورة طه:٦٣]، وعن عائشة وابن عباس (رضي الله عنه) قالا: انه من عمل الكُتّاب(٧٨) وقد ردّ الزمخشري بقوله: "إنما كتبها الكاتب وهو ناعس، وهذا ونحوه مما لا يصدق في كتاب الله الذي لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، وكيف يخفى هذا حتى يبقى ثابتاً بين دفتي الإمام، وكان مستقلباً في أيدي أولئك الأعلام المحتاطين في دين الله... هذه والله فرية ما فيها مرية"(٧٩).

وقد أشاروا الى هذه الشواهد الأربعة ومثلها في القرآن الكريم كثير. وللحن دلالات كثيرة ليس بالضرورة الخطأ النحوي أو اللغوي(٨٠) فضلاً عن مكانة من نسب إليهم هذا القول في الإسلام، ومن يرجع الى التفاسير ولاسيما النحوية يجد كثرة الخلاف والآراء المتقاطعة في توجيه هذه النصوص وغيرها.

الأسلوبيون يعدّون ذلك وغيره: خرقاً وانتهاكاً وانزياحاً وانحرافاً عن مقاييس اللغة، وقوة ضاغطة على حساسية القارئ، وحدة المفاجأة عليه ومنبهات اسلوبية(٨١).

ويرون: كلما كان الانزياح او الانحراف بعيداً كان أعلى بلاغة وأكثر عاطفة وإثارة وإبداعا وفناً.

(٧٨) المصاحف ١/ ٣ ونكت الانتصار ١٢٧ والتفسير الكبير ١/ ٢١٣ وأحكام ابن عربي ٢/ ٥٥٨ وابجد العلوم ٣/ ٢٠١، والاتقان ٢/ ٢٧٣ وتفسير الالوسي ٣/ ٢٧٩، ٦/ ١٥، ١٥/ ٥٣، والمفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ٧/ ١٩ واعلام الخلف ٣/ ٢٩١.

(٧٩) الكشاف: ٢٧١ وينظر: دراسات لاسلوب القرآن ١/ ٢٧ وشبهات حول القرآن وتفنيدها، موسوعة الإعجاز العلمي.

(٨٠) ينظر: العربية، يوهان فك ١٣٩.

(٨١) الاسلوبية والاسلوب ٨٠.

وهذا ردّ على طعن بعض المستشرقين المتحاملين غير المنصفين في النص القرآني الذين اتخذوا من العدول في لغته هدفاً لطعنهم وتشكيكهم بإعجاز القرآن الكريم. وهو ردّ علمي من خلال أقوال اللغويين الغربيين أنفسهم وليس ردّاً عاطفياً انفعالياً كردّ بعض المسلمين[٨٢].

يرى تمام حسان انه يجوز الترخّص في الإعراب بعدم مراعاته، وذلك للوصول بالرخصة الى غرض اسلوبي عدولي ما... وعلل ذلك بأنه يمكن خرق الإعراب لتضافر قرائن بيان المعنى زائدة عن المطلوب أحياناً فإذا زاد الإعراب عن مطالب بيان المعنى كما في (خرق الثوبُ المسمارَ) ونحوه أمكن الترخص في الإعراب، وقولهم: (هذا جحرُ ضبٍ خربٍ)[٨٣].

وهي شواهد محددة اجترها النحاة في كتب النحو واللغة والبلاغة مشكوك في نسبتها، تختلف عن خرق الإعراب الوارد في النصّ القرآني وأغراضه الدلالية الدقيقة والجمالية.

وقال في بعض الشواهد السابقة: نحو الترخص في (والمقيمين الصلاة):"تحفُّ به المرفوعات من أمامه ووراءه والعلاقة بينه وبين هذه المرفوعات علاقة العطف بقرينة الواو. وإذا إتّضح العطف بقرينة غير الإعراب أمكن الترخص في الإعراب كما نراه واضحاً هنا"[٨٤].

إن فكرة أمن اللبس غير كافية لتفسير خرق الإعراب في النصّ القرآني، ذلك أن بعضه ورد في آيات مشكلة المعنى اختلف فيها المفسرون تتقاطع مع شروط الدكتور تمام حسان للرخصة في أية قرينة، لا يتوقف عليها المعنى او أمن اللبس ومنها قرينة الإعراب.

وقد أخذ فكرة أمن اللبس من النحاة الذين قيّدوا قواعدهم بأمن اللبس واشترطوه لصحتها وعدّوه أصلاً أساساً في وضع القواعد، فأوجبوا البقاء على الأصل في القاعدة النحوية إذا خُشي اللبس وجواز الخروج عنه

(٨٢) نحو: خمسون الف خطأ في الكتاب المقدس، احمد ديدات.

(٨٣) البيان في روائع القرآن ١/ ٢٥٥، ٢/ ٩٧.

(٨٤) البيان في روائع القرآن ١/ ٢٥٧.

إذا أمن اللبس[٨٥]. وهي فكرة منطقية تخالف واقع اللغة ونظامها الذي يسمح بهذا الخرق من خلال حمل الكلام بعضه على بعض او يبدو خرقاً بحسب المعيار النحوي التقليدي -﴿لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ وَٱلْمُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ أُوْلَٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا﴾ [سورة النساء: ١٦٢]، فقد ذهب بعضهم الى أن (المقيمين) نصبت عطفاً على المعنى ولا أرى ذلك. وإنما هو اسلوب النصب على المدح وسمّوه قطع التابع عن متبوعه، ويجوز الرفع على الابتداء، والنصب بأعني او امدح او أذم بحسب المعنى. وقالوا يجوز عند النعوت إذا طالت ان يعترضوا بينها بالمدح او الذم[٨٦]. وكذلك عند العطف وقد ورد هذا الاسلوب في النص القرآني في غير التوابع ومن غير إطالة، كقوله تعالى: ﴿وَٱمْرَأَتُهُۥ حَمَّالَةَ ٱلْحَطَبِ﴾ [سورة المسد: ٤] نصب (حمالة) على الشتم والذم وهو ضرب من الإيجاز.

قال سيبويه: "هذا باب يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه. تقول (أتاني زيدٌ الفاسقَ الخبيثَ... وزعم الخليل انه يقول: مررت به المسكين على البدل وفيه معنى التوهم، وان شئت رفعت (المسكين هو) "وعلى هذا يجوز في التوابع أكثرها. (وقال): "واعلم انه ليس كل موضع يجوز فيه التعظيم ولا كل صفة يحسن أن يعظم بها"[٨٧].

وقد ردّ القاضي عبد الجبار مَنْ طَعَنَ في (والمقيمين الصلاة) بقوله:"جوابنا ان بعضهم قال هو نسق على ما التي في قوله (بما انزل إليك) فكأنه قال: أنهم يؤمنون بما انزل إليك وبالمقيمين الصلاة.

وقيل أيضاً كأنه قال بما انزل إليك وما انزل من قبلك وبالملائكة المقيمين الصلاة. وقيل: كأنه قال: ويؤمنون بالمقيمين الصلاة. وقيل: كأنه قال وباقام الصلاة. وقيل: لما قال الكلام، نَصَبَ المقيمين على وجه المدح[٨٨].

(٨٥) القاعدة النحوية في ضوء تقييدها بأمن اللبس ص١. (بحث)
(٨٦) في عوالم القرآن ٨٤.
(٨٧) كتاب سيبويه ٢/ ٦٤، ٦٩، ٧٠.
(٨٨) تنزيه القرآن ١٠٦ وينظر: نكت الانتصار ١٣١.

وزعم الخليل: ان نصب هذا على انك لم ترد أن تحدث الناس ولا من تخاطب بأمر جهلوه ،ولكنهم قد علموا من ذلك ما قد علمت، فجعله ثناءاً وتعظيماً ونصبه على الفعل كأنه قال: اذكر أهل ذاك، واذكر المقيمين، ولكنه فِعل لا يسبقه إظهاره"[٨٩].

وقد يكون ذلك للتنبيه والتوكيد ولاسيما انه ورد في معرض ذكر الإيمان بالكتاب الكريم (بما انزل إليك) ونجد مثل هذا العدول يرد في مواضع ذكر الإيمان بالكتاب وبآياته وبالمتشابه والمحكم.

- قال تعالى: ﴿وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[سورة آل عمران: ٧]، فكلما يذكر المتشابه يرد مشكل في الإعراب يتبعه إشكال دلالي وفي الآية الكريمة ورد الإشكال بوظيفة الواو بين العطف والاستئناف[٩٠]. وكأنه تلميح الى أن التشابه في القرآن إنما يقع بسبب اللغة.

إنّ لمواضع العدول دلالة أيضا تحتاج الى دراسة ففي أول سورة النساء وآخرها يكثر العدول عن القياس النحوي، ويكاد ينعدم في وسطها (١٥٠) آية تقريباً أي ان العدول يرد في الغالب في المتشابه أكثر منه في آيات الأحكام ذلك إنّ آيات الأحكام تحتاج الى وضوح وقد يدل ذلك على وضوح الشريعة الإسلامية واستمرارها أما الآيات المتشابه فيكثر فيها العدول لدلالات خفية دقيقة الله اعلم بها وفي ذلك ملمح اسلوبي يربط بين العدول في تركيب الآية وبين دلالتها العامة.

- ومن الآيات مشكلة الإعراب التي تتقاطع مع قواعد النحو كانت مسألة خلافية بين البصريين والكوفيين هي: (العطف على اسم إنّ قبل تمام الخبر) في قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَٱلَّذِينَ هَادُوا۟ وَٱلصَّٰبِـُٔونَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾[سورة المائدة:٦٩]، برفع (الصابئون) وهو معطوف على اسم (إنّ) المنصوب وقد

(٨٩) كتاب سيبويه ٢/ ٦٦.
(٩٠) ينظر: آمالي الشريف المرتضى ١/ ٤٣٩، وفي عوالم القرآن ٥١- ٥٧.

وردت في آيات أخرى تتفق مع قواعد النحو.

- قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٦٢].

وقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱلَّذِينَ هَادُواْ وَٱلصَّٰبِـِٔينَ وَٱلنَّصَٰرَىٰ وَٱلْمَجُوسَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ يَفْصِلُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾[سورة الحج: ١٧].

وقد أدلى النحاة فيها بدلاءٍ مختلفة. فالبصريون قالوا: محمول على التأخير ومرفوع بالابتداء، والمعنى: (إنّ الذين آمنوا والذين هادوا مَنْ آمنَ منهم بالله... والصابئون والنصارى كذلك).

والكوفيون أجازوا العطف على موضع (إنّ) واسمها وهو (الابتداء) قبل تمام الخبر وهذا رأي الكسائي ومن تبعه من الكوفيين خلافاً للبصريين. ومهما كان توجيه النحاة وخلافهم فالمعنى واضح، وقد استشهد بالآية الدكتور حلمي خليل للغموض (الأقل وضوحاً) لكنه لم يؤدِ الى غموض المعنى، وقد فسّر الفراء عدم وقوع اللبس مع مخالفته الإعراب بأن الاسم الموصول (الذين) صرف على جهة واحدة في رفعه ونصبه وخفضه. وهو يقصد بذلك انه مبني فلما كان إعرابه واحداً جاز رفع (الصابئين)[٩١]، فدلالات الآية واضحة إلا أنّ العدول فيها أضاف دلالة بلاغية كان على الكوفيين والبصريين العناية بها أكثر من عنايتهم بالصنعة النحوية وتأويلها بالحمل على الموضع.

- ومنه تأويلهم جزم (أكنْ) في قوله تعالى: ﴿لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾[سورة المنافقون: ١٠] بـ"أنه معطوف على موضع الفاء من ﴿فَأَصَّدَّقَ﴾، فلما دخلت الفاء عملت في نصب (فأصدق) وبقيت (أكنْ) على حكمها"[٩٢].

(٩١) ينظر: العربية والغموض ١٠٢ ومعاني الفراء ١/ ٣١٠، ٢/ ١٨٣، و١٠٦/ ٥١ ونكت الانتصار ١٣٠، ٢/ ١٨٣ تفسير ابي السعود ٢/ ٤٦ وخطى متعثرة ١٠١ وسيبويه والقراءات ١٠٧.

(٩٢) نكث الانتصار ٦/ ١٣٢.

إنّ قضية العدول عن القياس النحوي إمّا أن تؤدي الى لبس وغموض أو لا تؤدي ولكن في كلا الحالين يؤدي العدول معنىً ثانياً بلاغياً وملمحاً اسلوبياً أو منبهاً واستجابة ودعوة الى التدبر فيه، ليس بالضرورة أن يتفق عليه المفسرون أو البلاغيون فتتعدد دلالاتها بحسب ذائقة المفسّر او البلاغي وموهبته الفنية ذلك أن المعنى الثاني معنى فني بلاغي جمالي متفلت عن المعيارية [٩٣]، وهو الذي يقصدون به بقولهم (المعنى الحركي) كما مرّ بنا لدى بعض المعاصرين، وبقول القدامى بأن القرآن حمّال أوجه.

إن تفسير بعض ظواهر العدول في النصّ القرآني باختلاف لهجات العرب يفقد الدلالات الدقيقة الاعجازية للعدول، وتجعل الدراسة البلاغية الاسلوبية للنصّ القرآني متعذرة ذلك أنها تتوخى المعنى من مكونات النصّ ولاسيما العدول الذي يشير دائماً الى دلالات بلاغية، لذلك كان منهج دراستنا أن ننأى عن خلط المستويات اللغوية بالنصّ القرآني، ولاسيما ان بعض الدارسين المعاصرين يرى اللهجات تجعل اللغة العربية غير منسجمة (ملفقة)[٩٤] مما يؤثر في نظامها ألاستعمالي.

لقد وردت في النصّ القرآني شواهد كثيرة خرجت عن القياس النحوي سمّاها البلاغيون (أساليب) ومجازات وطرائق. ويبدو أنّ اصطلاح الاسلوب وأساليب أطلقت في الغالب لدى القدامى والمعاصرين على الظواهر غير القياسية، أو ما يخرج عن قواعد النحو كقولهم اسلوب العدول. وهم لا يقولون اسلوب الفاعل او اسلوب المفعول به وغير ذلك من الأبواب النحوية المطّردة.

لكنهم يقولون: اسلوب النفي واسلوب التوكيد والشرط والنداء وغير ذلك، وإن لم يطرّد ذلك ولفظة (اسلوب) متعددة الدلالة قديماً وحديثاً، ولدى الغربيين ومن تبعهم من المعاصرين العرب. إلا إن دلالته على العدول أوضح واصحّ تفريقاً بين اللغة المطرّدة واللغة

(٩٣) المعاني الثانية في الاسلوب القرآني ٣٢٧.

(٩٤) مدخل لدراسة للحديث ٧٣.

الصحيحة غير المطرّدة فالتضمين مثلاً اسلوب يراد به وجهٌ ومعنىً بلاغي دقيق مرتبط بالذائقة الفنية. وسنذكر عدداً من الشواهد محاولين استنباط دلالاتها البلاغية في ضوء النظام التركيبي للغة العربية.

قال تعالى:

- ﴿لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ [سورة البقرة:١٧٧]، في الآية الكريمة شاهدان:

الأول: نصب اسم ليس: (البرَّ)

قرأها أكثر القراء السبعة بالرفع على أنها اسم (ليس)[٩٥]، وقد لاحظنا أنّ العدول عن القياس النحوي في النص القرآني قرأ بالوجه الذي يتفق مع القياس النحوي بالقراءات المختلفة، وإنْ كنا لم نستشهد بالقراءات لأنّ منهجنا استبعد القراءات وغيرها من المستويات اللغوية غير النصّ القرآني (الإمام)، لكننا ننبه هنا الى ان الشواهد القرآنية الكثيرة التي سنتناولها قد قُرئت بالوجه الذي يوافق القواعد النحوية في القراءات المختلفة.

ويبدو ان القراءات كانت احدى التوجيهات للعدول في لغة القرآن وكأنها تصحيح للعدول بحسب الوجه النحوي لاعتقاد بعض القراء إن ذلك من عمل الكتاب.

أو يخرّجونه على انه لهجة من لهجات القبائل العربية كقولهم في الآية الكريمة: ﴿إِنْ هَٰذَٰنِ لَسَٰحِرَٰنِ﴾ وغيرها.

أو يلجؤون إلى التأويل والتقدير من حذف وتقديم وتأخير وغيرها، او لم يشيروا الى العدول في أثناء تفاسيرهم كالزمخشري الذي لم يتناول كثيراً من العدول على الرغم من ان العدول من اهتمام البلاغي وكان الزمخشري في تفسيره

(٩٥) ينظر: البحر المحيط ٢/ ١٣١ والكشاف ١٠٨ والتحرير والتنوير ٢/ ٤٩٩، ٣/ ٥٠٠.

(الكشاف) بلاغياً، أكثر اهتماماً بالمعنى من الصنعة النحوية فهو لم يعالج نصب (البرَّ) وكذلك في أكثر الشواهد التي سنذكرها(٩٦). وكانت معالجته للعدول -في الغالب -على انه قُرئ بقراءات توافق القياس النحوي.

قال ابو حيان: "من قرأ بنصب (البر) جعله خبر ليس و(أن تولوا) في موضع الاسم. والوجه أن يلي المرفوع لأنها بمنزلة الفعل المتعدي وهذه القراءة من وجه اولى وهو أن جعل فيها اسم ليس: (أن تولوا). وجعل الخبر (البر)، وأن وصلتها أقوى في التعريف من المعرّف بالألف واللام، وقراءة الجمهور أولى من وجه، وهو: ان توسط خبر ليس بينها وبين اسمها قليل"(٩٧).

وأضاف ابن عرفة وجهاً آخر هو أن"التولية معلومة والبّر مجهول أي ليست التولية برّاً"(٩٨). وقال ابن عاشور:"يكثر في كلام العرب تقديم الخبر على الاسم في باب كان وأخواتها إذا كان احد معمولي هذا الباب مركباً من ان المصدرية وفعلها، كان المتكلم بالخيار..."(٩٩).

فقد لجأوا إلى التأويل لتستقيم الصنعة النحوية، فقدروا ترتيباً جديداً للتركيب لا يحتمله المعنى، أكره النصّ عليه، وقالوا بعلة واهية لهذا الترتيب هو (أن وصلتها) أقوى في التعريف من المعرّف بأل.

أما في ضوء نظام العربية الذي يبنى على (المشابهة وتعلق الكلام بعضه برقاب بعض) فإن (البّر) بالنصب على أن (ليس) محمولة على فعل ينصب الاسم بعده ك (إن) المشبهة بالفعل او إحدى أخواتها والجامع بينهما (نسخ الجملة بعدهما) ولهذا الحمل دلالة ثانية أضافها الى الدلالة الأولى للتركيب او توسُّعٌ بالمعنى أداه التوسع في التركيب في ضوء نظام المشابهة الذي تبنى عليه العربية بكل مستوياتها. فهي عملية تشبيه يمكن توضيحها بالآتي:

- المشبه: ليس
- المشبه به: إنّ
- الجامع بينهما: النسخ والفعلية الناقصة.

(٩٦) ينظر: الكشاف ١٠٨، ١٣٥، ١٩٨، ٤٣٧، ٤٤٠، ١٠٦٨ وغيرها.
(٩٧) البحر المحيط ٢/ ١٣١.
(٩٨) تفسير ابن عرفة ١/ ٢٢١.
(٩٩) التحرير والتنوير ٢/ ٤٩٩.

- الفائدة الدلالية (المعنى الثاني): التوكيد

وقد شبهها ابن رستويه بـ (ما) "أراد الحكم عليها بأنها حرف" لان (ليس) لا يتقدم خبرها على اسمها إلا نادراً. وقد ردّ ذلك أبو حيان[١٠٠].

المعنى الثاني معنى بلاغي متحرك قد يختلف من متخصص باسلوب القرآن الى آخر. إلا إننا أردنا تطبيق نظام العربية في مستواه البلاغي على شواهد العدول في اسلوب القرآن الكريم بعد اثبات نظام المشابهة في العربية، وهذا أولى من تأويل النحاة وتقديراتهم بحسب مناهجهم العقلية.

ولم يتعرّض بعض المفسرين لهذا العدول كالفراء والزمخشري وابن اجروم إمّا لانهم عدوه من المتشابه وتجنبوا تناول المتشابه والخوض فيه، او لعدم قناعتهم بتوجيه النحاة له او غير ذلك[١٠١].

العدول الثاني في الشاهد المذكور: نصب (الصابرين) والظاهر انه معطوف على مرفوعات قبله. وعللوا ذلك بأنه انتصب على المدح. قال ابو علي الفارسي: "إذا ذكرت الصفات الكثيرة في معرض المدح والذم، الأحسن أن تخالف بإعرابها ولا تجعلها كلها جارية على موصوفها، لان هذا الموضع موضع إطناب في الوصف والإبلاغ في القول، فإذا خولف إعراب الأوصاف كان المقصود أكمل، لان الكلام عند الاختلاف يصير كأنه أنواع من الكلام، وضروب من البيان، وعند الاتحاد في الإعراب يكون وجهاً واحداً او جملة واحدة"[١٠٢].

وقال ابن عاشور: "نصب على الاختصاص على ما هو المتعارف في كلام العرب في عطف النعوت من تخيير المتكلم بين الإتباع في الإعراب للمعطوف عليه وبين القطع...إذ لا يعرف ان المتكلم قصد القطع إلا بمخالفة الإعراب، فأما النصب فبتقدير فعل مدح او ذم بحسب المقام، والأظهر تقدير فعل أخص لأنه يفيد المدح بين الممدوحين والذم بين المذمومين"[١٠٣].

(١٠٠) البحر المحيط ٢/ ١٣٠.
(١٠١) ينظر: معاني القرآن ١/ ٤٥، الكشاف ١١٠٨، مشكل اعراب القرآن ١/ ٣٩.
(١٠٢) ينظر: البحر المحيط ٢/ ١٤٠.
(١٠٣) التحرير والتنوير ٣/ ٥٠٠-٥٠١.

وعن الكسائي: انه نُصبَ عطفاً على مفاعيل (آتى)، أي وآتى المال الصابرين أي الفقراء المتعففين.

ومهما كان توجيه النحاة والبلاغيين لهذا الاسلوب فهو اسلوب ورد في ضوء نظام العربية بمستواه البلاغي كالآتي:

- المشبه: المعطوف
- المشبه به: المفعول به
- الوجه الجامع بينهما: التبعية
- الفائدة (المعنى الثاني): تنبيهاً على خصيصة الصابرين ومزية صفتهم التي هي الصبر.

لعل باحثاً غيرنا يرى وجهاً آخر للمشابهة في هذا الاسلوب أقرب مما ذكرناه ذلك ان بعض شواهد نظام العربية خفية وبعضها واضحة ولاسيما في الشواهد التي تناولناها في فصل (العدول النظامي)، فحمل الكلام بعضه على بعض اكثر وضوحا كشواهد الحمل على المعنى والحمل على الموضع والعطف على المعنى والتضمين والتناوب والتخالف السياقي وغيرها.

نعود الى العدول الاول في الشاهد وهو حمل النواسخ بعضها على بعض في العمل والدلالة، فقد استعمل اسلوب القرآن ذلك في مواضع عديدة، لفوائد دلالية بلاغية أما الجامع بينهما فهو دخولها على الجمل ونسخ إعرابها والفعلية الناقصة.

- قال تعالى: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ ٱلْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَن يَقُولُواْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَاۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ﴾ [سورة النور:٥١].

قال الزمخشري: قرئ بالرفع "والنصب أقوى، لأنه أولى الاسمين يكون اسماً لكان اوغلها في التعريف، و(أن يقولوا) أوغل لأنه لا سبيل عليه للتنكير بخلاف (قول المؤمنين)[١٠٤].

- ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ جَوَابَ قَوْمِهِۦٓ إِلَّآ أَن قَالُوٓاْ أَخْرِجُوهُم مِّن قَرْيَتِكُمْۖ إِنَّهُمْ أُنَاسٌ يَتَطَهَّرُونَ﴾ [سورة الأعراف:٨٢].

قال الزمخشرب: "يعني ما أجابوه بما يكون جواباً عمّا كلمهم به لوط عليه السلام"[١٠٥]

(١٠٤) الكشاف ٧٣٤.

(١٠٥) الكشاف ٧٣٤. وينظر: مشكل اعراب القرآن، ابن آجروم ١٦٢

والاسلوب اسلوب قصر أي لا جواب لديهم غير هذا لإصرارهم على الكفر.

ولم يشر الى هذا العدول وكذلك ابن اجروم، ذكرا انه قرئ بالرفع دلالة على انّ أكثر القراءات كانت انسجاماً مع الوجهة النحوية.

- وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ قَوْلَهُمْ إِلَّا أَن قَالُوا رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَإِسْرَافَنَا فِي أَمْرِنَا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾[سورة آل عمران:١٤٧]، بنصب (قولهم).

قال أبو حيان:"وحصر قولهم في ذلك القول، فلم يكن ملجأ ولا مفزع إلا الى الله تعالى، ولا قول إلا هذا القول"..."و(أن قالوا) في موضع الاسم وجعلوا ما كان اعرف الاسمين لان (إن) وصلتها تنزل منزلة الضمير. و(قولهم) مضاف للضمير تنزل منزلة العلم. وقرأت طائفة... برفع قولهم"[١٠٦]، ولم يتناول الزمخشري هذا العدول[١٠٧].

- ومنه حمل (إن) المكسورة الهمزة على (أن) المفتوحة الهمزة ووجه الشبه بينهما واضح ،والفائدة اتساع المعنى، او حمل الفاء الرابطة بين جملتي الشرط وجوابه على الفاء العاطفة.

- قال تعالى: ﴿كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُ يُضِلُّهُ وَيَهْدِيهِ إِلَىٰ عَذَابِ السَّعِيرِ﴾ [سورة الحج:٤]، فيمن يتبع الشيطان بفتح همزة (أن يضله).

- وقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَعْلَمُوا أَنَّهُ مَن يُحَادِدِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَأَنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا ذَٰلِكَ الْخِزْيُ الْعَظِيمُ﴾ [سورة التوبة:٦٣]، بفتح همزة (فأنّ).

- وقوله تعالى: ﴿أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة التوبة: ٣] معطوف على محل (إن) المكسورة واسمها[١٠٨] فهو من باب الحمل على الموضع.

- وقد يأتي بعد الواو منصوب كقوله تعالى: ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا يُحَلَّوْنَ

(١٠٦) البحر ٣/ ٣٧٣.
(١٠٧) الكشاف ١٩٨.
(١٠٨) الكشاف ٤٢٣.

فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِن ذَهَبٍ وَلُؤْلُؤًا وَلِبَاسُهُمْ فِيهَا حَرِيرٌ﴾ [سورة فاطر:٣٣]، قال الزمخشري في تفسير سورة فاطر: (لؤلؤاً) معطوف على محل (من أساور). وقدّر في تفسير سورة الحج على: (ويؤتون لؤلؤاً)(١٠٩).

القول الأول أقرب الى نظام العربية، والقول الثاني أقرب الى الصنعة النحوية.

- ومنه حمل جمع القلة على جمع الكثرة والعكس والجامع بينهما اشتراكهما بالجمعية. قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ وَلَا يَحِلُّ لَهُنَّ أَن يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللَّهُ فِي أَرْحَامِهِنَّ إِن كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٨] (قروء) جمع كثرة، ويرى النحاة هذا الموضع لجمع القلة (اقراء)، قال الزمخشري "يتسعون في ذلك فيستعملون كل واحد من الجمعين مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية)(١١٠)، ونقل الزركشي عن (أهل المعاني): إنما أضاف جمع الكثرة نظراً الى كثرة المتربصات(١١١).

- وكذلك في [سورة يوسف: آية ٤٣ و٤٦]: ﴿وَسَبْعَ سُنبُلَاتٍ خُضْرٍ﴾ جمع قلة. وفي [سورة البقرة آية ٢٦١] قال تعالى: ﴿كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ وَاللَّهُ يُضَاعِفُ لِمَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ٢٦١]، قال ابن هشام: القياس (سنبلات) جمع قلة لكنهم يتوسعون في استعمال احدهما مكان الآخر لاشتراكهما في الجمعية. فالمشبه: جمع القلة والمشبه به: جمع الكثرة، والسبب: الاشتراك في الجمعية، أما التوسع بالمعنى (سبع سنابل) للدلالة على الكثرة مما يضاعفه الله تعالى للمنفقين.

- ومن شواهد العدول التي تدل على نظام العربية او التوسع في ضوئه قوله تعالى: ﴿وَلَا تَمْنُن تَسْتَكْثِرُ﴾ [سورة المدثر:٦]، برفع (تستكثر) والظاهر انه جواب طلب. قال الزمخشري:"مرفوع، منصوب المحل

(١٠٩) الكشاف ٨٨٧، ٦٩٣.
(١١٠) نفسه ١٣٢، ١٤٩.
(١١١) البرهان ٤/ ١١٩ والكشاف ١٣٢.

على الحال. أي: ولا تعط مستكثراً رائياً لما تعطيه كثيراً أو طالباً لكثير»[١١٢] والخطاب للرسول ﷺ.

- وقوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِى فَٱضْرِبْ لَهُمْ طَرِيقًا فِى ٱلْبَحْرِ يَبَسًا لَّا تَخَٰفُ دَرَكًا وَلَا تَخْشَىٰ﴾ [سورة طه:٧٧]، والظاهر أن لا ناهية وكان حق الفعل بعدها الجزم. قال الزمخشري:"لا تكون الألف المنقلبة عن الياء التي هي لام الفعل ولكن زائدة للإطلاق من اجل الفاصلة"[١١٣] قد يكون حمل (لا) الناهية على (لا) النافية لاشتراكهما في النفي والحرفية، لفائدة ان موسى عليه السلام منفي عنه الخوف كونه يؤمن بنصر الله تعالى.

- وقال تعالى: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِى ٱلصُّورِ نَفْخَةٌ وَٰحِدَةٌ﴾ [سورة الحاقة:١٣]، برفع (نفخة) والظاهر أنها مفعول مطلق حكمه النصب. قال ابن طيبة:"لما نعت صحّ رفعه"وقال أبو حيان:"ولو لم ينعت لصحّ لان (نفخة) مصدر محدود ونعته ليس بنعت تخصيص، انما هو نعت توكيد»[١١٤].

قال الباقلاني في شواهد العدول عن القياس النحوي:"ويمكن ان يكون فَعَلَ ذلك (تعالى) ليحثَّ الأمة على حفظ كتابه وطرق إعرابه والفحص عن باقي ألفاظه لما أنزل فيه من هذه الوجوه الغريبة والأحرف الشاذة"[١١٥].

كل هذه الشواهد وغيرها التي تحوي عدولاً عن القياس النحوي إنما أراد بها وجهاً ومعنىً بلاغياً اعجازياً[١١٦] ادلى فيه بعض البلاغيين والمفسرين بدلاءٍ مختلفة وسمّاها البلاغيون اسراراً ثانية وصنّفوا فيها كتباً وبحوثاً كثيرة ولاسيما لدى المعاصرين فيما سمّي بالاسلوبية العربية الإسلامية كسيد قطب والرافعي والدكتورة عائشة بنت الشاطئ وغيرهم[١١٧] استلهموا

(١١٢) الكشاف ١١٥٤.
(١١٣) نفسه ٦٦٤.
(١١٤) البحر المحيط ١٠/ ٢٥٧.
(١١٥) نكت الانتصار ١٣٤.
(١١٦) ينظر: المعاني الثانية في اسلوب القرآن الكريم ٣٢٦ وما بعدها.
(١١٧) ينظر: التصوير الفني في القرآن ١٩٣ وما بعدها و(في ظلال القرآن)، مقدمة التفسير، وإعجاز القرآن والبلاغة النبوية ٧، ٣٢ والتفسير البياني ٥.

فيها بعض التراث البلاغي ولاسيما الامامان عبد القاهر والزمخشري ومن تبعهما. وكلها ايضاً وردت ضمن نظام العربية الذي يقوم على المشابهة وتعلق الكلام بعضه برقاب بعض، وإنما خرج عن النظام النحوي المنطقي الافتراضي. لكن بيان ذلك يحتاج إلى تدبر وتمرّس في معرفة أنظمة العربية الخاصة بها، فبعضه ظاهر واضح، وبعضه الآخر دقيق خفي لكنه لا يخرج عن ذلك النظام.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَى ذِكْرِ اللَّهِ ذَلِكَ هُدَى اللَّهِ يَهْدِي بِهِ مَن يَشَاءُ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ﴾ [سورة الزمر:٢٣].

لقد أشار الله تعالى في هذه الآية الكريمة التي اختلفوا في تفسيرها اختلافاً كبيراً ولاسيما في دلالة (كتاباً متشابهاً مثاني) أشار الى النظام المعجز الذي تبنى عليه عربية القرآن الكريم. وأشار أيضاً الى أن الوقوف عليه يشترط هداية من الله وتوفيقاً وموهبة. وان الوقوف على حقيقته الاعجازية (تقشعر منه الجلود) ويبدو أن تسمية (المتشابه) تشير الى نظام العربية أيضاً.

والآية الكريمة من الشواهد الواضحة على المعنى الحركي في النصّ القرآني الذي لا ينقضي مع الزمن ولا تنتهي أسراره بحسب التدبر والدراسة وهداية الله تعالى، فالمعنى الذي ذكرناه للآية الكريمة معنى جديد والآية تحتمله احتمالاً واضحا والله اعلم، نسأل الله الهداية والاّ نقول في كلامه شططاً والحمد لله رب العالمين.

خاتمة

إنّ الدراسات القرآنية الأولى كانت تفسّر العدول في النص القرآني على انه من أساليب العرب ومجازاتها وسننها وطرائقها في كلامها الذي نزل القرآن بها ذلك أنهم فهموا من التحدي الذي وجهه القران الكريم إلى العرب أن لغة القران هي لغة العرب نفسها من غير اختلاف وهو استدلال منطقي، فكانوا يقارنون بينه وبين الشعر القديم الذي لم يسلم من الوضع إلاّ نادراً.

أما المنهج النحوي فيُعنى بالشكل والاطراد العقلي المنطقي ونظرية العمل ويلجأ إلى التأويل والتقدير والتعليل العقلي في الغالب، ويعالج ما يعدل عن الأصول النحوية التي قررها النحاة من صور الجملة الاسمية والفعلية وملحقاتها ورتبة كل مكّون من مكوناتها، ليعيد العبارة إلى أصولها، لكنه لا يعمد إلى التفاصيل الفنية للمعنى كما لدى البلاغيين في منهجهم الفني الذي يعنى بتفاصيل الدلالة إلاّ إنه اعتمد المنهج النحوي في تقدير الأصول اللغوية المفترضة من أصل القاعدة وأصل الوضع وأصل المعنى.

إنّ لغة القران مبنية على نظام خاص بها، نظام استعمالي واحد منتشر في كل مستوياتها: الصرفي والنحوي والبلاغي وغيرها. يزيدها ترابطاً وتماسكاً بين مكوناتها اللفظية وبين دلالاتها من جهات مختلفة، من خلال انسياقها في ضوء نظام واحد متجانس متعلق بعضه برقاب بعض، وأقصد بالواحد إنّ النظام الصرفي يشبه النظام النحوي وكلاهما يشبهان النظام البلاغي وهكذا كل أنظمة مكونات لغة القران يحكمها(نظام المشابهة) ويربطها النظام نفسه ويشد بعضها الى بعض، وهذا سبب روعة أسلوب القرآن وجماله وتماسكه وعذوبة نغماته وترابط دلالاته مما بهر السامعين ولا سيما المتذوقين.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم.
- الإتقان في علوم القرآن، جلال الدين السيوطي (ت٩١١هـ)، تحقيق محمد أبو الفضل ابراهيم، مكتبة المشهد الحسيني، القاهرة، (د.ت).
- أثر النحاة في البحث البلاغي، د. عبد القادر حسين القطّ، دار نهضة مصر، القاهرة ١٩٧٢.
- أسرار البلاغة، الأمام عبد القاهر الجرجاني (٤٧١هـ)، تحقيق محمد رشيد رضا، ط١، دار المعرفة، بيروت ٢٠٠٢.
- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، مصطفى صادق الرافعي، تحقيق: محمد سعيد العريان، مطبعة الاستقامة، القاهرة ١٩٥٢.
- الانزياح في الموروث النقدي والبلاغي، عباس رشيد الدرة، اطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة بغداد ١٩٩٧.
- درة التنزيل وغرة التأويل، الخطيب الاسكافي

(٤٠٢هـ)، منشورات دار الافاق الجديدة، ط١ ،بيروت١٩٧٣.
- دلائل الإعجاز، الإمام عبد القاهر الجرجاني (٤٧هـ)، ط١، تعليق وشرح: محمد عبد المنعم خفاجي، مكتبة القاهرة، مطبعة الفجالة بمصر ١٩٦٩.
- روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني، ابو الفضل محمود الألوسي، (١٢٧٠هـ)، دار إحياء التراث العربي، بيروت، (د.ت).
- زيادة الحروف بين المنع والتأييد، د. هيفاء عثمان، ط١. بيروت
- سر صناعة الإعراب، أبو الفتح عثمان بن جني (٣٩٢هـ)، ط١، تحقيق: محمد اسماعيل واحمد رشدي. منشورات محمد علي بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت٢٠٠٠.
- سر الفصاحة، ابن سنان الخفاجي (٤٦٦هـ) تصحيح وتعليق: عبد العال الصعيدي، مطبعة محمد علي صبيح وأولاده، مصر ١٩٥٣.
- شرح الاشموني على ألفية ابن مالك المسمى: (منهج السالك الى ألفية ابن مالك)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط٢، مطبعة مصطفى البابي الحلبي١٩٣٩.
- الصاحبي في فقه اللغة وسنن العرب في كلامها، احمد بن فارس (٣٩٥هـ)، تحقيق: السيد احمد صقر، مطبعة عيسى الحلبي، القاهرة (د.ت).
- صفاء الكلمة، د. عبد الفتاح لاشين، دار المريخ، مطبعة النهضة، مصر (د.ت).
- (كتاب) الصناعيين، الشعر والنثر، ابو هلال العسكري (٣٩٥هـ) تحقيق: علي البجاوي، محمد ابو الفضل ابراهيم، ط٢، دار الكتاب الحديث، دار الفكر العربي، الكويت١٩٧١.
- على طريق التفسير البياني، د. فاضل السامرائي، جامعة الشارقة، الامارات العربية المتحدة ٢٠٠٢.
- علم الاسلوب مبادؤه وإجراءاته، د. صلاح فضل، مؤسسة المختار للنشر والتوزيع، القاهرة١٩٩٢.
- علوم البلاغة، البيان والمعاني والبديع، احمد مصطفى المراغي، ط٣، دار الكتب العلمية، بيروت١٩٩٣.
- العمدة في محاسن الشعر وآدابه ونقده، ابن رشيق القيرواني (٤٥٦هـ)، تحقيق: محمد محي الدين عبد الحميد، ط١، المكتبة التجارية الكبرى، مطبعة حجازي، القاهرة١٩٣٤.
- الفلك الدائر على المثل السائر، ابن ابي الحديد، تحقيق: احمد الحوفي ود. بدوي طبانة، ملحق بكتاب (المثل السائر)، دار نهضة مصر، القاهرة، (د.ت).
- الفوائد المشوق الى علوم القرآن وعلم البيان، ابن قيم الجوزية (٧٥١هـ)، دار الكتب العلمية، بيروت (د.ت).
- القياس النحوي بين مدرستي البصرة والكوفة، محمد عاشور السويح، الدار

الجماهيرية للنشر، مصراته، دار الكتب الوطنية، بنغازي ١٩٨٦.
- الكامل، ابو العباس محمد بن يزيد المبرد (٢٨٥هـ)، تحقيق: محمد ابو الفضل ابراهيم، والسيد شحاته، دار نهضة مصر بالفجالة (د.ت).
- الكتاب، ابو بشر عمرو بن عثمان سيبويه (١٨٠هـ)، تحقيق: عبد السلام محمد ها رون، مكتبة الخانجي، القاهرة، دار غريب للطباعة١٩٨٨.
- نظام القرآن مقدمة في المنهج اللفظي، السيد عالم سبيط النيلي، ط٢، مكتبة بلوتو، بغداد ٢٠٠٣.
- نظرية اللغة في النقد العربي، د. عبد الحكيم راضي، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٩٨٠.
- نظرية النحو العربي، د. كمال شاهين، ط١، دار الفكر العربي، القاهرة ٢٠٠٢.
- نكت الانتصار لنقل القرآن، ابو بكر الباقلاني (٤٠٣هـ)، تحقيق: محمد زغلول سلام، منشأة المعارف بالاسكندرية، دار بور سعيد للطباعة ١٩٧١.
- النكت في إعجاز القرآن، ابو الحسن علي بن عيسى الرماني (٣٨٤ هـ)، ضمن كتاب (ثلاث رسائل في اعجاز القرآن)، تحقيق: محمد خلف الله والدكتور محمد زغلول سلام، ط٢، دار المعارف بمصر ١٩٦٨.
- النيابة النحوية في القرآن الكريم وأنماطها ودلالاتها، د. هادي نهر، ط١، صنعاء ٢٠٠٢.

الدوريات:
- الاسلوب بين التراث البلاغي العربي والاسلوبية الحداثية، د. محمد بلوخي، مجلة التراث العربي، ع ٩٥، ايلول ٢٠٠٤.
- إطار التطبيق في الاسلوبية العربية، د. محمد الهادي الطرابلسي، مجلة الموقف الأدبي، اتحاد كتاب العرب بدمشق، ع ١٣٥ و١٣٦ تموز وآب ١٩٨٢.
- البناء الفني في سورة مريم، د. حامد عبد الهادي حسين، مجلة قبس العربية، كلية التربية الأساسية، الجامعة المستنصرية، ع١، ٢٠٠٥.
- تيسير النحو العربي بين المحافظة والتجديد (عباس حسن انموذجاً)، د. حسن منديل، مجلة كلية التربية للبنات، مج ١٣، ع ٢، ٢٠٠٢.
- القاعدة النحوية في ضوء تقييدها بأمن اللبس او خشية الوقوع فيه، د.ابراهيم محمد، مجلة التراث العربي، ع ١٨، السنة ٢٦.
- اللغة العربية والحداثة، د. تمام حسان، مجلة فصول، مج ٤، ع٣، ١٩٨٤.
- من أسرار نزع الخافض في القرآن الكريم، د. يوسف الانصاري، مجلة ام القرى، ج ١٦، ع ٢٨، شوال ١٤٢٤، ص ٧١١.
- نظرات في إعجاز القرآن، د. حسن منديل، مجلة كلية التربية للبنات، ج٢، ١٩٦٢

ملخص البحث

كانت المجلة قد نشرت القسمين الاول والثاني من هذا البحث القيمّ في العددين السابقين وبقي أن تنشر القسم الثالث والاخير منه في هذا العدد.

وفيه يستمر السيد الباحث بتجريد رد العلامة الكبير الشيخ محمد جواد البلاغي على من أسماه بـ(المتكلف) الذي حاول أن يرسم في القرآن الكريم أغاليط تاريخية في ايراد بعض الحوادث والأسماء التي وردت في (الكتاب المقدس) بعهديه: القديم والجديد. وقد قام السيد الباحث بالتوسع في شرح تلك الردود بما اوتي من علم باللغة العبرية وتفاصيل الكتاب المقدس، مستنداً الى اوثق المصادر العربية منها والاجنبية ومصادر التوراة المنشورة باللغة العبرية.

الشيخ البلاغي وعلم الاديان المقارن
-شبهات المستشرقين حول القرآن الكريم-
-القسم الثالث-

ا.م. ستار الفتلاوي
كلية الآداب / جامعة القادسية
معهد الدراسات السامية والعربية / جامعة برلين / المانيا

- (סִינַי، סִינָי/ سيني، سيناي): سيناء
- تناول البلاغي اسم (طورسينين)، وكيف انه جاء في القرآن الكريم بهذه الصيغة، قائلاً: "لهذا المسمى في العربية اسمان (سيناء) و(سينين)، كما انه يسمى في العبرانية في العهد القديم مرة (سيني) بفتح النون بالفتحة الخالصة، واسكان الياء بعدها... ويسمى مرة اخرى (سيناي) بفتح النون بالفتحة المشالة على الالف"[1].

واذا رجعنا الى التوراة وجدنا هذا الاسم فيها يأتي بصيغتين -وهو ما اشار اليه البلاغي -هما:

الاولى: (סִינַי/ سِينَي) جاءت في (٢٠) موضعاً من التوراة: خروج ١٩: ٢، ١٨، ٢٠، ٢٤: ١٦، ٣١: ١٨، ٣٤: ٢، ٤، ٢٩، لاويين ٢٥: ١، ٢٦: ٤٦، العدد ٣: ٤، ١٤، ٩: ١، ١١: ١، ٢٨: ٦، تثنية الاشتراع ٣٣: ٢، نحميا ٩: ١٣، قضاة ٥: ٥، مزامير ٦٨: ٩، ١٨.

الثانية: (סִינַי/ سيناي) وجاءت في (١٤) موضعاً من التوراة: خروج ١٦: ١، ١٩: ١، ١١، ٢٣، ٣٤: ٣٢، لاويين ٧: ٣٨، ٢٧: ٣٤، العدد ١: ١٩، ٣: ١، ٩: ٥، ١٠: ١٢، ٢٦: ٦٤، ٣٣: ١٥، [2] ١٦.

(١) البلاغي. الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص٤٤.

(٢) אבן שושן, אברהם. קונקורדנציה החדשה, כרך שני ט-ס, עמ' 1506-1505.

وقد جاءت لفظة (הַר/ هَر):الجبل، قبل هذه الكلمة في (٢٠) موضعاً من التوراة كاشارة الى جبل سيناء، اما المواضع الاخرى في التوراة فقد جاءت للدلالة على الصحراء الكبيرة في سيناء بين ارض كنعان ومصر.

وسيناء اسم جبل يُطلق عليه ايضاً (جبل حوريب) واسم البرية المحيطة به، وقد قضى العبرانيون عند هذا الجبل سنة في طريقهم من مارّة وايليم والبحر الاحمر، من مايو الى ابريل، ووصلوا اليه بعد قيامهم من مصر بثلاثة اشهر، وكانت تحيط بهذا الجبل برية كافية لان يعسكر فيها العبرانيون كلهم لمدة سنة، وقد اعطى الله الشعب العبراني الوصايا العشر من على هذا الجبل، وعمل معهم العهد ان يكون الهاً لهم وان يكونوا شعباً له، ويبدو ان النبي ايليّا قد ذهب اليه بعد هروبه من ايزابل [٣].

ويذكر الدكتور احمد سوسة ان سيناء هي شبه جزيرة سيناء المشهورة الواقعة شمال شرقي مصر، وان فيها الجبل الذي صعد اليه النبي موسى + لتلقي الشريعة، والمسمى جبل سيناء او جبل الله، وانه مشتق من اسم اله القمر (سين) معبود اهل جزيرة العرب [٤].

ويبدو ان (طور سينين) مكوّن من كلمتين، الاولى (طور):الجبل، وقد وردت هذه الكلمة في القرآن الكريم (١٠) مواضع [٥]. جاءت مرة مع كلمة (سيناء) في [سورة المؤمنون:٢٠]، قال تعالى:﴿وَشَجَرَةً تَخْرُجُ مِن طُورِ سَيْنَاءَ تَنبُتُ بِالدُّهْنِ وَصِبْغٍ لِّلْآكِلِينَ﴾ وثانية مع كلمة (سينين) في [سورة التين:٢]، قال تعالى:﴿وَطُورِ سِينِينَ﴾ [٦].

ويلاحظ ان كلمة (الطور):الجبل، حيثما جاءت في القرآن الكريم كانت تشير

(٣) قاموس الكتاب المقدس.ص ٤٩٨.

(٤) سوسة، د. احمد.العرب واليهود في التاريخ، ط ٢، دار الاعتدال، دمشق (د.ت)، ص ٤٧٧.

(٥) [سورة البقرة:٦٣، ٩٣]، [سورة النساء:١٥٤]، [سورة مريم:٥٢]، [سورة طه: ٨٠]، [سورة المؤمنون:٢٠]، [سورة القصص :٢٩، ٤٦]، [سورة الطور:١]، [سورة التين:٢].

(٦) انظر:عبد الباقي.المعجم المفهرس، ص ٥٠٦، ٥٨١.

الى جبل معين، وهو الجبل الذي كُلّم عليه موسى عليه السلام[٧]، ويعتقد انه من الالفاظ السريانية او من الالفاظ المشتركة بين اللغات السامية.

ويبدو ان كلمة (سينين) لغة في كلمة (سيناء) اذ هما بمعنى واحد[٨]، وقد ارجع بعضهم سبب هذا التغيير الى كون هذه الكلمة تعد من الاسماء الاعجمية التي اذا وقعت الى العرب غيّرتها بضروب من التغيير، فيقولون ابراهيم وابراهم وابراهام وهكذا ايضاً سيناء وسينين[٩].

ويُرجع الدكتور كاصد الزيدي كلمة (سينين) التي جاءت في سورة التين، الى التناسب الموسيقي، اذ ان (طورسينين) تتناسب في الجرس الموسيقي مع (التين والزيتون)[١٠].

ونرى البلاغي يُعبر تعبيراً واضحاً ودقيقاً، يرد فيه على اعتراض المتعرب على عربية القرآن باستعماله بعض الألفاظ التي يدّعي انها أعجمية في الأصل، فيقول :"ان من المعروف في جميع اللغات انها قد تتداخل وتنقل اللفظة من لغة إلى لغة أخرى فتكون بهذا الأخذ في اللغة الثانية كسائر موضوعاتها الخاصة، قد كثر ذلك في الأسماء في كل لغة، فالذي ينقل من لغة إلى اللغة العربية يسمى معرباً، أي صار عربياً بعد ان كان غير عربي، وذلك كغالب أسماء الأنبياء، فلا يلزم بعد ذلك في فصيح العربية اجتنابها، بل ان الألفاظ المعترض بها لا مناص في الفصاحة والبلاغة وحسن البيان عن استعمالها لأنك تعلم ان مثل السندس، والإستبرق، والنمارق، والقسطاس الذي هو ميزان

(٧) ابن دريد.ابو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ).جمهرة اللغة، تحقيق الدكتور رمزي منير البعلبكي، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧، ج ٢، ص ٧٦١.

(٨) الراغب الاصفهاني، ابو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٥٠٢ هـ).معجم مفردات القرآن الكريم، تحقيق:نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٢، ص ٣١٨.

(٩) النحاس، ابو جعفر احمد بن محمد بن اسماعيل (ت ٣٣٨ هـ).اعراب القرآن، تحقيق الدكتور زهير غازي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٩، ج ٢، ص ٧٦٧.

(١٠) الزيدي، د. كاصد ياسر.الطبيعة في القرآن الكريم، المركز العربي للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠، ص ١٩٤.

خاص مبني على الدقة، كل هذه لم تكن من صناعة العرب ولا متداولة عندهم ليضعوا لها الأسماء من لغتهم ابتداءً، بل لم يكن يستعملها إلا ملوك الحاضرة ومترفوهم، فاكتفوا في تسميتها بلغتهم بتعريب أسمائها، فلا يمكن البيان عن حقائق مسمياتها إلا بأسمائها، ولو عدل عن أسمائها المذكورة إلى نحو آخر من التعبير لما تيسر بيان المسميات على ما ينبغي ولو بطول الكلام الفارغ"[11].

- (מִיהוּדָה/ مِيهودا): من يهوذا

- ذكر البلاغي من جملة شواهد التوراة في نسب الكذب والخداع الى الانبياء، ما ذكر في الثالث عشر من الملوك الأول، ان الشيخ النبي الساكن في بيت إيل الموصوف بانه كان اليه كلام الرب للتبليغ قد كذب على شمعيا رجل الله بدعوى الوحي وتكليم ملاك الرب له حتى حمله بكذبه على الله وعليه، وخداعه بدعوى الوحي على مخالفة امر الله واوقعه في هلكة النكال، وكيف حاول مترجم الترجمة العربية للتوراة المطبوعة سنة ١٨٨١م ان يجعل هذا النبي من الكاذبين في اصل دعوى النبوة، لاجل ان يتخلص من الاعتراض عليهم بكذب النبي الحقيقي في التبليغ، فحرف الفقرة العشرين من ثالث عشر الملوك الأول وزاد المترجم على الاصل العبراني لفظ يأكلان، ولفظ النبي الكاذب[12]. ونص الآية باللغة العبرية تخلو من لفظ (يأكلان) و(النبي الكاذب).

(الملوك الأول ١٣: ٢٠)

וַיְהִי הֵם יֹשְׁבִים אֶל-הַשֻּׁלְחָן וַיְהִי דְּבַר-יְהוָה אֶל-הַנָּבִיא אֲשֶׁר הֱשִׁיבוּ. ٢١ וַיִּקְרָא אֶל-אִישׁ הָאֱלֹהִים אֲשֶׁר בָּא מִיהוּדָה לֵאמֹר כֹּה אָמַר יְהוָה יַעַן כִּי מָרִיתָ פִּי יְהוָה...

فيهي هيم يوشفيم إيل هشّولحان فيهي دِفَر يهوه إيل هنّافي أشير هيشيفو. ٢١ فيقرا إيل إيش هاإيلوهيم أشير با ميهودا ليثمور كو آمَر يهوه يَعَن كي ماريتا بي يهوه...

وكان (هم) جالسين على المائدة وكان كلام الله الى النبي الذي رده. ٢١ ودعا رجل الله الذي جاء من يهوذا قائلاً هكذا

(١١) البلاغي. الهدى الى دين المصطفى، ج ٢، ص ٥٨.

(١٢) انظر: البلاغي. الهدى الى دين المصطفى، ج ١، ص ٨٤-٨٥.

قال الله لأنك عصيت قول الله...

(מִיהוּדָה/ مِيهودا): من يهوذا، هذه الكلمة مكوّنة من (מִ/ مِ) يهودا)، (מִ/ مِ) مختصر لحرف الجر في اللغة العبرية (מִן/ مِن): من، منذ، لأن[١٣].

وهذا الحرف يشكل بالكسر (الحريق) (מִן/ مِن) اذا تلاه اسم معرّف بهاء التعريف، مثل: (מִן הָאִישׁ/ مِن هاإيش): من الرجل، اما اذا تلاه اسم منكر حُذفت منه النون وادغمت في الحرف الأول من هذا الاسم، واصبحت جزءاً من الاسم، مثل: (מִבַּיִת/ مِبّيت): من بيت، واذا كان الحرف الأول من الاسم حرفاً حلقياً فان حرف الـ (מ/ م) يُشكل بالكسر المال (الصيريه) عوضاً عن الكسر (الحريق) ويخلو الحرف الحلقي من الشدة، مثل: (מֵהָר/ مِهار): من جبل[١٤].

ويذكر قاموس العهد القديم ان هذه الأداة في الفينيقية (מ/ م) والآرامية (מִן/ مِن) والعربية (مِن) والسبئية (بن/ بن)[١٥].

جاءت هذه الاداة (מִן/ مِن) في العهد القديم (١٣٢٣) مرة، منها: تكوين ٢:٦، ٧، ١٩:٢٤، ٣١:١٣، خروج ٩:١٥، لاويين ٢٠:٤، عدد ١٨:٢٦، مزامير ١٠٤:١٤، ٣٥[١٦].

و(יְהוּדָה/ يِهودا) اسم مفرد مؤنث، وهو اسم المملكة الاسرائيلية في اورشليم، ذلك ان مملكة اسرائيل انقسمت بعد النبي سليمان الى مملكتين، الشمالية وعاصمتها (السامرة)، والجنوبية وعاصمتها (اورشليم).

وقد جاءت هذه الكلمة في العهد القديم (٨٠٠) مرة، جاءت في (٤٢) موضعاً، تدل على اسم (يهوذا) ابن يعقوب الرابع، منها: تكوين ٢٩:٣٥، ٣٧:٢٦، عدد ٢٦:١٩، نحميا ١١:٢٤، وجاءت في (٧٥٨) موضعاً للدلالة على سبط

(١٣) אבן שושן.המלון החדש, כרך רבי-עי מ-ס, עמ" 1385 ؛ قوجمان.قاموس عبري-عربي، ص ٤٤٩.

(١٤) ילין, דוד.דקדוק הלשון העברית.עמ" 138 ؛ كمال.دروس اللغة العبرية، ص ١٢٨-١٢٩ ؛ عليان.قواعد اللغة العبرية، ص ١٠٧-١٠٨.

(١٥) Brown.A Hebrew and English Lexicon , p. 577.

(١٦) אבן שושן.קונקורדנציה החדשה, כרך שני ט-ס, עמ" 1258-1264.

يهوذا وعلى ارض ملوك بيت داود ومملكة يهوذا، منها: خروج ٣١:٢، ٣٥:٣٠، عدد ١٠:١٤، قضاة ١٥:١٠[١٧].

وجاء في قاموس الكتاب المقدس ان مملكة يهوذا انفصلت عن مملكة اسرائيل الموحدة التي دامت فقط مدة حكم (شاول، داود، سليمان) أي من ١٠١٠ -٩٣١ق.م، وقد ساعدها بعد الانفصال، ان عاصمتها كانت المركز الديني لبني اسرائيل الذين حافظوا على الناموس الموسوي، ثم كانت اقل تعرضاً للهجمات الخارجية، وتسلسل جميع ملوك يهوذا التسعة عشر من عائلة داود، الا عثليا ابنة عمري ملك المملكة الشمالية، ودامت هذه المملكة من سنة ٩٧٥-٥٨٦ق.م، أي ٣٨٩ سنة، وفي سنة ٥٩٧ق.م سقطت اورشليم امام جيش نبوخذنصّر فسبى (٤٠) الفاً من اهلها الى بابل، وفي سنة ٥٨٨ق.م عصى ملك يهوذا صدقيا الكلدانيين، فغزا نبوخذنصّر اورشليم، فخُرّبت المدينة وهُدمت الاسوار، ونفي نحو خمسة الآف من اعيانها مع صدقيا الى بابل (اخبار الأيام الثاني ٣٦:١٩-٢١)[١٨].

- (סֶלַע/ سيلَع)

ذكر البلاغي في قصة النبي موسى عليه السلام وخروج الماء من الحجر، الاعتراض في ان القرآن الكريم ذكر الحجر والتوراة قد سمّته صخرة، ورد البلاغي في ان اسم الحجر المذكور في القرآن يتحمل الصخر كما هو معروف في اللغة العربية وهو في الاصل العبراني (صور وسلع) وقد اعاد على (صور) ضمير المذكر حيث قال (ممنو)-أي منه-(خروج ٦:١٧)، واشار الى (سلع) باسم الاشارة الذكر فقال (هزه) -أي هذا -(عدد ١٠:٢٠)[١٩].

(خروج ٦:١٧):

הִנְנִי עוֹמֵד לְפָנֶיךָ שָׁם עַל הַצּוּר בְּחוֹרֵב וְהִכִּיתָ בַצּוּר וְיָצְאוּ מִמֶּנּוּ מַיִם וְשָׁתָה הָעָם וַיַּעַשׂ כֵּן מֹשֶׁה לְעֵינֵי זִקְנֵי יִשְׂרָאֵל.

هِنِّي عوميد لِفانيها شام عَل هَصّور بحوريف فِهِكّيتا بَصّور فِياصئو مِمّنّو مَيم

(١٧)אבן שושן.קונקורדנציה החדשה, כרך שני ט-ס, עמ" 819-814.

(١٨) انظر:قاموس الكتاب المقدس، ص ١٠٨٧-١٠٨٩.

(١٩) البلاغي.الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٢١٥.

فِشاتا هاعام فَيَّعَس كين موشيه لعيني زِقني بِسرائيل.

تجدني اقف امامك هناك على الصخرة في حوريب، فتضرب الحجرة فتخرج منها ماء يشرب منه الشعب فعل موسى كذلك امام عيون شيوخ اسرائيل.

(عدد ٢٠:١٠):

וַיַּקְהֵלוּ מֹשֶׁה וְאַהֲרֹן אֶת הַקָּהָל אֶל פְּנֵי הַסֶּלַע וַיֹּאמֶר לָהֶם שִׁמְעוּ נָא הַמֹּרִים הֲמִן הַסֶּלַע הַזֶּה נוֹצִיא לָכֶם מָיִם.

فَيَّقَهِلو موشيه فَئهَرون ايت هَقّاهال ايل فِني هَسّالَع فَيّومير لاهيم شِمعو نا هَمّوريم هَمِن هَسّيلَع هَزّيه نوصيم لاخيم مايم.

وجمع موسى وهارون الجماعة امام الصخرة وقال لهم موسى اسمعو ايها المتمردون أنخرج لكم من هذه الصخرة ماء.

وقد جاءت كلمة (צור/ صور): صخرة، في العهد القديم (٧٤) مرة، جاءت في (٧) منها بصيغة الجمع، اذ جاءت بصيغة (צורים/ صوريم): صخور، وهي صيغة جمع مذكر سالم في (٦) مواضع، في: عدد ٢٣:٩، اشعيا ٢:١٨، ٢١، مزامير ٨٨:١٥، ناحوم ١:٦، صموئيل الأول ٢٤:٣، وجاءت مرة واحدة بصيغة (צור-רות/ صوروت) صيغة جمع مؤنث سالم في ايوب ٢٨:١٠ (٢٠).

اما كلمة (סֶלַע/ سيلَع): صخرة، فقد جاءت في العهد القديم (٥٦) مرة، جاءت في (٩) منها بصيغة جمع المذكر السالم (סְלָעִים/ سِلاعيم): صخور، في: صموئيل الأول ١٣:٦، الملوك الأول ١٩:١١، اشعيا ٢:٢١، ٧:١٩، ٣٣:١٦، ٧٥:٥، ارميا ١٦:١٦، ٥١:٢٥، مزامير ١٠٤:١٨ (٢١).

كما دلّت كلتا الكلمتين (צור/ صور) و(סֶלַע/ سيلَع) على الرب، وانه الصخرة التي يُحتمى بها، ولا صخرة سواه (٢٢).

(٢٠) אבן שושן. קונקורד נציה החדשה، כרך שלישי ע-ת، עמ" 1831-1830.

(٢١) שם، כרך שני ט-ס، עמ" 1510.

(٢٢) فقد جاءت (צור/ صور) للدلالة على الرب في العهد القديم (٣٢) مرة، منها تثنية ٣٢:١٥، ١٨، ٣٠، ٣١ (٢)، ٣٧، صموئيل الأول ٢:٢، صموئيل الثاني ٢٢:٣، ٣٢، ٤٧ (٢)، ٢٣:٣، اشعيا ١٧:١٠، ٤٤:٨،

فكلمة (الحجر) التي وردت في القرآن الكريم جاءت بمعنى المذكر، وكذلك كلمتا (צור/ صـور) و(סֶלַע/ سيلَع) في العهد القديم، فقد وردتا -كما بيّنا- بصيغة جمع المذكر السالم، كما تمت الإشارة الى كلمة (צור/ صـور) في الآية اعلاه عن طريق ضمير الغائب المفرد المذكر في الأداة (מִמֶּנּוּ/ مِمِّنّو): منه، وهذه الأداة منحوتة من (מִן/ مِن): من، حرف الجر، وكلمة (מִנּוּ/ مِنّو): منه، المتكونة من حرف الجر (מִן/ مِن) وضمير الغائب (וּ/ او) وهو مختصر (הוּא/ هو): هو، إذ أن إدغام حرف الجر بالضمائر من الأمور الظاهرة في لغة العهد القديم، إذ ورد حرف الجر (من) مدغماً في ضمير الغائب أكثر من (١٤٠) مرة [٢٣].

اما كلمة (סֶלַע/ سيلَع) فقد جاءت الإشـارة اليها باسم الإشـارة (הַזֶּה/ هَزّيه): هـذا، وهو اسم لإشارة للمفرد المذكر القريب [٢٤]، وقد جاء هنا معرفاً باداة التعريف في اللغة العبرية وهي (ה/ هـ)، لأن الإسـم المشار اليه معرفة وهو (סֶלַע/ سيلَع)، ويكون اسم الاشارة بدل من المشار اليه.

- (הוֹשֵׁעַ/ هوشيَّع)
- ذكر البلاغي ان التوراة لم تصرح بنبوة يشوع -أي يوشع- بل ذكرت انه امتلأ روح حكمة اذ وضع موسى عليه يديه [٢٥].

ورد هذا الاسم في العهد القديم على ثلاث صيغ، هي:

١. (הוֹשֵׁעַ/ هوشيَّع)، وهي الصيغة

٤:٢٦، ٢٩:٣٠، مزامير ٣:١٨، ٣٢، ٤٧، ١٥:١٩، ١:٢٨، ٤٧، ٣:٦٢، ٧، ٨، ٢٦:٦٣، ٣٥:٧٨، ٢٧:٨٩، ٤٤، ١٦:٩٢، ١:٩٥، ١:١٤٤، انظر: אבן שושן. קונקורדנציה החדשה، כרך שלישי ע-ת، עמ" 1831-1830.

اما كلمة (סֶלַע/ سيلَع) فقد جاءت (٥) مرات في العهد الجديد للدلالة على الرب وقوته وجبروته، في: صموئيل الثاني ٢:٢٢، مزامير ٣:١٨، ٤:٣١، ٣:٧١، ١٠:٤٢، انظر: אבן שושן. קונקורדנציה החדשה، כרך שני ט-ס، עמ" 1510.

(٢٣) () אבן שושן. קונקורדנציה החדשה، כרך שני ט-ס، עמ" 1263-1262.

(٢٤) ربحي، د. كمال. دروس اللغة العبرية، ص ١٤٧ -١٤٨ ؛ عليان، د. سيد سليمان. قواعد اللغة العبرية، ص ٩٣.

(٢٥) انظر: البلاغي. الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٣١٢، ٣٣٣.

الاصلية لهذا الاسم، وقد ورد (٣) مرات، كما في:العدد ١٣:٨، ١٦، تثنية ٣٢: ٤٤ (٢٦).

٢. (יְהוֹשֻׁעַ/ يِهوشُوَّع)، بالضمة القصيرة الصريحة تحت حرف الشين وتسمى باللغة العبرية (קִבּוּץ/ قُبّوص)، وهي عبارة عن ثلاث نقاط مائلة الى اليمين توضع تحت الحرف، وقد ورد (١٠٣) مرة، منها:خروج ١٧:٩، ١٠، ١٣، ١٤، العدد ٢٧:١٨، ٢٢.

٣. (יְהוֹשׁוּעַ/ يهوشُوَّع)، بحركة الضمة الطويلة الصريحة وتسمى باللغة العبرية (שׁוּרוּק/ شوروق)، وهي عبارة عن نقطة توضع داخل حرف الواو، وقد ورد في موضعين فقط، في:تثنية ٣:٢١، قضاة ٢:٧ (٢٧).

والتسميتان الاخيرتان، اصبح يُسمى بهما بعد ان دعاه موسى بذلك، كما جاء في سفر العدد (١٣:١٦):

... וַיִּקְרָא מֹשֶׁה לְהוֹשֵׁעַ בִּן־נוּן יְהוֹשֻׁעַ.

... فيقرا موشيه لهوشيَّع بن نون يهوشوَّع.

... وسمّى موسى هوشع بن نون يهوشوع.

ومعنى الاسم في صيغة (הוֹשֵׁעַ/ هوشيَّع):مخلص، منقذ، وهو مشتق من الأصل (יָשַׁע/ ياشَع):أنقذ، خلّص، والذي لا يأتي من الوزن البسيط (٢٨)، وهنا جاء من الوزن المزيد بالهاء (הִפְעִיל/ هِفعيل).

ومعناه في صيغتيه (יְהוֹשֻׁעַ، יְהוֹשׁוּעַ/ يهوشوَّع):يهوه خلاص، وهو مكوّن من مقطعين، الاول (/ه/ ي) وهو اختصار للفظ (יְהוָה/ يهوه):اسم الرب، والثاني (הוֹשׁוּעַ/ هوشوَّع):انقذ، خلّص.

وربما يكون الاسم مكوناً من مقطعين، الاول (יְהוֹ/ يهو) وهو اختصار للفظ (יְהוָה/ يهوه):اسم الرب، والثاني (שׁוּעַ/ شوَّع):انقذ، خلّص، وفي هذه الحالة يكون اصل الفعل (שָׁע/ شاع) وهو فعل اجوف

(٢٦) אבן שושן.קונקורדנציה החדשה، כרך ראשון א–ח، עמ" 532.

(٢٧) שם، כרך שני ט–ס، עמ" 837.

(٢٨) אבן שושן.המלון החדש، כרך שלישי י–מ، עמ" 1002 ؛ قوجمان.قاموس عبري –عربي، ص ٣٢٣.

واوي (שׁוּעַ/ شوَّع): استغاث، استنجاد، طلب النجدة[٢٩].

ويُسمّى في العربية بـ (يشوع) او (يوشع).

وجاء في قاموس الكتاب المقدس، ان يشوع هو خليفة موسى، وابن نون من سبط افرايم، ولد في مصر، وكان اولاً خادماً لموسى (خروج ٢٤:١٣)، ذكر اول مرة عند معركة رفيديم، لان موسى عيّنه لقيادة بني اسرائيل (خروج ١٧:٩)، واقامه موسى امام اليعازر الكاهن وكل الشعب وعيّنه خليفة له (عدد ٢٧:١٨ -٢٣)، ثم دعاه موسى قبيل وفاته وسلّمه العمل الذي كان عليه ان يقوم به وفقاً لارادة الله، وقد قاد يشوع معارك الغزو في شمالي كنعان واخذ حاصور وغيرها من المدن (يشوع ١١:١ -١٥)، وقد قام بتقسيم الارض في كنعان بين الاسباط (يشوع ١٣ -٢٢)، وفي آخر حياته دعا كل بني اسرائيل والقى عليهم خطابه الوداعي (يشوع ٢٣، ٢٤)، وكان ايمانه مفتاح نجاحه، وله سفر باسمه ضمن اسفار العهد القديم، ويقع ترتيبه في اول اسفار الانبياء الاولون، ويقع في (٢٤) اصحاح[٣٠].

- (אֵלִיָּה، אֵלִיָּהוּ/ الـيّـا، اليّاهو): الياس، ال ياسين

جاء اسم النبي (الياس) في القرآن الكريم بصيغتين، هما: (الياس) في [سورة الانعام: آية ٨٥]، و[سورة الصافات: آية ١٢٣]، و(ال ياسين) في [سورة الصافات: آية ١٣٠][٣١].

ويفسّر البلاغي مجيء هذا الاسم بصيغتين، ان هذا الرسول لاسمه العبراني في اللغة العربية تعريبان، هما: (الياس) و(ال ياسين)، كما ان اسمه في العبرانية جاء في العهد القديم على وضعين: احدهما (الياه) باشباع فتحة الياء واسكان الهاء بعدها، ثانيهما (الياهو) بضم الهاء وتشديد

(٢٩) אבן שושן. המלון החדש، כרך שביעי ש-ת، עמ" 2639-2638 ؛ قوجمان. قاموس عبري -عربي، ص ٩٢٤-٩٢٥.

(٣٠) انظر: قاموس الكتاب المقدس. ص ١٠٦٨-١٠٧١.

(٣١) انظر: عبد الباقي. المعجم المفهرس. ص ١٠٥.

الواو[٣٢].

وعند تصفحنا للتوراة نجد ان هذا الرسول جاء اسمه فيها بصيغتين، الاولى:(אֵלִיָּה/ ايليّا) في خمسة مواضع، هي:ملوك الثاني ١:٣، ٤، ٨، ١٢، ملاخي ٣:٢٣.

والثانية:(אֵלִיָּהוּ/ ايليّاهو)، وقد وردت في التوراة (٦٣) مرة، في: الملوك الأول ١٧ :١، ١٣، ١٥، ١٦، ١٨، ٢٢، ٢٣، ٢٤ (٢)، ١٨:١، ٢، ٧ (٢)، ٨، ١١، ١٤، ١٥، ١٦، ١٧، ٢١، ٢٢، ٢٥، ٢٧، ٣٠، ٣١، ٣٦، ٤٠ (٢)، ٤١ (٢)، ٤٦، ١٩:١، ٢، ٩، ١٣ (٢)، ١٩، ٢٠، ٢١، ٢١:١٧، ٢٠، ٢٨، الملوك الثاني ١:١٠، ١٣، ١٥، ١٧، ١:٢ (٢)، ٢، ٤، ٦، ٨، ٩، ١١، ١٣، ١٤ (٢)، ١٥، ٣:١١، ٩:٣٦، ١٠:١٠، ١٧، اخبار الايام الثاني ٢١:١٢[٣٣].

ويبدو ان الصيغة الاولى (אֵלִיָּה/ ايليّا) مختصراً للصيغة الثانية، ومعنى الاسم:الهي يهوه، ربي هو الله[٣٤]، وهو مكوّن من مقطعين، الاول (אֵל/ ايل) وهو اسم الرب السامي القديم، الثاني (יָהּ، יְהוָ/ ياه، ياهو) وهو اسم الرب في اللغة العبرية.

وهذا الرسول يُعرف باللغة العربية باسم (الياس) وهي الصيغة اليونانية لهذا الاسم، ويذكر الاب انستاس ماري الكرملي ان العرب عرّبوا هذا الاسم عن اللغة اليونانية لانه اخف من (ايليّا)[٣٥].

فضلاً عن ان اسم (الياس) يوافق اوزان العرب في كلامهم، وكان معروفاً عندهم، وان من اجداد النبي محمدﷺ من اسمه الياس، وهو:الياس بن مضر بن نزار[٣٦].

(٣٢) البلاغي.الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٤٤.

(٣٣) אבן שושן.קונקורדנציה החדשה، כרך ראשון א-ח، עמ" 141.

(٣٤)بدر، محمد.الكنز في قواعد اللغة العبرية، المطبعة التجارية الكبرى، مصر (د.ت)، ص ٣٩.

(٣٥) الكرملي، انستاس ماري.المساعد، تحقيق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٢، ج ١، ص ٢٧٥.

(٣٦) ابن هشام، ابو محمد عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨ هـ).السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة منير، بغداد ١٩٨٦، ج ١، ص ٢٤.

وقصة النبي (الياس) في التوراة هي نفسها التي جاءت في القرآن الكريم، وان كان القرآن الكريم ذكر ذلك بايجاز، قال تعالى:﴿ وَإِنَّ إِلْيَاسَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴿١٢٣﴾ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ أَتَدْعُونَ بَعْلًا وَتَذَرُونَ أَحْسَنَ الْخَالِقِينَ ﴾ [سورة الصافات:١٢٣ -١٢٥].

وقد تناولت التوراة قصة النبي (الياس) بصورة مفصلة [٣٧]، ويبدو ان النبي ايليّا (الياس) قد رُفع الى السماء، اذ ان النبي (ايليّا) ذهب الى الاردن مع اليشع وضرب ايليا الاردن بردائه فانشق الماء وسار النبيّان على اليابسة، ثم جاءت مركبة وفرسان نارية وحملت ايليّا الى السماء وترك رداءه لأليشع [٣٨]، وان الرب سيرسل (ايليّا) النبي قبل يوم الرب العظيم، ويترك بعض اليهود مقعداً خالياً على مائدة عيد الفصح لايليّا، وهو في العهد الجديد يأتي بصيغة (ايليّا)[٣٩].

• (לוּחַ، לוּחוֹת / لوَّح، لوحوت):

لوح، الواح.

ذكر البلاغي في مسألة الالواح التي اعطيت لموسى(عليه السلام)، ان التوراة صرحت في بعض المقامات بأنها لوحان اثنان حيث صرح الاصل العبراني بقوله (شني لوحت)، وفي بعض المقامات قال (لوحت) (خروج ٢٤:١٢)، وهذه في اللغة العبرانية كلمة جمع لا تخرج الى التثنية الا بالتقييد بلفظة (شني) أي اثنين، وان المتكلف اعترض على القرآن في ورود هذه الكلمة بالجمع [٤٠].

جاءت كلمة (לוּחַ/ لـوَّح):لـوح، في العهد القديم (٤٣) مرة، جاءت في (٥) مواضع بهذه الصيغة المفردة، كما في:اشعيا ٨:٣٠، ارميا ١:١٧، امثال ٣:٣، ٣:٧، نشيد الاناشيد ٩:٨)، وجاءت بصيغة جمع المؤنث السالم (לוּחוֹת/ لوحوت):الواح، اذ ان (וֹת/ وت) علامة الجمع المؤنث السالم في اللغة العبرية، في (٣٨) مرة، كما في:خروج ٢٤:١٢، ٢٧:٨، ٣١:١٨ (٢)، ٣٢:١٥ (٢)، ١٦ (٢)، ١٩، ٣٤:١ (٣)،

(٣٧) انظر:سفر الملوك الاول، وسفر الملوك الثاني.

(٣٨) انظر:سفر الملوك الثاني ٢:١ -١٨.

(٣٩) قاموس الكتاب المقدس.ص ١٤٥.

(٤٠) البلاغي.الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٢٢١-٢٢٢.

٤ (٢)، ٢٨، ٢٩، ٣٨:٧، تثنية ٤:١٣، ٥:١٩، ٩:٩ (٢)، ١٠، ١١ (٢)، ١٥، ١٧، ١٠:١، ٢ (٢)، ٣ (٢)، ٤، ٥، ملوك اول ٧:٣٦، ٨:٩، حزقيال ٢٧:٥، حبقوق ٢:٢، اخبار الايام الثاني ٥:١٠ (٤١).

ولا يأتي المثنى من هذه اللفظة الا بقرينة كلمة (שְׁנֵי/ شِني):اثنين، ذلك ان اللغة العبرية تخلّصت من الكلمات المثناة عبر تاريخها اللغوي، ولم يبق سوى بقايا لكلمات مثناة بحكم وجودها في الطبيعة مركبة من شقين، وعلامة المثنى في اللغة العبرية هي (-ים/ -َيـم) تلحق الاسم المفرد مذكراً كان ام مؤنثاً، اي انه يُشكل الحرف الاخير من الاسم المفرد بالفتحة (البتاح)، وتتمثل بقايا المثنى في اللغة العبرية في :

- اعضاء جسم الانسان المثناة، مثل:(עַיִן-עֵינַיִם/ عَين -عَينَيم):عين -عينين.
- اسماء الزمن، مثل:(שָׁנָה-שְׁנָתַיִם/ شانا-شِناتَيم):سنة -سنتين.
- اسماء الملابس المزدوجة، مثل:(מִכְנָסַיִם/ مِخناسَيم):بنطلون.
- اسماء العدد المثناة، مثل:(שְׁנַיִם/ شِنَيم):سنة-سنتين.
- ادوات الصناعة المثناة، مثل:(מִסְפָּרַיִם/ مِسبارَيم):مقص.

اما بقية الاسماء، فالطريقة العامة لتثنيتها (التثنية الصناعية)، فتصاغ بتركيب اضافي يتكون من اسم العدد (שְׁנַיִם/ شِنَيم):اثنان، واسم العدد (שְׁתַּיִם/ شِتَيم):اثنتان، وفي حالة الاضافة (שְׁנֵי/ شنَي) و(שְׁתֵּי/ شتَي)، قبل الاسم الجمع، فإذا كان الاسم المراد تثنيته مذكراً في مفرده يجمع ويسبقه اسم العدد (שְׁנֵי/ شنَي)، واذا كان الاسم المراد تثنيته مؤنثاً في مفرده يجمع ويسبقه اسم العدد (שְׁתֵּי/ شتَي) (٤٢).

وكلمة (לוּחַ/ لوّح) اسم مفرد مذكر، يجمع جمعاً شاذاً على جمع المؤنث السالم (לוּחוֹת/ لوحوت)، وبما انه مذكر في المفرد، فقد جاء قبله اسم العدد (שְׁנֵי/ شنَي) للدلالة على المثنى، وقد ورد في

(٤١) אבן שושן. קונקורדנציה החדשה، כרך שני ט-ס، עמ" 1103-1102.

(٤٢) ربحي، د. كمال. دروس اللغة العبرية، ص ١٠٣-١٠٤ ؛ عليان، د. سيد سليمان. قواعد اللغة العبرية، ص ١٣٥-١٣٨.

العهد القديم بصيغة المثنى (שְׁנֵי לוּחוֹת/ شنَي لوحوت):لوحين، في (١٧) موضع، كما في:

خروج ١٨:٣١، ١٥:٣٢، ١:٣٤، ٤(٢)، ٢٩، تثنية ١٣:٤، ٥:١٩، ٩:١٠، ١١، ١٥، ١٧، ١٠:١، ٣ (٢)، الملوك الاول ٩:٨، الاخبار الثاني ١٠:٥ (٤٣).

وقد تنوعت دلالة كلمة (לוּחַ، לוּחוֹת/ لوّح، لوحوت) في العهد القديم، فقد جاءت في (٤) مواضع كلقب لقلب الانسان ومركز ذاكرته، (לוּחַ הַלֵּב/ لوّح هلّيف):لوح القلب، في:ارميا ١:١٧، امثال ٣:٣، ٣:٧، نشيد الاناشيد ٩:٨.

وجاءت في (٣) مواضع للدلالة على لوحي العهد (לוּחוֹת הַבְּרִית/ لوحوت هبريت)، في:تثنية ٩:٩، ١١، ١٥.

كما جاءت في (٣) مواضع، للدلالة على لوحي الوصايا (לוּחוֹת הָעֵדוּת/ لوحوت هاعيدوت)، في:خروج ١٨:٣١، ١٥:٣٢، ٢٩:٣٤.

ويرجح ان اللوح كان صفحة مغطاة بطبقة رقيقة من الشمع يكتب عليها بقلم من حديد، ومثل هذه الالواح بقيت مستعملة الى سنة ١٣٠٠ م (٤٤).

وجاء في سفر الخروج (١٥:٣٢) انهما لوحان مكتوبان على كل جانبٍ منهما، وقد كُتبت فيهما الوصايا العشر او الكلمات العشر (خروج ٢٨:٣٤، تثنية ١٣:٤، ٢٤:١٠)، وهي ما نطق به الله في سيناء، وتنطوي على حكمة اجتماعية روحية عُدَّت من مميزات الشعب العبراني (تثنية ٦:٤، ٨)، وعلى توجيهات وارشادات للحياة الصالحة، وهي موجز لكثير من تعاليم العهد القديم.

وقد أُقنت الوصايا حسب شهادة الكتاب المقدس لموسى، ثم كُتبت على لوحي حجر، وعلى الوجهين (خروج ١٨:٣١ -١٦:٣٢)، ولكن عندما نزل موسى من الجبل بعد اربعين يوماً قضاها في حضرة الله، ولما عاد وجد الشعب يعبدون العجل، فاستشاط غيظاً، وفي غيظه كسر اللوحين، ولكنه بعد ان طهّر الشعب المتمرد على الله، صعد مرة اخرى

(٤٣)אבן שושן.קונקורדנציה החדשה, כרך שני ט-ס, עמ' 1103-1102.

(٤٤) قاموس الكتاب المقدس.ص ٧٦١.

الى الجبل بناءاً على امر الرب، وعاد حاملاً لوحين جديدين كُتبت عليهما وصايا الرب (خروج ٣٤)[٤٥].

وفي القرآن الكريم جاءت كلمة (الالواح) في (٣) مواضع، في:الاعراف/ ١٤٥، ١٥٠، ١٥٤ [٤٦].

وفي هذه الآيات اشار القرآن الكريم الى ان الالواح التي تلّقاها النبي موسى عليه السلام قد تضمّنت موعظةً وتفصيلاً لكل شيء وامر الرب موسى عليه السلام ان يأخذها بقوة ويأمر قومه ان يعملوا بها، كما اشارت الى ان موسى عليه السلام عند رجوعه الى قومه وبيده الالواح وجدهم يعبدون العجل القى الالواح، لكنه لم يقم بكسرها، فأخذها بعد ان هدأ وذهب عنه الغضب.

- (יעקב، יַעֲקוֹב/ يِعقُب، يَعقوب)
- ذكر البلاغي قصة صراع يعقوب مع الله جل وشأنه الى طلوع السَّحَر، ولما رأى انه لا يقدر عليه ضرب حُقَّ فخذه فانخلع حُق فخذ يعقوب في مصارعته فقال له:اطلقني لانه قد طلع السحر فقال يعقوب:لا اطلقك ان لم تباركني، فقال له:ما اسمك؟ فقال يعقوب، فقال:لا يدعى اسمك فيما بعد يعقوب، بل يسرائيل (أي يجاهد الله) لانك جاهدت مع الله ومع الناس وقدرت [٤٧].

جاء اسم يعقوب في العهد القديم بصيغتين :

الاولى:(יעקב/ يَعقُب) بحركة الضم الطويلة الناقصة الممالة (חולם חסר/ حولام حاسير)، اذ جاءت في اكثر من (٢٠٠) مرة، منها:تكوين ٢٥:٢٦، ٢٨، ٢٩، ٣٠، ٢٧:١٧، ٢٢، ٣٦، ٤١، ٣٠:٢، ٣١:٣٣، خروج ١:٥، ٢:٢٤.

الثانية:(יעקוב/ يَعقوب) بحركة الضم الطويلة الممالة (חולם גדול/ حولام كادول)، اذ جاءت في (٥) مواضع، كما في:لاويين ٢٦:٤٢، ارميا ٣٠:١٨، ٣٣:٢٦، ٤٦:٢٧، ٥١:١٩.

وقد دل هذا الاسم في العهد القديم على شعب يعقوب، اسرائيل، في اكثر من

(٤٥) قاموس الكتاب المقدس.ص ١٠٢٩.
(٤٦) عبد الباقي.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم، ص ٨١٠.
(٤٧) البلاغي.الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٢٤٥ -٢٤٦، ص ٣٠٤.

(١٣٠) مرة، منها:اشعيا ١٠:٢١، ١٤:١، ١٧:٤، ٢٩:٢٣، ارميا ١٠:١٦، ٢٥، ٣٠:١٠ [٤٨].

اما معنى اسم (يعقوب)، فيذكر الدكتور ابراهيم السامرائي، انه من المادة العبرية (عقب) وتعني (حفظ)، كما ذكر ان العلماء يرجحون ان معنى (يعقوب):فليحفظ الاله [٤٩].

ولم نجد في معجمات اللغة العبرية ان المادة (עקב/ عاقَب) تدل على هذا المعنى:الحفظ، بل جاء بمعنى:عاقّب، تبع، لحق، اقتفى الأثر، خدع، غشّ، ضلّل [٥٠].

ونرى ان هذا الاسم من المادة (עקב/ عاقَب): تبع، لحق، وهو :

١. اسم في صيغة المستقبل، والدلالة على ذلك حرف الياء (י/ ي) الذي يأتي للمستقبل لشخص الغائب، لا سيما ان هذا الفعل (עקב/ عاقّب) يعد من الافعال المضمومة العين في المستقبل، (עקב / عاقَب - יעקוב / يَعقوب)، وبذلك يكون معنى الاسم:سيتبع، سيقتفي.

٢. ان يكون الاسم مكوَّناً من مقطعين، الاول (י/ ي) وهو مختصر للفظة الرب (יהוה/ يهوه)، والثاني (עקוב/ عَقوب)، فيكون المعنى:الرب مقتفي، الرب لاحق.

ويبدو ان هذا الاسم جاء من قصة ولادة يعقوب وتوأمه (عيسو) الواردة في سفر التكوين ٢٥: ٢٥ -٢٦ ((فخرج الاول اسمر اللون كله كفروة شعرٍ فسموه عيسو.ثم خرج اخوه ويده قابضة على عقب عيسو فسمّوه يعقوب...)).

وهو ما ذهب اليه الفراهيدي، من ان"يعقوب اسم اسرائيل سُمّي به لانه ولد مع عيصو ابي الروم في بطنٍ واحد، ولد عيصو قبله ويعقوب تعلق بعقبه خرجا معاً واشتقاقه من العقب" [٥١].

(٤٨) אבן שושן.קונקורדנציה החדשה، כרך שני ט-ס، עמ" 891 -889.

(٤٩) السامرائي، د. ابراهيم.الاعلام العربية، دراسة لغوية اجتماعية، مطبعة اسعد، بغداد ١٩٦٤، ص ٧٣.

(٥٠) אבן שושן.המלון החדש، כרך חמישי ע-צ، עמ" 1979-1978 ؛ قوجمان. قاموس عبري -عربي، ص ٦٦٧.

(٥١) الفراهيدي، الخليل بن احمد (ت ١٧٥هـ).

واسم (يعقوب) يعد من الاسماء الموغلة في القدم عند الاقوام السامية، وله سمة مقدسة عندهم، فقد جاء عند الكنعانيين والآراميين، فضلاً عن ان هذا الاسم كان من الاسماء التي استعملت للتسمية في تلك الاقوام، ولا سيما اذا جاء مقروناً بلفظة الاله (ايل)، وجاء في الكتابات المصرية اسم احد ملوك الهكسوس الذين يرجع تاريخهم الى الالف الثاني قبل الميلاد بصيغة (يعقوب -ايل)[٥٢].

وجاء في قاموس الكتاب المقدس، ان (يعقوب) احد الآباء الثلاثة الكبار للعبرانيين، وهو ابن اسحق ورفقة وتوأم عيسو، وكان اسحق يحب عيسو اكثر من يعقوب نظراً لحماسته، فلما قارب الموت اراد ان يباركه، غير ان رفقة التي احبت يعقوب اكثر من عيسو احتالت مع يعقوب، فغشا اسحق، واخذ يعقوب بركة ابيه بدلاً من عيسو (تكوين ٢٧)، ثم ذهب الى فدان آرام الى لابان اخي رفقة، وهناك التقى بـ (راحيل) على البئر فأحبها، وخدم لابان بها سبع سنين، حتى اذا ما جاء وقت الزواج احتال عليه لابان وزوجه بـ (ليئة)، ثم خدم سبع سنين اخرى بـ (راحيل) وأخذها، وخدم ست سنين اخرى بالأجرة، وفي اثناء خدمته للابان ولد له من امرأتيه وسريتيه احد عشر ابناً وابنة (تكوين ٣١)[٥٣].

- (יִשְׂרָאֵל/ يسرائيل)
- الاسم الثاني لـ (يعقوب)، ويبدو انه سُمّي به كلقب اطلق عليه إثر قصته مع ملاك الرب، اكراماً له.

وقد اختلف العلماء والمفسرون في اصله ومعناه، فمنهم من قال انه مركب من (إسرا) بمعنى: عبد، و(ايل) بمعنى: (الله)، وبذلك يكون معنى (اسرائيل): عبد الله[٥٤].

العين، تحقيق: الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي، مطبعة الرسالة، الكويت ١٩٨٠، ج ١، ص ١١٨.

(٥٢) انظر: سوسة، د.احمد. تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٣، ج ١، ص ٣١٧.

(٥٣) انظر: قاموس الكتاب المقدس. ص ١٠٧٣-١٠٧٤.

(٥٤) منهم: الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل =

وهو ما ذهب اليه الدكتور احمد سوسة، بعد ان ذكر ان هذا الاسم من الاسماء السامية القديمة(٥٥).

ومنهم من ذهب الى انه مركب من (يس او يش):رجل، و(ايل):الاله، وبذلك يكون معنى اسم (اسرائيل):رجل الله (٥٦).

ومنهم من ذهب الى انه مركب من مقطعين (يسرى) و(ايل)، ومعنى اسم (اسرائيل) هو:الاله (ايل) يحكم (٥٧).

ويذكر الدكتور زياد منى مجموعة من الآراء في تفسير هذا الاسم، منها:ان (אֵל/ إيل) الواردة في اسم (اسرائيل) ليست مفعولاً به، وانما فاعل، فيصبح المعنى:ايل حارب، ايل عارك، ومنها من يرى ان الفعل (יִשַׂר/ يسر) من الفعل (יִשַׁר/ ياشَر) استقام، اخلاص، ويكون الاسم معناه:الله او ايل مستقيم، ومنها من يرى انه يرجع الى المفردة الاغريقية (iser/ إسر) بمعنى:مقدس، ومنها من يرى بان اسم (اسرائيل) هو صيغة مختزلة لـ (אִישׁ רָחִיל/ ايش راحيل، أي:الرجل الذي من قبيلة راحيل)، ومنها انه اختصار لجملة (יה שעיר הוא אֵל/ يه سعير هو ايل) معنى الاسم:اله سعير هو يهوه، ومنها من يرى ان لفظة (يسرا) هي العربية (شري) بمعنى:اللمعان، ويكون معنى الاسم:ايل يشع، ومنها من يرى ان لفظة (يسر) من الفعل العربي (يُسر)، والذي من معانيه:اللين والانقياد، فيكون معنى الاسم:عبد ايل، أي:عبد الله، ويرى الدكتور زياد، ان اسم (اسرائيل) مشتق من المادة (سرا) وتعني:ارتفع، علا، ويكون معنى الاسم:الارض المُكرّمة

= القرآن، تحقيق:محمود محمد شاكر، دار المعارف، مصر (د.ت)، ج ١، ص ٥٥٣ ؛ الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ).مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق:السيد هاشم الرسولي، دار التراث العربي، بيروت ١٩٥٩م، ج ١، ص ٩٢.

(٥٥) انظر:سوسة، د.احمد.العرب واليهود في التاريخ، ص ٢٣٩.

(٥٦) انظر:السامرائي، د. ابراهيم.الاعلام العربية، ص ٧٨.وقد بيّن رأي (معجمات اللغة) في تفسير هذا الاسم، وهو ان معناه:فليملك الاله، على صيغة الفعل المضارع لإفادة التمني.ص ٦٥، الهامش.

(٥٧) انظر:باقر، طه.مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦، ج ٢، ص ٢٨، الهامش.

من الله او من ايل، وان المرادف العربي لـ (اسرائيل) هو (السراة) وهي اسم مناطق مرتفعة (٥٨).

ونـرى ان هـذا الاسـم، مركب من مقطعين :

الاول:(שָׂרָה/ سارا):ناضل، جاهد، اصبح حاكماً (٥٩)، والثاني:(אֵל/ إيل):اسم الالـه السامي القديم، وهو -على رأينا -يجمع معظم الآراء السابقة، فهو يدل :

اولاً، على القصة التي يشير اليها العهد القديم من ان يعقوب تصارع مع الله جل شأنه، فأطلق عليه (יִשְׂרָאֵל/ يسرائيل) لانك جاهدت مع الله ومع الناس.

- ثانياً، يدل على الـرأي القديم، القائل ان معناه (الاله (ايل) يحكم)، فمن معاني الفعل (שָׂרָה/ سارا):اصبح حاكماً، وهو رجل الله وعبده وصفوته، وهذا ما ذهبت اليه الآراء الاخرى.

وجاء في قاموس الكتاب المقدس، ان يعقوب (اسرائيل) صارع الله جل شأنه او رجل الله عند نهر يبوق (وادي زرقا) وذلك بعد مفارقته للابان اخو امه (رفقة) وابو زوجتيه (ليئة، راحيل)، ورحيله نحو فلسطين، ولقائه بأخيه عيسو وطلب عفوه، ورحيل يعقوب الى الجنوب، وهناك ظهر له الله ثانية كما ظهر له وهو في طريقه الى فدان ارام (تكوين ٣٥:٩ -١٥، ٢٨:١٠ -٢٢) مؤكداً تغيير اسمه الى الى اسرائيل، والعهد الذي اقامه مع ابراهيم، وفي افراتة (بيت لحم) ولد ابنه الثاني عشر والاخير:بنيامين، الذي سمّته امه (בֶּן אוני/ بِن اوني):ابـن حزني، ابن تعبي، وقد توفيت امه راحيل بد ولادته (تكوين ٣٥:١٦ -٢٠)، وسمّاه يعقوب (בֶּן יָמִין/ بِن يامين):ابن اليمن او البركة، وهو اخو يوسف، وارتحل يعقوب الى حبرون وقابل اباه اسحق، وكان عمره (١٣٠) سنة عندما ذهب الى مصر حيث يوسف (تكوين ٤٧:٩)، وعـاش هناك (١٧) سنة، وكان عمره عند وفاته (١٤٧) سنة، وحنّط اطباء مصر جثته، وجاء بها

(٥٨) انظر:منى، د. زياد.بنو اسرائيل (جغرافية الجـذور)، ط ١، الاهـالي للطباعة والنشر والـتـوزيـع، دمشق ١٩٩٥، ص ١١٢ -١١٥.

(٥٩) אבן שושן.המלון החדש، כרך שלישי ר-מ، עמ" 1004 ؛ قوجمان.قاموس عبري -عربي، ص ٩٨١.

يوسف واخوته الى حبرون في موكب كبير ودفنوها في مغارة مكيفلة (تكوين ٥٠:١-١٤)[٦٠].

وقد جاء اسم (יִשְׂרָאֵל/ يسرائيل) في العهد القديم اكثر من (٢٥٠٠) مرة، جاء في (٣٩) موضعاً للدلالة على (يعقوب)، وان هذا الاسم (اللقب) اعطاه الله له تكريماً له بعد مصارعته مع رجل الله، كما في:

تكوين ٢٦:٣١، ٢٧:١٣، ٣٢:٢٨، ٣٣:٢٠، ٣٥:١٠(٢)، ٢١، ٢٢(٢)، ٣٧:٣، ٤٢:٥، ٤٣:٦، ٨، ١١، ٤٥:٢١، ٤٦:١، ٢، ٥، ٨، ٢٩، ٣٠، ٤٧:٢٧، ٢٩، ٣١، ٤٨:٢، ٨، ١٠، ١١، ٢١، ١٣(٢)، ١٤، ٢٠، ٤٩:٢، ٥٠:٢، ٢٥، خروج ١:١، ٣٢:١٣.

وجاء في المواضع الاخرى للدلالة على ابناء يعقوب، شعب اسرائيل، منها: خروج ١:١٢، ١٣، ٢:٢٣، ٢٥، ٣:٩، ١٠، ١١، ١٣، ١٤، ١٥، ٤:٢٩، ٣١، ٥:١٤، ١٥، ١٩، يوشع ١:٢، ٢:٢، ٣:١، ٩، ٤:٤، ٥، ٧، ٨ (٢)، صموئيل الاول ٧:٤، ٦، ٨، ٩:٢، ١٠:١٨، صموئيل الثاني ٧:٦، ٧، ٢١:٢ (٢)،... الخ[٦١].

- (רָקִיעַ/ راقيع): سماء
- تناول البلاغي اعتراض المتكلف على قدس القرآن الكريم، وان الآيات القرآنية التي تناولت السماوات والأرض قد خالفت الهيئة الجديدة لها، فرد هذا الاعتراض بقوله: "إن قوله تعالى (سبع سموات والسموات السبع) لا يمتنع انطباقه على كل واحدة من الهيئتين القديمة والجديدة، فيمكن أن يقال على الهيئة القديمة إن السموات السبع هي أفلاك السيارات السبع، وان فلك الثوابت هو الكرسي...، والفلك الأطلس المدير على ما زعموا هو العرش...، ويمكن أن يقال على الهيئة الجديدة إن السموات السبع هي أفلاك خمس من السيارات مع فلكي الأرض و(فلكان) والعرش والكرسي هما فلكا نبطون واورانوس، واما الشمس فهي

(٦٠) انظر: قاموس الكتاب المقدس. ص ١٠٧٤-١٠٧٥.

(٦١) אבן שושן. קונקורדנציה החדשה، כרך שני ט-ס، עמ' 957 -949.

مركز الأفلاك"(٦٢).

وان صح الاعتراض بالهيئة فان العهدين (القديم والجديد) هما المخالفان للهيئة القديمة والجديدة، ويستدل البلاغي على ذلك، بأن التوراة (العهد القديم) تذكر ان السماء (جلد) تفصل بين مياه فوقها وتحتها، بذلك خالفت الهيئة القديمة، كما خالفت الهيئة الجديدة باستعمالها كلمة (رقيع) بدل الجلد وهو الشيء المبسوط، فضلاً عن انها تذكر ان الشمس مثل العريس الخارج من حجلته، تبتهج مثل الجبار للسباق في الطريق من اقصى السموات خروجها ومدارها الى اقاصيها (مزامير ١٩: ٥، ٦)، وهو مخالف للهيئة القديمة فان المقرر عند اصحابها ان الشمس ومدارها في السماء الرابعة لا في اقصى السموات ولا في اقاصيها، ومخالف للهيئة الجديدة لان الشمس عند اصحابها مركز للسموات لا تدور وليس مدارها الى اقصى السموات بل السيارات تدور عليها وهو مخالف لما جاء في التوراة من ان الشمس تشرق وتغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق (جا ١: ٥) (٦٣).

وقد جاءت كلمة (רָקִיעַ/ راقيع) في التوراة كصفة للسماء في (١٧) موضعاً، وهي: تكوين ١: ٦، ٧ (٣)، ٨، ١٤، ١٥، ١٧، ٢٠، حزقيال ١: ٢٢، ٢٣، ٢٥، ٢٦، دانيال ١٢: ٣، مزامير ١٩: ٢، ١٥٠: ١ (٦٤).

ولهذه الكلمة (רָקִיעַ/ راقيع) في اللغة العبرية معانٍ عدة، منها :

- (רָקִיעַ/ راقيع): السماء، القبة الزرقاء.
- (קַו רָקִיעַ/ قَف راقيع): خط الافق.

وهي من الفعل (רָקַע/ راقَع): داس، سطّح (٦٥).

وجاء في قاموس الكتاب المقدس ان كلمة السماء تشير في الكتاب المقدس الى

(٦٢) البلاغي. الهدى الى دين المصطفى، ج ٢، ص ٧٠.

(٦٣) البلاغي. الهدى الى دين المصطفى، ج ٢، ص ٧١-٧٢.

(٦٤) אבן שושן، אברהם. קונקורדנציה החדשה، כרך שלישי ע-ת، עמ" 2033.

(٦٥) אבן שושן، אברהם. המלון החדש، כרך שישי ק-ר، עמ" 2569 ؛ قوجمان، י. قاموس عبري - عربي، ص ٨٩٦-٨٩٧.

كل ما هو ليس ارضاً، وان هناك نوعين من السماء، السماء الهيولية والسماء الروحية، في العهد القديم هناك السماء الهيولية، التي تظهر فوق رؤوسنا وتسمى القبة الزرقاء، وهي عند العبرانيين الجلد، ويقولون مجازاً ان بها كوى ومصاريع ينزل منها المطر والصقيع والثلج، وسميت النجوم نجوم السماء وجند السماء وانوار الجلد، وفي العهد الجديد هناك السماء الروحية، وهي مسكن الله الخاص، ولذلك يقال ان الله في السماء وانه اله السماء، وقد قال الربيون ان هناك سبع سموات، ولكن بولس الرسول يقول انه صعد الى السماء الثالثة ((٢) كورنثوس ١٢: ٢) وهي ما يعبر عنها بسماء السموات، فالسماء الاولى سماء السحب والطيور، والسماء الثانية سماء الكواكب والنجوم والسماء الثالثة فهي مظهر المجد الالهي ومسكن الملائكة والقديسين [٦٦].

- (יונה/ يونا): يونس
- ذكر البلاغي في جملة انبياء العهد القديم يونان بن امتاي -أي يونس بن متي [٦٧].

واسم (יונה/ يونا) اسم عبري، معناه: حمامة [٦٨]، وقد جاء في العهد القديم (١٩) مرة، في: الملوك الثاني ١٤: ٢٥، يونا ١: ١، ٣، ٥، ٧، ١٥، ٢: ١ (٢)، ٢، ١١، ٣: ١، ٣، ٤، ٤: ١، ٥، ٦ (٢)، ٨، ٩ [٦٩].

والصيغة العربية لهذا الاسم هي (يونس)، التي يرى الاب انستاس ماري الكرملي انها كلمة يونانية الاصل [٧٠]، وهو ما نراه نحن ايضاً؛ ذلك ان الاسم ينتهي بحرف (السين) وهي من صفات الاسماء في اللغة اليونانية، وقد عدّ علماء اللغة العربية هذا الاسم من الاسماء الاعجمية، لذلك لم ينصرف، لانه لو كان عربياً لأنصرف على الرغم من وجود

(٦٦) انظر: قاموس الكتاب المقدس. ص ٤٨٥-٤٨٦.

(٦٧) انظر: البلاغي. الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٣١٣.

(٦٨) אבן שושן. המלון החדש, כרך שלישי ו-מ, עמ' 949؛ قوجمان. قاموس عبري-عربي، ص ٣٠٧.

(٦٩) אבן שושן. קונקורדנציה החדשה, כרך שני ט-ס, עמ' 856.

(٧٠) انظر: الكرملي، الاب انستاس ماري. المساعد، ج ١، ص ١٦٣.

حرف (الياء) في اوله [٧١].

وقد جاء ذكر اسم (يونس) في القرآن الكريم (٤) مرات، في: النساء/ ١٦٣، الانعام/ ٨٦، يونس ٩٨، الصافات/ ١٣٩[٧٢].

وقد ارتبط اسم (يونا) او (يونس) بالحوت، فقد جاء في العهد القديم، ان (يونا) امره الله بالذهاب الى نينوى عاصمة الامبراطورية الآشورية وينذرها ويعلن خرابها بعد ان طغت وتجبرت، وان (يونا) لم ينفذ امر الله، وهرب فصعد سفينة ذاهبة الى ترشيش وهي مستعمرة فينيقية، فأثار الرب الرياح الشديدة، والقى البحارة القرعة، ووقعت على (يونا)، فألقوه في البحر فألتقمه الحوت، ظل في بطن الحوت ثلاثة ايام وثلاث ليالٍ، فصلى الى الرب وتضرع اليه فانجاه الرب من بطن الحوت (يونس ١: ١ -١٧، ٢: ١-١٠).

وعودته الى نينوى والقيام بعمله، فآمن اهل نينوى ونادوا بصومٍ ولبسوا مسوحاً، من كبيرهم الى صغيرهم، حتى ملكهم، فعفى الرب عنهم، وقصة اليقطينة التي ضربها الله لـ (يونا) مثلاً على الشفقة باهل نينوى (يونس ٣: ١ -١٠، ٤: ١-١١).

والقصة نفسها نجدها في القرآن الكريم، حتى ان القرآن وصف يونس بـ (صاحب الحوت)، وتضرعه وتوسله لله تعالى لينجيه من بطن الحوت، قال تعالى: ﴿فَٱصۡبِرۡ لِحُكۡمِ رَبِّكَ وَلَا تَكُن كَصَاحِبِ ٱلۡحُوتِ إِذۡ نَادَىٰ وَهُوَ مَكۡظُومٞ﴾ [سورة القلم: ٤٨]، وقصة التقام الحوت اياه، قال تعالى: ﴿فَٱلۡتَقَمَهُ ٱلۡحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٞ﴾ [سورة الصافات: ١٤٢].

ولقّب القرآن الكريم يونس بـ (ذي النون)، أي: صاحب الحوت، قال تعالى: ﴿وَذَا ٱلنُّونِ إِذ ذَّهَبَ مُغَٰضِبٗا فَظَنَّ أَن لَّن نَّقۡدِرَ عَلَيۡهِ فَنَادَىٰ فِي ٱلظُّلُمَٰتِ أَن لَّآ إِلَٰهَ إِلَّآ أَنتَ سُبۡحَٰنَكَ إِنِّي كُنتُ مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [سورة الانبياء: ٨٧].

و (ذي) في اللغة العربية بمعنى (صاحب) اضيف الى (النون): الحوت، وكلمة (النون) تعد من الالفاظ السامية

(٧١) انظر: النحاس، ابو جعفر احمد بن محمد (ت ٣٣٨ هـ). اعراب القرآن، تحقيق: د. زهير غازي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٩، ج ٢، ص ٧٦٨.

(٧٢) عبد الباقي. المعجم المفهرس، ص ٩٢٨.

المشتركة، فهو موجود في الاكدية والكنعانية والآراميات والسريانية، ويدل على الحوت [٧٣].

- (שומרון/ شومرون): السامرة
- ذكر البلاغي انتقاد المتكلف للقرآن ونسب اليه الخلط والغلط بتسمية صانع العجل المذكور في قصة بني اسرائيل وعبادتهم للعجل، بالسامري، وانه لم يكن في عصر موسى شيء يقال له سامرة ولا سامري، وانه قد اعتمد في هذا على ما جاء في السادس عشر من الملوك الأول من ان عمري ملك اسرائيل الذي ملك بعد سليمان بن داود بخمسين سنة هو الذي بنى مدينة السامرة، وانه لم يقع في خلق الله في جميع الامكنة والازمنة منشأ للتسمية بالسامري حتى بنى عمري مدينته المذكورة، ولم يختص بهذا فقد سبقه اليه المتعرب فادعى انه لا يمكن ان يكون في بني اسرائيل على عهد موسى سامري وان هذا النعت لم ينعت به الا بعد جلاء بابل.

واذ سمعت هذا -الكلام للبلاغي -فاعلم انه كل ماجاء في العهد القديم من اسم السامرة المذكورة فانما لفظه في الاصل العبراني (شمرون)، وعليه جرت النسخ الفارسية والعربية وكذلك الترجمة العبرانية للعهد الجديد وجرت على نهج الاصل العبراني للعهد القديم فسمت السامري (شمروني)، والسامرية (شمرونيت) والسامريين (شمرونيم)، وانه لا ينحصر وجه التسمية بالسامري بالنسبة الى ما بناه عمري بعد زمان سليمان، بل ان من المدن التي افتتحها يوشع بن نون، وكان لها ملك فلا بد ان تكون موجودة في عصر موسى لقرب الزمان، فيكون تعريبها (سامرة)، والمنسوب اليها سامري، وان من اولاد يساكر ابن يعقوب من اسمه (شمرون)، وكان بنوه من عشائر بني اسرائيل المعدودين في الجند على عهد موسى وسميت عشيرتهم في الاصل العبراني (هشمرونيم) السامريين، وواحدهم سامري [٧٤].

(٧٣) انظر: باقر، طه. من تراثنا اللغوي القديم، ص ١٤٩.

(٧٤) انظر: البلاغي. الهدى الى دين المصطفى، ج١، ص ١٣٨-١٤٠، ج٢، ص٢١٧-٢٢٠.

يبدو ان الامر يدور حول الحرفين (ش) و(س)، فالحرف (שׂ/ ש) في اللغة العبرية يقابله الحرف (س) في اللغة العربية، وهما من الاصوات الاحتكاكية الاسنانية في اللغات السامية، ومعظم الالفاظ التي تأتي في اللغة العبرية بحرف (שׂ/ ש) تُعرب بحرف (س)، نحو: שָׁנָה/ شانا: سنة، חָמֵשׁ/ حاميش: خمسة [٧٥].

جاءت هذه الكلمة في العهد القديم، وقد دلت على:

١. (שֹׁמְרוֹן/ شِمرون): ابن يساكر ابن يعقوب، وجاء في (٢) موضعين، تكوين ٤٦:١٣، اخبار الأيام الأول ٧:١، ومنه عشيرة (הַשֹּׁמְרוֹנִי/ هَشّمروني): السامريين، وقد جاءت في موضع واحد، عدد ٢٦:٢٤.

٢. (שֹׁמְרוֹן/ شِمرون): مدينة كنعانية على حدود زبولون، وكان لها ملك تحالف مع ملك حاصور وغيره من الملوك لمحاربة بني اسرائيل بقيادة يشوع (يوشع) فهزمهم يشوع وقهرهم، وقد جاءت في (٣) مواضع، يشوع ١١:١، ١٢:٢٠، ١٩:١٥.

٣. (שׁוֹמְרוֹן، שֹׁמְרוֹן/ شومرون): اسم عبري معناه: مركز الحراسة، وهي عاصمة الاسباط العشرة، المملكة الشمالية، بنيت ايام عمري بن اخاب سنة (٨٧٦-٨٤٢ق.م) على تل اشتراه بوزنتين من الفضة، اسماها عمري شومير (مكان المراقبة)، وفي عام ٧٢٤ق.م هاجم شلمناصر مدينة السامرة (الملوك الثاني ١٧:٣ -٦) وتغلب عليها في عام ٧٢١ق.م على يد خلفه سرجون [٧٦].

وقد جاءت هذه الكلمة في العهد القديم (١١٠) مرة، منها: الملوك الأول ١٣:٢٣، ١٦:٢٤، الملوك الثاني ٧:١٨، اشعيا ٩:٨، ارميا ٣١:٥، وجاءت كلمة (שֹׁמְרוֹנִים/ شومرونيم) مرة واحدة للدلالة على سكان السامرة، الملوك الثاني

(٧٥) للمزيد من التفاصيل حول هذه الاصوات الاحتكاكية الاسنانية في الغتين العبرية والعربية واللغات السامية كافة، انظر: موسكاتي، سباتينو (وآخرون). مدخل الى نحو اللغات السامية المقارن، ترجمه وقدم له: د. مهدي المخزومي ود. عبد الجبار المطلبي، ط ١، عالم الكتب، بيروت ١٩٩٣، ص ٦٣ -٦٩.

(٧٦) انظر: قاموس الكتاب المقدس، ص ٤٤٨- ٤٤٩.

٢٩:١٧ (٧٧).

ويبدو ان الاسم مشتق من الفعل (שָׁמַר/ شامَر):حفظ، حرس، صان، راقب (٧٨).

بعد هذا، فان تسمية السامري والسامريين، ليست منحصرة على النسبة لمدينة السامرة التي بناها عمري، بل هي ايضاً من شمرون ابن يساكر، ويساكر احد اولاد يعقوب، وهو قبل النبي موسى، وسُمي بنوه بالسامريين، فضلاً عن هذا فان المدينة التي فتحها يوشع بن نون والتي كانت تدعى (السامرة) والنسبة اليها سامري، كانت مدينة كبيرة ولها ملك يحكمها وجيش، وكانت لها علاقات مع المدن الأخرى، وتحالفت مع غيرها للوقوف بوجه بني اسرائيل بقيادة يوشع، مما يؤكد قدم هذه المدينة ومقاربتها لزمن النبي موسى او قبله.

وقصة السامري في القرآن الكريم نجدها في العهد القديم تشبه قصة (هارون) اخي موسى، فهو الذي صنع العجل من الذهب وبنى مذبحاً له، ونادى لعبادته، في الوقت الذي كان الله جل جلاله يكلم موسى في تقديس هارون (خروج ٢١:٣٢)، وقد كذّب القرآن الكريم هذا الزعم، كما جاء في سورة طه/ ٩٠، ٩١.

وقد ورد اسم السامري في القرآن الكريم (٣) مرات، طه/ ٨٥، ٨٧، ٩٥ (٧٩).

- (חֲנוֹךְ/ حَنوخ):إدريس
- ذكر البلاغي اعتراض المتكلف على معراج الرسول ﷺ الى السماء، ورد البلاغي:انه يكفينا ان نحتج عليه في امكان الصعود الى السماء ووقوعه بكتبه التي ينسبها الى الوحي حيث تذكر صعود البشر الى السماء مكرراً...، ومنها:صعود ايليا الى السماء، وصعود (حنوك) -أي ادريس -وان الله اخذه (٨٠).

(٧٧) אבן שושן.קונקורדנציה החדשה، כרך שלישי ע-ת، עמ" 2203، 2092.

(٧٨) אבן שושן.המלון החדש، כרך שבי-עי ש-ת، עמ" 2733 ؛ قوجمان.قاموس عبري -عربي، ص ٩٦١.

(٧٩) انظر:عبد الباقي.المعجم المفهرس، ص ٤٨٢.

(٨٠) البلاغي.الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٢٨١ -٢٨٢.وقد ذكر البلاغي ان التوراة ذكرت قصة حنوك -أي اخنوخ

و الاسم (חֲנוֹךְ/ حَنوخ) اسم عبري معناه: مُدّرب، مُعلّم، وهو مشتق من المادة (חָנַךְ/ حانَخ): علّم، درّب، ثقّف [٨١].

وقد ورد هذا الاسم في العهد القديم (٧) مرات، في: تكوين ٥:١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢٤، اخبار الايام الاول ١:٣ [٨٢].

و (חֲנוֹךְ/ حَنوخ) هو: ابن يارد وابو متوشالخ، ومن اجداد النبي نوح عليه السلام، ويسمى في العربية بـ: ادريس، وقد جاء ذكره في القرآن الكريم مرتين، في: مريم/ ٥٦، الانبياء/ ٨٥ [٨٣].

وقد اختلفت الآراء حول اسم (إدريس)، فمنها منا ذهب الى ان هذا الاسم مشتق من مادة الدراسة، وانه سُمّي بهذا الاسم لكثرة دراسته [٨٤]، ومنها من ذهب الى ان اسم (إدريس) هو اسم يوناني الاصل، ويُعلّل سبب وجوده في العربية بان هذا الاسم كان يسمى في اليونانية بـ (أرميس) وعُرّب الى (هرمس)، وقد استعمل العرب اسم (إدريس) الذي هو نعت لـ (هرمس) اليوناني بدلاً من (اخنوخ) لخفة لفظه [٨٥].

ونرى ان اسم (ادريس) و(اخنوخ) مشتقان من الدرس والدراسة، وفي اللغتين اللتين وضع فيهما الاسمان.

وجاء في قاموس الكتاب المقدس ان (أخنوخ) هو ابن يارد وابو متوشالح (تكوين ٥:١٨، ٢١)، وهو السابع من ولد آدم، من نسل شيث، وان اخنوخ سار مع الله أي انه عاش في طاعة الله (تكوين ٥:٢٢، ٢٤)، وعاش ثلاثمائة وخمساً وستين سنة (تكوين ٥:٢٣)، وانه لم يوجد بعد ذلك لان الله اخذه (تكوين ٥:٢٤).

-وهو السابع من ولد آدم، واهملت اولى احواله بالذكر وهي نبوته التي ذكرها العهد الجديد. ج ٢، ص ٢٣٠، ٢٥٥، ٣١٢.

(٨١) אבן שושן. המלון החדש، כרך שני ה-ט، עמ' 301-300؛ قوجمان. قاموس عبري -عربي، ص ٢٦٦.

(٨٢) אבן שושן. קונקורדנציה החדשה، כרך ראשון א-ה، עמ' 715.

(٨٣) انظر: عبد الباقي، المعجم المفهرس، ص ٣٤٥.

(٨٤) انظر: ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ). المعارف، تحقيق الدكتور: ثروت عكاشة، ط ٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٩، ص ٢٠.

(٨٥) انظر: الكرملي، المساعد. ج ١، ص ١٦٣.

وهناك كتاب يُسمّى بـ (كتاب اخنوخ) وهو سفر من الاسفار غير القانونية التي لم يعترف بها اليهود والنصارى، وينسب خطأً الى اخنوخ، والكتاب عبارة عن مجموعة من الاسفار اليهودية كتبت اصلاً باللغة الآرامية، ويُرجح انه كتب بين ١٦٣ و٨٠ قبل الميلاد، وقد فقد الاصل الآرامي ولكن وجدت اجزاء من هذا الكتاب في الترجمة اليونانية (٨٦).

- (יִתְרוֹ/ يِترو): شعيب
- ذكر البلاغي ان موسى اشار على حميه (يثرو) وهو شعيب ان يعلم بني اسرائيل الشرائع (٨٧).

جاء هذا الاسم في العهد القديم بصيغتين، هما :

١. (יִתְרוֹ/ يِترو)، في (٩) مواضع، كما في: خروج ٣:١، ٤:١٨، ١٨:١، ٢، ٥، ١٢، خروج ١٨:٦، ٩، ١٠.

٢. (יִתֶר/ يِتِر)، في موضع واحد، كما في: خروج ٤:١٨ (٨٨).

ومعنى اسم (יִתְרוֹ/ يِترو): بقية، فضلة، باقٍ، وهو مشتق من الفعل (יִתֵּר، يِتِّر/ ياتَر، ياتير): بقي، ظل، زائد، وافر (٨٩).

وهو حمو موسى، ويدعى ايضاً بـ (רְעוּאֵל/ رعوئيل)، أي: صديق او خليل الله، وجاء في موضعين اثنين في العهد القديم، في: خروج ٢:١٨، عدد ١٠:٢٩، ويشير ابن شوشان الى انه يمكن ان يكون هذا اسم ابو يترو (٩٠).

ويذهب قاموس الكتاب المقدس الى ان هذا الاسم (רְעוּאֵל/ رعوئيل) كان اسمه الاصلي، وان اسم (יִתְרוֹ/ يترو) لقب شرف اطلق عليه، ويرجح انه

(٨٦) انظر: قاموس الكتاب المقدس. ص ٣٢. وعبارة (وانه لم يوجد بعد ذلك لان الله اخذه) دلالة على ان (ادريس) رُفع الى السماء كما جاء ذلك في القرآن الكريم [سورة مريم: ٥٦ -٥٧].

(٨٧) انظر: البلاغي. الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٣٣٠.

(٨٨) אבן שושן. קונקורדנציה החדשה، כרך שני ט-ס، עמ" 961.

(٨٩) אבן שושן. המלון החדש، כרך שלישי י-מ، עמ" 1008 ؛ قوجمان. قاموس عبري -عربي، ص ٣٢٤.

(٩٠) אבן שושן. קונקורדנציה החדשה، כרך שלישי ע-ת، עמ" 2022.

كان من نسل ابراهيم وقطورة (تكوين ٢٥:٢)[٩١].

وجاء في العهد القديم ذكر قصة موسى وهروبه الى مدين ولقائه ببنات (يثرو) السبع عندما كن يرعين اغنامه فساعدهن وسقى لهن، وزواجه بابنت (يثرو) صفّورة (خروج ٢:١٦ -٢٢)، ورعى موسى اغنام حميه (خروج ٣:١) ودعاه الله فرجع الى مصر، واخرج العبرانيين.

وهذا الاسم في العربية (شعيب)، الذي ورد ذكره في القرآن الكريم (١١) مرة، كما في :[سورة الاعراف: ٨٥، ٨٨، ٩٠، ٩٢]، [سورة هود: ٨٤، ٨٧، ٩١، ٩٤]، [سورة العنكبوت:٣٦]، [سورة الشعراء:١٧٧][٩٢].

ويعد النبي (شعيب) من الانبياء العرب، وقد اشار الزمخشري الى الانبياء العرب وقد عدّ (شعيباً) واحداً منهم، عند تفسيره قوله تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُّبِينٍ﴾ [سورة الشعراء :١٩٥][٩٣].

(٩١) انظر:قاموس الكتاب المقدس.ص ١٠٥٤.
(٩٢) انظر:عبد الباقي.المعجم المفهرس، ص ٥١٨.
(٩٣) انظر:الزمخشري، الكشاف.ج ٣، ص١٢٨.

• (שָׁאוּל/ شـــاؤل):شـــاؤول، طالوت

ذكـر البـلاغي اعـتراض المتكلف على تسمية القرآن الكريم للملك الذي طلبه بنو اسرائيل من نبيهم صموئيل بـ:(طالوت)، فقال وصوابه شاول، ورد البلاغي بأن:القرآن الكريم سمّى هذا الملك بوصفه الذي امتاز به عن جميع بني اسرائيل وهو طول القامة وبسط الجسم، فسمّاه القرآن طالوت تنويهاً بامتيازه[٩٤].

وقد جاء اسم (שָׁאוּל/ شاؤل) للدلالة على احد ملوك بني اسرائيل، وهو شآؤل بن قيس، في العهد القديم (٣٩٧) مرة، معظمها في سفري صموئيل الاول والثاني، منها:صموئيل الأول ٩:١٨، ١٩، ٢١، ٢٢، ٢٥، ١٠:١٦، ٢٦، ١١:٤، ٦، ٧، ١١، صموئيل الثاني ١:١، ٢١، ٢٢، ٢٣، ٢:٨، ٣:٦، ٨، ١٠، ٤:١، ٢، ٩:٦، ٧، ٩[٩٥].

واسـم (שָׁאוּל/ شـــاؤل) يـأتي في

(٩٤) البلاغي.الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٢٢٤-٢٢٥.
(٩٥) אבן שושן.קונקורדנציה החדשה، כרך שלישי ע-ת، עמ" 2046-2044.

اللغة العبرية بمعنى:مستعار، مأخوذ بالاستعارة، مسؤول (من الله) [٩٦]، وهو على وزن (פָּעוּל/ باعول) من الفعل الثلاثي (שְׁאַל/ شائَل):سأل.

وشاؤل بن قيس من سبط بنيامين، وهو اول ملوك اسرائيل، وتذكر التوراة بالتفصيل خبر تنصيبه ملكاً على بني اسرائيل، فتذكر ان صموئيل النبي تقدم في العمر، وكان من الواضح ان ابنيه لا يسيران في طريق الرب، ولا يمكن ان يخلفه احدهما، وكانت الامم المحيطة باسرائيل تنتهز الفرصة للإيقاع به (صموئيل الأول ٨:١، ٣، ٢٠، ١٢:١٢)، وجاء شيوخ اسرائيل الى صموئيل النبي، طالبين تغيير نظام الحكم، فطلبوا اليه ان يمسح لهم ملكاً كسائر الامم المجاورة (صموئيل الأول ٨:٤، ٥، ١٩، ٢٠)، ثم التقى شاؤل بصموئيل في طريق بحثه عن حمير ابيه قيس، وكان الرب قد اعلن لصموئيل ان شاؤل سيذهب اليه، وانه الملك المختار، فأخذ صموئيل قنينة دهن وصبها على رأس شاؤل فمسحه ملكاً، ثم دعا الشعب الى المصفاة، وهناك وقعت القرعة على شاؤل.

وجاء في قاموس الكتاب المقدس ان الله اختار شاؤل لاسباب عدة، منها:ان مظهره سيحوز رضى الشعب وثقتهم، فقد كان طويل القامة جداً، ولأنه من سبط بنيامين، وبنيامين يتوسط افرايم ويهوذا، وبذلك يستجيب لرغبة سكان الشمال والجنوب في فلسطين، ثم رفع الله عنه الملك (صموئيل الأول ١٥:١ -٣٥) ومنذ ذلك الوقت استولى عليه روح نجس، وتعيين داود ملكاً، وانهزم شاؤل في معركة جبل جلبوع انهزاماً ذريعاً، مات في المعركة ابناؤه الثلاثة، وجرح هو جرحاً خطيراً، فسقط على سيفه ومات (صموئيل الأول ٣١:١ - ٧) [٩٧].

و (طالوت) في القرآن، هو (شاؤل) في العهد القديم، ولكن لا يمكن عدّ طالوت تعريباً لـ (شاؤل)، وانما سمّاه القرآن بذلك لصفة الطول التي امتاز بها، وهو

(٩٦) אבן שושן.המלון החדש, כרך שבי- עי ש-ת, עמ" 2585 ؛ قوجمان.قاموس عبري -عربي، ص ٩٠٣.

(٩٧) قاموس الكتاب المقدس.ص ٥٠٢-٥٠٣.

ما اشار اليه القرآن الكريم، ﴿وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة :٢٤٧]، وهذا ما اشار اليه العهد القديم ((من كتفه فما فوق كان اطول من كل الشعب)) (صموئيل الاول ١٠:٢٤).

وقد ايّد احتمال هذا الرأي، بأن (طالوت) مشتق من (الطول)، السيد عبد الاعلى السبزواري -بعد ايراده النص المتقدم من العهد القديم-بقوله:"ولعله لذلك سمّي في القرآن الكريم بهذا الاسم"[٩٨].

- (תָּרַח/ تارَح)
- ذكر البلاغي الاعتراض في تسمية القرآن ابا إبراهيم (آزر) من ان التوراة سمّته (تارح)، وقوله ان (آزر) معرّب (اليعازر)، فيجوز ان يكون لفظ (اليعازار) لقباً لتارح فإن معناه (الله عون) فسمّى القرآن تارح بلقبه[٩٩].

جاء اسم (تارح) في العهد القديم بصيغتين، هما :

١. (תֶּרַח/ تيرَح) وذلك في (٩) مرات دلالة على والد ابراهيم، في:تكوين ١١:٢٥، ٢٦، ٢٧ (٢)، ٢٨، ٣١، ٣٢(٢)، يهوشع ٢٤:٢.

٢. (תֶּרַח/ تارَح) في مرتين:تكوين ١١:٢٤، اخبار الأيام الأول ١:٢٦[١٠٠].

وجاءت كلمة (אֱלִיעֶזֶר/ ايليعِزِر) في العهد القديم (١٤) مرة، جاءت مرة واحدة تدل على عبد او خادم إبراهيم وهو (اليعازر الدمشقي) في تكوين ٢٤:٢[١٠١].

وجاء في قاموس الكتاب المقدس ان (تارح) اسم عبري معناه (عنزة جبلية)

(٩٨) السبزواري، السيد عبد الأعلى.مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ط ٣، مطبعة الديراني، بغداد ١٩٨٩، ج ٤،ص ١٣١.

(٩٩)البلاغي.الهدى الى دين المصطفى، ج ٢، ص ١٤٩.

(١٠٠) אבן שושן.קונקורדנציה החדשה, כרך שלישי ע-ת, עמ" 2304.

(١٠١) שם, כרך ראשון א-ה, עמ" 142.

وهو ابن ناحور وابو إبراهيم، وقد رافق إبراهيم إلى حاران ما بين النهرين حيث توفي وله من العمر مئتان وخمس سنين وكان عمر إبراهيم وقتئذ خمساً وسبعين سنة (تكوين ١١: ٣١ - ٣٢)[١٠٢].

وقد كثُرت الآراء حول دلالة اسم (آزر) الوارد في القرآن الكريم، في قوله تعالى:﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِيمُ لِأَبِيهِ ءَازَرَ أَتَتَّخِذُ أَصْنَامًا ءَالِهَةً إِنِّيٓ أَرَىٰكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ﴾[سورة الأنعام:٧٤]، وهل هو أبو إبراهيم الخليل ام هو استعمال مجازي؟ فأهل الأنساب (النسّابة) يقولون ان (آزر) ليس أباً لإبراهيم، وقد ذكر الفرّاء أن أهل النسب اجمعوا على أن (تارح) هو أبو إبراهيم[١٠٣].

وقد فُسّرت كلمة (اب) في القرآن الكريم دلالة على العم والجد، فـ (آزر) كان جد ابراهيم لامه او كان عمه، ومن المعروف ان العرب تجعل العم اباً، وهذا المعنى جاء في [سورة البقرة:آية ١٣٣]عند مخاطبة ابناء يعقوب اباهم، قال تعالى:﴿أَمْ كُنتُمْ شُهَدَآءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ ٱلْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنۢ بَعْدِى قَالُوا۟ نَعْبُدُ إِلَٰهَكَ وَإِلَٰهَ ءَابَآئِكَ إِبْرَٰهِـۧمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ إِلَٰهًا وَٰحِدًا وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ وابراهيم عليه السلام جد يعقوب واسماعيل عمه.

وقد فسّر الشيخ الطوسي اسم (آزر) الوارد في القرآن الكريم بأنه لقب لـ (تارح) أبو إبراهيم[١٠٤]، وهو ما ذهب اليه البلاغي، من أن آزر معرّب اليعازر ومعناه (الله عون) لقباً لتارح، وان آزر المذكور في القرآن لم يكن أبا إبراهيم حقيقة، وانما هو حسب قول التوراة اليعازر الدمشقي ملك بيت ابراهيم او ابنه المتأهّل لوراثة إبراهيم (تكوين ١٥: ٢ - ٤) فسمّاه القرآن أباً لإبراهيم حسب

(١٠٢) انظر: قاموس الكتاب المقدس.ص ٢١١.

(١٠٣) انظر:الفرّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد. معاني القرآن، تحقيق:محمد علي النجار وآخرون، ط ٢، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٠، ج ١، ص ٣٤٠.

(١٠٤) انظر:الشيخ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ).التبيان في تفسير القرآن، تحقيق:احمد حبيب قصير العاملي،مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٩٦٤، ج ٤، ص ١٧٦.

الاصطلاح الجاري في القديم من تسمية القيّم بالأمور (ابا) وان كان عبداً او رعية، فعن قول يوسف:الله جعلني اباً لفرعون (تكوين ٤٥:١٨)[١٠٥].

وقول البلاغي ان آزر معرّب اليعازر إشارة متميزة لم نجدها عند غيره ممن تناولوا هذا الاسم بالبحث والدراسة، ويؤكد ان (آزر) لقب وليس اسم ومن خلال التوراة، فاليعازر كان خادم إبراهيم والقيّم بأموره، وقد أرسله لإحضار زوجة اسحق فذهب الى فدان آرام واحضر رفقة من هناك (تكوين ٢٤)، لذا كان إطلاق صفة الأب عليه من هذا الباب.

- (וַיֵּצְאוּ/ فَيَصئو):وخرجوا

ذكر البلاغي ان الأصل العبراني يشير الى ما يذكره القرآن الكريم من تعدد الينابيع في قصة خروج الماء من الصخر لبني اسرائيل، وان لم ينص العهد القديم على عددها، وهاك نص كلماته:ويصاو ممنو ميم، فتخر (بضمير الجمع) منه مياه (خروج ١٧:٦)، ودبريتم ال هسلع لعينيهم وناتن ميا يو وهو صائيتا لهم ميم، وكلما الحجر لعيونهم ويعطي مياهه فتخرج لهم مياهاً، ويصّأو ميم ربّيم، فخرجت (بضمير الجمع) مياه كثيرة (عدد ٢٠:٨، ١١)[١٠٦].

(عدد ٢٠:٨):

קַח אֶת הַמַּטֶּה וְהַקְהֵל אֶת הָעֵדָה אַתָּה וְאַהֲרֹן אָחִיךָ וְדִבַּרְתֶּם אֶל הַסֶּלַע לְעֵינֵיהֶם וְנָתַן מֵימָיו וְהוֹצֵאתָ לָהֶם מַיִם מִן הַסֶּלַע וְהִשְׁקִיתָ אֶת הָעֵדָה וְאֶת בְּעִירָם.

قَح إيت هَمَّطِّيه وِهَقهيل إيت هاعيدا أتّا فِئهرون آحيخا فِدِبَّرتيم إيل هَسّيلَع لِعينيهيم فِناتَن ميماف فِهوصيئتا لاهيم مَيم مِن هَسّيلَع فِهِشقيتا إيت هاعيدا فِإيت بِعيرام.

خُذ العصا واجمع الجماعة، انت وهارون اخوك، وكلّما الصخرة على مشهدٍ منهم فتعطي مياهها، فيشربون هم وبهائمهم.

(عدد ٢٠:١١):

וַיָּרֶם מֹשֶׁה אֶת יָדוֹ וַיַּךְ אֶת הַסֶּלַע בְּמַטֵּהוּ פַּעֲמָיִם וַיֵּצְאוּ מַיִם רַבִּים וַתִּשְׁתְּ הָעֵדָה וּבְעִירָם.

(١٠٥) البلاغي.الهدى الى دين المصطفى، ج ٢، ص ١٤٩.

(١٠٦) البلاغي.الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٢١٦.

فَيّاريم موشيه إيت يادو فَيَخ إيت هَسّيلَع بِمَطّيهو فَعمايم فَيَصئو مَيم رَبّيم فَتِشت هاعيدا اوبعيرام.

ورفع موسى يده وضرب الصخرة بعصاه مرتين فخرج ماء كثير، فشرب منه الجماعة وبهائمهم.

نلاحظ الفعل (וַיֵּצְאוּ/ فيصئو): وخرجوا، وهو فعل مستقبل شخص الغائبين حوّل زمنه الى الماضي لدخول واو القلب عليه، اصل الفعل (יָצָא/ ياصا): خرج، ظهر[١٠٧]، وهو من الافعال المركبة (لفيف مفروق) ففاء الفعل حرف الياء ولامه حرف الف، وله قواعد خاصة في التصريف[١٠٨].

وكلمة (מַיִם/ مَيم): مياه، اسم جمع لا مفرد له، في صيغة جمع المذكر السالم، وكلمة (רַבִּים/ ربّيم): كثيرة، كبيرة، وهي صفة في حالة الجمع المذكر صفة للمياه، وهذا دليل على تعدد المنابع والعيون من الحجر، وهو موافق لما جاء في القرآن الكريم.

وقد اشار البلاغي كذلك الى النعم والمعجزات التي صنعها الله مع بني اسرائيل بعد خروجهم من مصر، يبقع صوريم بمدءبار ويشقى كتهموت ربّاه، يشق احجاراً في البرية ويسقى كلجج كثيرة، ويوصانو زليم مسلع ويورد كنهروت ميم، اخرج مجار من حجر واجرى كأنهار مياهاً، هن هكاه صور وياز وبو ميم ونحليم، هو ذا ضرب الحجر، وفاضت المياه والأودية (مزامير ٨٧: ٥ - ٢١)[١٠٩].

(مزامير ٧٨: ١٥ -١٦، ٢١):

١٥ יְבַקַּע צֻרִים בַּמִּדְבָּר וַיַּשְׁקְ כִּתְהֹמוֹת רַבָּה.١٦ וַיּוֹצֵא נוֹזְלִים מִסָּלַע וַיּוֹרֶד כַּנְּהָרוֹת מָיִם.

٢٠ הֵן הִכָּה צוּר וַיָּזוֹבוּ מַיִם וּנְחָלִים יִשְׁטְפוּ...

١٥ يِفَقَّع صوريم بَمِدبار فَيَّشق كِتهوموت رَبّا ١٦فَيوصيء نوزليم مِسّالَع

(١٠٧) אבן שושן.המלון החדש, כרך שלי-שי י-מ, עמ" 976 ؛ قوجمان.قاموس عبري -عربي، ص ٣١٥.

(١٠٨) كمال.دروس اللغة العبرية، ص ١٨٧.

(١٠٩) البلاغي.الهدى إلى دين المصطفى، ج ٢، ص ٢١٦.

فَيوريد كَنّهاروت مايم.

٢٠ هين هِكّا صور فَيازوفو مَيّم اونحاليم يِشطوفو...

١٥ شقّ صخوراً في البرية، فسقاهم كأنما من لُجج ١٦ أخرج سواقي من الصخرة، وأجرى المياه كالانهار.

٢٠ فضرب الصخرة وإذا المياه تسيل وتفيض أنهاراً...

وهذا دليل آخر يقدمه البلاغي من التوراة يدل على ان المياه الكثيرة التي خرجت من الصخرة حتى وصفتها التوراة كأنهارٍ من الماء.

المصادر العربية

القرآن الكريم.

- العهد القديم. جمعية الكتاب المقدس في لبنان، الاصدار الثاني ١٩٩٥، ط ٤.
- العهد الجديد. نسخة البسيطة.
- ابن دريد. ابو بكر محمد بن الحسن (ت ٣٢١ هـ). جمهرة اللغة، تحقيق الدكتور رمزي منير البعلبكي، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨٧.
- ابن قتيبة، ابو محمد عبد الله بن مسلم (ت ٢٧٦هـ). المعارف، تحقيق الدكتور: ثروت عكاشة، ط ٢، دار المعارف، مصر ١٩٦٩.
- ابن منظور، الإمام أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأفريقي المصري.، لسان العرب، دار صادر، بيروت (١٩٥٦م).
- ابن هشام، ابو محمد عبد الملك بن هشام الحميري (ت ٢١٨ هـ). السيرة النبوية، تحقيق مصطفى السقا وآخرين، مطبعة منير، بغداد ١٩٨٦.
- الأراكي، الشيخ. مداخلة على محاضرة السيد سامي البدري، ضمن كتاب الدراسات الاسلامية – المسيحية – اليهودية المقارنة.
- الازهري، ابو منصور محمد بن احمد ((ت ٣٧٠هـ). تهذيب اللغة، تحقيق: عبد السلام محمد هارون وآخرون. دار القومية العربية للطباعة، القاهرة ١٩٦٤.
- آقا بزرك الطهراني، الشيخ محمد محسن. الذريعة الى تصانيف الشيعة، ط ٢، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٦م.
- نقباء البشر في القرن الرابع عشر (طبقات أعلام الشيعة)، تعليق: السيد عبد العزيز الطباطبائي، ط ٢، دار المرتضى للنشر، مشهد ١٤٠٤ هـ.
- الأوردبادي، العلامة محمد علي (١٣١٢ – ١٣٨٠ هـ). التراجم – مجموعة الأوردبادي –، مخطوط.
- البار، د. محمد علي. المدخل لدراسة التوراة

والعهد القديم، ط ١، دار القلم دمشق والدار الشامية بيروت، ١٩٩٠.

•باقر، طه.مقدمة في تاريخ الحضارات القديمة، ط ٢، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٦.

•من تراثنا اللغوي القديم ما يسمى في العربية بالدخيل، مطبعة المجمع العلمي العراقي، بغداد ١٩٨٠.

•بدر، محمد. الكنز في قواعد اللغة العبرية، المطبعة التجارية الكبرى، مصر (د.ت).

•البدري، السيد سامي.الدراسات الاسلامية -المسيحية -اليهودية المقارنة، ط ٢، دار الفقه للطباعة والنشر، لندن ٢٠٠٢م.

•شبهات وردود.الطبعة الثانية، نشر حبيب، ١٤١٧ هـ.

•برجشتراسر، جوتهلف.التطور النحوي للغة العربية، اخرجه وصححه الدكتور رمضان عبد التواب.مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٢.

•بروز، سيللر.مخطوطات البحر الميت، ترجمة:محمود العابدي، دائرة الثقافة والفنون، عمان ١٩٦٧.

•بعلبكي، د. رمزي.الكتابة العربية والسامية دراسات في تاريخ الكتابة وأصولها عند الساميين، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٨١.

•فقه العربية المقارن، دراسات في اصوات العربية وصرفها ونحوها على ضوء اللغات السامية، ط ١، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٩.

•البلاغي.الشيخ محمد جواد.انوار الهدى. تقديم:الشيخ محمد مهدي الآصفي، مطبعة القضاة، النجف ١٣٤٠هـ.

•الهدى إلى دين المصطفى، انتشارات المطبعة الحيدرية، ط ١، قم ١٣٧٩ هـ.

•الهدى إلى دين المصطفى، انتشارات المطبعة الحيدرية، ط ١، قم ١٣٧٩ هـ.

•أعاجيب الاكاذيب، الطبعة الاولى، المطبعة الحيدرية، النجف الاشرف، (د.ت).

•الرحلة المدرسية، تقديم:احمد الحسني، مؤسسة الاعلمي للمطبوعات الحديثة، كربلاء، مطبعة النعمان، النجف الاشرف، ١٩٦٣.

•بيستون وآخرون، المعجم السبئي (بالإنجليزية والفرنسية والعربية)، لوفان لانف: دار نشريات بيترز، مكتبة لبنان، بيروت (١٩٨٢م).

•التبريزي، الميرزا محمد علي المدرّس (١٢٩٦ -١٣٧٣ هـ).ريحانة الأدب في تراجم

المعروفين بالكنية أو اللقب، ط ٣، مكتبة خيّام، تبريز (د.ت).

•التميمي، الشيخ محمد علي جعفر.مشهد الإمام أو مدينة النجف، المطبعة الحيدرية، النجف ١٩٥٥ م.

•التونجي، د. محمد.اللغة العبرية وآدابها، منشورات جامعة بنغازي، ليبيا ١٩٧٣.

•حجازي، د. محمود فهمي.علم اللغة العربية مدخل تاريخي مقارن في ضوء التراث واللغات السامية، جامعة الكويت، ١٩٧٣.

•حطاب، امين فعيل.قواعد اللغة المندائية، مركز البحوث والدراسات المندائية، ط ١، مطبعة جعفر العصامي، بغداد ٢٠٠٢.

•الحكيم، السيد، الحسون، محمد.موسوعة العلامة الشيخ محمد جواد البلاغي، المدخل، مركز إحياء التراث الإسلامي، ط ١، مطبعة الباقري، قم ١٤٢٨هـ/ ٢٠٠٧م.

•الخاقاني، علي (ت ١٣٩٨ هـ).شعراء الغري (النجفيات)، مكتبة آية الله المرعشي، قم ١٤٠٨ هـ.

•الخوئي، السيد ابو القاسم (١٣١٧ -١٤١٣ هـ).البيان في تفسير القرآن، ط ٨، ايران ١٩٨١م.

•الخياباني التبريزي، الملا علي الواعظ (ت ١٣٦٧ هـ). علماء معاصرين، ط ايران، (د.ت).

•الدومنيكي، الاب اوغسطين مرمرجي. كلمة (توراة)، مجلة المشرق، م ٢٩، سنة ١٩٣١.

•ديلي، الاب.تاريخ شعب العهد القديم، تعريب:الاب جرجس ماردیني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٦٢.

•ديورانت، وليم.قصة الحضارة، ترجمة:محمد بدران، القاهرة ١٩٥٦.

•الذييب، سليمان بن عبدالرحمن.المعجم النبطي، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض (٢٠٠١م).

•الراغب الاصفهاني، ابو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل (ت ٥٠٢ هـ).معجم مفردات القرآن الكريم، تحقيق:نديم مرعشلي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٩٧٢.

•الزركلي، خير الدين.الاعلام، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٩٢.

•الزمخشري، جار الله ابو القاسم محمود بن عمر (ت ٥٣٨ هـ).الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، مصر ١٩٦٦.

•الزيدي، د. كاصد ياسر.الطبيعة في القرآن الكريم، المركز العربي للطباعة والنشر، بيروت ١٩٨٠.

•السامرائي، د. ابراهيم.الاعلام العربية، دراسة لغوية اجتماعية، مطبعة اسعد، بغداد ١٩٦٤.

•السبزواري، السيد عبد الأعلى.مواهب الرحمن في تفسير القرآن، ط ٣، مطبعة الديراني، بغداد ١٩٨٩.

•سركيس، يوسف اليان.معجم المطبوعات العربية والمعربة، تقديم: احمد باشا تيمور، القاهرة ١٩٢٨.

•سليمان، د. عامر.اللغة الاكدية (البابلية والآشورية) تاريخها وتدوينها وقواعدها، دار الكتب، جامعة الموصل ١٩٩١.

•السماوي، الشيخ محمد (١٢٩٢-١٣٧٠ هـ).الطليعة من شعراء الشيعة، تحقيق:كامل سلمان الجبوري، ط ١، دار المؤرخ العربي، بيروت ٢٠٠١م، ١/ ١٩٥.

•السواح، فراس.مغامرة العقل الاولى، ط ١، دار الكلمة للنشر، بيروت ١٩٨٠.

•سوسة، د. احمد.العرب واليهود في التاريخ، ط ٢، دار الاعتدال، دمشق (د.ت).

•تاريخ حضارة وادي الرافدين في ضوء مشاريع الري الزراعية والمكتشفات الآثارية والمصادر التاريخية، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٨٣.

•شارليه، دوم.القراءة الصحيحة للكتاب المقدس، ترجمة:الاب جرجس المارديني، المطبعة الكاثوليكية، بيروت ١٩٧١.

•شربتيه، الاب اسطفان.دليل الى قراءة الكتاب المقدس، نقله الى العربية:الاب صبحي حموي اليسوعي، ط ٤، دار المشرق، بيروت ١٩٨٣.

•الشيخ الطوسي، أبو جعفر محمد بن الحسن (ت ٤٦٠ هـ).التبيان في تفسير القرآن، تحقيق:احمد حبيب قصير العاملي، مطبعة النعمان، النجف الأشرف ١٩٦٤.

•الصاحبي، محمد جواد، المبلغي، احمد. تصدر كتاب مجموعة مقالات المؤتمر العالمي لتكريم العلامة البلاغي (رحمه الله)، مركز العلوم والثقافة الاسلامية، ط ١، مطبعة النكارش، قم ٢٠٠٨م.

•الطبرسي، ابو علي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨هـ).مجمع البيان في تفسير القرآن، تحقيق:السيد هاشم الرسولي، دار التراث العربي، بيروت ١٩٥٩م.

•الطبري، ابو جعفر محمد بن جرير (ت ٣١٠هـ)، جامع البيان عن تأويل القرآن، تحقيق:محمود محمد شاكر، دار المعارف،

مصر (د.ت).
•ظاظا، د. حسن.الفكر الديني الاسرائيلي، مذاهبه واطواره، القاهرة ١٩٧٥.
•الفكر الديني الإسرائيلي (أطواره ومذاهبه)، معهد البحوث والدراسات الفلسطينية، بغداد ١٩٧١.
•العاملي، السيد محسن الأمين (١٢٨٤ -١٣٧١ هـ).أعيان الشيعة، ط ٥، دار التعارف للمطبوعات، بيروت ١٤٠٣ هـ.
•عبد الباقي، محمد فؤاد.المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم.آوند دانش للطباعة، طهران (د.ت)، ص ١٠٥.
•عبد التواب، د. رمضان.في قواعد الساميات، العبرية والسريانية والحبشية، ط ٢، مكتبة الخانجي بالقاهرة، ١٩٨٣.
•علي، د. جواد.المفصل في تاريخ العرب قبل الاسلام، ط ٢، دار العلم للملايين، بيروت ١٩٧٧.
•علي، د. فؤاد حسنين.اليهودية واليهودية المسيحية، معهد البحوث والدراسات جامعة الدول العربية، ١٩٦٨.
•علي، فاضل عبد الواحد.من الواح سومر الى التوراة، ط ١، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد ١٩٨٩.
•عليان، د. سيد سليمان. قواعد اللغة العبرية، جامعة الملك سعود، الرياض ٢٠٠٠.
•الفرّاء، أبو زكريا يحيى بن زياد. معاني القرآن، تحقيق:محمد علي النجار وآخرون، ط ٢، عالم الكتب، بيروت ١٩٨٠.
•الفراهيدي، الخليل بن احمد (ت ١٧٥هـ). العين، تحقيق:الدكتور مهدي المخزومي والدكتور ابراهيم السامرائي، مطبعة الرسالة، الكويت ١٩٨٠.
•فضل الله، السيد محمد حسين.مقدمة كتاب الرحلة المدرسية والمدرسة السيارة في منهج الهدى، الطبعة الثالثة، بيروت (د،ت).
•الفضلي، د. عبد الهادي.اللامات، دراسة نحوية شاملة في ضوء القراءات القرآنية، ط ١، دار القلم، بيروت ١٩٨٠.
•الفكيكي، توفيق.مقدمة كتاب الهدى الى دين المصطفى، انتشارات المطبعة الحيدرية، ط ١، قم ١٣٧٩ هـ، ج ١، المقدمة.
•قاموس الكتاب المقدس.نخبة من الاساتذة ذوي الاختصاص، مجمع الكنائس في الشرق الادنى، ط ٢، بيروت ١٩٧١.
•قوجمان، ي.قاموس عبري -عربي، ط ١، تل ابيب ١٩٧٠.
•قوزي، د. يوسف.روكان، محمد.آرامية العهد القديم قواعد ونصوص، منشورات المجمع العلمي، مطبعة المجمع العلمي،

بغداد ٢٠٠٦.
•كامل، د. مراد.الكتب التاريخية في العهد القديم، معهد البحوث والدراسات العربية، ١٩٦٨.
•كحالة، عمر. معجم المؤلفين، مكتبة المثنى، بيروت (د.ت).
•الكرملي، الاب انستاس.نشوء اللغة العربية واكتمالها، المطبعة العصرية، القاهرة ١٩٣٨.
•المساعد، تحقيق كوركيس عواد وعبد الحميد العلوجي، دار الحرية للطباعة، بغداد ١٩٧٢.
•كمال، د. ربحي.دروس اللغة العبرية، سوريا ١٩٥٨.
•كنعان، جرجي.تاريخ يهوه، منشورات الدار العربية للعلوم، ط ٢، بيروت ١٩٩٤.
•محبوبة، الشيخ جعفر باقر.ماضي النجف وحاضرها، ط ٢، دار الأضواء، بيروت ١٩٨٦م.
•محمد علي البلاغي، جهوده الفكرية ودوره الوطني والقومي، محمد صادق الخزاعي، رسالة ماجستير غير منشورة مقدمة إلى معهد التاريخ العربي،بغداد١٤٢٥هـ-٢٠٠٤م.
•محمود، مصطفى.التوراة، دار العودة، ط ١، بيروت ١٩٧٢.
•المخزومي، د. مهدي.مدرسة الكوفة ومنهجها في دراسة اللغة والنحو، مطبعة دار المعرفة، بغداد ١٩٥٥.
•المرعشي، السيد شهاب الدين النجفي (ت ١٤١١ هـ).وسيلة المعاد في مناقب شيخنا الأستاذ، مطبوع في مقدمة الترجمة الفارسية لكتاب الرحلة المدرسية (مدرسة سيار)، مؤسسة النصر للطباعة، طهران ١٣٨٣ هـ.
•المسيري، د. عبد الوهاب.موسوعة اليهودية والصهيونية، مقال من الانترنيت.
•ملحة، الخوري لويس.اين ومتى تُرجمت التوراة اليونانية (السبعينية)، مجلة المشرق، ١٩٣٠.
•منى، د. زياد.بنو اسرائيل (جغرافية الجذور)، ط ١، الاهالي للطباعة والنشر والتوزيع، دمشق ١٩٩٥.
•موسكاتي، سباتينو (وآخرون).مدخل الى نحو اللغات السامية المقارن، ترجمه وقدم له:الدكتور مهدي المخزومي والدكتور عبد الجبار المطلبي، عالم الكتب، ط ١، بيروت، ١٩٩٣.
•الناصر، الشيخ غالب.ظاهرة الكتاب المضاد عند الامام البلاغي، ضمن كتاب المؤتمر العالمي لتكريم العلامة البلاغي، منشورات مركز العلوم والثقافة الاسلامية،

ط ١، مطبعة النكارش، قم ٢٠٠٨.

•ناصف، حفني.تاريخ الادب او حياة اللغة العربية، ط ٢، مطبعة جامعة القاهرة ١٩٥٨.

•النجفي، الشيخ محمد حرز الدين (١٢٧٣ -١٣٦٥ هـ).معارف الرجال في تراجم العلماء والأدبـاء، تعليق:محمد حسين حرز الدين، ط ١، مكتبة آية الله المرعشي النجفي، قم ١٤٠٥ هـ.

•النحاس، ابـو جعفر احمـد بـن محمد بن اسماعيل (ت ٣٣٨ هـ).اعـراب القرآن، تحقيق الدكتور زهير غازي، مطبعة العاني، بغداد ١٩٧٩.

•نشرة اكاديمية العلوم والثقافة الإسلامية، مكتب الاعـلام الاسـلامـي في الحـوزة العلمية، قم ٢٠٠٧.

•نصّار، د. صاحب محمد حسين.الاسس القرآنية في الإسلوب الحـواري للعلامة البـلاغي، ضمن كـتـاب المؤتمـر العالمي لتكريم العلامة البلاغي، منشورات مركز العلوم والثقافة الاسلامية، ط ١، مطبعة النكارش، قم ٢٠٠٨.

•النصراوي، ثائر عباس هويدي.الملامح العامة لمنهج الشيخ البلاغي في نقد الفكر الديني، ضمن كتاب المؤتمر العالمي لتكريم العلامة البلاغي، منشورات مركز العلوم والثقافة الاسلامية، ط ١، مطبعة النكارش، قم ٢٠٠٨.

•همو، عبد الحميد.الله ام يهوه؟ ايها اله اليهود، ط ١، الاوائل للنشر والتوزيع والخدمات الطباعية، دمشق ٢٠٠٣.

المصادر العبرية

- ספר תורא נביאים וכתו־ בים.מדיוק היטיב על פי המסורה. Normanהוגה בעיון נמרץ על ידי: henry snaith ،The British and Forign Bible Society، London 1958.

- אבן שושן، אברהם.קונקו־ רדנציה החדשה לתורה נביאים וכתובים ،מהדורה השלישית، הוצאת קרית-ספר، בע"מ ירוש־ לים 1982.

- אבן שושן، אברהם.המ־ לון החדש، הדפסה ראשונה، הוצאת קרית ספר בע"מ، ירוש־ לים 1970.

المصادر الأجنبية

- Drower, E. S., Macuch, R., A Mandaic Dictionary, Oxford University Press. Oxford (1963).
- Gesenius , W. Gesenius' Hebrew Grammar , Edited And Enlarged by:E. Kautzsch , Revised by:A.E. Cowley, Second English Edition, Clarendon Press , Oxford 1976.
- Gordon, C., Ugaritic Textbook, Analecta Orientalia Pontifical Biblical Institute , Rome (1965).
- Hillers, D., Cussini, E Palmyrene Aramaic Texts. The Johns Hopkins Unirersity Press, Baltimore, London (1996).
- Hoftijzer , J & Jongeling, K.Dictionary of the North West Semitic Inscriptions , New York 1995.
- AHW=Von Soden, olfram,Akkadisches Handworterbuch, Wiesbaden.19651981 –.
- Bennett,, W., The Moabite Stone, Edinburgh: T. T. Clark (1911).
- Brown , F. Driver , S.Briggs , A. A Hebrew and English Lexicon of the Old Testament , Oxford 1974.
- CAD = Chicago Assyrian Dictionary , Oriental Institute, Chicago1956.
- Costaz, L., Dictionnaire Syrique–Français, Syriac–English Dictionary,. قاموس–سرياني–عربي Imprimerie Catholique , Beirut (1963).
- Donner, H., RÖllig, W., Kanaanaische und aramäische Inschriften, Wiesbaden: Otto Harrassowitz. (1964–1962).

- Hoftijzer, J., Jongeling, K. Dictionary of the North-West Semitic Inscriptions, Leiden: E. J. Brill(1995) ..
- Smith, J., A Compendious Syriac Dictionary, Founden upon the Thesaurus Syriacus, The Clarendon Press , Oxford (1967).
- Sokoloff, M., A Dictionary of Jewish Palestinian Aramaic of the Byzantine Period , Bar Ilan University Press , Ramat Gam (1992).
- Tomback, R., A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Languages, Scholars Press for the Society of Biblical Literature New York(1974) .
- Tomback, R., A Comparative Semitic Lexicon of the Phoenician and Punic Languages , Scholars Press for the Society of Biblical Literature New York (1974).

ملخص البحث

بدأ السيد الباحث، بتصحيح عنوان بحث كهذا البحث وبيّن أن المقصود ببحثه هـذا: بيان المنهج التفسيري للقرآن الكريم ، القائم على إظهار آياته بانها تحكي حقائق علمية لا تُفهم الآية الا بفهم تلك الحقائق وإدراكها.

ثم يعرض الباحث اراء العلماء المتقدمين والمتأخرين بهذا المنهج ويناقشهم مناقشة علمية هادئة ثم يفرد للشيخ طنطاوي جوهري حديثا مطولاً يستعرض آراءه في سَوْق المعاني على محمل العلوم البحتة ويعرض نماذج من ذلك السَّوْق مما ورد في تفسيره (الجواهر).

بعدها يناقش السيد الباحث كثيراً من اراء الذين تصدوا للكتابة عن هذا النمط من التفسير ويبدي رأيه في ما ذهبوا اليه، بشكل يصدق عليه لفظ (العرض والتحليل والنقد).

منهج تفسير القرآن بالعلوم البحتة

عرض وتحليل ونقد

محمد علي هدو

باحث إسلامي / كربلاء - العراق

بيان:

دأب كل الباحثين على أن يجعلوا عنوان بحث كهذا البحث: (التفسير العلمي للقرآن). وقد قلبت نظري في هذا العنوان فوجدته يومئ إلى معنىً آخر غير المعنى المقصود، بحكم ما أوتيت اللغة العربية من دقة في رسم المعاني وفق سياقاتها المتنوعة.

فمصطلح (التفسير العلمي) هو كل تفسير يقوم على أسس وقواعد صحيحة، كما رسمها علماء التفسير، وعلى وفق منهج محدود يصب في مسار فك الأبهام عن كل ما أستغلق على الناس فهمه من القرآن الكريم، وتختلف هذه المناهج بأختلاف إيمان المفسر بأي منها، ومقدار ما أوتي من ثقافة وقدرة على السير بهذا المنهج أو ذاك، وصولاً إلى مستوى الأقناع.. ويمكن أن نسمي كل منهج من تلكم المناهج (تفسيراً علمياً).

إن المقصود من بحثنا المتواضع هذا، بيان المنهج التفسيري للقرآن الكريم، القائم على إظهار آياته على أنها حقائق علمية، لا تفهم الآية إلا بفهم تلك الحقائق وأدراكها، وأن إعجاز القرآن الكريم، إنما جاء بسبب أقتران آياته بالمكتشفات الفلكية والمخترعات العلمية وقوانين العلوم الصرفة والطب وما إلى ذلك.

أذن: فلا مناص من القبول بالعنوان الذي أخترناه لمثل هذا المنهج التفسيري للقرآن... والله المسدد للصواب.

أنزل القرآن الكريم على صدر الرسول الأعظمﷺ كتاب عقيدة وهداية وتشريع وأخلاق. وفيه آيات تشير إلى حقائق علمية وتحض على التطلع والبحث والتنقيب.

والمتبصر في آيات القرآن الكريم، المدرك لمعانيها، يعلم يقينا أن العلم في مفهومه العام، والذي يحث القرآن الكريم على طلبه والأستزادة منه لا يقتصر على العلم بأحكام الشريعة على أختلاف انواعها، بل هو يدل على العلوم الأخرى والتي لا يحدها حد. قال تعالى في سورة النازعات ﴿ءَأَنتُمْ أَشَدُّ خَلْقًا أَمِ ٱلسَّمَآءُ بَنَىٰهَا ﴿٢٧﴾ رَفَعَ سَمْكَهَا فَسَوَّىٰهَا ﴿٢٨﴾ وَأَغْطَشَ لَيْلَهَا وَأَخْرَجَ ضُحَىٰهَا ﴿٢٩﴾ وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ ﴿٣٠﴾ أَخْرَجَ مِنْهَا مَآءَهَا وَمَرْعَىٰهَا﴾ وقال تعالى في سورة البقرة: ﴿إِنَّ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ وَٱلْفُلْكِ ٱلَّتِى تَجْرِى فِى ٱلْبَحْرِ بِمَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ وَمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مِن مَّآءٍ فَأَحْيَا بِهِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَا وَبَثَّ فِيهَا مِن كُلِّ دَآبَّةٍ وَتَصْرِيفِ ٱلرِّيَٰحِ وَٱلسَّحَابِ ٱلْمُسَخَّرِ بَيْنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾.

فبدأ بذكر خلق السماوات والأرض ودوران الفلك ثم ختم الآية الكريمة بقوله تعالى: ﴿لَّءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وهذا كثير في القرآن الكريم، فالأرض والبحار وكل ما تحت السماوات بالأضافة إلى السماوات، قل أن تجيء سورة إلا وفيها ذكرها، إما إخباراً عن عظمتها وسعتها وأما إقساماً بها وأما دعوة إلى النظر فيها وأما أرشاداً للعباد أن يستدلوا بها على عظمة بانيها ورافعها، وأما أستدلالاً منه-سبحانه-على ربوبيته لها، وأما أستدلالاً منه-تعالى-بحسنها وأستوائها والتئام أجزائها وعدم الفطور فيها على تمام حكمته وقدرته.

وقد رد كثير من الباحثين المسلمين ومفكريهم، الدعوى الباطلة التي روج لها المستشرقون ومن تبعهم من الحاقدين على تراث الإسلام، وجهلة المسلمين في الغرب والشرق، والتي تذهب إلى أن العلم الذي أثبته القرآن الكريم وحث عليه، ورغبت فيه أحاديث الرسول الأعظمﷺ أنما يقصد به العلم الشرعي فقط دون بقية العلوم الأخرى.

يقول (شكيب أرسلان):- وقد زعم بعضهم، ومن جملتهم (سكار) هذا الذي بالمغرب قد الف كتاباً في الطعن على الإسلام وهو الذي يكتب في مجلة (مراكش الكاثوليكية) أن المراد بلفظة العلم في القرآن هو العلم الديني، ولم يكن المقصود به العلم مطلقاً، ليستظهر به على قضية تعظيم القرآن للعلم وايجابه للتعليم.

أن كل من تأمل في مواضيع هذه الآيات المتعلقة بالعلم والحكمة وغيرها مما يحث على السير في الأرض والنظر والتفكر، يعلم أن المراد هنا بالعلم، هو العلم على إطلاقه، متناولاً كل شيء. وأن المراد بالحكمة هي الحكمة العليا المعروفة عند الناس:- وهي غير الآيات المنزلة والكتاب.

إن في بعض الآيات من القرائن اللفظية والمعنوية ما يقتضي أن المراد بالعلم، علم الكون لأنه في سياق آيات الخلق والتكوين، وهي في القرآن الكريم أضعاف الآيات في العبادات العملية كالصلاة والصيام كقوله تعالى في سورة فاطر: ﴿أَلَمْ تَرَ أَنَّ ٱللَّهَ أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجْنَا بِهِۦ ثَمَرَٰتٍ مُّخْتَلِفًا أَلْوَٰنُهَا ۚ وَمِنَ ٱلْجِبَالِ جُدَدٌۢ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ ﴿٢٧﴾ وَمِنَ ٱلنَّاسِ وَٱلدَّوَآبِّ وَٱلْأَنْعَٰمِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ كَذَٰلِكَ ۗ إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ﴾ أي العلماء بما ذكر-سبحانه-في الآية الكريمة من الماء والنبات والجبال وسائر المواليد المختلفة الألوان وما فيها من أسرار الخلق، لا العلماء بالصلاة والصيام والقيام.. وعلى هذا الرأي جل العلماء والمفسرين المسلمين من القدماء والمحدثين.يقول ابو جعفر الطوسي (٤٦٠هـ): «ومعناه: ليس يخاف الله حق خوفه ولا يحذر معاصيه خوفا من عقابه الا العلماء الذين يعرفون حقيقة ذلك.فاما الجهال ومن لا يعرف الله فلا يخافونه مثل ذلك.وكذلك ينظر العلماء في حجج الله وبيناته ويفكرون في ما يفضي بهم الى معرفته من جميع ما تقدم ذكره»[1].

فالعلماء هنا هم من ينظرون في أمرين:

(١) الطوسي -التبيان -٨/ ٤٢٧- ط/ النجف.

اولهما: الذين يعرفون حقيقة الخلق الذي ذكره -سبحانه- في صدر الآية الكريمة.

وثانيهما: اولئك الذين ينظرون في حجج الله وبيناته ويتفكرون في ما يفضي بهم الى معرفته من جميع ما تقدم ذكره.

وقد اختار السيد الطباطبائي في تفسيره الفئة الثانية من العلماء، فقال في تفسير الكلمة: «والمراد بالعلماء: العلماء بالله وهم الذين يعرفون الله -سبحانه- باسمائه وصفاته وأفعاله، معرفة تامة، تطمئن بها قلوبهم وتزيل وصمة الشك والقلق عن نفوسهم، وتظهر اثارها في اعمالهم فيصدّق فعلهم قولهم والمراد بالخشية حينئذ: حق الخشية، ويتبعها خشوع في باطنهم وخضوع في ظاهرهم»[٢].

واذا كنا لا نريد الاعتراض على العلامة الطباطبائي بقولنا: ان صدر الآية يؤلف مع عجزها نسقاً جدليا.فيها ذكرٌ لبعض خلق الله العجيب الذي لا يصل الى معرفته الجهال به، ثم ذكرٌ صريح لمن يعتبر بها وهم العلماء أي العلماء بهذا الخلق العجيب.و لا نرى ان سياق الآية الكريمة ينحرف عن هذا التوجيه، بيد ان العلامة الطباطبائي لم يشأ أن يخرج المعنى من النزعة العرفانية التي ينزع اليها سماحته وهو المتألّه الهائم في تعظيم الله والممتلىء من خشية الله والعارف به حق معرفته.

وقد صاغ المرحوم (سيد قطب) معنى (الخشية) و(العلماء) في الآية الكريمة صياغة ادبية في لوحة فنية، التزم فيها الحياد وفضّل فيها الاشارة لا التصريح ولكنه لم يُخرج السياق الشريف عن معناه الذي يشير اليه وهو أن (العلماء) هم من يتدبر كنه هذا الخلق المذكور في صدر الآية المباركة والذي تنجم عنه خشية الله الحقيقية.

يقول: «وهذه الصفحات التي قلّبها في هذا الكتاب، هي بعض صفحاته. والعلماء هم الذين يتدبرون هذا الكتاب العجيب، ومن ثم يعرفون الله معرفة حقيقية.يعرفونه باثار صنعته، ويدركونه باثار قدرته، ويستشعرون حقيقة عظمته، برؤية حقيقة إبداعه. ومن ثم يخشونه حقا، ويتقونه حقا، ويعبدونه حقا. لا بالشعور

(٢) الميزان -١٧/ ٤٣ -ط/ الأعلمي.

الغامض الذي يجده القلب امام روعة الكون، ولكن بالمعرفة الدقيقة والعلم المباشر.وهذه الصفحات انموذج من الكتاب... والألوان والأصباغ نموذج من بدائع التكوين الاخرى، وبدائع التنسيق التي لا يدركها الا العلماء بهذا الكتاب. العلماء به علماً واصلاً.علماً يستشعره القلب ويتحرك به.ويرى به يد الله المبدعة للالوان والاصباغ والتكوين والتنسيق في ذلك الكون الجميل»[٣].

هذا المعنى هو الذي يميل اليه المنطق العقلي لفهم سياق هذه الآية الكريمة وما شابهها من الآيات التي تتحدث عن خفايا هذا الكون مما لا يمكن ان يدركها الا العالم بها، المتتبع لاسرارها وكلما استغرق علمه خفاياها ازداد عجبا وسُدَّت امامه طرق التعليل الا قدرة الله -سبحانه-.

اما علم الفرائض، فهو علم مستقل عن العلوم التي تؤدي الى ترسيخ الايمان بالله القادر المقتدر ومن ثم الى عبادته بما هو -سبحانه -اهل له، وللوصول الى صحة تلك العبادة، عليه ان يتفقه في الدين ويعرف احكام الفقه.

وصفوة القول إن القرآن الكريم لا يقرر العلوم التي دعا اليها بل يدعو الى عدم إهمالها أو ازدراء صغائرها. انه يفتح الابواب امامك ولكنه لا يقرر كيف ولماذا واين ومتى... قال تعالى: ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ﴾ [سورة فصلت: ٥٣].

لم تقف هذه الفكرة عند هذا الحد، فقد أندفع كثير من العلماء والمتدينين وبحكم غيرتهم على القرآن الكريم إلى الأيغال في هذا المنحى متأثرين بأراء القدماء ممن تحدثوا عما في القرآن الكريم من العلوم المتنوعة، داعين المفسرين، بل عامة من يقرأ القرآن بتدبر ووعي، إلى أن يعوا هذا الجانب ويسيروا على فهمه. يرى بعض الباحثين أن بداية استخدام العلوم في تفسير القرآن الكريم، كانت في القرن الرابع الهجري، كردّ فعل على العلوم التي ترجمت عن اليونان وبلاد فارس ودخلت الساحة الفكرية للمسلمين.ثم استمرت

(٣) في ظلال القرآن ج٢٢ ص ١٣٠ -ط٥- ١٩٦٧- بيروت.

هذه الطريقة على شكل استخراج للعلوم من القرآن.وفي القرن الأخير، ظهر على شكل تحميل للنظريات العلمية وتطبيقها على القرآن.وقد استفاد بعض المفسرين الكبار من استخدام العلوم التجريبية كمصدر ووسيلة في تفسير القرآن[٤].

وربما كان الإمام أبو حامد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ) أول من أستوفى بيان هذا القول في تفسير القرآن الكريم وفهمه وأهم من أيده وعمل على ترويجة في الأوساط العلمية الإسلامية برغم ما قرر فيها من قواعد فهم عبارات القرآن الكريم[٥].

ففي كتاب (أحياء علوم الدين) يعقد (الغزالي) الباب الرابع من أبواب أداب تلاوة القرآن في فهم القرآن وتفسيره بالرأي. وفيه ينقل عن بعض العلماء:-"أن القرآن يحوي سبعة وسبعين الف علم ومئتي علم، أذ كل كلمة علم، ثم يتضاعف ذلك أربعة أضعاف، أذ لكل كلمة ظاهر وباطن وحد ومطلع"ثم يروي عن (أبن مسعود) قوله:-"من أراد علم الأولين والآخرين فليتدبر القرآن»[٦].

وفي الفصل الخامس من كتابه (جواهر القرآن) الذي ألفه بعد (أحياء علوم الدين) كما أشار هو الى ذلك في مقدمته، يتحدث عن كيفية أنشعاب سائر العلوم من القرآن، فيذكر علم الطب والنجوم وهيئة العالم وهيئة بدن الحيوان وتشريح أعضائه وعلم السحر وعلم الطلسمات وغير ذلك. ثم يقول "ووراء ما عددته علوم أخرى، يعلم تراجمها ولا يخلو العالم عمن يعرفها ولا حاجة إلى ذكرها"ثم يقول:-»ظهر لنا بالبصيرة الواضحة التي لا يتمارى فيها، أن في الأمكان والقوة أصنافاً من العلوم بعدُ لم تخرج من الوجود، وإن كان في قوة الآدمي الوصول إليها. وعلوم كانت قد خرجت من الوجود وأندرست الآن... وعلوم أخر ليس في قوة البشر اصلاً أدراكها والأحاطة بها ويحظى بها بعض

(٤) د. محمد علي الرضائي -مناهج التفسير واتجاهاته-ص ٢٥١.

(٥) محمد حسين الذهبي-التفسير والمفسرون-ج٣ ص ١٤٠.

(٦) أبو حامد الغزالي-أحياء علوم الدين-ج١ ص٢٩٧-ط/ القاهرة-١٣٣٢ هـ.

الملائكة المقربين.. إلى آخر ما قال[٧].

ويبدو أن (السيوطي) ت ٩١١ هـ، قد تأثر بمنحى (الغزالي) في القول بالتفسير القائم على الحقائق العلمية. فهو في كتابه (الأتقان) يستدل على صحة منحاه حتى يستشهد ببعض الآيات القرآنية، كقوله تعالى: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي ٱلْكِتَٰبِ مِن شَىْءٍ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾[سورة الأنعام:٣٨] وقوله تعالى: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ﴾[سورة النحل:٨٩] فقد برز (الغزالي) في أنتهاج هذا المنهج وأستشهد بالآيات التي يرى أنها تشير إلى العلم الذي خصته.

وفي الكتاب نفسه، يلخص (السيوطي) كلام (أبي الفضل المرسي) ويزيد عليه من الشواهد التي تدعم فكرة أحتواء القرآن الكريم على كل علوم الدين والدنيا، فيقول[٨]: "وقد أحتوى على علوم أخر من علوم الأوائل مثل: الطب والجدل والهيئة والهندسة والجبر والمقابلة والنجامة وغير ذلك من العلوم.

أما الطب فمداره على حفظ نظام الصحة وأستحكام القوة وذلك أنما يكون بأعتدال المزاج بتفاعل الكيفيات المتضادة وقد جمع ذلك في آية واحدة وهي قوله تعالى: ﴿وَكَانَ بَيْنَ ذَٰلِكَ قَوَامًا﴾ [سورة الفرقان: ٦٧] .. وعرَّفنا فيه بما يفيد نظام الصحة بعد اختلاله وحدوث الشفاء للبدن بعد اعتلاله في قوله تعالى: ﴿شَرَابٌ مُّخْتَلِفٌ أَلْوَٰنُهُۥ فِيهِ شِفَآءٌ لِّلنَّاسِ﴾ [سورة النحل: ٦٩].. ثم زاد على طب الأجسام، طب القلوب وشفاء الصدور..

وأما الهيئة، ففي تضاعيف سوره من الآيات التي ذكر فيها ملكوت السموات والأرض وما بث في العالم العلوي والسفلي من المخلوقات وأما الهندسة، (وما زال الحديث هو ما ينقله السيوطي عن أبي الفضل المرسي)، ففي قوله تعالى: ﴿ٱنطَلِقُوٓا۟ إِلَىٰ ظِلٍّ ذِى ثَلَٰثِ شُعَبٍ ﴿٣٠﴾ لَّا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِى مِنَ ٱللَّهَبِ﴾ [سورة المرسلات: ٣٠-٣١].

فإن فيه قاعدة هندسية وهي أن الشكل

(٧) أبو حامد الغزالي-جواهر القرآن ٣١،٣٣، مط/ كردستان ١٣٢٩ هـ.

(٨) جلال الدين السيوطي-الأتقان في علوم القرآن-ج٢ ص١٢٧، ١٢٨. (ط/ البابي الحلبي -١٩٥١).

المثلث لا ظل له.

وأما الجبر والمقابلة، فقد قيل إن أوائل السور فيها ذكر مدد وأعوام وأيام التواريخ لأمم سالفة، وأن فيها بقاء هذه الأمة وتاريخ مدة أيام الدنيا وما مضى، مضروب بعضها في بعض.

وفيه (أي القرآن الكريم)، أصول الصنائع واسماء الآلات التي تدعو الضرورة إليها كالخياطة والحدادة والصياغة والزجاجة (صناعة الزجاج) والفخارة والملاحة والكتابة والخبازة والطبخ والقصارة (غسل الملابس) والبيع والشراء والجزارة والصباغة والحجارة (نحتها وصناعتها) والكيالة والوزن والرمي... وقد أكتفينا بالعناوين اجتنابا للاطالة.

فهو يستشهد لكل علم من هاتيك العلوم بآية كريمة أستشهادا بارداً لا نجد فيه حرارة الحجة البالغة، وقد يصل الأستشهاد منه إلى درجة الاسفاف.

فهو-مثلاً-حين يستشهد على وجود علم الصباغة في القرآن يضرب لذلك مثلاً من قوله تعالى: ﴿صِبْغَةَ اللَّهِ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ صِبْغَةً﴾[سورة البقرة: ١٣٨].

وحين يستدل على وجود علم الخبازة فيه فإنه يضرب لذلك مثلاً من قوله تعالى: ﴿إِنِّي أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزًا تَأْكُلُ الطَّيْرُ مِنْهُ﴾ [سورة يوسف: ٣٦].

ولو أنا تتبعنا سلسلة البحوث التفسيرية للقرآن الكريم لوجدنا أن هذه النزعة تمتد من عهد النهضة العلمية العباسية إلى يومنا هذا، ولوجدنا أنها كانت في أول أمرها محاولات يقصد منها التوفيق بين القرآن الكريم وما جد من العلوم، ثم وُجِدت الفكرة مركزة وصريحة على لسان (الغزالي وأبن العربي) و(المرسي) (والسيوطي) كما أسلفنا. ولوجدنا أيضاً أن هذه الفكرة قد طبقت عملياً وظهرت في مثل محاولات (الفخر الرازي) ضمن تفسيره (مفاتيح الغيب).

وراجت هذه الفكرة في العصر المتأخر رواجاً كبيراً بين جماعة من أهل العلم، ونتج عن ذلك مؤلفات كثيرة تعالج هذا الموضوع كما سنرى.

يقول المرحوم (مصطفى صادق الرافعي)(المتوفى١٩٣٧):- وقد استخرج

بعض علمائنا من القرآن ما يشير إلى مستحدثات الأختراع وما يحقق بعض غوامض العلوم الطبيعية وبسطوا كل ذلك بسطا ليس هو من غرضنا فنستقصي فيه، على أن هذا ومثله انما يكون فيه أشارة ولمحة، ولعل متحققا بالعلوم الحديثة، لو تدبر القرآن وأحكم النظر فيه، وكان بحيث لا تعوزه أداة الفهم، ولا يلتوي عليه أمر من أمره، لاستخرج منه آيات كثيرة تومىء إلى حقائق العلوم، وإن لم تبسط من أنبائها، وتدل عليها وإن لم تسمها بأسمائها[٩]. وهو رأي جدير بأن يؤخذ به وسط احتدام التيارات المؤيدة والمناهضة لهذا اللون من التفسير والذي كان أكثر رواجاً وأعظم قبولاً لدى المتأخرين وصولاً إلى المعاصرين من المثقفين الذين لهم عناية بالعلوم وبالقرآن الكريم. فثمة فرق واضح بين المخترعات الحديثة والمكتشفات الكونية التي اشار القران الكريم الى حقائقها ولم يتوصل المفسرون القدامى الى فهم اسباب العجائب فيها. من ذلك مثلاً قوله تعالى في الاية ٣٠ من سورة الأنبياء: ﴿أَوَلَمْ يَرَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ كَانَتَا رَتْقًا فَفَتَقْنَٰهُمَا ۖ وَجَعَلْنَا مِنَ ٱلْمَآءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ ۖ أَفَلَا يُؤْمِنُونَ﴾ في اشارة الى ما تحقق حديثاً من رأي يقول: ان الارض انفتقت من النظام الشمسي في تقرير خاص به الجيولوجيون والفلكيون، مستند الى نظريات وبراهين مقنعة.في حين أن المفسرين القدماء لم يفهموا الآية الا من خلال السياق اللغوي الظاهري لها.فهذا الطبري مثلاً يقول: ان السماوات والارض كانتا رتقا، يقول: ليس فيهما ثقب بل كانتا ملتصقتين.يقال منه،رتق فلان الفتق اذا شده فهو يرتقه رتقا ورتوقا... ووحَّد رتقاً وهو من صفة السماء والارض، وقد جاء بعد قوله (كانتا) لأنه مصدر، مثل: قول الزور والصوم والفطر. وقوله: ﴿فَفَتَقْنَٰهُمَا﴾ أي: فصدعناهما وفرجناهما.ثم اختلف أهل التأويل في معنى وصف الله السماوات والارض بالرتق، وكيف كان الرتق، وباي معنىً فتق...الخ[١٠].

(٩) مصطفى صادق الرافعي -تاريخ اداب العرب- دار الكتب العلمية -بيروت/ ٢٠٠٠م -ج٢ ص ١٠١.

(١٠)تفسيرالطبري-ج١٧ص١٤-ط/الاميرية-١٣٢٣.

ومثلها قوله تعالى في[الاية ١١ من سورة فصلت]﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ وَهِيَ دُخَانٌ﴾والتي تشير الى ما اكتشف في ما بعدُ أن مادة الكون هي الأثير... الخ.

ومن المرجح ان هذا التوجه في تفسير القران الكريم جاء بعد شيوع المكتشفات الفلكية مثل نظريات الجاذبية والمجموعة الشمسية وحركة الارض والكواكب وسمك الغلاف الجوي وظاهرة الزلازل والبراكين الى آخر ما في قائمة المكتشفات.

وبهذا بدأوا يقرؤون القران قراءة جديدة على فهم الناس القديم له والذي وصلهم مأثوراً منذ عهد النبوة فالصحابة فالتابعين، مطرزا باراء النحويين والبلاغيين والمؤرخين... وهكذا بدأوا يفسرون القران بما استهواهم اكتشافه من اسرار الكون.

وكان من أثر هذه النزعة التفسيرية التي تسلطت على قلوب أصحابها، أن أخرج لنا المشغوفون بها كثيراً من الكتب يحاول أصحابها فيها تحميل القرآن الكريم كل علوم الأرض والسماء وأن يجعلوه دالاً عليها بطريق التصريح أو التلميح، أعتقاداً منهم بأن في هذا بياناً لناحية من أهم نواحي صدقه وإعجازه وصلاحيته للبقاء[١١].

ومن أهم الكتب التي ظهرت فيها هذه النزعة التفسيرية، كتاب (كشف الأسرار النورانية القرآنية في ما يتعلق بالأجرام السماوية والأرضية والحيوانات والنباتات والجواهر المعدنية) للطبيب (محمد بن أحمد الأسكندراني) من علماء القرن الثالث عشر الهجري[١٢]، وهو كتاب مطبوع بثلاثة أجزاء في مصر سنة ١٢٩٧هـ. وكتاب (تبيان الأسرار الربانية بالنباتات والمعادن والخواص الحيوانية) للأسكندراني أيضاً. ورسالة (عبد الله باشا فكري) في مقارنة بعض مباحث الهيأة بالوارد في النصوص

(١١) محمد هادي معرفة-التفسير والمفسرون-ج١ ص١٠٠١.

(١٢) طبيب باحث من أهل الأسكندرية، عمل في العسكرية البحرية في مصر إلى سنة ١٢٥٦ ورحل إلى دمشق فتولى رئاسة أطباء الجيش إلى سنة ١٢٥٨ هـ وتوفي فيها سنة ١٣٠٦ هـ (١٨٨٦ م).

الشرعية، وهو مطبوع في القاهرة عام (١٣١٥هـ).. وكتاب (طبائع الأستبداد ومصارع الأستعباد) (للشيخ عبد الرحمن الكواكبي) وهو مجموعة مقالات نشرها في بعض الصحف عندما زار مصر. وفيه ينحاز المؤلف أنحيازاً واضحاً إلى هذا النوع من التفسير، فيصف القرآن بأنه:- شمس للعلوم وكنز الحكمة. ويقرر أن السر في إحجام العلماء عن تفسير قسمي الآلاء والأخلاق من القرآن وبيان ما يشتمل عليه من العلوم المختلفة، هو أنهم كانوا لا يحاولون مخالفة رأي بعض السلف القاصرين في العلم فيكفّرون فيقتلون ويقول:- وهذه مسألة أعجاز القرآن وهي أهم مسألة في الدين لم يقدروا أن يوافوها حقها من البحث، وأقتصروا على ما قاله بعض السلف أنها هي فصاحته وبلاغته وإخباره عن أن الروم من بعد غلبهم سيغلبون.

وأذا تتبعنا ما في هذا الكتاب لوجدنا الكثير منه لا يقصده القرآن الكريم ولا يهدف اليه من وراء خطابه للعرب وسائر الأمم.

فمثلا نجده حين يعرض لقوله تعالى في [الآية ٢٢من سورة البقرة]: ﴿ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ فِرَٰشًا وَٱلسَّمَآءَ بِنَآءً وَأَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَخْرَجَ بِهِۦ مِنَ ٱلثَّمَرَٰتِ رِزْقًا لَّكُمْ ۖ فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ تحت عنوان (الحياة تحت ضوء القرآن) يقول: "هذه الآية الكريمة، معناها-والله أعلم-إن اللحوم والأسماك والألبان أفضل من التغذية بالبقول والقمح والذرة. وليست الأفضلية في مقدار المواد الزلالية الضرورية للجسم في كل نوع، لأن هذا لا يجب أن يكون سبباً مهماً للأفضلية.. ألخ"ثم يعقد مقارنة بين بعض الأغذية وما فيها من نسب المواد الزلالية..! وهذا-بالطبع-تكلف من المؤلف لأن القرآن الكريم الذي نزل دستوراً للناس لم يقصد-قطعاً-إلى مثل هذه البحوث العلمية وإنما رمى الى تنظيم الحياة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية وغيرها من مناحي الحياة المختلفة.

كما وقد تحدث عن علوم القرآن باحثون آخرون فيهم الدكتور (محمد جمال الدين الفندي) الذي نهج نهجاً فلكياً وأستطرد أستطرادات كثيره وأورد

نظريات علمية لا يعول عليها في عالم الحقيقة وذلك في كتابه (من الآيات الكونية في القرآن الكريم).

أما (أحمد محمود سليمان) فقد حذر من الجري وراء النظريات العلمية ومع ذلك فقد وقع فيها وتحدث عن تطور المخلوقات في كتابه المشهور (القرآن والعلم) فقال: "ثم تطورت تلك الزواحف فنشأت منها الطيور التي تسير على رجلين. ثم تطورت الطيور إلى حيوانات ثديية تسير على أربع"[13] والحال هو الحال مع السيد (عبد الرزاق نوفل) في كتابه (القرآن والعلم الحديث) الذي أفاض فيه بتفسير آيات تخص علمه الزراعي وغيره وخالف أحاديث صحيحة في تفسير الحسد، وأستشهد بالكثير من أقوال أهل الكتاب في علم النفس والأجتماع.

وإذا كان هؤلاء الذين ذكرناهم، وعشرات أمثالهم، قد تعرضوا للآيات التي يمكن أن يخاض بها في الجانب العلمي والمكتشفات والمخترعات فإن العصر الحديث قد شهد من ألّف تفسيراً كاملاً للقرآن الكريم، صوّر فيه كتاب الله وكأنه مصدر علمي صرف. ففيه الفلك والطب والزراعة وعلم الحيوان والغذاء والكيمياء والفيزياء، وجعل ذلك دليلاً على إعجازه.

ذلك هو تفسير (الجواهر) للشيخ (طنطاوي جوهري). وارى أن من المفيد أن نفرد جزءاً من البحث لتقصي هذا التفسير الغريب وهذا المفسر الذي لا نتهمه في غيرته على القرآن الكريم وإظهاره بمظهر التطور الذي يتماشى والتقدم العلمي لبني البشر.

طنطاوي أبن جوهري المصري، عالم فاضل له أشتغال بالتفسير والعلوم الحديثة، ولد في قرية (عوض الله حجازي) من قرى محافظة الشرقية بمصر عام ١٢٨٧هـ (١٨٧٠م) وقيل غير ذلك. تعلم في الكتاتيب ثم في المدارس الحكومية ثم في الأزهر وعين مدرساً في المراحل المختلفة وعمل في عدة مدن وعني بدراسة اللغة الأنجليزية.

درس في (دار العلوم) والقى

(١٣) أحمد محمود سليمان-القرآن والعلم-ص٦٥.

محاضرات في الجامعة المصرية وناصر الحركة الوطنية المصرية عام ١٩١٩ ووضع كتاباً عنوانه (نهضة مصر وحياتها) نشره تباعاً في جريدة (اللواء) شهد له الأمام (محمد عبده) والزعيم الوطني (مصطفى كامل) بالوطنية الحقة.

أنقطع الى التأليف فصنف كتباً أشهرها (جواهر العلوم) و(النظام والإسلام) (والتاج المرصع) و(الزهرة) و(نظام العالم والأمم) و(الأرواح) و(أين الإنسان) و(أصل العالم) و(جمال العالم) و(الحكمة والحكماء) (وسوانح الجوهري) و(ميزان الجوهري في عجائب الكون) و(الفوائد الجوهرية) في الطرق النحوية، (وبهجة العلوم) في الفلسفة العربية وموازنتها بالعلوم العصرية. وكلها مطبوعة في مصر هذا فضلاً عن تفسيره المسمى (الجواهر في تفسير القرآن الكريم) في ستة وعشرين مجلداً، والذي نحن الآن بصدد الحديث عنه. وقد توفي (طنطاوي جوهري) في القاهرة عام ١٣٥٨ هـ (١٩٤٠م).

لقد خُلق الشيخ طنطاوي كما يقول هو عن نفسه في مقدمة تفسيره، مغرماً بالعجائب الكونية، معجباً بالبدائع الطبيعية، مشوقاً إلى ما في السماء من جمال وما في الأرض من بهاء وكمال. ثم إنه لما تأمل الأمة الإسلامية وتعاليمها الدينية الفى أجلة العلماء، وأكثر العقلاء عن تلك المعاني معرضين، فقليل منهم من فكر في خرق العوالم وما أودع فيها من الغرائب، فدفعه ذلك إلى تأليف الكتب التي ذكرنا بعضها، والتي مزج فيها الآيات القرآنية بالعجائب الكونية. ولكنه وجد أن هذه الكتب، وبالرغم من كثرتها وأنتشارها وترجمة بعضها إلى اللغات الأجنبية، لم تشفِ غليله، فتوجه إلى تفسير القرآن الكريم.

لقد ابتدأ بكتابة هذا التفسير أيام كان مدرساً في مدرسة دار العلوم. فكان يلقي تفسير بعض الآيات على طلبتها. وكان بعضها يُكتب في مجلة (الملاجيء). ثم والى تفسيره في مسيرة طويلة شاقة، أخترق فيها صفوف المعارضين والمستنكرين معتمداً على المؤيدين، حتى تم له أخراج هذه الموسوعة الكبيرة والتي قرر فيها:- أن في القرآن الكريم من آيات العلوم ما يربو

على السبعمئة والخمسين آية، في حين أن علم الفقه لا تزيد آياته الصريحة على مئة وخمسين آية.

كما يقرر أن الإسلام جاء إلى أمم كثيرة، وأن سور القرآن متممات لأمور أظهرها العلم الحديث...

وكثيراً ما نجد المؤلف يدعوا المسلمين إلى أن يتأملوا في آيات القرآن التي ترشد إلى علوم الكون ويحثهم على العمل بما فيها، ويندد بمن يُغفل هذه الآيات. فهو يقول-مثلاً-:"يا أمة الإسلام، آيات معدودات في الفرائض أجتذبت نوعاً من علم الرياضيات، فما بالكم أيها الناس بسبعمئة آية فيها عجائب الدنيا كلها.. !!! ثم يقول (في مقدمة تفسير الجواهر): هذا زمان العلوم.. هذا زمان ظهور نور الإسلام.. هذا زمان رقيّة.. يا ليت شعري لماذا لا نعمل في آيات العلوم الكونية ما فعله آباؤنا في آيات الميراث، ولكنني أقول: الحمد لله.. الحمد لله... إنك تقرأ في هذا التفسير خلاصات في العلوم ودراساتها أفضل من دراسة علم الفرائض، لأنه فرض كفاية. فأما هذه فأنها للزيادة في معرفة الله وهو فرض عين [١٤] على كل مسلم قادر. إن هذه العلوم التي أدخلناها في تفسير القرآن هي التي أغفلها الجهلاء المغرورون من صغار الفقهاء في الإسلام.. فهذا زمان الأنقلاب وظهور الحقائق والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم..".

ولكن هذا التفسير الذي ملأه صاحبه بمختلف العلوم، لم يلق قبولاً حسناً لدى كثير من العلماء والمثقفين مما حدا ببعض الدول الإسلامية إلى مصادرته ومنع دخوله إليها. وربما كانت مصادرة آراء العلماء، من سلف منهم ومن خلف، سبباً اكثر وقعاً في رفضه من قبل الأوساط العلمية. ذلك أن الترويج لأية فكرة لا يمكن أن يأتي عن طريق أقتحام العقول أو مصادرة المعتقدات.

لقد حكم المرحوم (جوهري) على كل الذين لا يرون رأيه بالجهل أو الغرور أو

(١٤) فرض الكفاية ما لا يجب على الجميع العمل به بل يكفي أن يتولاه أحد الناس فيسقط عن الأخرين كالصلاة على الميت ورد السلام.
أما فرض العين فهو الفرض الملزم لكل الناس كالصلاة اليومية.

الضلال أو بنقص العلم. لقد طغت العواطف على أسلوبه في مقدمة تفسيره والتي يبدو أنه كتبها بعد إنجازه للستة والعشرين مجلداً من التفسير ولنا أن نضرب مثلاً واحداً لمنهجه في التفسير ونقيس عليه ما وراءه.

فحين يتعرض[للآية ٦١ من سورة البقرة]التي يقول فيها -سبحانه-﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَٰمُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ مِنۢ بَقْلِهَا وَقِثَّآئِهَا وَفُومِهَا وَعَدَسِهَا وَبَصَلِهَا ۖ قَالَ أَتَسْتَبْدِلُونَ ٱلَّذِى هُوَ أَدْنَىٰ بِٱلَّذِى هُوَ خَيْرٌ﴾ يأخذ في بيان ما اثبته الطب الحديث من نظريات طبيه، ويذكر مناهج أطباء أوربا، ثم يقول:-"وليست هذه المناهج التي نحا نحوها القرآن! أوليس قوله:"أتستبدلون الذي هو أدنى بالذي هو خير.."رمزاً لذلك، كانه يقول:- العيشة البدوية على المن والسلوى وهما الطعامان الخفيفان اللذان لا مرض يتبعهما مع الهواء النقي والحياة الحرة أفضل من الحياة الشقية في المدن بأكل التوابل واللحم والأكثار من هذه الألوان مع الذلة وجور الحكام والجبن وطمع الجيران من الممالك، فتخطفكم على حين غفلة وأنتم لا تشعرون".

ويجري في تفسيره فيدخل العلوم القديمة والحديثة فيه.

وهو حين يتعرض لتفسير قوله تعالى سورة آل عمران: ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ فإنه يقول:-"وأنا الآن أبين لك ما قصه الله من المحكم والمتشابه في القرآن الكريم، ثم أقفي على آثاره بالمحكم والمتشابه من افعاله في السماء والأرض.." ثم يظل يتحدث عن تفسير هذه الآية فيقسم التكوين الحياتي للنبات والحيوان والصخور، فذكر الدور الأول لتكوين الأرض ثم العصر النباتي ثم العصر الحيواني وذكر أنواع الحيوانات وصنفها الى ستة أصناف.. ألخ.

وقد بلغ من اطالته أن الآية الكريمة بلغ في تفسيرها على هذا النمط من ص ٤١ إلى ص٤٥ من الجزء الأول من (الجواهر).

وعَدَّ ما ذكره مجازاً، فهو يقول:- كل ذلك سأشرحه شرحاً وجيزاً كافياً وتطلع على آراء الأمم الحاضرة موجزة ملخصة مفهومة واضحة.

وقد بلغ الشيخ طنطاوي حد الاسفاف حين خاض في تفسير الايتين (٢٥٩) و(٢٦٠) من سورة البقرة واللتين تتحدثان عن احياء الله الموتى في الحياة الدنيا واللتين جرتا لابراهيم عليه السلام و(العزير) وقصة الطيور الاربعة واحياء العزير وحماره، إذ يدخل في مباحث كيمياوية معززة بجداول مطولة عن تركيب القطن والقمح والبرسيم، ونسب المواد الكيمياوية فيها من بوتاسيوم وصوديوم وجير ومغنيسيوم وحامض الفوسفوريك وحامض الكبريتيك وسيليكون وكلور، وهو في كل ذلك يدعي ان فهم الايتين والاعتبار بهما لا ياتي الا عن طريق التحليل الكيميائي.يقول: «و انت اذا وقفت على بدائع تركيب المخلوقات الحية وغير الحية، اعتراك الدهش، واخذتك الحيرة، وغشيتك غواشي العجب والبهر، واذهلتك أيما اذهال.وسأريك طرفا من علم الكيمياء لتدرك سراً من اسرارها، وحكمة من علمها، وقطرة من بحرها، لتعجب من هذا الوجود، وتدرك ما كان يرتضيه (الخليل)، وماذا اراد الله بهذا القصص، وما شان الطيور وتمزيقها وتوزيعها على الجبال وسعيها طائرات.وما شان الحمار وعظامه، ولماذا امر (العزير) بالتامل في انشاز عظامه، اي احيائها، وبتحريك بعضها وضمه الى بعض.وانه يكسوه باللحم» ثم يفيض بالحديث في الكيمياء ويستطرد الى مسالة استحضار الارواح، كل ذلك معززاً بالجداول والصور وبما يغطي حوالي ست عشرة صفحة ضمت احاديث يجنح اكثرها الى الاباطيل [١٥].

بهذا النَفَس المتحمس، فسر الشيخ طنطاوي القرآن، مما أثار حفائظ العلماء الذين يرون أن القرآن الكريم كتاب هداية أعجز الناس، عربهم وعجمهم، بدوهم وحضرهم-أن يأتوا بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيراً وأن إعجازه

(١٥) طنطاوي جوهري -تفسير الجواهر -ج١ ص ٢٨٠ وما بعدها-ط/ بيروت-٢٠٠٤.

انما تأتى له من كل الجوانب، وليس من جانب دون جانب، والعلوم إحدى تلك الجوانب، فبالرغم من أنه ليس كتاب علوم بحته فإن فيه من العلوم ما لم يثبت التطور العلمي نقيضه.. ومن بين أولئك العلماء الشيخ (محمود شلتوت) الذي تناول هذا الموضوع بالبحث في مجلة (الرسالة) سنة ١٩٤١م. كما رد عليه المرحوم (أمين الخولي) في كتابه (مناهج تجديد) و(محمد رشيد رضا) و(محمد مصطفى المراغي) في تفسيريهما، وعدّا الأتجاه العلمي الصرف بالقرآن، قرين الأتجاه به إلى النحو والإسرائيليات والأختلافات الفقهية.

ولم يـرُقْ نعي العلماء على التفسير العلمي بشكله الـذي أراده الشيخ (طنطاوي) كثيراً من المتعصبين من الكُتّاب، فرأوا في هذا الرد حطاً من شأن القرآن الكريم، ناسين أن القرآن قد وضع منهجاً علمياً لأنواع العلوم يقوم على العلم التجريبي، يقول الأستاذ الإمام (محمد عبده) :-"أول شيء تميز به فلاسفة العرب عن سواهم من فلاسفة الأمم هو بناء معارفهم على المشاهدات والتجربة وأن لا يكتفي بمجرد المقدمات العقلية في العلم مالم تؤيدها التجربة[١٦] "إنه لم يضع حداً للتعلم حين قال:- ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾[سورة يوسف: ٧٦] وأنه لم يناقض آية نظرية جد جديدها في حقل المكتشفات الحديثة مما يطول المقام بتفصيل الحديث فيه.

ولقد ذهب كثير من الباحثين "ومنهم (محمد حسين الذهبي) إلى أن زعيم المعارضة لفكرة نقض المنهج العلمي في التفسير في العصور المتقدمة هو الفقيه الأصولي (أبو أسحق إبراهيم بن موسى الشاطبي) المتوفى سنة (٧٩٠ هـ) في كتابه (الموافقات)، إذ أنه يعقد فصلا خاصاً لمقاصد الشارع المقدس وفيه بيان القصد من وضع الشريعة السمحة، فيقرر أنه للأفهام، ثم يقرر أن هذه الشريعة المباركة أمية، لأن أهلها كذلك. أي أن تنزيل الشريعة على مقتضى حال المنزل عليهم، أوفق برعاية المصالح التي يقصدها الشارع

(١٦) الشيخ محمد عبده-الإسلام دين العلم والمدنية-ص١١.

الحكيم[١٧].

وقد ذكر (الشاطبي) من العلوم الصحيحة التي كان للعرب أعتناء بها:- علم النجوم وما يختص به من الأهتداء في البر والبحر. كما عرض لما ورد في القرآن الكريم من علم الأنواء وأوقات نزول الأمطار، وأنشاء السحاب، وهبوب الرياح المثيرة لها. ثم ذكر أيراد القرآن الكريم للحوادث التاريخية وأخبار الأمم الماضية وذكر بعدها علم الطب، كما ذكر من العلوم التي عني بها العرب، وأكثرها، إن لم يكن جميعها، باطال كعلم الزجر والكهانة وخط الرمل وغير ذلك... إلى أن يقول:-"إن السلف الصالح من الصحابة والتابعين ومن يليهم، كانوا أعرف بالقرآن وعلومه وما أودع فيه، ولم يبلغنا أنه تكلم أحدهم في شيء من هذا المدعى سوى ما تقدم وما ثبت فيه من أحكام التكاليف وأحكام الأخرة وما يلي ذلك. ولو كان لهم في ذلك خوض ونظر لبلغنا منه ما يدلنا على أصل المسألة. إلا ان ذلك لم يكن فدلَّ على أنه غير موجود عندهم، وذلك دليل على أن القرآن لم يُقصد فيه تقرير لشيء مما زعموا"[١٨].

وقد خطّأ الدكتور (محسن عبد الحميد) أولئك الباحثين الذين ظنوا أن (الشاطبي) قد وقف أمام فكرة إقحام العلوم المختلفة في تفسير القرآن وعدها غير صحيحة حين قال:-"والذي أنتهيت إليه بعد التأمل في قول (الشاطبي)، شيء، وما نحن بصدده من الأستنارة بتطور العلوم والكشف عن معاني بعض الآيات القرآنية شيء آخر". لأن إنكار (الشاطبي)-بحسب رأي الدكتور عبد الحميد-يتركز حول تضمن القرآن الكريم هذه العلوم من حيث هي علوم ومعارف ليس مكانها القرآن الكريم الذي هو كتاب هداية، ليس مقصده الأساس التحدث عن مبادئ هذه العلوم وتفاصيلها فما يقوله الشاطبي ليس معارضاً لما قاله (الغزالي) (والرازي) و(الزركشي) و(السيوطي) وغيرهم. إذ هم لم يدّعوا أن القرآن الكريم فيه تفاصيل العلوم بالفعل وأنما قرروا أنه يحتوي على مباديء

(١٧) الشاطبي-الموافقات-ج٢ ص٦٩.

(١٨) الشاطبي-مصدر سابق-ج٢ ص٧٩، ٨٠.

تلك العلوم والمعارف.بالقوة.. أي أن فيه أشارات إلى مباديء وأهمية تلك العلوم.

والقرآن الكريم في معرض التحدث عن قدرة الله-تعالى-يستعرض كثيراً من مظاهر تلك القدرة في قوانين الأنفس والآفاق، فما على المسلمين الا التعمق في التفاصيل وأكتشاف القوانين لتسخيرها في أقامة الحياة والحضارة في الارض أداءاً لواجب الخلافة في الكون(١٩).

واذا كان الذين ذهبوا بالتفسير مذاهب شتى، ودأبوا على لصق كل كلمة وكل آية وردت في القرآن الكريم، بعلم من العلوم إنما فعلوا ذلك بحسن نية وأبتغاء أبراز عظمة كتاب الله العزيز، فالله-عز وجل-كفيل بأثباتهم بحسب نياتهم، وإن كنا نختلف معهم في جدوى هذا الفهم وأستقامته.

يقول (الزرقاني) :"ولكن بعض الباحثين طاب لهم أن يتوسعوا في علوم القرآن الكريم، فنظموا في سلكها ما بدا لهم من علوم الكون، وهم في ذلك مخطئون ومسرفون وإن كانت نيتهم حسنة وشعورهم نبيلاً، ولكن النية والشعور، مهما حسنا، لا يسوغان أن يحكي الإنسان غير الواقع ويحمّل كتاب الله على ما ليس من وظيفته، خصوصاً بعد أن أعلن الكتاب نفسه عن هذه الوظيفة وحددها مرات كثيرة، منها قوله-سبحانه-﴿ذَٰلِكَ ٱلْكِتَٰبُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾[سورة البقرة: ٢].

ويردف (الزرقاني) إلى ذلك قوله: مما يجب التفطن له أن عظمة القرآن لا تتوقف على أنتحال وظيفة جديدة له ولا أن نحمّله مهمةً ما أنزل الله بها من سلطان، فإن وظيفته في هداية العالم، أسمى وظيفة في الوجود(٢٠).

إن تصحيح مدار البحث حول الأعجاز العلمي للقرآن الكريم، والكشف عما تضمنته آياته البيانات، وما يكتنفها من أسرار الرحمة والهداية واسباب التوفيق والعناية، كل ذلك يطفح بصور من العلم والعرفان ما زال الكثير منه طي الكتمان... فليس هناك من امر ولا نهي أشتمل عليه

(١٩) د. محسن عبد الحميد-تطور تفسير القرآن-ص٢٢٦.

(٢٠) الزرقاني-مناهل العرفان-ج٢ ص٥٩٣. ط/ ٢-بيروت.

القرآن الكريم، ولا شيء ندب إليه في التربية والسلوك والعلم والعمل والعقل والقلب والروح والوجدان، من كل ما يؤثر فيها من السلبيات ويقيها من شرور المخاطر والأمراض الجلية منها والخفية، مما يجد الباحث البصير.

إن كل ما وصل إليه العلم البشري وفي المجالات كافة، يظل في حيرة مما حواه القرآن الكريم، وهو مع ذلك واجد من كل ما أهتدى إليه وكشف عنه في مختلف جوانب الحياة العلمية والعملية من حقائق عرفانية سبيلاً للفهم والتدبر وأستثارة ما هو مكنون من آثار العلم والرحمة التي تضمنها القرآن الكريم، حيث تتجلى الحكمة للعيان ويسهل معها على كل ذي لب أن يستشعر عظمته. ولنا بعد كل هذا وذاك أن نحكم على الموقف بما تمليه علينا ثقافتنا ومعرفتنا بقرآننا من دون تعصب أو مماراة.."وقد عبر المرحوم (الرافعي) عن هذه العلوم والى تمحيصها ومعرفة غايتها وذلك في قوله تعالى: ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ ۗ أَوَلَمْ يَكْفِ بِرَبِّكَ أَنَّهُۥ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ﴾ [سورة فصلت:٥٣].ولو جمعت انواع العلوم الانسانية كلها ماخرجت في معناها من قوله تعالى: ﴿فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾، هذه افاق اخرى، فان لم يكن هذا التعبير من الأعجاز الظاهر بداهةً، فليس يصح في الافهام شيء))[٢١].

وصفوة القول: إن القرآن الكريم، دعا الناس الى ان يطلبوا العلم بما عرضه من نواميس الخلق التي تؤدي معرفتها الى الوقوف على عظمتها وعظمة خالقها ومبدعها على ان لا يتوقف الايمان بها على تلك المعرفة ايمانا منا بأن القرآن صادق مصدق نزل من عند رب الكائنات وبارئها وقد وصف تلك الظواهر بالغيب الذي مدح المؤمنين به والمصدقين له.ومثل هذا الايمان لا يحتاج الى دليل يشير الى صحته. ومن طلب الدليل فعليه أن يتأبط وصف القرآن الكريم لها ويبحث في الحقائق والمكتشفات الكونية وسوف يجد أنه لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه.

اما أن نتخذ من العلوم البحتة اداة

(٢١) مصطفى صادق الرافعي –مصدر سابق –ج٢ ص١٠٣.

نوجه الآيات القرآنية بها على انها تعبر عن المعاني التي اراد الله تعالى ان يهدي الناس بها فهذا هو التفسير بالرأي الذي نهى عنه الشارع المقدس وقد مرت بنا امثلة على هذا المنهج التفسيري ورأينا كيف انه يبعد الانسان عن استيعاب العبر التي اراد الله لعباده ان يعوها وعي متدبر عاقل.

وكاذعان للأمر الواقع، وبعد شيوع هذا اللون من التفسير، اضطر بعض العلماء الى أن يضعوا ضوابط لانجاحه تلخصت في: أن لا يخالف المفسر القواعد اللغوية والبلاغية، وان يكون واحداً من آليات إيضاح المفاهيم القرآنية وان لا يتخطى التفسير بالماثور، وان لا يتعسف المفسر في تحميل الآية ما لا يتحمله ظاهرها، واذا تحوّل الى التفسير الباطني فعليه ان يكشف عن هذا الماثور في سنده وطبيعة متنه.كما ان عليه ان لا يتسرع بربط الايات بالاراء العلمية والافتراضات والنظريات التي لم تكتسب درجة القطع الاعلى وجه الاشارة المحتملة.ثم على المفسران لا يسمي هذا التفسير اعجازاً قرانيا.

ان هذا النمط من المنهج التفسيري يحتاج -اضافة الى الضوابط المتقدمة -الى منهج متعقل ووسطي، وقانون محكم التاويل[٢٢]. ولا اظن ان قافلة التاييد والاعتراض ستقف عند حد يجعل من هذا اللون من التفسير مندوحة عما سواه من المناهج التي استقرت قواعدها وضوابطها في عقول المفسرين وسارت بها اقلامهم في مسيرة امتد نشاطها قروناً تلوكه الالسن وتمحصه العقول وتدبجه الاقلام.

(٢٢) د.عبد الامير كاظم زاهد -مقدمات منهجية في تفسير النص القرآني ط/ النجف ٢٠٠٨ -ص ٥٤.

ملخص البحث

يبسط السيد الباحث الحديث في موضوع حقيقة النسخ في القرآن الكريم فيقرر أن معظم علماء التفسير وعلوم القرآن واسباب النزول وغيرهم، يقرون بوقوع النسخ ، غير أنهم لم يقدموا-الحجج المقنعة في ذلك.

وفي هذا القسم من البحث يعرض لثلاثة انواع من النسخ هي:

- الآيات المنسوخة تلاوة وحكما.
- الآيات المنسوخة تلاوة وحكمها باقٍ.
- الآيات المنسوخة حكما مع بقاء تلاوتها.

ولم يقر البحث بأي نوع من انواع النسخ مع اختيار حكمين في آيتين هما: قضية القبلة ، وقضية صدقة النجوى.

وقد ادار السيد الباحث مناقشة علمية مسندة الى المصادر الموثوقة ليصل بعدها الى النتيجة

حقيقة النسخ في القرآن الكريم

الجزء الثاني

د. علي رحيم هادي الحلو
جامعة كربلاء - العراق

القسم الاول

الايات المنسوخة تلاوة وحكما

ان القول بهذا النوع من النسخ يعني عدم حفظ القران، وهو حكم يخالف تماما ما تعهد الله به من حفظ كتابه الكريم.

و من تلك الروايات (ما اخرج الطبراني عن ابن عمر (رض)، انه قال: قرأ رجلان سورة اقرأهما اياها رسول الله ﷺ، فكانا يقرآن بها، فقاما ذات ليلة يصليان، فلم يقدرا منها على حرف، فاصبحا غاديين على رسول الله ﷺ فذكرا ذلك، فقال: ﷺ: انها مما نسخ، فالهوا عنها)[1].

ان تحليل هذه الرواية يظهر الاتي:

لِمَ نُكِّر الرجلان؟ ولم يؤثر عن الرسول الاكرم ﷺ انه اختص بما يوحى اليه فردا بعينه في سورة او باية، او فردين ولا مجموعة من المسلمين دون سواهم، بل كان يجمع المسلمين، ويذيع فيهم ما امر الله به من الاي الكريم، مما انزل اليه اما ان تكون الرواية في رجلين مجهولين فذلك مدعاة للشك فيها، وردها.

لِمَ خصهما الرسول ﷺ بقراءتها؟ من دون المسلمين في قوله (قرأ رجلان سورة اقرأهما اياها رسول الله) ولم لم يقرئهما غيرهما؟ اهي نزلت فيهما ام لهما حسب؟ اكانت لهما حظوة عند رسول الله ﷺ خصهما بها دون بقية المسلمين؟ واذا كان الامر كذلك كان الاوْلى ان يعرف المسلمون تلك المنزلة، وان تعلن لتكون رفعة لهما،

(١) عن القران/ ٢٠١، ومصدره.

وهذا ما سجل لكثير من المسلمين على لسان النبي في اعمال قدموها.و تصرفات اقرها لهم الرسول ﷺ. حتى ادخلت ضمن الحديث النبوي الشريف.

في قوله: (فقاما ذات ليلة يصليان) يعني انه قد مضى على حفظهما اياها زمن فلم تذع بين المسلمين؟ ولا سيما الصحابة الذين عرفوا بحفظهم القران الكريم.

لم تذكر الرواية شيئا عن تلك السورة المنسية، لا موضوعها ولا عدد اياتها، ولا زمنها.

لم تشر الرواية الى من اكدها من الصحابة، أي: لم ترد بطريق اخر.

يفهم من الرواية ان علاقة وثيقة بين هذين الرجلين ورسول الله ﷺ، بحيث خصهما بهذه السورة من دون الاخرين، وتعبير (اقرأهما) يدل على ذلك حتى حفظاها، لانهما كانا يقرآن بها، وهذا يثير الشك، لان النبي ﷺ يُبلّغ المسلمين جميعا بما يوحى اليه وقت النزول.

و قول الرواية (فاصبحا غاديين على رسول الله ﷺ) يبين: انهما يتذكران ان سورة كانت في حافظتهما لكنهما نسياها، ولسائل ان يسأل لم لا يتذكران جزءا منها مثل موضوعها، او اسمها او بدايتها، او خاتمتها، او زمن نزولها، او أي شيء من ذلك ؟

لم تشر الرواية الى حديث مفصل في الاية، وكيف عيناهاو انهما قصداها بعينها من دون سور القران حتى حكم الرسول ﷺ انها مما نسخ !

وروي عن ابي موسى الاشعري قوله: (كنا نقرا [٢] سورة نشبهها باحدى المسبحات نسيناها، غير اني حفظت منها: ياءيها الذين امنوا لا تقولوا ما لا تفعلون، فتكتب شهادة في اعناقكم، فتسالون عنها في يوم القيامة [٣].

ومن تلك الروايات البينة الوهن ما روي عن ابي موسى الاشعري كذلك قوله: (نزلت سورة نحو براءة في عدد من الايات ثم رفعت وحفظت منها: ان الله سيؤيد هذا الدين باقوام لاخلاق لهم) [٤].

الذي يستوقف الباحث الموضوعي

(٢) نلحظ التعبير بالجمع (كنا نقرا) ولم ترد الرواية بطريق اخر.
(٣) عن القران/ ١٩٩.
(٤) لو ان لابن ادم هذا الكلام له تكملة مرت..

-هنا -لم هذه الروايات عن ابي موسى حسب؟ ولم نسيها ؟ولم ينس ما ذكر منها، اليس هذا مما يوهن الاخذ بها ؟

القسم الثاني

الايات المنسوخة تلاوة، وحكمها باقٍ

وهذا نوع من النسخ لا يقل اشكالا عما مر في المنسوخ تلاوة، كذلك ان سؤالاً يفرض نفسه هنا: اذا كان الحكم مرادا فَلِمَ يحذف نصه؟ اهذا فعل يناسب التشريع او يقره المشرع نفسه؟ اليست الغاية من النص حكمه؟ ليكون في متناول العاملين به في كل زمان ومكان؟ ثم ما الحكمة في نسخه تلاوة؟ وهو مطلوب حكمه ؟

قال الجبري: (وجاء في كتاب (اللمع في اصول الفقه) لابي اسحاق الشيرازي (ت ٤٧٦ هـ): وقالت طائفة لا يجوز نسخ التلاوة مع بقاء الحكم لان الحكم تابع للتلاوة فلا يجوز ان يرتفع الاصل ويبقى الحكم)[٥] ولناخذ هذه الرواية: (ويظهر ان الناس في عهد عمر (رض) تباحثت في حكم الرجم، فصعد عمر المنبر، وقال: لا تشكوا في الرجم فانه حق، وقد هممت ان اكتبه في المصحف، فسالت أُبيَّ بن كعب فقال: اليس اتيتني وانا استقرؤها رسول الله ﷺ فدفعت في صدري وقلت تستقرؤه آية الرجم؟ وهم يتسافدون تسافد الحمر)[٦].

ان تمحيص تراكيب هذه الرواية وافكارها واسلوبها ليحكم انها كذب على عمر ولكن الرواة سبكوها هكذا على ما فيها من بشاعة الصور وعدم ترابط افكارها فهي اختلاق من وجوه:

- ان جملة (تباحث الناس في حكم الرجم) تظهر ان اقامة حدود الله من اختصاص الناس وليس من واجبات الخليفة، وهذا خلاف الواقع -زمن الخلفاء الراشدين -فكان الناس هم المبادرين الى ذلك وهذا قد يعني ان الخليفة اخر من يعلم، او قد لا يهمه الامر.و الصحيح انها من اختصاصه، ولا يحتاج الامر الى تنبيه الناس خليفتهم في امر خطير كهذا.

- ان بحث أي حد من حدود الشريعة او اقامته لا يستدعي بحثه الا حيث يكون

(٥) عن النسخ في الشريعة/ ٢٠ ،ومصدره.

(٦) عن القران/ ٢٠٣.

الفعل، ولم يذكر الراوي -ولا التاريخ -انتشار الزنا في عهد عمر، ليكون ثمة مسوغ للحديث فيه.

- ان جملة (وقد هممت ان اكتبه في المصحف) توحي انه تشريع عمري اراد سَنَّهُ، ولكي ياخذ التشريع قوته جاء التفكير بكتابته في المصحف الشريف وهذا ليس من حق الخليفة، ولا أي انسان وذلك ان آي القران الكريم وحي من الله وما وظيفة الرسول ﷺ الا ابلاغه للناس ولذا فالاشكال كبير هنا في قوله (هممت) وكانه من عنده ويحق له.

- اما تعبير (فسالت ابي بن كعب) فيثير أسئلة شتى، منها: لماذا يسال أُبَيّاً حسب؟ الم يكن ثمة صحابة اوكل اليهم جمع القران؟ فلم لم يسالهم في امر خطير كهذا؟ ثم اين ذهب عنه علي عليه السلام[٧]، وابن مسعود وابو ذر وبقية الحفظة (رض) ؟

- ثمة اشكالات كثيرة في نسبة روايات كثيرة الى ابي بن كعب (رض)، وهي تستوقف الباحث حقا بل تفرض عليه التمحيص والنظر والتأمل.

- اذا كان عمرٍ واثقا من ان آية الرجم حقيقة قرآنية وهو الخليفة وهو ولي الأمر وهو الذي تقع عليه مسؤولية القوانين- صحة وتطبيقا -فلا حاجة لان يسال صحابيا اخر، بل كان حريا به ان يجمع الصحابة، ثم يصار الى راي في ذلك، او يلتقي اهل القران الستة في الشورى، الست ترى الضعف في حصر المشورة على أُبيْ ؟

- اما تعبير: (الست اتيتني وانا استقرؤها رسول الله ﷺ وكان المقصود والمعول عليه أُبَيْ فعمر جاء أُبَيّاً على الرغم من انه كان عند النبي ﷺ ولا ادري كيف اتفقت الرواية في حدثها؟ واستقراء ابي رسول الله ﷺ اياها، فاية مصادفة هذه؟ واية اية هذه التي عول في صحتها على ابي حصرا؟

-ولا ندري ما حاجة عمر -يومها- وهو ياتي ابيا؟ والاولى ان يكون اتيا الرسول ﷺ و لم يعين المكان ولا الزمان اذ يطلق الاتيان من دونما تقييد غائي او تبيين.

- و في تعبير (قلت: تستقرئه اية الرجم؟ وهم يتسافدون تسافد الحمر)

(٧) وكان عمرٍ لا يفزع في الامور الخطيرة الا الى الامام علي عليه السلام فلم ذهب في هذه الى ابي؟ واقواله في هذا كثيرة، منها: لولا علي لهلك عمر.

دلالات قاسية وافكار والفاظ لا تناسب حاكما بله انه من الصحابة السابقين وكيف بهذه التهمة الكبيرة المطلقة للمجتمع الاسلامي المحصن (يتسافدون) ؟!.

– اقول: ان قوله (تستقرئه اية الرجم) يمكن ان يكون استفهام انكار لاستقرائه ويمكن ان يكون تعجبا من وجود مثل هذه الاية ويجري من الزنا ما يجري والذي صاغ الرواية قصد المعنى الثاني.

١- ان الناس الذين يحفظون القران كثير وقد مضى عهد على جمع القران اول مرة في عهد ابي بكر فكيف يروى لنا عن عمر او غيره قرآنا؟ والصحابة ساكتون لا يؤيدونه او لا يردونه او لا موقف لهم في ذلك.

٢- اية الرجم هذه مردودة من وجوه: الفاظها، وتراكيبها، واسلوبها، وفكرتها فهي لا ترقى الى اسلوب آي القران الكريم في اختيار الفاظها ولا في صيغها ولا في اسلوبها.

٣- لم يفطن صانع هذه الرواية الى سن من تعلق بها حكم الرجم هذا انه في الشيخ والشيخه وقد طعنا في السن فكيف يحسب مُشرِّعُ الفسادَ واقعا من مثلها وهذا ما يسبعد أن يستوجب تشريعا وهما بهذا العمر اقرب الى الموت منهما الى مجرد التفكير باللذة هذا على فرض قدرتها الجنسية.

٤- لماذا انفرد عمر بهذه الرواية دون غيره من الصحابة؟ واذا كانت قرانا فاين الصحابة منها ؟.

٥- ان الزمن الذي قال عمر فيه الاية المزعومة هذه كان بعيدا من وفاة النبيﷺ و من المعلوم ان الوحي قد توقف بوفاتهﷺ فلا يؤخذ بمثل هذه الروايات التي تروى في ايات من القران باي شكل كانت وفي أي موضوع تكون ؟.

٦- ولنا ان نسال–مع التسليم بنسخ تلاوتها حسب–: لما نسخ التلاوة وحكمها مطلوب التنفيذ؟ واذا ما اردنا الاجابة فلا نمتلك الحجة المقنعة.

٧- نقل الجبري رأي القاضي ابي بكر، والزركشي، وابي عبد الله بن ظفر الصقلي وهم منكرون اية الرجم. و قال في انكاره ايتي الرضاع والرجم:(و

كيف تنسى؟ او تنسخ؟ وهي مرتبطة بالنظام الاجتماعي -الرضاع -وعلاقة ذلك ببناء الاسرة والعقوبات في بيان الرجل)[٨].

٨- ذهب بعضهم الى ان نسخ هذه الاية لثقل حكمها فرد الجبري ذلك بقوله: اليس مثلها الصلب، وتقطيع الايدي والارجل من خلاف في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسۡعَوۡنَ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوۡ يُصَلَّبُوٓاْ أَوۡ تُقَطَّعَ أَيۡدِيهِمۡ وَأَرۡجُلُهُم مِّنۡ خِلَٰفٍ أَوۡ يُنفَوۡاْ مِنَ ٱلۡأَرۡضِۚ ذَٰلِكَ لَهُمۡ خِزۡيٞ فِي ٱلدُّنۡيَاۖ وَلَهُمۡ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ [سورة المائدة: ٣٣].

و زاد الجبري فقال ببطلان ذلك لان النبي ﷺ لا يمكن ان يكون الا مامورا بالتبليغ الكامل كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلرَّسُولُ بَلِّغۡ مَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَۖ وَإِن لَّمۡ تَفۡعَلۡ فَمَا بَلَّغۡتَ رِسَالَتَهُۥۚ وَٱللَّهُ يَعۡصِمُكَ مِنَ ٱلنَّاسِ﴾ [سورة المائدة: ٦٧]. ومعلوم حرص الرسول ﷺ على تبليغ احكام الشريعة بدقة وبتمامها وكمالها وعلى اتم وجه.

٩- **و قال بعضهم في اية الرجم:** (وعلى هذا كيف يثبت بخبر الواحد ان آية الرجم من القران وانها نسخت تلاوتها وبقي حكمها؟ نعم ان عمر اتى بآية الرجم وادعى انها من القران فلم يقبل قوله المسلمون لان نقل هذه الاية كان منحصرا به ولم يثبتوها في المصاحف فالتزم المتاخرون بانها اية منسوخة التلاوة باقية الحكم).

١٠- ان نسخ أية آية -تلاوة، او حكما او كليهما معا- لا يوافق قوله تعالى: ﴿إِنَّا نَحۡنُ نَزَّلۡنَا ٱلذِّكۡرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [سورة الحجر: ٩] ولا قوله سبحانه: ﴿لَا تُحَرِّكۡ بِهِۦ لِسَانَكَ لِتَعۡجَلَ بِهِۦٓ ١٦ إِنَّ عَلَيۡنَا جَمۡعَهُۥ وَقُرۡءَانَهُۥ ١٧ فَإِذَا قَرَأۡنَٰهُ فَٱتَّبِعۡ قُرۡءَانَهُۥ﴾ [سورة القيامة: ١٦-١٨] ولا قوله تبارك وتعالى: ﴿سَنُقۡرِئُكَ فَلَا تَنسَىٰٓ﴾ [سورة الاعلى: ٦] فانى بعد هذه الايات الكريمات يكون نسخ او سهو او نسيان.. او..؟

١١- اذا اخذنا انه قضية حكم قراني -ففي مثل هذا الامر يعمد الخليفة الى التطبيق واجراء ما تفرضه عليه مسؤولياته ولا

(٨) النسخ في الشريعة/ ١٨.

يجوز النقاش فيه.

ومن هذا ما روي عن عائشة قولها: (كان فيما نزل من القران عشر رضعات معلومات يُحَرِّمْنَ فنسخت بخمس معلومات يحرمن فتوفي رسول الله ﷺ وهن مما نقرا من القران).

قال النحاس في حديث الرضعات:

(فتنازع العلماء هذا الحديث لما فيه من الاشكال فمنهم من تركه، وهو مالك بن انس وقال رضعة واحدة تحرم، واخذ بظاهر القران قال تعالى: ﴿وَأَخَوَٰتُكُم مِّنَ ٱلرَّضَٰعَةِ﴾ [سورة النساء: ٢٣]، وممن تركه احمد بن حنبل وابو ثور قالا: يحرم ثلاثة رضعات لقول النبي ﷺ: لاتحرم المصة ولا المصتان)[٩].

اقول لو كان ماروي عن السيدة عائشة صحيحا لاخذ به مالك وغيره ولما تركوه واخذوا بحكم اخر قال النحاس: ولو كان بقي منه بشيء لم ينقل الينا لجاز ان يكون ما لم ينقل ناسخا لما نقل فيبطل العمل بما نقل ونعوذ بالله من هذا فانه كفر)[١٠] ويبقى الاشكال قائما في هذه الرواية وكذا في متن الحديث وذلك من وجوه:

١- ان ترك قسم من علماء الحديث الحكم الذي تضمنه قول عائشة واخذهم بحكم اخر يظهر بجلاء عدم صحته وبطلانه.

٢- لم يرد في القران الكريم حكم لعدد الرضعات من المرضعة -غير الوالدة -بل ربما كان ذلك مما سمعته عائشة من رسول الله ﷺ بهذا المعنى او الاسلوب او ربما كان المعنى قريبا من ذلك، ولو كان ذلك تشريعا قرانيا فليس من المعقول رفعه اذ كيف ينسخ ومراد حكمه؟ فهذا الامر لا تعضده حجة.

٣- لم يرد الكلام الذي روته عائشة بطريق اخر لا من الصحابة ولا من اهل البيت ﷺ وهؤلاء جميعا -الصحابة واهل البيت -لا يجوز عليهم الغلط، وقد نقل الينا عنهم ما اتفق على روايته في المصحف، وفي غيره فلم رويت هذه الرواية من دونهم؟ الذي احسبه ان احد الرواة -لسبب ما -اعمل فكره في مثل هذه الرواية وكونها في الرضاعة

(٩) الناسخ والمنسوخ/ ١٤.
(١٠) الناسخ والمنسوخ/ ١٥.

نسبها الى عائشة وهي لم تروها اصلا.

وناقش عبد المتعال الجبري القول المنسوب الى عائشة بقوله: (والعجيب حتى -ولو كان الحديث متواترا، وهو ليس كذلك -ان نفهم من قول عائشة (رضي الله عنها) كان فيما انزل انه انزل قرانا ونحن نعلم ان الذي ينزل على النبي ﷺ قد يكون قرانا وقد يكون حديثا قدسيا وكله من عند الله: ﴿وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ﴾ [سورة النجم: ٣] وعن المقداد بن معد يكرب ان رسول الله ﷺ قال: الا اني اوتيت القران ومثله معه ثلاثا وكذا رواه ابن حزم في كتابه: الناسخ والمنسوخ والبخاري ومسلم في صحيحيهما ومعنى هذا ان الذي انزل كان وحيا بِسُنَّةٍ وليس وحيا بقران ومن القواعد الاصولية ان اللفظ ما دام غير يقيني الدلالة أي: يحتمل مرادا اخر فانه لا يكون صالحا للاستدلال به على الفرض والواجب ومعنى هذا ان حديث عائشة (رضي الله عنها) غير صالح لاثبات حكم شرعي حتى نقول: ان من القران ما نسخت تلاوته وحكمه معا)[11].

القسم الثالث

الايات المنسوخة حكما، وباقيةٌ تلاوتها

و هذا النوع من النسخ اخذ به الجمهور، وهو المراد عند ذكر باب النسخ فقد ذهبوا الى ان قسما من الاحكام التي جاءت بها ايات معينة، قد تلتها احكام جديدة في ايات لاحقة للاولى، مختلفة عنها بنوع من الاختلاف الذي يمنع الجمع بين الحكمين في الايتين (السابقة واللاحقة)، فيترك العمل في الحكم النازل في الاية المتقدمة، ويلزم العمل بالحكم النازل في الاية اللاحقة.

و على هذا يكون هذا النوع قائما اصلا على زمن النزول اولا، وتاتي القواعد الاخر بعده، وهي اساسية كذلك، وقد وضع العلماء شروطا[12] لهذا النوع من النسخ.

قال ابن سلامة: (اعلم ان الناسخ والمنسوخ في كلام العرب: هو الرفع للشيء وجاء الشرع بما تعرف العرب، اذا كان الناسخ يرفع حكم المنسوخ.

و نقل عن بعض العلماء، فقال: (قال

(١١) النسخ في الشريعة/ ٦.

(١٢) ولم نتوسع في هذه الشروط ايجازا.

مجاهد (ت ١٠٤ هـ) وسعيد بن جبير (ت ٩٥ هـ)، وعكرمة بن عمار (ت ١٥٩ هـ) لا يدخل النسخ الا على الامر والنهي فقط، او لا تفعلوا واحتجوا على ذلك باشياء منها: ان خبر الله على ما هو فيه.و قال الضحاك بن مزاحم كما قال الاولون،و زاد عليهم فقال: يدخل النسخ على الامر والنهي وعلى الاخبار التي معناها الامر والنهي مثل قوله تعالى: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النور: ٣] ومعنى ذلك لا تنكحوا زانية ولا مشركة، وعلى الاخبار التي معناها الامر والنهي، مثل قوله تعالى في سورة يوسف ﴿قَالَ تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا﴾ [سورة يوسف: ٤٧] ومعنى ذلك ان ازرعوا، ومثل قوله تعالى: ﴿فَلَوْلَآ إِن كُنتُمْ غَيْرَ مَدِينِينَ ﴿٨٦﴾ تَرْجِعُونَهَآ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾ [سورة الواقعة ٨٦ -٨٧]، ومعنى ذلك: ارجعوها، يعني الروح.و مثل قوله تعالى: ﴿وَلَٰكِن رَّسُولَ ٱللَّهِ﴾ [سورة الاحزاب: ٤٠]، أي: قولوا له: يا رسول الله)[١٣].

و قال مكي: (و اعلم ان من شروط الناسخ[١٤] ان يكون منفصلا من المنسوخ، منقطعا منه، فان كان متصلا به غير منقطع عنه، لم يكن ناسخا ما قبله مما هو متصل به، نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ﴾[سورة البقرة: ٢٢٢]، فليس قوله تعالى﴿فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ﴾ الاية -ناسخا لقوله: ﴿حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ وَإِن﴾ لانه متصل به..

و قال: (و من شروط المنسوخ ان يكون غير متعلق بوقت معلوم، لا يعلم وقت فرضه الا بنص ثان يبين ان فرض الاولى الى الوقت الذي فرض فيه الثاني..

و من شروط النسخ ان يكون موجبا للعلم، والعمل كالمنسوخ، ومن هاهنا منبع نسخ القران بخبر الاحاد توجب العمل ولا توجب العلم، والقران يوجبهما جميعا..

(١٣) وينظر فيها : كتب القدماء في الناسخ= = والمنسوخ كافة، وكذا الحديثة منها : نحو مناهل العرفان ٢/ ٧٦.و علوم القران عند المفسرين ٢/ ٥٩٢.و المدخل الى علم الشريعة/ ٦٥ -٦٩.

(١٤) الناسخ والمنسوخ/ ٧٠.

و من شروطه انه يجوز ان ينسخ الأثقل بالأخف، كقوله تعالى: ﴿إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ﴾ [سورة الانفال: ٦٥] فخفف عنهم بقوله سبحانه: ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا ۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِ ۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الانفال: ٦٦]، ومثل قوله عز وجل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ [سورة ال عمران: ١٠٢] ثم خفف بقوله جلت حكمته: ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ مَا ٱسْتَطَعْتُمْ﴾ [سورة التغابن: ١٦] وهو كثير، ولذلك قال تعالى: ﴿نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[سورة البقرة: ١٠٦]، أي: باخف منها عليكم، او مثلها في الثقل، واعظم في الاجر.

و يجوز نسخ الاخف بالاثقل، نحو نسخ صيام عاشوراء او صيام ثلاثة ايام من كل شهر بصوم شهر رمضان.

و منه نسخ الامر بترك القتال والصبر على الاذى بالامر بالقتال وترك الصبر وذلك كله لما علم فيه تعالى ذكره من الصلاح والاجر)[١٥].

و قال الخوئي في معنى نسخ الحكم دون التلاوة: (و لتوضيح ما هو الصحيح في هذا المقام نقول: ان نسخ الحكم الثابت في القران يمكن ان يكون على اقسام ثلاثة:

ان الحكم الثابت بالقران ينسخ بالسنة المتواترة، او بالاجماع القطعي، الكاشف عن صدور النسخ عن المعصوم عليه السلام، وهذا القسم من النسخ لا اشكال فيه عقلا ونقلا، فان ثبت في مورده فهو المتبع، والا فلا يلتزم بالنسخ. و النسخ لا يثبت بخبر الواحد.

١- ان الحكم الثابت بالقران ينسخ باية اخرى منه، ناظرة الى الحكم المنسوخ ومبينه لرفعه، وهذا القسم ايضا لا اشكال فيه، وقد مثلوا لذلك باية النجوى.

٢- ان الحكم الثابت بالقران ان ينسخ باية اخرى غير ناظرة الى الحكم السابق، ولا مبينة لرفعه، وانما يلتزم بالنسخ لمجرد التنافي بينهما فيلتزم بان الاية المتاخرة ناسخة لحكم الاية المتقدمة.

و التحقيق: ان هذا القسم من النسخ

(١٥) الايضاح لناسخ القران/ ١٠٨ -١١١.

غير واقع في القران، كيف وقد قال الله عز وجل: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلْقُرْءَانَ وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُوا۟ فِيهِ ٱخْتِلَٰفًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء: ٨٢]، ولكن كثيرا من المفسرين وغيرهم لم يتاملوا حق التامل في معنى الايات الكريمة، فتوهموا وقوع التنافي بين كثير من الايات والتزموا لاجله بان الاية المتاخرة ناسخة لحكم الاية المتقدمة وحتى ان جملة منهم جعلوا من التنافي ما اذا كانت احدى الايتين قرينة عرفية على بيان المراد من الاية الاخرى، كالخاص بالنسبة الى العام، وكالمقيد بالاضافة الى المطلق، والتزموا بالنسخ في هذه الموارد وما يشبهها ومنشأ هذا قلة التدبر او التسامح في اطلاق لفظ النسخ بمناسبة معناه اللغوي، واستعماله في ذلك، وان كان شائعا قبل تحقق المعنى المصطلح عليه، ولكن اطلاقه -بعد ذلك -مبني على التسامح لا محالة)[١٦].

و قال محمد صبيح: (و قد اتسع مجال الخلاف بين القدماء في الايات التي لاتزال في المصحف، وابطل العمل باحكامها، او عدلت هذه الاحكام.

و قال في سبب بقاء هذه الايات الكثيرة التي أُتفق على نسخ احكامها، والتي اختُلف عليها: (ان القران كما يتلى ليعرف الحكم منه، والعمل به، فيتلى لكونه كلام الله، فيثاب عليه فتركت التلاوة لهذه الحكمة، ولما كان النسخ غالبا للتخفيف فقد ابقيت التلاوة تذكيرا للنعمة، ورفع المشقة. و هذا الكلام لا يصلح سببا قويا لما ذكر من اجله، ويشبه في عدم الاقناع ما ذكر في سبب الغاء ايات في المصحف مع بقاء حكمها.. فقد قيل فيه: ليظهر مقدار طاعة هذه الامة في المسارعة الى بذل النفوس بطريق الظن من غير استفصال لطلب طريق مقطوع به. فيسرعون بايسر شيء، كما سارع الخليل عليه السلام الى ذبح ولده بمنام، والمنام ادنى طريق الوحي فهذا دليل ظاهر الضعف من الوجهة العلمية كما ترى، ولا سبيل الى ذكر سبب يطمئن اليه العقل حتى الان)[١٧].

ان النسخ قد ورد لفظه في القران

(١٦) البيان في تفسير القران/ ٢٨٦. و ينظر : علوم القران عند المفسرين ٢/ ٦٠٤.

(١٧) عن القران/ ١٩٧.

الكريم، لكنه لم يرد نص صريح قاطع بحصوله، ولذا اجد الأولى الا اطيل الوقوف عند الايات التي قيل بنسخها، وقد تكفل الخوئي برد قسم منها، الا اني ساعرض قضية القبلة وتغييرها ،و صدقة النجوى ورفعها، طلبا للايجاز.

المسالة الاولى: [18] قال تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة البقرة: ١١٥].

لهذه الاية علاقة بالقبلة الاولى (بيت المقدس)، وبالقبلة الثانية التي عينها الله سبحانه للمسلمين (الكعبة المشرفة) في الايات الاخر بعد، وعليه سيكون الكلام مرتبطا بذلك.

اختلف العلماء في معنى الاية هذه والايات الاخر، ولا سيما حكم القبلة ونسخها.

قال الطبري: (فاما القول في هذه الاية: ناسخة ام منسوخة؟ ام لا هي ناسخة ولا منسوخة؟ فالصواب فيه من القول ان يقال: انها جاءت مجيء العموم، والمراد الخاص، وذلك ان قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا۟ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ -الاية -محتمل: اينما تولوا- في حال سيركم في اسفاركم، في صلاتكم التطوع وفي حال مسايفتكم عدوكم في تطوعكم ومكتوبتكم -فثم وجه الله.. ومحتمل: فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا -من ارض الله فتكونوا بها -فثم قبلة الله، التي توجهون وجوهكم اليها، لان الكعبة ممكن لكم التوجه اليها منها.. ومحتمل: فاينما تولوا وجوهكم في دعائكم فهناك وجهي، استجيب لكم دعاءكم.. فاذا كان ما ذكرنا من الاوجه في معنى الاية محتملا لم يكن لاحد ان يزعم انها ناسخة، او منسوخة، الا بحجة يجب التسليم بها[19].

و قال النحاس: (ان العلماء قد تنازعوا القول فيها، وهي محتملة لغير النسخ، وما كان محتملا لغير النسخ لم يقل فيه ناسخ، ولا منسوخ الا بحجة يجب التسليم لها.. وللعلماء في الاية ستة اقوال: قال قتادة هي منسوخه، وقال مجاهد في

(١٨) ينظر : في كون هذا اول نسخ كتب التفسير كافة في تفسير اية (١٤٤) من سورة البقرة، وكتب علوم القران كافة،و كذا كتب الناسخ والمنسوخ، وكتب اسباب النزول وغيرها.

(١٩) جامع البيان ١/ ٥٥١ -٥٥٢.

قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ -الاية -معناه اينما تولوا من مشرق الى مغرب فثم وجه الله التي امر بها، وهي استقبال الكعبة فجعل الله الاية ناسخة، وجعل قتادة وابن زيد الاية منسوخة.و قال ابراهيم النخعي من صلى في سفر ومطر وظلمة شديدة الى غير القبلة ولم يعلم فلا اعادة عليهم، فاينما تولوا فثم وجه الله.و القول الرابع: ان قوما قالوا: لما صلى النبي ﷺ على النجاشي صلى عليه، وكان يصلي الى غير قبلتنا، فانزل الله عز وجل ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾.

و القول الخامس: ان المعنى ادعوا الله كيف شئتم؟ مستقبلي القبلة وغير مستقبليها، فاينما تولوا فثم وجه الله يستجيب لكم.و القول السادس: من اجلها قولا، وهو ان المصلي في السفر على راحلته النوافل، جائز له ان يصلي الى قبلة والى غير قبلة).

و قال بعد عرض تلك الاقوال: (و الصواب ان يقال: ان الاية ليست بناسخة، ولا منسوخة لان العلماء قد تنازعوا فيها)[٢٠]

وقال ابن سلامة: (قوله عز وجل: ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ﴾ هذا محكم، والمنسوخ منهل قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ -الاية-)[٢١].

و قال مكي: (قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللَّهِ﴾ -الاية -ظاهر هذا يدل على جواز الصلاة الى كل جهة من شرق وغرب وغيره، وهو منسوخ عند مالك واصحابه بقوله سبحانه: ﴿فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ﴾ -الاية -فيكون هذا مما نسخ قبل العمل به، لانه لم يثبت ان النبي ﷺ، ولا اصحابه صلوا في سفر، ولا حضر فريضة الى حيثما توجهوا[٢٢].

و قال الطوسي في تفسير قوله تعالى: ﴿قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِي السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُ وَإِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ﴾ [سورة البقرة: ١٤٤]: (اول

(٢٠) الناسخ والمنسوخ/ ١٨.

(٢١) الناسخ والمنسوخ/ ١٩.

(٢٢) الناسخ والمنسوخ/ ٥.

ما نسخ من القران هي القبلة، وهذه الاية ناسخة لفرض التوجه الى بيت المقدس قبل ذلك.. وقيل هذا ما نسخ من السنة بالقران..

و من قال: انها نسخت قوله تعالى: ﴿فَأَيْنَمَا تُوَلُّواْ فَثَمَّ وَجْهُ ٱللَّهِ﴾ قلنا له: هذه ليست منسوخة بل هي مختصة بالنوافل -في حال السفر -و قوله تعالى: ﴿وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّواْ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ﴾ [سورة البقرة: ١٤٤]. روي عن ابي جعفر وابي عبد الله (عليهما السلام)ان ذلك في الفرض)[٢٣].

و قال الخوئي: (الصحيح ان يقال في الاية الكريمة: انها دالة على عدم اختصاص جهة خاصة بالله تعالى، فانه لا يحيط به مكان فاينما توجه الانسان في صلاته ودعائه وجميع عباداته فقد توجه الى الله تعالى، ومن هنا استدل بها اهل البيت عليهم السلام على الرخصة للمسافر ان يتوجه في نافلته الى اية جهة شاء وعلى صحة صلاة الفريضة فيما اذا وقعت بين المشرق والمغرب خطأ، وعلى صحة صلاة المتحير اذا لم يعلم اين وجه القبلة؟ والى صحة سجود التلاوة الى غير القبلة.و قد تلاها سعيد بن جبير (رحمه الله) لما امر الحجاج بذبحه الى الارض فهذه الاية مطلقة، وقد قيدت في صلاة الفريضة بلزوم التوجه فيها الى بيت المقدس تارة والى الكعبة تارة اخرى وفي النافلة ايضا في غير حال المشي على القول واما ما في بعض الروايات من انها نزلت في النافلة فليس المراد انها مختصة بذلك، لان الايات لا تختص بموارد نزولها.

و جملة القول: ان دعوى النسخ في الاية الكريمة يتوقف ثبوتها على امرين: **الاول** ان تكون واردة في خصوص صلاة الفريضة، وهذا معلوم بطلانه.. **الثاني:** ان يكون نزولها قبل نزول الاية الامرة بالتوجه الى الكعبة، وهذا ايضا غير ثابت، وعلى ذلك فدعوى النسخ في الاية باطلة جزما.. نعم قد يراد من النسخ معنى عاما شاملا للتقييد فاذا اريد به ذلك في المقام فلا مانع منه)[٢٤].

الذي يظهر من معنى الاية في السياق

(٢٣) الايضاح/ ١٣١.

(٢٤) التبيان في تفسير القران ٢/ ١٣ -١٤. وينظر: الناسخ والمنسوخ-ابن حزم/ ٩. و٢١ -٢٢.

الذي ضمنها، انه لا يستقيم القول بنسخها وما ذهب اليه القائلون بانها منسوخة غير صحيح، بل هي محكمة، وذلك:

لم يثبت ان نزول الايات الامرة بالتوجه الى الكعبة بعد هذه الاية ولا بعد الاية التي يرى بعضهم انها عينت بيت المقدس قبلة.

١- الاية في سياق اخبار وحديث عن اهل الكتاب وتوجسهم الخوف والحذر من البطش بهم، وبيان تولي الله عصمة عباده حيثما كانوا، ولا علاقة لهذا بالقبلة.

٢- تؤكد الآية المباركة أنَّ العمل نية صاحبه وليس المكان ذاته والله لا يحده مكان ولا زمان.. فهو قريب من عباده، وهو القائل: ﴿وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ﴾ [سورة ق: ١٦]، وقوله سبحانه: ﴿وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾ [سورة البقرة: ١٨٦].

٣- ان اطلاق التوجه الى الله في الدعاء والانابة -و لا سيما العبادات المفروضة -جاء لحكمة بالغة، ولما في ذلك من ترسيخ فكرة قرب الله من عباده الذين لا ملجأ لهم غيره.فكيفما كان الداعي المستجير وحيثما كان يجد الله -سبحانه -مجيبا وملبيا ومغيثا..

و كذا الامر في تقييد القبلة في صلاة الفرض ان يكون التوجه الى الكعبة حسب وفي ذلك حكمة بالغة ايضا.

لو دققنا السياق الذي سبق الاية نجد من دلالاتها طمأنة العباد -حيث كانوا -ان الله سبحانه تلقاؤهم حيث انابوا، ولا ضير في توجههم الى الله من غير تعيين القبلة، لانه عز وجل مالك الكون كله، من دونما تحديد مكاني فاينما يولي الانسان وجهه فثم وجه الله.

٤- ارى ان الآية الكريمة خبر لتثبيت المؤمنين وتوكيد رعاية الله لهم وأن لا يوجفوا فزعا -كما قد يتوهم بعضهم -بان الله قد يكون بعيداً عنهم وهذا يعني ان الاية ليست في باب تقييد التوجه.

٥- قال قسم من العلماء: انها رخصة في توجه المتحير في صلاته والمسافر غير المتيقن الجهة الصحيحة للكعبة المشرفة.

٦- ان تغيير القبلة كان بامر سماوي لفعل نبوي ذلك ان معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ﴾ [سورة البقرة: ١٤٣] ان القبلة التي اخترتها جعلنا فيها امتحانا واختبارا للمسلمين.. لان قوله سبحانه: ﴿ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ﴾ يؤيد ان القبلة -بيت المقدس- لم تكن بامر من الله.

٧- ان تغيير القبلة -وكل ما قيل في امثاله -يجب حمله على التدرج في الاحكام وليس من باب الغاء لفظ النص او معناه او كلاهما وهذا التدرج في الاحكام له مسوغاته.

المسالة الثانية: صدقة النجوى:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا نَٰجَيْتُمُ ٱلرَّسُولَ فَقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَةً ذَٰلِكَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَأَطْهَرُ فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ١٢] في الاية الكريمة امر بتقديم صدقة في حال مناجاة المسلم رسول الله ﷺ ولكن جاء في اخر الاية تيسير لمن لا يستطيع بقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ غير ان جمهورا ممن عنوا بعلوم القران عدوا الامر بصدقة النجوى منسوخا بقوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ أَن تُقَدِّمُواْ بَيْنَ يَدَىْ نَجْوَىٰكُمْ صَدَقَٰتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُواْ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المجادلة: ١٣].

وعد بعضهم هذا النسخ مما نسخ قبل العمل به [٢٥]. **وقال النحاس:** «اكثر العلماء على ان هذه الاية منسوخة[٢٦] واول من عمل بها علي بن ابي طالب (كرم الله وجهه) ثم نسخت وجعل العلماء علة هذا النسخ انه للتخفيف»[٢٧].

وقال ابن سلامة: (وفيها اية [٢٨] واحدة منسوخة وهي احدى فضائل علي بن ابي طالب (رضي الله عنه) لانه روي عنه انه قال: في كتاب الله تعالى اية ما عمل بها احد قبلي ولا يعمل بها احد بعدي الى

(٢٥) ينظر: الناسخ والمنسوخ -ابن سلام/ ١٧٩. الايضاح/ ٤٢٦. والبرهان في علوم القران ٢/ ٢٨ وما ذهبوا اليه قول غير صحيح ذلك ان الامام علي عليه السلام قد عمل بها فكيف يحكم بنسخها قبل امتثالها ؟.

(٢٦) قصد الاية (١٢) من سورة المجادلة.

(٢٧) الناسخ والمنسوخ/ ٢٣٧.

(٢٨) قصد سورة المجادلة الاية (١٢) منها.

يوم القيامة)[٢٩].

وجاء في (علوم القران عند المفسرين) صحة الخبر في ان عليا عليه السلام المسلم الوحيد الذي عمل بصدقة النجوى وذكر طرقا كثيرة في اسناده[٣٠].

علة صدقة النجوى:

فيها خير لصاحبها كثير فهي: تطهير للنفوس والامر بها امر بما فيه مصلحة العباد[٣١]. فالمتصدق سيبحث عن الفقراء وينفق عليهم بما امره الله به من التصدق -هنا -فالطرفان رابحان المناجي يربح ثواب الله وحب رسوله ويربح منافع المناجاة والفقير يربح مما ينفق عليه ويتيقن ان اخوانه يذكرونه ويرعونه وينفقون عليه وانه منهم.

١- صدقة النجوى خففت عن النبي صلى الله عليه وآله فانه يوجب قلة مناجاته من الناس لانه عليه مسؤولية الامة: في دينها ودنياها ووقته ليس بالسعة حتى يضيع بامور -ربما -ليست بذات جدوى.

٢- محصت الاية الصحابة فوجدت ان قسما منهم آثر المال على المناجاة بمعنى احب المال اكثر مما رغب فيه من المناجاة وذهب بعض العلماء الى القول: انها بينت حب المسلم رسول الله صلى الله عليه وآله من المنافق الذي احب المال وفضله على المناجاة.

٣- ان في تشريع صدقة النجوى ظهرت حكمة التشريع وانكشفت مِنَّةُ الله على عباده وبان عدم اهتمام قسم من المسلمين بمناجاة النبي الاكرم صلى الله عليه وآله وعرف مقام امير المؤمنين علي عليه السلام من بينهم.. وقد يكون تقديم الصدقة بين يدي النجوى صوريا امتحانيا كامر ابراهيم بذبح ولده عليه السلام -فالاية الثانية[٣٢]. لاتكون ناسخة للاية الاولى نسخا اصطلاحيا بل يصدق على رفع ذلك الحكم الامتحاني: النسخ بالمعنى اللغوي[٣٣].

(٢٩) الناسخ والمنسوخ/ ١٧٩ وينظر: الايضاح/ ٤٢٦ -٤٢٧. والناسخ والمنسوخ - ابن حزم/ ٥٩.

(٣٠) ينظر : علوم القران عند المفسرين ٢/ ٦٨٤ ومصادره.

(٣١) علوم القران عند المفسرين ٢/ ٦٨٥.

(٣٢) قصد بالاية الثانية قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ﴾.

(٣٣) علوم القران عند المفسرين ٢/ ٦٨٦.

٤- الاية اوجبت الصدقة عند المناجاة ولكنها لم توجب المناجاة فكانت الصدقة مشروطا اداؤها بالرغبة في النجوى وترك النجوى ليس بمعصية على الرغم من وجود فوائد جليلة ومنافع عظيمة فقد جاء في (علوم القران عند المفسرين) نقلا عن الرازي: انه نقل عن ابي مسلم[٣٤]: انه جزم بكون الامر امتحانيا لتمييز من امن ايمانا حقيقيا عمن بقي على نفاقه فلا نسخ وقال الرازي: وهذا كلام حسن ما به باس)[٣٥]. ونقل عن بعضهم تقليل شان هذه الصدقة وتسويغ الاعذار للممتنعين عن ادائها[٣٦]

مسوغات نسخها: وكان اولى بهؤلاء العلماء الا يوقعوا انفسهم في ما لا يمكنهم كشف سره وقد صرح به القران الكريم وقد اثرت الا اناقش ما قيل في اية صدقة النجوى مفصلا -هنا- لانها ستبحث في مؤلف للنسخ -باذن الله-.

الذي افهمه من الآيتين (١٢- ١٣) من سورة المجادلة -هنا- الاتي:

لم تشر الاية (١٢) الى وجوب النجوى لكنها قرنت وجوب الصدقة في حال النجوى وكذا الاية بعدها لم تشر الى وجوب ترك الصدقة -بحسب ظاهر النص الكريم-.

١- وعليه تكون الصدقة مشروطة بوقوع النجوى حسب.

٢- لا معصية لمن ترك المناجاة لذاتها، وليس ضنا بالمال ورغبة عن النجوى

٣- احسب ان اية الصدقة هذه جاءت لتطهير النفس وتوكيد ان حب لقاء النبي ﷺ انفع وازكى، واعز من الاموال ولذا جاء الاستفهام بعدها للتوبيخ.

٤- لقد حلَّق ابو مسلم بعيدا اذ ذهب الى ان صدقة النجوى جاءت للتمييز بين محبي الله سبحانه وتعالى بمناجاة رسوله ﷺ وبين من بقي النفاق في كينونته فَعَلا حبُّ المال عنده على حب الانتفاع من رسوله ﷺ فاثر المال على ما

(٣٤) هو العالم ابو مسلم الاصفهاني القائل بمنع النسخ في القران الكريم (ت ٣٢٢ هـ).

(٣٥) علوم القران عند المفسرين ٢/ ٦٨٦ وينظر مصدره.

(٣٦) ينظر: علوم القران عند المفسرين ٢/ ٦٨٧ -٦٨٨. والبيان في تفسير القران/ ٣٧٦. وما بعدها.

يصلح دينه ويبني دنياه به.

٥- ان قوله تعالى: ﴿ءَأَشْفَقْتُمْ خَيْرٌ﴾-الاية- قرنت ترك الصدقة باقامة فرضي الصلاة والزكاة واطاعة الله ورسوله طاعة تامة وهذا لا يعني نسخ الصدقة بل اعطى سبيلا اخر للتطوع العبادي

٦- ان المناجي المقدم للصدقة تحصل له الفضيلة من جهات عدة منها:

٧- رعاية وقت رسولﷺ واعزاز هيبته وادراك عظم مسؤولياتهﷺ.

أ- قصد بهذه الاية فضيلة القرب من الرسولﷺ بمناجاته على المال، والافادة من هذا القرب لحل ما استعصى على المسلمين من امور دينهم ودنياهم.

ج- الثواب المتحصل من سد حاجة قسم من الفقراء بهذه الصدقة.

د- لم تغلق الاية باب نيل الثواب لغير القادرين على الصدقة كي لا يحرموا ثواب الصدقة فالاية الاولى طمانت هؤلاء الفقراء بقوله سبحانه: ﴿فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المجادلة: ١٢] والثانية بقوله تبارك وتعالى: ﴿فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا۟ وَتَابَ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ﴾ [سورة المجادلة: ١٣] ويفهم من الايتين المباركتين ان المال وجد لخدمة الانسان، وهو عرض زائل ولذا يفتح الله جل ذكره دائما ابوابا للانفاق لبناء الحياة النقية لا الحياة التي تسيرها الطمع.

الخاتمة

هذه دراسة موجزة في النسخ في القران الكريم وقد دعاني البحث الموضوعي إلى ان اطلع على جل كتب التفسير وعلوم القران والناسخ والمنسوخ، واسباب النزول وغيرها مما له علاقة بالنسخ وقد توصل البحث الى الاتي:

وجدت معظم علماء التفسير وعلوم القران واسباب النزول والاصوليين وغيرهم يقرون بوقوع النسخ في القران الكريم غير انهم لم يقدموا الحجج المقنعة في ذلك.

١- ان القول بان هذا القران ليس هو كل ما انزل على النبي محمدﷺ قول باطل وضال ومضل ومخالف ما جاء به القران نفسه.

٢- ان الروايات المسندة الى بعض الصحابة

(رض) بنسخ ايات او سور او بانسائها قد سبكها اعداء الاسلام وهي لاتجري على سمت الاي الحكيم لا من حيث اللفظ ولا التركيب ولا المعنى.

٣- ان الروايات القائلة بنسخ لفظ الاية وبقاء حكمها قول لايؤيده برهان ولا ضرورة تستدعي الاخذ به.

٤- اما القول بنسخ الحكم وبقاء التلاوة فهو ليس نسخا على وفق اصطلاحهم فما وجدت الا احكاما ياخذ بعضها برقاب بعض.انها احكام تساير الانسان وتتدرج معه وهذا نظام تربوي واجتماعي سليم اخذت به الامم المتحضرة والمدارس التربوية الحديثة.

٥- لم يقر البحث باي نوع من انواع النسخ في القران الكريم واختار حكمين في ايتين هما: قضية القبلة، وقضية صدقة النجوى، وتبين بعدهما عن معنى النسخ واصطلاحه تماما.

٦- ان القائلين بوقوع النسخ او التبديل في القران الكريم عينوا الايات التي زعموا انها هي الدليل على وقوع النسخ في القران الكريم لكنهم لم يلتفتوا الى بناء تلك الايات الشرطي الذي يعني عدم القطع بحصول الحدث.

٧- عدم اتفاق العلماء على عدد الايات الناسخة والمنسوخة وما الاية الناسخة؟ وما الاية المنسوخة؟ فقد ذهب قسم منهم الى ان الناسخ اية كذا واخرون قالوا بغيرها واحيانا قال قسم منهم بنسخ جزء من الاية او ان اخر الاية نسخ اولها كل هذا يؤكد ان النسخ جاء متاخرا من عهد النبوة ولا صحة لما رووه عن النبيﷺ ولا ما رواه الصحابة (رض) بل هو من بنات افكار فئة ادلجت فيما ادلج فيه من سبقهم من دونما تمحيص.

إن ما توصلت اليه ليس اخر القول في النسخ في القران الكريم بل ثمة علماء سيقولون كلاما اخر لان البحث القراني يبقى طريا لا ينقطع ولا يمكن لاي باحث ان يقول: ان هذا القول هو القول الفصل في هذا البحث او غيره وهذه الميزة اختص بها القران دونما الكتب جميعا -السماوية وغير السماوية-.

المراجع والمصادر

القران الكريم

- الايات الناسخة والمنسوخة -الشريف المرتضى (ت ٤٦٣هـ) -مؤسسة البلاغ -بيروت، لبنان -١٤٢١هـ-٢٠٠٠ م.
- الاتقان في علوم القران -جلال الدين عبد الرحمن السيوطي (ت ٩١١ هـ) -دار ومكتبة الهلال -بيروت -لبنان (د. ت).
- الاحكام في اصول الاحكام -ابو محمد علي بن حزم الاندلسي (ت ٤٥٧هـ) -تحـ.محمد احمد عبد العزيز -ط١ -دار الفكر العربي (مطبعة الامتياز) -القاهرة ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨ م.
- اعراب القران الكريم وبيانه -محي الدين الدرويش -ط٣ -دار ابن كثير للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت -لبنان -١٤١٢هـ-١٩٩٢ م.
- الامثل في تفسير كتاب الله المنزل -ناصر مكارم الشيرازي -ط ٢ -الاميرة للطباعة والنشر والتوزيع -بيروت -لبنان -١٤٢٠ هـ-٢٠٠٩م.
- البحر المحيط -اثير الدين ابو عبد الله محمد بن يوسف بن حيان الاندلسي (ت ٧٤٥هـ) -ط٣ -دار احياء التراث العربي -بيروت -لبنان -١٤١١هـ-١٩٩٠ م.
- البرهان في علوم القران -بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي (ت ٧٩٤هـ) -تحـ.محمد ابو الفضل ابراهيم -المكتبة العصرية -بيروت، لبنان -١٤٢٧ هـ-٢٠٠٩ م.
- البيان في تفسير القران -ابو القاسم الخوئي -ط٣ -مؤسسة الاعلمي للمطبوعات -بيروت، لبنان -١٣٩٤هـ-١٩٧٤م.
- التبيان في تفسير القران -ابو جعفر محمد بن الحسن الطوسي (ت ٤٦٠هـ) -تحـ-ط -النجف الاشرف ١٣٧٦هـ.
- تفسير القران الكريم (بحر العلوم) -ابو الليث نصر بن محمد بن احمد بن

ابراهيم السمرقندي (ت ٣٧٥ هـ) -تحـ.د.عبد الرحيم احمد الزقة -ط ١ -مطبعة الارشاد -بغداد ١٤٠٥هـ-١٩٨٥ م.

- التفسير الكبير -فخر الدين محمد بن عمر بن الحسين الرازي (ت ٦٠٤ هـ) -تحـ.عماد زكي البارودي -المكتبة التوفيقية -القاهرة (د. ت).
- تفصيل وسائل الشيعة الى تحصيل مسائل الشريعة -محسن عبد الحسن الحر العاملي (ت ١١٠٤هـ) -تحـ. مؤسسة ال البيت عليهم السلام لاحياء التراث -ط ١ -١٤١٣هـ-١٩٩٣م.
- التمهيد في علوم القران -محمد هادي معرفة -ط ٢ -مطبعة ستارة -قم الجمهورية الاسلامية ١٤٢٩ هـ-٢٠٠٩ م.
- جامع البيان في تاويل القران -ابو جعفر محمد بن جرير الطبري (ت ٣١٠هـ) -ط ٣ -دار الكتب العلمية -بيروت -لبنان ١٤٢٠هـ-١٩٩٩م.
- دراسات في علوم القران الكريم -د.محمود البستاني -ط ١ -مطبعة البقيع -قم -ايران -١٤٢٧هـ-٢٠٠٧ م.
- زاد المسير في علم التفسير -ابو الفرج جمال الدين عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (ت ٥٩٧هـ) -ط ١ -المكتب الاسلامي للطباعة والنشر -دمشق -١٣٨٥ هـ-١٩٦٥ م.
- علوم القران عند المفسرين -تاليف مركز الثقافة والمعارف القرانية -ط ٢ -مطبعة مؤسسة بوستان كتاب -قم -ايران -١٤٢٨ هـ.
- عن القران -محمد صبيح -مطبعة عيسى البابي الحلبي وشركاه -القاهرة -١٣٥٨ هـ-١٩٣٩ م.
- محاضرات في علوم القران -د.غانم قدوري حمد -دار الكتاب للطباعة -بغداد ١٤٠٢هـ-١٩٨١ م.
- المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز -ابو محمد عبد الحق بن عطية الاندلسي (ت ٥٤١هـ) -تحـ.الرحلي الفاروق واخرين -ط١ -الدوحة ١٣٩٨ هـ-١٩٧٧م.
- الميزان في تفسير القران -محمد حسين

الطباطبائي (ت ١٣٦٠هـ) -طهران، دار الكتب الإسلامية -١٣٧٩ هـ.ش.

- النسخ في الشريعة الإسلامية (كما افهمه) -عبد المتعال الجبري -ط ١ -مطبعة دار الجهاد -القاهرة ١٣٨٠هـ-١٩٦١ م.
- الناسخ والمنسوخ في القران الكريم -ابو جعفر النحاس (ت ٣٣٨ هـ) -اعتنى به وراجعه نجيب الماجدي -شركة ابناء شريف الانصاري للطباعة والنشر والتوزيع -صيدا، بيروت، لبنان ١٤٢٨ هـ-٢٠٠٧ م.
- الناسخ والمنسوخ في القران الكريم -ابو محمد علي بن حزم الاندلسي (ت ٤٥٧هـ) -تحـ.د. عبد الغفار سليمان البنداري -مطبعة منير -بغداد ١٩٨٩م.
- الناسخ والمنسوخ -هبة الله بن سلامة بن نصر بن علي البغدادي (ت ٤١٠هـ) تحـ.د. موسى بناي علوان العليلي الطبعة ١ -بيروت -لبنان ١٩٨٩ م.

ملخص البحث

يتعلق البحث بدراسة دلالة كلمة (البحرين) و(البحران) في القرآن الكريم وقد خصص السيد الباحث دراسته لبيان مفهوم الكلمتين وحدودهما وابراز مكانتهما في القرآن الكريم وذلك لما يمثله البحر من ظاهرة حيوية في حياة العرب وتراثهم.

ففي البحث الاول يفصّل السيد الباحث القول في موضوعة (البحر في التراث اللغوي والجغرافي).

وفي المبحث الثاني يعطي فكرة عن دلالة (البحرين)و(البحران) في القرآن الكريم واللتين وردتا في خمسة مواضع، اربعة منها بلفظ (البحرين) وواحد بلفظ (البحران). وقد عرض لتفسير الآيات التي ذكرت فيها هذه اللفظة مستعينا بمصادر التراث المختلفة من لغوية وجغرافية وأدبية وتفاسير لتحديد مواضع هذه التسميات.

ويختتم السيد الباحث بحثه بوضع مسرد للمصادر التي اعتمدها.

دلالة كلمة (البحرين) في القرآن الكريم

أ.د. محمد كريم إبراهيم الشمري
كلية الآداب - جامعة القادسية

المبحث الأول

البحر في التراث اللغوي والجغرافي

البحر خلاف البر، يقال: سمي بحرًا لعمقه واتّساعه، والجمع: أبحر وبحار وبحور، وكل نهر عظيم: بحر، ويسمى الفَرَس الواسع الجري: بحرًا، ومنه قول النبيﷺ في مندوب فرس أبي طلحة: «إن وجدناه لبحرا» وماء بحر، أي ملح، وأبحر الماء: ملح، ويقال: أبحر فلان، إذا ركب البحر[1].

والبحر الماء الكثير، ملحًا كان أو عذبًا، وقد غلب على الملح حتى قلّ في العذب، وماء بحر: ملح، قلَّ أو كثر، وسمي بحرًا لملوحته، وقيل: إنما سمي البحر بحرًا؛ لسعته وانبساطه، ومنه قولهم: إن فلانًا لبحرٌ، أي واسع المعروف، فعلى هذا يكون البحر للملح والعذب، وأجمعَ أهل اللغة أن اليم هو البحر، وجاء في الكتاب العزيز: ﴿فَأَلْقِيهِ فِي ٱلْيَمِّ﴾ [سورة القصص: ٧]، قال أهل التفسير: هو نيل مصر حماها الله تعالى، والبحر الماء صار ملحًا.

والبحر الرجل الكريم كثير المعروف، وفرس بحر: كثير العَدْو على التشبيه بالبحر والبحر: الريف، وبه فسر قوله عزوجلّ: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾ [سورة الروم: ٤١]؛ لأن البحر الذي هو الماء لا يظهر فيه فساد ولا صلاح، وقال الأزهري: معنى هذه الآية، أجدب

(١) الجوهري. الصحاح ٢/ ٥٨٥، مادة (بحر).

البر وانقطعت مادة البحر بذنوبهم، كان ليذوقوا الشدة بذنوبهم في العاجل، وقال الزجاج: معناه ظهر الجدب في البر، والقحط في مدن البحر على الأنهار[٢].

وتبحرَ في العلم وغيره، أي تعمقَ فيه وتوسعَ، قال الأصمعي: بَحِرَ الرجل (بالكسر) يبحِرُ بحرًا، إذا تحير من الفزع، مثل بطِر، ويقال أيضاً: بَحِر، إذا اشتد عطشه ولم يُروَ من الماء، ويقولون: هذا يوم بُحران (بالإضافة)، ويوم باحوري على غير قياس، فكأنه منسوب إلى باحور وباحوراء، مثل عاشور وعاشوراء، وهو شدة الحر في تموز (يوليو)، وجمع ذلك مُوَلد[٣].

وكانت أسماء بنت عميس يقال لها: البحرية ؛ لأنها هاجرت إلى بلاد النجاشي فركبت البحر، وكل ما نسب إلى البحر، فهو: بحري[٤].

وروى الأزهري[٥] عن ابن سيده أن كل نهر عظيم هو بحر، وكل نهر لا ينقطع ماؤه مثل دجلة والنيل وما أشبههما من الأنهار العذبة الكبار، فهو بحر، أما البحر الكبير الذي هو مغيضُ هذه الأنهار فلا يكون ماؤه إلا ملحًا أجاجًا وراكدًا، وأما هذه الأنهار العذبة فماؤها جارٍ، وسميت هذه الأنهار بحارًا ؛ لأنها مشقوقة في الأرض شقًّا، ويسمى الفرس الواسع الجري: بحراً.

وفي الحديث: أبى ذلك البحر ابن عباس؛ سمي بحرًا لسعة علمه وكثرته، ويقال: إنّما سمي البحر بحرًا ؛ لأنه شقّ في الأرض شقًا، وجعل ذلك الشقّ لمائه قرارًا، والبحر في كلام العرب: الشقّ، وفي حديث عبد المطلب: وحفر زمزم ثم بحرها بحرًا، أي شقَّها ووسعها حتى لا تنزِفُ.

واستبحر الرجل في العلم والمال، وتبحر: اتسع وكثر ماله، وتبحر في العلم: اتسع، واستبحر الشاعر إذا اتسع في القول.

ورد ذكر البحر والبحار التي تحيط ببلاد العرب وأقطارها في كثير

(٢) تهذيب اللغة، ج ٥/ ٣٩، الحموي. معجم البلدان ١/ ٣٤١، ابن منظور. لسان العرب ٤/ ٤١-٤٢، ٤٤، مادة (بحر).
(٣) الجوهري، الصحاح ٢/ ٥٨٦.
(٤) الأزهري. تهذيب اللغة ج٥/ ٤٢، ابن منظور. لسان العرب ٤/ ٤٦.
(٥) تهذيب اللغة، ج ٥/ ٣٩، راجع أيضاً:= الحموي. معجم البلدان ١/ ٣٤١، ابن منظور. لسان العرب. ٤/ ٤٢-٤٤.

من المصادر الجغرافية، فقد وصف الاصطخري[٦] حصن ابن عمارة على الساحل الشرقي للخليج العربي، بأنه حصن منيع لهم على البحر، ووصف ابن حوقل[٧] قلعة ابن عمارة بأنها مرصد لهم على البحر، يعرفون منها المراكب، فإذا أقبلت خرجوا إليها وطالبوا أهلها بضرائب على ما يحملون في المراكب، وأسهب أيضاً[٨] في الحديث عن بحر فارس وجزائر بني حُدّان، وذكر[٩] أن بحر فارس هو خليج من البحر المحيط، أي المحيط الهندي، وقد ذكر جغرافيو القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين، البحرين والبحار المحيطة ببلاد العرب وأقطارها[١٠]، موضحين صلتها بهذه البلاد عبر عصور التاريخ، كما ذكرها الجغرافيون الذين تلوهم، وأبرزهم الحموي[١١] الذي وصف البحرين بأنها: اسم جامع لبلاد على ساحل بحر الهند بين البصرة وعُمان، وفيها عيون ومياه وبلاد واسعة.

وقال ابن المجاور البغدادي النيسابوري[١٢] حول البحرين ما نصه: «ما سميت (البحرين) بحرين إلا لأجل البحر وأهلها عرب شُبه البحر في كرمهم، أي بلاد تسمى البحرين بحر ماء وبحر خلق، وتسمى الجزيرة جزيرة أوال... وهي جزيرة في صدر الغبة وبر العرب وفارس مستدار حولها».

والبحرين بلد والنسبة إليه: بحراني، كرهوا أن يقولوا بحري، والبحرة: البلدة، يقال هذه بحرتنا، أي بلدتنا وأرضنا، ولقيته صحرة بحرة، أي بارزاً ليس بينك وبينه شيء[١٣].

وذكر البكري[١٤] بحران، بفتح أوله

(٦) المسالك والممالك ص ٣١، وأسهب في الحديث عن بحر فارس ص ٢٩-٣١.
(٧) صورة الأرض ص ٢٤١.
(٨) المصدر نفسه ص ٤٨-٦٣، راجع أيضاً: المقدسي، أحسن التقاسيم ص ١٦-١٩.
(٩) المصدر نفسه ص ٢٤٤.
(١٠) إبراهيم، د. محمد كريم. البحرين في مؤلفات جغرافيي القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين. لمحور الجغرافي، مجلة الوثيقة، العدد (٣٥)، ص ٩٠-١٠١.
(١١) معجم البلدان ١/ ٣٤٧.
(١٢) صفة بلاد اليمن.... (تاريخ المستبصر)، ص ٣٠٠-٣٠١.
(١٣) الجوهري. الصحاح٢/ ٥٨٥.
(١٤) معجم ما استعجم١/ ٢٢٨.

على وزن فعلان: معدن بالحجاز، وغزوة بحران من غزوات رسول الله ﷺ، التي لم يكن فيها قتال.

والبحران ثنية بحر، وهو بلد مشهور بين البصرة وعُمان، صالحَ أهله رسول الله ﷺ، وأمّرَ عليهم العلاء بن الحضرمي، وبعث أبا عبيدة ليجبي الجزية، فقدم بمالٍ من البحرين، فسمعت الأنصار بقدومه، ووافوا صلاة الفجر مع رسول الله ﷺ.

المبحث الثاني

(البحرين) و(البحران) في القرآن الكريم

ورد ذكر البحرين في القرآن الكريم في أربعة مواضع، وورد ذكر (البحران) مرة واحدة فقط، وسوف نعرض لتفسير الآيات التي ورد فيها ذكر البحرين ومجمع البحرين ومرج البحرين، فضلاً عن الاستعانة بمصادر التراث المختلفة من لغوية وأدبية وجغرافية لتحديد مواضع هذه التسميات. ثم نختم بحثنا بذكر (البَحران) وتفسيرهما ودلالاتهما.

(١)

﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِى ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ [سورة الكهف: ٦٠-٦١].

واذكر حين قال موسى بن عمران لفتاه يوشع: لا أزال أسير حتى أبلغ اجتماع بحر فارس والروم، أو أسيرُ زماناً طويلاً، فلما بلغ موسى وفتاه مجمع البحرين، تركا حوتهما هناك، فاتخذ الحوت طريقه في البحر مذهباً ومسلكاً...[١٥].

وفي تفسير القرطبي[١٦]. وإذ قال موسى لفتاه يوشع بن نون -قال فبينا هو في ظل صخرة في مكان ثريان (مبلول) إذ تَضَرّب (من الضرب في الأرض وهو السير) الحوت وموسى نائم، فقال لفتاه: لا أوقظه، حتى إذا استيقظ نسي أن يخبره. وتضرب (سار) الحوت حتى دخل البحر، فأمسك الله عنه جريه البحر حتى كأن أثره في حجر. وفي رواية: وأمسك الله عن الحوت جريه الماء فصار مثل الطاق(عقد البناء، والجمع: أطواق وطيقان)، فلما

(١٥) مختصر تفسير الطبري ج٢/ ١٦.
(١٦) الجامع لأحكام القرآن ج١١/ ١٦-١٧.

استيقظ نسي صاحبه أن يخبره بالحوت، فانطلقا بقية يومهما وليلتهما.

أما تفسير الآية: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجْمَعَ بَيْنِهِمَا﴾، الضمير في قوله (بينهما) للبحرين، والسرب: المسلك، وقال قتادة: جمد الماء فصار كالسرب، وجمهور المفسرين ذكروا أن الحوت بقي موضع سلوكه فارغاً، وأن موسى مشى عليه متبعاً الحوت، حتى أفضى به إلى جزيرة في البحر، وفيها وجد الخضر عليه السلام، وظاهر الروايات والكتاب أنه إنما وجد الخضر عليه السلام في ضفة البحر، وقوله: ﴿نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ وإنما كان النسيان من الفتى وحده، فقيل: المعنى، نسي أن يُعلِم موسى بما رآه من حاله، فنُسِب النسيان إليهما للصحبة، كقوله تعالى: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ وإنما يخرج من الملح [17].

وفي تفسير القرطبي [18]: قيل أن موسى هذا ليس موسى بن عمران، وإنما هو: موسى بن منشا بن يوسف بن يعقوب، وكان نبياً قبل موسى بن عمران، وفتاه هو: يوشع بن نون، ومعنى لا أَبرح أي لا أزال أسير، وقيل: لا أفارقك (لا أبرح) حتى أبلغ مجمع البحرين، أي ملتقاهما.

قال قتادة: وهو بحر فارس والروم، وقيل: هو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بر الشام هو: مجمع البحرين، على هذا القول.

وحول مجمع البحرين والمقصود بالبحرين، هنالك أقوال أخرى ذكرها القرطبي في تفسيره سنوردها كما هي، ثم نستأنس بآراء الرحالة والجغرافيين بخصوصها. وقيل: هما بحر الأردن وبحر القلزم، وقيل: مجمع البحرين عند طنجة، وقيل انه بإفريقية (تونس)، وقال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط (الأطلسي)، وقالت فرقة: إنما هما موسى والخضر، وهذا قول ضعيف.

وأورَدَ ابن كثير [19] تفسيراً لهذه الآية، خلاصته أن سبب قول موسى لفتاه (وهو يوشع بن نون) هذا الكلام، انه ذكر

(١٧) المصدر نفسه ١١/ ١٣-١٤.
(١٨) المصدر نفسه والصفحة، راجع عن تفاصيل تفسير الآية :المصدر نفسه١١/ ١٤-١٧.
(١٩) تفسير القرآن العظيم ج٤/ ٤٠٢.

له عبداً من عباد الله بمجمع البحرين، عنده من العِلم ما لم يُحَط به موسى فأحب الرحيل إليه، وقال لفتاه ذلك: (لا أبرح) أي لا أزال سائراً ﴿حَتَّىٰٓ أَبۡلُغَ مَجۡمَعَ ٱلۡبَحۡرَيۡنِ﴾ أي هذا المكان الذي فيه مجمع البحرين، وقال الفرزدق:

فما بَرِحوا حتى تهادَتْ نساؤُهُمْ
ببطحاءِ ذي قارٍ عيابَ اللطائم

انتقل ابن كثير مباشرة بعد إيراده بيت الفرزدق إلى ذكر آراء المفسرين حول مفهوم البحرين ومجمع البحرين، مكررًا ما ذكره سلفه من المفسرين الذين ذكرناهم سابقاً، ومنهم قتادة، بما نصه: «قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب، وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب[٢٠]، والله أعلم»[٢١].

(٢٠) ذكر قدامة بن جعفر أن مجتمع البحرين في بلاد الأندلس وعاصمتها قرطبة، ووصف الأندلس بأنها : نهاية الغرب. الخراج وصنعة الكتابة ص٢٦٦، وذكر المقدسي أنّ البحر (المتوسط) يضيق في حدود طنجة، وأضاف أنه سمع جماعة يذكرون ذلك. أحسن التقاسيم ص١٤.

(٢١) ابن كثير. تفسير القرآن العظيم ج٤/ ٤٠٢-٤٠٣.

وهكذا نجد تكرار مسألة المقصود بالبحرين بأنه اجتماع بحر فارس وبحر الروم، دون تحديد بالضبط أين يقع مكان مجمع البحرين حَصرا، وسنعود لعرض آراء عدد من الجغرافيين واللغويين والمفسرين حول هذه المسألة المهمة جداً والحساسة، التي مازالت حتى يومنا هذا غامضة مبهمة شبه مجهولة لدى جمهور واسع من الناس!

وبخصوص تفسير قوله تعالى: ﴿أَوۡ أَمۡضِيَ حُقُبًا﴾ ذكر ابن كثير معناها، أي ولو أني أسير حقباً من الزمان، قال ابن جرير رحمه الله: ذكر بعض أهل العلم بكلام العرب، أن الحُقب في لغة قيس: سَنَة، ورُوِيَ أن الحقب ثمانون سنة، وقال مجاهد: سبعون خريفاً، وقال آخرون: قوله «أو أمضي حقباً»، أي: دهراً.

أما تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمَّا بَلَغَا مَجۡمَعَ بَيۡنِهِمَا نَسِيَا حُوتَهُمَا﴾ فقد ذكر ابن كثير[٢٢] في تفسير قوله تعالى هذا، انه أمر بحمل حوت مملوح له، وقيل له: متى فقدت الحوت فهو ثمة، فسارا حتى بلغا

(٢٢) المصدر نفسه والصفحات.

مجمع البحرين، وهناك عَيْنٌ يقال لها: عين الحياة، فناما هنالك، وأصاب الحوت من رشاش ذلك الماء فاضطرب، وكان في مكتل مع يوشع عليه السلام، وطفر من المكتل إلى البحر، فاستيقظ يوشع عليه السلام وسقط الحوت في البحر فجعل يسير في الماء، والماء له مثل الطاق لا يلتئم بعده؛ لهذا قال تعالى: ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ فِي ٱلْبَحْرِ سَرَبًا﴾ أي مثل السرب في الأرض.

وقال آخرون: صار أثره كأنه حجر، وقيل: جعل الحوت لا يمس شيئاً من البحر إلا يَبِسَ حتى يكون صخرة، وقال قتادة: سَرِبَ من البحر حتى أفضى إلى البحر، ثم سلك فيه فجعل لا يسلك فيه طريقاً إلا صار ماءً جامداً. ﴿فَٱتَّخَذَ سَبِيلَهُۥ﴾ أي طريقه في البحر عجباً ﴿فَوَجَدَا عَبْدًا مِّنْ عِبَادِنَآ ءَاتَيْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنْ عِندِنَا وَعَلَّمْنَٰهُ مِن لَّدُنَّا عِلْمًا﴾ [سورة الكهف: ٦٥]، وهذا هو الخضر عليه السلام كما دلت الأحاديث الصحيحة عن رسول الله ﷺ.

ونقل الصابوني[٢٣]: «كان للحوت سرباً ولموسى وفتاه عجباً». رواه البخاري؛ لأن الحوت كان ميتاً فدبت فيه الحياة.

وما دمنا بصدد مناقشة مفهوم البحرين ومجمع البحرين، وبعد عرضنا جملة من الآراء المتباينة والمتعددة حولها، من خلال رجوعنا إلى المصادر اللغوية وكتب التفسير التي عرضناها آنفاً، لابد لنا من عودة إلى التراث الجغرافي العربي الإسلامي، للاستنجاد به لحل هذه المعضلة المعقدة.

لعل المقدسي الجغرافي الوحيد الذي يُعد في طليعة الرواد الأوائل الذين ناقشوا مناقشة علمية مستفيضة موضوع البحار والأنهار، وإجلاء الغموض عن معمياتها وما أبهم منها، فعقد عنواناً: (ذكر البحار والأنهار)، وسنعتمد كثيرًا من آرائه حول مواضيع هذا البحث، وفي صدارتها: مرج البحرين.

أشار المقدسي[٢٤] إلى وقوع اختلاف حول تفسير: ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ﴾ موضحاً ذلك الاختلاف، ومُقيماً الحُجة على أنهما يلتقيان، والالتقاء غير الاجتماع- كما سنوضح.

إن الذي يهمنا من آراء المقدسي ما يتعلق بمفهوم: مجمع البحرين، فقد ذكر

(٢٣) محقق مختصر تفسير الطبري ج٢/ ١٦ هامش.

(٢٤) أحسن التقاسيم ص١٩.

أن الله تعالى سمى بحر الروم (البحر المتوسط): بحرين، وقدم دليلاً على ذلك هذه الآية، قال تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِفَتَىٰهُ لَآ أَبْرَحُ حَتَّىٰٓ أَبْلُغَ مَجْمَعَ ٱلْبَحْرَيْنِ أَوْ أَمْضِىَ حُقُبًا﴾، وكان هذا كله بسواحل الشام، وأعلام (علامات) ذلك ظاهرة وصخرة موسى ثَمّ بينة (دليل/ برهان). فان قيل فلِمَ لا قلتَ أن معنى قوله ﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ﴾ هو بحر واحد أيضاً، فالجواب: هذا لا يجوز ؛ لأن الله تعالى قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ﴾ والبرزخ الحاجز، مع أنا نقول لهذا المُخالِف: إن كان الأمر على ما تزعم فأرنا ثمانية بحار في الإسلام. فان ذَكرَ المحيط قيل له: ذلك على تخوم العالم بغير نهاية تُعرف، وان ذكر القسطنطيني قيل: ذلك خليج من الرومي (البحر المتوسط)، يخرج خلف إصقلية، ألا ترى أنهم أبداً يغزون فيه. فان ذكر الخزري قيل له: تلك بحيرة، ألا ترى أن أكثر الناس يسمونها: بحيرة طبرستان، أوَ لَمْ ترَ إلى قُرْب أطرافها، فان قال المقلوبة (البحر الميت) والخوارزمية (بحر آرال) قيل له: من جعل هاتين من هذه الجملة، لزمه أن يجعل بحيرات: الرحاب وفارس وتركستان، فيجاوز العشرين، فإن أنصَفَ رجع إلى قولنا، والله أعلم.

يتضح لنا بجلاء أن المقدسي ألقى الحجج والبراهين والأدلة الكافية علميًا على أن مجمع البحرين الناتج عن: البحرين، هو بحر الروم، أي: (البحر المتوسط)، وأن هذا المجمع يقع في سواحل بلاد الشام. وسنشير إلى آراء أخرى ووجهات نظر متباينة حول مفاهيم: البحرين، مجمع البحرين، مرج البحرين.

وإتمامًا للفائدة وتوخيا لجلاء الغموض حول مفهوم: مجمع البحرين، نورد أدناه آراء بعض الجغرافيين وانطباعاتهم عنه، ونترك الفصل والحكم لجمهور القراء الكرام ؛ للتوصل إلى تفسير مقنع وقريب لهذا المفهوم الذي تعددت الآراء حوله، وهو -كما ذكرنا في مقدمتنا -يشمل عدة مواضع، لعل أحدها مملكة البحرين الحالية، المسماة قديماً: جزيرة أوال، ونميل إلى القول بأن تحكيم العلم والمنطق هما السبيل الكفيل الى حسم هذا الخلاف، بين جمهور اللغويين والمفسرين والرحالة

الجغرافيين من العرب والمسلمين، حول مفهومي: البحرين ومجمع البحرين الذي يسمونه: مجتمع البحرين، أو: المجتمع، (دون إلحاقه بشيء).

أشار ابن رسته[٢٥] إلى اجتماع نهري الرَس والكُر، ومرور نهر الرَس بـ: المجتمع، المقصود أنه: مجتمع البحرين، ونهر الرس هو نهر أرمينية يخرج من قالي قلا (قاليقلا)، ويمر برستاق (ريف) من ناحية العدس وسوقه ثم بديبل ويمر بالمداين، ويقع فيه من جبال أرمينية وجبال المداين أنهار، ثم يمر بـ: ورثان إلى مدينة برزنج، فإذا جاوزها اجتمع مع نهر الكرُ، وانصب في بحر طبرستان.

ونهر الرس يخرج من قالي قلا ويمر بآران ويصب فيه نهر آران، ثم يمر بالورثان ثم يمر بـ: المجتمع. ونرجح أنه المجمع، أي: مجمع البحرين، فيجتمع هو (الرس) والكر، وبينهما مدينة البيلقان فيصبان في بحر جرجان، ونهر الكر يخرج من بلاد اللان ويمر بتفليس وبرذعة، وينصب في بحر طبرستان.

نستنتج مما ذكره ابن رسته إنّ المجتمع هو البحر المتكون من التقاء نهري الرس والكر، فيصبان في بحر جُرجان، وقيل أن نهر (الكر) يصب في بحر طبرستان، ولعل المقصود بالمجتمع هنا في الأعم الأرجح هو: مجتمع البحرين، أي مجمع البحرين، وهما بحر جرجان وبحر طبرستان.

أشار ابن رسته[٢٦] إلى موضع آخر، نرجح أنه مجمع البحرين في الخليج العربي، فذكر ملتقى البحر الأخضر (الخليج العربي) وبحر البصرة، والمرجح أنه شط العرب أحد فروع الخليج العربي، ويسمى: خليج البصرة، وأوضحَ أنّ ذلك الملتقى يشكل بحرًا من لقاء البحرين، ويقطع الجزيرة العربية في أرض نجد وأرض تهامة، وفيه من المدن هناك: اليمامة والبحرين وهجر والمدينة المنورة والجار ومكة والطائف وجدة، ثم يقطع بحر قلزم (الأحمر). ولعل ابن رسته أشار بوضوح إلى التقاء الخليج العربي بالبحر الأحمر الذي هو خليج صغير من الخليج العربي.

ومما يدعم رأينا السابق حول وجود

(٢٥) الأعلاق النفيسة ص٨٩.

(٢٦) المصدر نفسه ص٩٦.

مجمع البحرين في أرمينية ومرور نهر الرس فيه، ما ذكره ابن خرداذبة[٢٧] صراحة بتسمية المجمع، وهو مجمع البحرين، وهي التسمية نفسها التي سماها ابن رسته لكن بصيغة أخرى، وهي: المجتمع، فقد خصص ابن خرداذبة باباً عنوانه: (باب مخارج الأنهار)، إذ يقول: «ومخرج الرس نهر أرمينية من قاليقلا ويمر بآران ويصب فيه نهر آران ثم يمر بورثان حتى يبلغ المجمع وهو مجمع البحرين الذي ذكره الله جل وتقدس[٢٨] فيجتمع هو والكُر وبينهما مدينة البيلقان فإذا اجتمعا مرا [ويمر الكر والرس إذا اجتمعا بالمجمع][٢٩] حتى يصبا في بحر جُرجان».

إن ما ذكره ابن خرداذبة يشير صراحة إلى المجمع وهو: مجمع البحرين الذي ذكره الله تعالى في القرآن الكريم، ويكاد ابن خرداذبة يتفق مع نص ابن رسته، لكنه حدد مجمع البحرين في أرمينية باجتماع نهري الرس وآران، أكثر صراحة من ابن رسته في تسميته.

أشارَ ابن خرداذبة[٣٠] أيضاً إلى مجمع ثانٍ في بحر جُرجان، إذ قال :«ومخرج نهر أسبيدروذ من عند باب مدينة سيسر، ومخرج نهر شاهروذ من طالقان الري، ويجتمعان فيصبان في بحر جرجان».

وحدد قدامة بن جعفر[٣١] مجتمع (مجمع) البحرين في نهاية الغرب. عند اجتماع البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، إذ يقول: «...وهي [وليلة] آخر مدائن طنجة...ووراء ذلك بلاد الأندلس والمستولي عليها الأموي ومسكنه فيها في قرطبة، والأندلس نهاية الغرب وبها مجتمع البحرين». ولعل هذا الرأي يدعم عدة آراء ذكرها القرطبي[٣٢] حول مجمع البحرين، أبرزها مجمع البحرين عند طنجة، ولعل هذا رأي قدامة نفسه، إذ قصد اجتماع

(٢٧) المسالك والممالك ص١٧٤، وعلى ص١٧٣، كان العنوان : (باب مخارج الأنهار).

(٢٨) ورد ذكره في القرآن الكريم. [سورة الكهف:٦٠].

(٢٩) المسالك والممالك لابن خرداذبة ص١٧٥ هامش المحقق. والمرجح أنه: مجمع البحرين.

(٣٠) المصدر نفسه ص١٧٥.

(٣١) الخراج وصنعة الكتابة ص٢٦٦.

(٣٢) الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٤.

البحر المتوسط والمحيط الأطلسي قرب طنجة، وقيل: هو بحر الأندلس من البحر المحيط، الذي عززه رأي قدامة أيضاً من خلال قوله أعلاه.

وذكر الغرناطي[٣٣] روايات عديدة حول مجمع البحرين، ففي حديثه عن صنم قادس روى أن الذي بناه هو ذو القرنين والله أعلم بالصواب، وعلل ذلك بقوله: «وذلك أن في أندلس مجمع البحرين، البحر الأسود [المحيط الأطلسي] وبحر الروم»، وأضاف أن في مجمع البحرين جزيرة بنيت فيها منارة من الصخر الأسود موضحًا وصفها، مشيرًا إلى أنّ البحر الأسود فيه أمواج كالجبال لا تستطيع السفينة دخوله لكثرة أهواله، وهي ظاهرة مستمرة.

ووصف الغرناطي[٣٤] البحرَ الأسود بأنّهُ يخرجُ منهُ بحر الروم (البحر المتوسط)، وبينهما مجمع البحرين، الذي حدد عرضه بمقدار ثلاثة فراسخ (بحدود ١٥كيلو متر) وطوله عشرون فرسخًا أي بحدود تسعين كيلو مترًا، وفيه المد والجزر بدءًا من طلوع الشمس حيث تعلو المياه في البحر الأسود(المحيط الأطلسي) المعروف بـ: بحر الظلمات، وتصب في بحر الروم من مجمع البحرين، حتى تفيض في بحر الروم وتخرج على جوانبه بحيث يصل المدّ إلى خلف القسطنطينية مسيرة شهور في ساعة واحدة ويستمر حتى وقت الظهر، فإذا استقرت الشمس في كبد السماء غاض البحر الأسود أي نقص ماؤه، فيعود الماء ليصبَّ من بحر الروم في البحر الأسود إلى وقت مغيب الشمس فيستوي البحران، ثم يعلو البحر الأسود فيعود الماء يجري من مجمع البحرين إلى بحر الروم إلى نصف الليل، ثم يصب أيضًا في البحر الأسود إلى الصباح، وبذلك يحصل المدُّ والجزر كل يوم مرتين، وكل ليلة مرتين وذلك بإرادة الله العزيز العليم وقدرته.

استمر الغرناطي في وصف البحر الأسود ومجمع البحرين، فذكر وجود أسماك كبيرة ذكر أن حجمها كالجبال ! وهذه مبالغة كبيرة جدًا، تخرج من البحر الأسود، ونرجح أنها من صنف الحيتان الكبيرة أو الدلافين، تتبعها أسماك أكبر

(٣٣) رحلة الغرناطي (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب)، ص٥٢.
(٣٤) المصدر نفسه ص٨٣-٨٤.

منها لتأكلها، فتهرب منها وتعبر في مجمع البحرين، ثم تتبعها الأسماك الأكبر منها لتعبر في أثرها إلى مجمع البحرين، وروى الغرناطي أنه كان في مجمع البحرين (أي في عصره وقتذاك) في سفينة، فخرجت سمكة من البحر مثل الجبل العظيم، وصاحت صيحة -وصفها قائلاً: «لم أسمع قط أوحش منها ولا أهول ولا أقوى منها فكاد أن ينخلع قلبي وسقطتُ على وجهي أنا وغيري، وألقت نفسها في البحر، واضطرب البحر علينا، وعظمت أمواجه وخفنا الغرق حتى نجانا الله عز وجل وسمعتُ الملاحين يقولون هذه السمكة تعرف بـ: البغل»، ولا شك في أن هذا الوصف مبالغة وتهويل كبيرين جدًا، ولعل هذه الأسماك من أصناف الحوت الكبير أو الدولفين، الذي كان معروفًا في البحار ويشكل خطرًا على السفن والمراكب في ذلك العصر، وكان الربابنة والملاحون يبالغون مبالغات كبيرة في وصف البحر وأهواله وما يصادفونه في رحلاتهم البحرية، مما يوضح امتزاج الكثير من الخرافات والأساطير بالحقائق من خلال أوصافهم ومشاهداتهم.

أشار الغرناطي[٣٥] إلى أن الصخرة التي وصل إليها النبي موسى عليه السلام ويوشع في مجمع البحرين، وعندها نسيا حوتهما، وكان الحوت مشوياً فأكلا نصفه الأيمن طولاً مع نصف رأسه وعينه الواحدة اليمنى، وأخبره الله تعالى أن موضع الخضر عليه السلام في المكان الذي يصير فيه الميت حيًّا، وهي من معجزات الله سبحانه وتعالى وآلائه وقدرته، فلما وصل إلى الصخرة عاد نصف السمكة المشوية(المأكول نصفها) حيًّا، وانسلَّ ذلك على صورة نصف السمكة بعين واحدة الجانب الأيمن، كأنه قد أكل باقي حشوته عليها وشوك أضلاعها، وجلد رقيق يحفظها، والنصف الأيسر صحيح وهو أطيب الأسماك، ويكون صغارًا وكبارًا، ونسلها من مجمع البحرين عند تلك الصخرة وبالقرب منها، تحمله اليهود والنصارى مُقدداً إلى بلادهم ويتبركون به، وهو من أطيب الأسماك.

نخلص من خلال روايات الغرناطي التي لا تخلو من المبالغة أنه حدد مجمع

(٣٥) المصدر نفسه ص٨٩.

البحرين عند بلاد الأندلس، في الموضع الذي يلتقي فيه البحر المتوسط مع المحيط الأطلسي، كما أنه حدد الصخرة التي وصل إليها النبي موسى عليه السلام ويوشع بن نون في هذا المكان عند مجمع البحرين، وبالتحديد على الجانب الشرقي من الصخرة، ولعلها في الأعم الأرجح: جبل طارق اليوم، وهو رأي يضاف إلى الآراء الأخرى المتعددة بخصوص تحديد موضع مجمع البحرين، الذي بقي لغزاً قرآنيا غير محسوم حتى يومنا هذا.

نختتم فقرتنا المهمة جداً هذه عن: مجمع البحرين بما ذكره ياقوت الحموي[٣٦] عن المجمع ونهر الرس، مبتدءًا حديثه عن الرس مستشهدًا بقوله عز وجل: ﴿وَأَصْحَابَ الرَّسِّ وَقُرُونًا بَيْنَ ذَٰلِكَ كَثِيرًا﴾ [سورة الفرقان:٣٨][٣٧]، نقلاً عن آخرين، أن الرس وادي أذربيجان وحَدُ أذربيجان ما وراء الرس، ويقال أنه كان بآران على الرس ألف مدينة، فبعث الله إليهم نبيًّا يُقال له: موسى، وهو ليس موسى بن عمران، فدعاهم إلى الله والإيمان به، فكذبوه وجحدوه وعصوا أمره، فدعا عليهم، فحّول الله جبلي الحارث والحويرث من الطائف، فأرسلهما عليهم، فيُقال إن أهل الرس تحت هذين الجبلين ولا تخلو هذه الرواية من مبالغات وتهويلات غير مقبولة.

حدد الحموي أيضًا مخرج نهر الرس، بصيغة مشابهة تمامًا لما ذكره ابن رسته وابن خرداذبة، مشيرًا إلى: المجمع، الذي نرجح أنه: مجمع البحرين، وهي التسمية ذاتها التي أطلقها ابن خرداذبة، فذكر أن مخرج الرس من قاليقلا، ويمر بآران ثم يمر بورثان ثم يمر بالمجمع (المرجح أنه: مجمع البحرين)، فيجتمع هو والكُر وبينهما مدينة البَيلقان، ويمر الكُر والرس جميعاً فيصبان في بحر جُرجان، والرس هذا وادٍ عجيب فيه من السمك أصناف كثيرة.

نستنتج من روايات ابن رسته وابن خرداذبة والحموي إنّ مجمع البحرين الذي سمي حسب رواية هؤلاء الجغرافيين: المجتمع، والمجمع وهو مجمع البحرين،

(٣٦) معجم البلدان ج٣/ ٤٤.

(٣٧) قال تعالى: ﴿كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَأَصْحَابُ الرَّسِّ وَثَمُودُ﴾ [سورة ق:١٢].

والمجمع هو مكان في المشرق ضمن قارة آسيا بين حدود جرجان وطبرستان وأذربيجان، وهو مكان اجتماع نهر الرس في أرمينية مع نهر الكر في بحر طبرستان، وبعد خروجه يجتمع مع الكُرّ ثانية فيصبان في بحر جرجان، والرس نهر في أرمينية ووادٍ في أذربيجان.

أورد الحموي[٣٨] رواية مسعر بن المهلهل عن الرَس، فذكر أن نهر الرس يخرج إلى البلاسجان، ومنها ورثان والبيلقان، وفي هذه الصحراء خمسة آلاف قرية، أكثرها خراب، إلا أن جدرانها وأبنيتها باقية لم تتغير؛ لجودة التربة وصحتها.

ويُقال أن تلك القرى كانت لأصحاب الرّس الذين ذكرهم الله في القرآن المجيد، ويُقال أنهم رهط جالوت، قتلهم داوُد وسليمان عليهما السلام، لما مَنَعوا الخراج، وقُتل جالوت بأرمية (أورمية).

اتضح لنا بجلاء أن أصحاب الرَس كانوا من الأقوام البائدة، التي أبادها الله عز وجل ؛ بسبب كفرها وطغيانها، واقترن ذكرها في القرآن الكريم مع عاد وثمود وقوم نوح [سورة الفرقان: ٣٨]، [سورة ق: ١٢].

(٢)

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَّحْجُورًا﴾[سورة الفرقان: ٥٣].

والله الذي خلط البحرين، وأفاض أحدهما في الآخر، هذا عذب شديد العذوبة، وهذا مُرّ لا يُشرَب، وجعل بينهما حاجزًا يمنع من إفساد الآخر، وجعل كل واحد منهما حرامًا محرّمًا على صاحبه أن يُغَيره ويُفسده.[٣٩]

وفسر القرطبي[٤٠] هذه الآية، موضحاً معنى مَرَجَ، أي: خلى وخلط وأرسلَ، أرسلهما وأفاض أحدهما في الآخر، مَرجَ البحرين أي خلطهما فهما يلتقيان، يُقال: مرجته إذا خلطته، ومرج الدين والأمر: اختلط واضطرب، ومنه قوله تعالى ﴿فِىٓ أَمْرٍ مَّرِيجٍ﴾ [سورة ق: ٥].

مرج البحرين أي أجراهما، هذا عذب فرات أي حلو شديد العذوبة،

(٣٨) معجم البلدان ج٣/ ٤٤.

(٣٩) مختصر تفسير الطبري ٢/ ١١٤.

(٤٠) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٦٢-٦٣.

وهذا ملح أُجاج أي فيه ملوحة ومرارة، وجعل بينهما برزخًا، أي حاجزًا من قدرته لا يغلب أحدهما على صاحبه، وحِجراً مَحجوراً أي سِترًا مَستورًا، وحرامًا محرمًا أن يعذب هذا الملح بالعذب، أو عالج هذا العذب بالمالح.

أفاض المقدسي(٤١) في حديثه عن البحار والأنهار مشيرًا إلى الآية القرآنية الكريمة أعلاه، فذكر أنّ البرزخ من الفرما إلى القلزم مسيرة ثلاثة أيام، فإن قيل إنما أراد الله تعالى بالبحرين العذب والمالح؛ لأنهما لا يختلطان كما قال :"وهو الذي مرج البحرين"الآية، فالجواب أن اللؤلؤ والمرجان لا يخرجان من الحلو، والله يقول منهما: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ ولا خلاف بين أهل العلم أن اللؤلوء يخرج من الصيني(المحيط الهندي) والمرجان من الرومي(البحر المتوسط)، فعرفنا أنه إنما أراد هذين البحرين.

وذكر المقدسي(٤٢) أنّ الله تعالى ذكر في هذه الآية بحرين، فأشار إلى بحرين معهودين، والألف واللام إذا لم يكونا للجنس فإنما هما للتعريف، وأجابَ المقدسي على التساؤل حول معنى قوله تعالى ﴿مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ﴾ لماذا لا يقال انه بحر واحد؟ فقال: «هذا لا يجوز؛ لأنَّ الله تعالى قال ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا﴾ والبرزخ حاجز، مع أنّا نقول لهذا المُخالِف إن كان الأمر على ما تزعم فأرِنا ثمانية بِحار في الإسلام...فان أنصفَ رَجعَ إلى قولنا والله أعلم».

يتضح لنا مما ذكره المقدسي أن مَرجَ البحرين، يعني وجود بحرين مختلطين بعضهما ببعض أحدهما عذب فرات، ماؤه حلو عذب، والآخر مالح أُجاج ماؤه مرُ مالح، يسير كل منهما بطريقه الخاص دون اختلاط، بدليل ذكر البرزخ أي الحاجز بينهما، وهو سِتر مَستور لا يُرى بالعين، وهذه من آلاء الله سبحانه وتعالى وقدرته ومعجزاته التي تدلل على عظمته واقتداره.

(٣)

﴿أَمَّن جَعَلَ الْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَالَهَا أَنْهَارًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَاسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ الْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا أَإِلَٰهٌ مَّعَ اللَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا

(٤١) أحسن التقاسيم ص١٦.
(٤٢) المصدر نفسه ص١٩، ١٧(والنص الأخير من ص١٩).

يَعْلَمُونَ ﴾. [سورة النمل: ٦١].

هل عبادة الأوثان خير، أم عبادة الذي جعل لكم الأرض مستقرة (هذا برهان آخر على وحدانية الله جَل وعَلا)، وجعل لكم فيها أنهارًا وجعل للأرض ثوابت من الجبال، وجعل بين الماء العذب والملح حاجزًا لئلا يُفسد أحدهما صاحبه، أمعبود مع الله سواه فعل هذه الأشياء؟ بل أكثر هؤلاء المشركين لا يعلمون قدر عظمة الله[٤٣](٤٧).

وفي تفسير القرطبي [٤٤](٤٨): أمن جعل الأرض قرارًا، أي مُستقرًا وجعل خلالها أنهارًا أي وسطها، مثل: ﴿وَفَجَّرْنَا خِلَالَهُمَا نَهَرًا ﴾. [سورة الكهف: ٣٣]. وجعل لها رواسي يعني جبالاً ثوابت تُمسكها وتمنعها من الحركة، «وجعل بين البحرين حاجزاً» مانعاً من قدرته، لئلا يختلط الأُجاج بالعذب. وقال ابن عباس: «سلطاناً من قدرته فلا هو يُغّير ذاك ولا ذاكَ يُغّير هذا، والحَجز :المَنع...».

توضح لنا هذه الآية وجود بحرين من الماء أحدهما عذب فرات والآخر ملح أُجاج، وبينهما حاجز يمنع اختلاطهما، وهي تحمل دلالات الآية السابقة لها نفسها، بتوضيح آلاء الله سبحانه وتعالى وقدرته ومعجزاته للناس.

(٤)

﴿مَرَجَ ٱلْبَحْرَيْنِ يَلْتَقِيَانِ ﴿١٩﴾ بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَّا يَبْغِيَانِ ﴿٢٠﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴿٢١﴾ يَخْرُجُ مِنْهُمَا ٱللُّؤْلُؤُ وَٱلْمَرْجَانُ ﴿٢٢﴾ فَبِأَيِّ ءَالَآءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ ﴾[سورة الرحمن:١٩-٢٣].

جعل الله بَحر السَماء وبَحر الأرض يلتقيان، بينهما حاجز وبُعد، لا يُفسِد أحدهما صاحبهُ، فيبغي بذلك عليه، ولا يتجاوزان حَدَّ الله الذي حَدهُ لهما، فبأي نِعَم ربكما معشَر الجِن والإنس تُكذبان؟ يخرج من هذين البحرين: اللؤلؤ الذي يخرج من أصداف البحر، وهو الكِبار، كما يخرج منه صِغار اللؤلؤ وهو المَرجان، فبأي نِعَم ربكما مَعشر الثَقلين التي أنعم بها عليكم تكذبان؟[٤٥].

ونقل الصابوني [٤٦] قول ابن جرير

(٤٣) مختصر تفسير الطبري ٢/ ١٤٤.
(٤٤) الجامع لأحكام القرآن ١٣/ ٢٣٠.
(٤٥) مختصر تفسير الطبري ٢/ ٤١٢.
(٤٦) محقق مختصر تفسير الطبري ج٢/ ٤١٢

الطبري (رحمه الله)، فقد عنَي الله تعالى بـ مَـرجَ البحرين: بحر السماء وبحر الأرض، وذلك انه قال: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾ واللؤلؤ والمرجان إنما يخرج من أصداف بحر الأرض عن قطرِ السماء، فمعلوم أن ذلك بحر الأرض وبحر السماء.

وناقش الصابوني وعلق أيضًا على قول ابن كثير: وهذا لا يساعده اللفظ، فانه تعالى قال: ﴿بَيْنَهُمَا بَرْزَخٌ لَا يَبْغِيَانِ﴾، أي وجعل بَرزخًا، وهو الحاجز من الأرض لئلا يبغي هذا على هذا، وهذا على هذا، فُيفسد كل واحد منهما الآخر، ومابين السماء والأرض لا يسمى «برزخاً» وحِجرًا محجورًا، فالمقصود هنا بـ: البحرين: «الحلو، والمالح»، وهو الأوضح لما ورد في سورة الفرقان: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَرَجَ الْبَحْرَيْنِ هَذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ وَهَذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ وَجَعَلَ بَيْنَهُمَا بَرْزَخًا وَحِجْرًا مَحْجُورًا﴾ الآية: ٥٣، وقد وثقنا تفسيرها في الفقرة الثانية من مبحثنا هذا.

وقد ناقش المقدسي (٤٧) مناقشة مستفيضة مسألة التقاء البحرين، ممهدًا لذلك باختلاف المفسرين لهذه الآية حول التقاء مَرجَ البحرين، اللذَين يخرج منهما اللؤلؤ والمرجان، فأشارَ إلى أن بحر الصين لا يلقى الرومي، ومع ذلك فان الاختلاف حول كون البحار سبعة كما وردت في آية سابقة، سقطَ وزالَ هنا بقوله: ﴿يَخْرُجُ مِنْهُمَا اللُّؤْلُؤُ وَالْمَرْجَانُ﴾.

أمّا بخصوص التقاء البحرين، فنقل عن جماعة من مشايخ مصر، حدثوه أن النيل كان يفيض في بحر الصين (المحيط الهندي في الأعم الأرجح) إلى وقت قريب من عصر المقدسي (القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، فان قيل تأويلك يوجب التناقض، لأنّ فيه أنهما يلتقيان وأن بينهما على ما ذكرت ثلاثة أيام، وحاشى كتاب الله من التناقض. وماتأولناه مستقيم لأنّ التقاءَهما جريان الحلو، فوق المالح، والبرزخ المنع من اختلاطهما. فالجواب تأويلنا أيضاً مستقيم؛لأننا أعطينا كل

(هامش المحققين وتعليقاتها).

(٤٧) أحسن التقاسيم ص١٧-١٩.

معنى حقه، فقلنا الالتقاء ما ذكرناه من صبِّ النيل في الصيني وطرف النيل اليوم (في عصر المقدسي) يفيض في الرومي فبالنيل التقيا.

ويقال إنّ أمَّ موسى عليه السلام أنما طرحَت تابوته في بحر القلزم (الأحمر)، فخرج في النيل إلى مصر، مع أن الالتقاء غير الاجتماعي لأنّ الملتقيَين يكون بينهما فصل ومسافة، وما ذهبوا إليه يسمى اختلاطًا لا التقاءً، فإنْ قيل لما جعلتَ بحار الأعاجم من السبعة بعدما قُلتَ إنّ الله خاطبهم بما يعرفونه؟

تتضمن الإجابة عن هذا السؤال وجهين، أحدهما: إنّ العرب كانت تسافر إلى فارس، ألاَ ترى أن عمر بن الخطاب قال:إني تعلمتُ العدلَ من كسرى، وذكر خشيته وسيرته. وثانيهما: أن من سارَ إلى هَجَر (البحرين) وعبادان لابُد له من بحر فارس وكرمان وتيز كرمان، ألا ترى كثيراً من الناس يسمونه إلى حدود اليمن: بحر فارس، وإنّ أكثر صُناع المراكب وملاحيها فُرسٌ، وهو من عُمان إلى عبادان قليل العرض لا يجهل المسافر فيه اتجاهه فان قيل فهلا قلت هذا في بحر القلزم إلى موضع الاتساع. فالجواب قد قلنا إن من القلزم إلى عيذاب وما وراءها مفاوز خالية لم يُسمَع أن هذا البحر يُنسَب إلى شي منها، مع إنا انفصلنا عن هذا في بعض الإجابات.

(٥)

﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ سَآئِغٌ شَرَابُهُۥ وَهَٰذَا مِلْحٌ أُجَاجٌ ۖ وَمِن كُلٍّ تَأْكُلُونَ لَحْمًا طَرِيًّا وَتَسْتَخْرِجُونَ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا ۖ وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[سورة فاطر: ١٢].

وما يعتدل البحران فيستويان، أحدهما حلو كثير العذوبة، والآخر ملح شديد الملوحة، ومن كل البحار تأكلون السمك، من الملح والعذب وتستخرجون الدُرّ والمَرجان من الملح الأجاج، وترى السفن في تلك البحار تشق الماء بصدورها لتطلبوا من معايشكم، ولتتصرفوا في تجاراتكم ولتشكروا الله على تسخيره ذلك لكم.(٤٨)

(٤٨) مختصر تفسير الطبري ٢/ ٢٣١.

وذكر القرطبي[٤٩] الآية: ﴿وَمَا يَسْتَوِي ٱلْبَحْرَانِ هَٰذَا عَذْبٌ فُرَاتٌ﴾ أنّ فيها أربع مسائل: قال ابن عباس فرات حلو وأجاجٌ مُر، وأما المالح فهو الذي يجعل فيه الملح، والحلية إنما تُستخرج من الملح، فقيل منهما؛ لأنهما مختلطان.

أما تفسير قوله تعالى ﴿وَتَرَى ٱلْفُلْكَ فِيهِ مَوَاخِرَ﴾، أي ماء الملح خاصة ولولا ذلك لقال فيها(البحرين)، وقد مخرت السفينة تمخر إذا شقت الماء، ﴿لِتَبْتَغُوا۟ مِن فَضْلِهِۦ﴾: التجارة في الفلك إلى البلدان البعيدة في مدة قريبة، وقيل:ما يستخرج من حلية ويُصاد من حيتانه، ﴿وَلَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ على ما أتاكم من فَضله، وقيل: على ما أنجاكم من هَوله.

سنشير إلى مفهوم (البحران) في المصادر الجغرافية واللغوية، فالبحران ثنية بحر، وهو بلد مشهور بين البصرة وعُمان، صالحَ أهله رسول الله ﷺ وأمرَ عليهم العلاء بن الحضرمي[٥٠].

والبحران: موضع بين البصرة وعُمان، والنسَب إليه: بحري وبحراني، ورجل بحراني منسوب إلى البحرين، ويقال: هذه البحرين وانتهينا إلى البحرين، قال الأزهري[٥١]: «وإنما ثنوا البحَر لأن في ناحية قراها بحيرة على باب الإحساء وقرى هَجَر، بينها وبين البحر الأخضر[الخليج العربي]عشرة فراسخ...».

يتضح لنا من هذا النص المهم جدًّا الذي ذكره الأزهري، أنَّ مفهوم البحرين هذا ينطبق تمامًا على جزر البحرين والمسماة قديماً :أوال، المسماة حالياً (مملكة البحرين)، وأطلقت التسمية (البحرين) على المنطقة الواقعة بين بحرين، هما الخليج العربي الذي كان يسمى في المصادر التراثية العربية سواء اللغوية منها أم الجغرافية بـ:البحر الأخضر، وبين بحيرة الإحساء، إذ كانت الإحساء ضمن توابع البحرين وملحقاتها في العصور الإسلامية الأولى[٥٢].

(٤٩) الجامع لأحكام القرآن ١٤/ ٣٢٢-٣٢٣.
(٥٠) البكري. معجم ما استعجم ١/ ٢٨٨.
(٥١) الأزهري. تهذيب اللغة ج٥/ ٤٠، راجع أيضاً: الحموي. معجم البلدان ١/ ٣٤٧، ابن منظور. لسان العرب٤/ ٤٦.
(٥٢) راجع بحثنا: البحرين (المحور الجغرافي)، ص١٠٢-١٠٧، ١١٩-١٢٠.

الاستنتاجات

اهتم البحث اهتمامًا واضحًا بعرض وتفسير الآيات القرآنية المتعلقة بالبحرين، ولعل مفهوم البحرين خلالها كان واضحًا لا لبَس فيه، وقد بذلنا جهدنا في الاستنجاد والاستئناس بآراء المفسرين في عصور تاريخية متنوعة؛ لإغناء هذه الآيات إيضاح ما ورد فيها جهد المستطاع، فضلاً عن الاستعانة بالمصادر التراثية اللغوية والجغرافية التي أضافت إضافاتٍ قيمة لهذا المبحث المتعلق بالبحرين.

أمّا بخصوص البحرين ومجمع البحرين ومرج البحرين فقد وردت في خمس آيات فقط، واحدة فقط ذكرت مجمع البحرين واثنان فقط ذكرتا: مَرَج البحرين، وواحدة فقط ذكرت: البحرين، وواحدة فقط ذكرت: (البحران).

لقد وقفنا وقفة طويلة عند مجمع البحرين مستعينين بكل المصادر المتيسرة لنا من مصادر التفسير واللغة والجغرافية، وحسبنا أننا أوفينا الموضوع حقه قدر المستطاع، واجتهدنا بقدر ما تسمح به طاقتنا مستمدين العزم من الله سبحانه وتعالى لإغناء هذا الموضوع المهم، ويمكننا تلخيص الآراء الخاصة بـ: مجمع البحرين، وإجمالها في النقاط الآتية:

١. اجتماع بحر فارس والروم (مختصر تفسير الطبري ٢/ ١٦)، قال قتادة بن دعامة (السدوسي المحدث البصري المتوفى عام ١١٧ هـ): «وهو بحر فارس والروم».

٢. قيل: هو ذراع يخرج من البحر المحيط من شمال إلى جنوب في أرض فارس من وراء أذربيجان، فالركن الذي لاجتماع البحرين مما يلي بر الشام هو مجمع البحرين.

٣. وقيل: هما بحر الأردن وبحر القلزم.

٤. وقيل: مجمع البحرين عند طنجة، وقيل انه بإفريقية (تونس).

٥. قال بعض أهل العلم: هو بحر الأندلس من البحر المحيط. القرطبي. الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٤. وذكر قدامة بن جعفر أنّ مقر الخليفة الأموي في قرطبة، والأندلس نهاية الغرب وبها

مجتمع البحرين. الخراج وصنعة الكتابة ص ٢٦٦ (الصفحة الأخيرة).

٦. وقالت فرقة: إنما هما موسى والخضر، وهذا قول ضعيف. القرطبي. الجامع ١١/ ١٤.

٧. قال قتادة وغير واحد: هما بحر فارس مما يلي المشرق وبحر الروم مما يلي المغرب.

٨. وقال محمد بن كعب القرظي: مجمع البحرين عند طنجة، يعني في أقصى بلاد المغرب. ابن كثير. وتفسير القرآن العظيم ٤/ ٤٠٢.

٩. قيل إنّ مجمع البحرين هو الصخرة، الوارد ذكرها في القرآن الكريم. [سورة الكهف :٦٣]. راجع: القرطبي. الجامع لأحكام القرآن ١١/ ١٧.

١٠. مجمع البحرين التقاء بحر السماء وبحر الأرض، بينهما حاجز وبُعد. مختصر تفسير الطبري ٢/ ٤١٢ وهامشها.

هذه أبرز آراء المفسرين الثلاثة: ابن جرير الطبري والقرطبي وابن كثير، فكيف يمكن التوصل إلى رأي راجح بين هذه الآراء والطروحات المتعددة حول مجمع البحرين؟

وإلى جانب هذه الآراء العديدة، عرضنا في متن البحث آراء ووجهات نظر الرحالة والجغرافيين، وهم: ابن رسته (الأعلاق النفيسة) ص٨٩، ٩٦، وابن خرداذبة (المسالك والممالك) ص١٧٤- ١٧٥، وقدامة بن جعفر (الخراج وصنعة الكتابة) ص ٢٦٦، وياقوت الحموي (معجم البلدان) ج١/ ٣٤٧، ج٣/ ٤٤، حول المجمع أو المجتمع أو مجمع ومجتمع البحرين.

ولسنا هنا في معرض إعادة آرائهم بقدر الإشارة فقط، إذ يمكن الرجوع إلى هذه المعلومات في المبحث الثاني من بحثنا هذا.

أما بخصوص تسمية البحرين، فقد أوضحناها في البحث بصورة تفصيلية كافية، وكذلك أوضحنا معنى وتفسير: مَرَج البحرين، ويمكننا تلخيص ابرز استنتاجات البحث في الآتي:

١. إن البحر ظاهرة معروفة وواضحة أشار إليها القرآن الكريم وأوضَحَ منافعه وفوائده للناس، وهي ظاهرة قديمة جدًا، وقد أولينا هذا الموضوع أهمية خاصة في المبحث الأول، عند دراستنا البحر

والبحرين في التراث اللغوي والجغرافي.

٢. إن مفهوم ومصطلح مجمع البحرين واسع ومتعدد يقع في عدة جهات ومناطق في العالم، منها ما يرتبط بالبحرين الحالية (مملكة البحرين)، وقد درس البحث هذا الأمر جليًّا بوضوح وتفصيل كافيين.

٣. إنّ مرج البحرين يعني التقاء واختلاط بحرين أحدهما عذب فرات سائغ شرابه والآخر ملح أجاج مرّ.

٤. هناك حاجز أي مانع بين البحرين: الحلو والمُر، لئلا يختلط العذب بالأُجاج، وهي من معجزات الله سبحانه وتعالى، حيث يجري العذب إلى جانب المالح دون اختلاطهما.

٥. وردت كلمة (البحران) في القران الكريم، أحدهما عذب فرات والأخر ملح أجاج، وهي توضيح لتسمية (البحرين) نفسها، وذكر البكري وإبن منظور لفظ (بحران) كما أوضحنا في متن البحث، وهو موضع بين البصرة وعُمان، نُرجح انه مملكة البحرين الحالية.

٦. اتضحت من خلال البحث أهمية أراء وتفسيرات الجغرافي العربي المسلم المقدسي في كتابه: أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، ونظرًا لأهميتها أفردنا لها ملحقًا خاصًّا بتوثيق نصوص هذه الآراء عن البحار والأنهار، وتفسيره للآيات القرآنية التي ذَكرت البحرين ومجمع البحرين ومَرَج البحرين لإتمام الفائدة العلمية، ولإعطاء القارئ فكرة عن آراء المقدسي واجتهاداته التي استعنّا بها كثيرا في بحثنا، هادفين إلى التوثيق والدقة العلمية وأمانة النقل.

وأخيرًا تجدر الإشارة إلى اسم كتاب مطبوع بعنوان: «مجمع البحرين»، في ستة أجزاء، تأليف الشيخ فخر الدين الطريحي المتوفى عام ١٠٨٥هـ، منشورات دار ومكتبة الهلال للطباعة والنشر، (بيروت، ١٩٨٥م). وهو من أحسن الكتب وقد أبدَعَ في ذلك، إذ جمَعَ فيه بين تفسير لغات غريب القران ولغات الحديث الخاصة، وهو ليس كتاب لغة فحسب، بل هو أشبه شيء بدائرة معارف للعلوم الإسلامية المتداولة في عصر المؤلف، وهو كتاب يُغني عن الصِحاح والقاموس فيما يتعلق بلغات الكِتاب والسُنة، وبلغ في الاجتهاد كالشمس في رابعة النهار.

مصادر البحث ومراجعه

القرآن الكريم.

١. ابن حوقل، أبو القاسم محمد بن علي النصيبيني، (ت:٣٦٧هـ/ ٩٧٧م). صورة الأرض، منشورات دار الكتاب الإسلامي، (القاهرة، بدون تاريخ).

٢. ابن خرداذبة، أبو القاسم عبيد الله بن عبد الله، (ت: ٣٠٠هـ/ ٩١٢م). المسالك والممالك، باعتناء: دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٨٩م).

٣. ابن رسته، أبو علي احمد بن عمر، (كان حياً عام ٢٩٠هـ/ ٩٠٣م). الأعلاق النفيسة، المجلد السابع، باعتناء: دي غويه، مطبعة بريل، (ليدن، ١٨٩١ م).

٤. ابن كثير، الحافظ عماد الدين أبو الفدا إسماعيل بن عمر، (ت: ٧٧٤هـ/ ١٣٧٢م). تفسير القرآن العظيم، ج٤، دار الأندلس للطباعة والنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، (بيروت، ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م).

٥. ابن المجاور البغدادي النيسابوري، أبو بكر بن محمد بن مسعود بن علي بن احمد، (توفي بعد عام ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م). صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز، المسماة: تاريخ المستبصر، قسم ١-٢، باعتناء وتصحيح: اوسكر لوفغرين، منشورات المدينة، توزيع شركة دار التنوير للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، (بيروت، ١٤٠٧هـ/ ١٩٨٦م).

٦. ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، (ت:٧١١هـ/ ١٣١١م). لسان العرب، ج٤، منشورات دار صادر، الطبعة الأولى، (بيروت ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م).

٧. أبو الفرج قدامة بن جعفر الكاتب البغدادي، (ت:٣٢٠هـ/ ٩٣٣م). نبذة من كتاب الخراج وصنعة الكتابة (مطبوع بعد كتاب: المسالك والممالك لابن خرداذبة -بصفحات متسلسلة ص١٨٤-٢٦٦) باعتناء: دي غويه،

مطبعة بريل (ليدن ١٨٨٩م).

٨. الأزهري، أبو منصور محمد بن أحمد، (ت:٣٧٠هـ/ ٩٨٠ م). تهذيب اللغة، ج٥، تحقيق: محمد عبد المنعم خفاجي والأستاذ محمود فرج العقدة، مراجعة: الأستاذ علي محمد البجاوي، (القاهرة، ٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م).

٩. الاصطخري، أبو إسحاق إبراهيم بن محمد، المعروف بـ:الكرخي، (ت:٣٤١/ ٩٥٢م). المسالك والممالك، تحقيق: د. محمد جابر عبد العال الحيني، مراجعة: محمد شفيق غربال (القاهرة، ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م).

١٠. البكري، أبو عبيد عبد الله بن عبد العزيز، (ت:٤٨٧هـ / ١٠٩٤م). معجم ما استعجم من أسماء البلاد والمواضع، ج١، تحقيق وضبط: مصطفى السقا، عالم الكتب، الطبعة الثالثة، (بيروت، ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م).

١١. الجوهري، أبو نصر إسماعيل بن حماد، (ت:٣٩٣هـ/ ١٠٠٢م). الصحاح تاج اللغة وصحاح العربية، ج٢، تحقيق: احمد عبد الغفور عطار، منشورات دار العلم للملايين، الطبعة الثالثة، (بيروت، ١٤٠٤هـ/ ١٩٨٤م).

١٢. الحموي، شهاب الدين أبو عبد الله ياقوت بن عبد الله، (ت:٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م). معجم البلدان، ج٥، ٣، ١، منشورات دار صادر، الطبعة الثانية/ لونين، (بيروت، ١٩٩٥م).

١٣. الشمري، أ. د. محمد كريم إبراهيم. البحرين في مؤلفات جغرافيي القرنين الثالث والرابع الهجريين/ التاسع والعاشر الميلاديين/ المحور الجغرافي، مجلة الوثيقة، العدد (٣٥)، السنة الثامنة عشرة، مركز الوثائق التاريخية بدولة البحرين (المنامة، رمضان ١٤١٩هـ/ ١٩٩٩م).

١٤. الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير، (ت:٣١٠هـ/ ٩٢٢م). مختصر تفسير الطبري، المسمى: جامع البيان عن تأويل آي القرآن، ج١-٢، اختصار

وتحقيق: الشيخ محمد علي الصابوني والدكتور صالح أحمد رضا، منشورات دار الصابوني للطباعة والنشر والتوزيع، (القاهرة، ١٤٠٢هـ).

١٥. الغرناطي، أبو حامد محمد بن عبد الرحيم، (ت:٥٦٥هـ / ١١٦٩م). رحلة الغرناطي (تحفة الألباب ونخبة الإعجاب ورحلة إلى أوربه وآسية)، حررها وقدم لها: قاسم وهب، منشورات المؤسسة العربية للدراسات والنشر/ بيروت، دار السويدي للنشر والتوزيع/ أبو ظبي، الطبعة الأولى، (بيروت، ٢٠٠٣م).

١٦. القرطبي، الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري، (ت:٦٧١هـ/ ١٢٧٢م). تفسير القرطبي، المسمى: الجامع لأحكام القرآن، ج١١-١٤، ١٦، تحقيق: د. محمد إبراهيم الحفناوي، منشورات دار الحديث، الطبعة الأولى، (القاهرة، ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م).

١٧. المقدسي، شمس الدين أبو عبد الله محمد بن احمد ري، (ت:٣٨١هـ/ ٩٩١م). ٨. أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم، باعتناء: دي غويه، مطبعة بريل، الطبعة الثانية، (ليدن، ١٩٠٦م).

ملخص البحث

البحث محاولة لتقريب أهمية الرجوع الى (نهج البلاغة) لفهم كثير من تفسير وتأويل القرآن الكريم. فالسيد الباحث يقرر أن كلام الامام علي عليه السلام يأتي دون القرآن الكريم وكلام رسول الله صلى الله عليه وآله ولكنه فوق مستوى كلام البلغاء فنبض القرآن يسري فيه... فهو يرى أن الامام علياً عليه السلام سبق غيره في فهم القرآن الكريم ولم يدانه أحد من الصحابة في ذلك لقرابته من رسول الله صلى الله عليه وآله واقتدائه به هدايةً وحبا.

ثم يتحدث عن (اسس فهم الدلالة ومستلزماتها) في نهج البلاغة وإيضاح المعاني التي يطلبها النص المبارك ومنها: ملازمة القرآن الكريم، والاقتداء بهدى ال البيت عليهم السلام، و الرجوع الى الله ورسوله في الدلالة، وعدم اتباع الهوى، وعدم فرض الأفكار المسبقة على النص الكريم.

بعدها يعرض السيد الباحث عناصر انتاج الدلالة القرآنية في نهج البلاغة.

مستوى الدلالة القرآنية في نهج البلاغة

م.د. عادل عباس هويدي النصراوي
مركز دراسات الكوفة/ جامعة الكوفة- العراق

مدخل:

إنّ من الخير للأنسان أن يقف بين يدي كتاب الله سبحانه وتعالى، ونهج البلاغة لأمير الفصاحة والبيان عليّ بن أبي طالب عليه السلام، لكن من دون الولوج فيهما؛لأن عظمة كتاب الله تعالى تبهر أنظار العارفين، وتبقي العقول واقفة أمام دلالاته ومعانيه التي لا تنتهي عند زمان معين، أو في حوارات نزلت فيها أو عند فهم لمعنى لفظة أو آية في زمان دون آخر، هذا هو القرآن العظيم، وأما نهج البلاغة فهو دون القرآن، وفوق كلام البلغاء ما خلا رسول الله صلى الله عليه وآله، بيد أن نبض القرآن يسري فيه، لأن حياة علي عليه السلام في القرآن، فعن أم سلمة (رضي الله عنها)قالت:(سمعت رسول الله صلى الله عليه وآله يقول: عليٌّ مع القرآن، والقرآن مع علي ،لا يفترقان حتى يردا عليّ الحوض)[1]، فأية عظمة هذه، وأية ملازمة تلك التي تعانق القرآن، ويكفيهما منزلة وفخرا أنه كلام الله ومعجزة نبيه الأمين، جاء هداية للناس جميعا، قال تعالى: ﴿ إِنَّ هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ يَهْدِى لِلَّتِى هِىَ أَقْوَمُ ﴾[سورة الإسراء:٩]. فكان المنافح عنه بعد رسول الله صلى الله عليه وآله، يوضح ما خفي من آياته ودلالاته ويحض الناس على الالتزام به، فقد روى الحارث الهمداني،فقال:(دخلت المسجد فإذا أناس يخوضون في أحاديث فدخلت على عليّ

(١) نُقل هذا الحديث في طرقه عن مصادر الجمهور من خمسة وعشرين مصدرا.ظ: الكشاف المنتقى لفضائل عليّ المرتضى، كاظم الفتلاوي:٢٧٧-٢٧٨.

فقلت: ألا ترى أن أناسا يخوضون في الأحاديث في المسجد؟فقال: قد فعلوها؟ قلت: نعم، قال:أما إني قد سمعت رسول الله ﷺ يقول: ستكون فتن، قلت: وما المخرج منها؟ قال:كتابُ الله، كتابُ الله فيه نبأ ما قبلكم وخبر ما بعدكم، وحكم ما بينكم، هو الفصل ليس بالهزل، هو الذي من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى في غيره أضلّه الله، فهو حبل الله المتين، وهو الذكر الحكيم، وهو الصراط المستقيم، وهو الذي لا تزيغ به الأهواء، ولا تلتبس به الألسنة، ولا يشبع منه العلماء، ولا يخلق عن كثر الرد، ولا تنقضي عجائبه، وهو الذي لم ينتهِ الجن إذا سمعته أن قالوا: إنا سمعنا قرآنا عجبا، وهو الذي من قال به صدق، ومن حكم به عدل، ومن عمل به أجِر، ومن دعا إليه هُدي إلى صراط مستقيم، خذها إليك يا أعور)[٢]، فيه علم الأولين والآخرين وضماناً من تلاعب الجبارين وزيغ المنحرفين، لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه، فهو الهادي إلى سواء السبيل، قال أمير المؤمنين عليه السلام في صفة القرآن:(ثم أنزل عليه الكتاب نورا لا تطفأ مصابيحه وسراجا لا يخبو توقده، وبحرا لا يُدرك قعره، ومنهاجا لا يضلّ نهجه، وشعاعا لا يُظلم ضوؤه، وفرقانا لا يخمد برهانه، وتبيانا لا تهدم أركانه، وشفاء لا تخشى أسقامه، وعزّا لا تهزم أنصاره، وحقاً لا تخذم أسقامه، فهو معدن الإيمان وبحبوبته، وينابيع العلم وبحوره، ورياض العدل وغدرانه، وأثافي الإسلام وبنيانه، وأودية الحق وغيطانه، وبحرٌ لا ينزفه المنتزفون، وعيون لا ينضبها الماتحون، ومناهل لا يغيضها الواردون، ومنازل لا يضل نهجها المسافرون، وأعلام لا يعمى عنها السائرون، وآكام لا يجوز عنها القاصدون، جعله الله ريّا لعطش العلماء، وربيعا لقلوب الفقهاء، ومحاجّ لطرق الصلحاء، ودواءً ليس بعده داء، ونورا ليس معه ظلمه، وعزا لمن تولاه، وسلما لمن دخله، وهدى لمن أئتم به، وعذرا لمن انتحله، وبرهانا لمن تكلم به، وشاهدا لمن خاصم به، وفلجا لمن حاجّ به، وحاملا لمن حمله، ومطية لمن أعمله، وآية لمن توسّم، وجُنة لمن اسلم وعلما لمن وعى،

(٢) سنن الدارمي:٢/ ٤٣٥.

وحديثا لمن روى، وحكما لمن قضى)[٣]، فوصفه وصف عارفٍ بمضامينه وعالمٍ بأحواله، فهو غضّ جديد إلى يوم القيامة، فقد تنزل الآية في مورد أو في يوم، لكنها لا تختص بذلك الشخص، ولا بأولئك القوم، فهي عامة المعنى، فلم تمت بموتهم، أو تنتهي بانقضاء الحدث، بل تبقى دلالته مستمرة ومعانيه غضة طريّة وان طال الزمان به، وان المتصدين لفهم معاني القرآن لا يصلون إلى منتهاه لأنه غير متناه في معانيه، بل وفيه دلالة على أن معانيه لا تنقص أصلاً، كما لا تنضب العيون الجارية بالسقاية منها، وقوله عليه السلام: (وَأَكَامٌ لا يَجُوزُ عَنْهَا الْقَاصِدُونَ)، أي لا يصلون إلى أعالي الكتاب ليتجاوزوها، وفي هذا القول إشارة إلى أن للقرآن بواطن لا تصل إليها أفهام أولي الأفهام، أو أن القاصدين إذا وصلوا إلى أعاليه وقفوا عندها ولم يطلبوا غيرها لأنهم يجدون مقاصدهم عندها على الوجه الأتمّ[٤]، بتدبر قراءته وتعلّمه، إذ ورد الحث الشديد في الكتاب العزيز والسنة الصحيحة في تدبّر القرآن وقراءته، قال تعالى: ﴿أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ الْقُرْآنَ أَمْ عَلَىٰ قُلُوبٍ أَقْفَالُهَا﴾ [سورة محمد: ٢٤]، وفي الحديث عن عبد الله بن عباس (رضي الله عنهما) عن النبي صلى الله عليه وآله: انه قال: (أعربوا القرآن والتمسوا غرائبه)[٥]، وعن أبي عبد الرحمن السلمي قال: (كنّا إذا تعلّمنا عشر آيات من القرآن لم نتعلم العشر التي بعدها حتى نعرف حلالها وحرامها وأمرها ونهيها)[٦].

وعن علي بن أبي طالب عليه السلام: انه ذكر جابر بن عبد الله الأنصاري، ووصفه بالعلم، فقال له الرجل: (جعلت فداك تصف جابراً بالعلم وأنت أنت؟. فقال: انّه كان يعرف تفسير قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِي فَرَضَ عَلَيْكَ الْقُرْآنَ لَرَادُّكَ إِلَىٰ مَعَادٍ﴾ [سورة القصص: ٨٥]..)[٧].

إذا فما هو مستوى العلم بآيات الله تعالى حينذاك؟. وما هي معايير من يدرس القرآن

(٣) نهج البلاغة: ٣٩٧-٣٩٩.
(٤) ظ: البيان في تفسير القرآن، الإمام الخوئي: ٣٠-٣٣.
(٥) تفسير القرطبي، ١/ ١٩.
(٦) م.ن: ١/ ٣٠.
(٧) تفسير القرطبي: ١/ ٢٠.

ويعلّمه ويعمل به؟ فهل كانت دلالاته تفسيرية، أم تأويلية، أم هي بيان وإيضاح؟ لكن قبل ذلك لابد أن نفهم التفسير والتأويل، قبل أن نلج في مستوى الدلالة آنذاك ومن ثم نخصّها بنهج البلاغة.

التفسير

التفسير في اللغة هو:(البيان، فسر الشيء يفسره-بالكسر، وتفسره بالضم- فسراً، وفسره أبانه... وقوله عز وجل: ﴿وَأَحْسَنَ تَفْسِيرًا﴾ [سورة الفرقان:٣٣]، الفسر: كشف المغطى، عن اللفظ المشكل)[٨].

إما في الاصطلاح كما ينقل الزركشي(ت٧٩٤هـ): (هو علم نزول الآية وسورتها وأقاصيصها والإشارات النازلة فيها ثم ترتيب مكّيها ومدنيها، ومحكمها ومتشابهها، وناسخها ومنسوخها، وخاصها وعامّها، ومطلقها ومقيّدها، ومجملها ومفسّرها)[٩]، أو انه الكشف عن مراد النص بقدر الطاقة البشرية، وهذا كلّه يتعلق بالمفردات ودلالتها، اعتماداً من المفسر على آليات كاشفة عن النص تتمثل بما ذكِرَ آنفاً، وهنا يكون المفسر كلّما بعد زمانه عن زمان نزول النص تتعقد آلياته لأجل ضمان الدلالة والوصول إلى المعنى المراد منه. وإن كانت المعاني لا تتعدى الظواهر العامة في النص دون الولوج إلى أعماقه، لأن الآليات المصاحبة للكشف عنه لا تستطيع أن تخرق جدار النص وتدخل إلى العمق، فهي باقية على السطح، أو هو محاولة عقلية تسعى إلى إيضاح أفكار النص المتبادرة والكشف عن المعاني المباشرة التي يعبر عنها النص[١٠]، وفي ذلك قصور عن فهم تمام المعنى، لأنه يُعنى في الغالب بالظاهر دون الولوج في الأعماق لأجل تثوير المعاني والدلالات الأخرى المطلوبة.

إن هذه الآليات المتبعة للكشف عن الأفكار المتبادرة في النص، هي من مكونات الثقافة لدى المسلمين الذين عاصروا النبي محمد ﷺ وعاشوا النص

(٨) لسان العرب، ابن منظور: ١٠/ ٢٦١-فسر.
(٩) البرهان، الزركشي: ٢/ ٩٦، ظ: م. ن: ١/ ٧٦-١٠٧، التعريفات، الجرجاني:٤٠.

(١٠) ظ: مقدمات منهجية في تفسير النص القرآني، د.عبد الأمير زاهد:٦٥.

القرآني المبارك وهو غضّ طريّ، وان هذه الأفكار المتبادرة لا تحتاج منهم إلى كبير عناء، لذا فهم أكبر من أن يفسّروا النص بإيضاح كلماته ومفرداته، وعليه فمستوى الدلالة القرآنية عندهم ليست دلالة تفسيرية بالمصطلح الحديث.

التأويل

التأويل في اللغة من: (أوّل الكلام وتأوّله: دبّره وقدّر، وأوّله وتأوّله: فسّره... والمراد بالتأويل نقل ظاهر اللفظ عن وضعه الأصلي إلى ما يحتاج إلى دليل لولاه ما ترك ظاهر اللفظ.. وقال أبو منصور: يقال ألتُ الشيء أؤوّله إذا جمعته وأصلحته، فكان التأويل جمع معاني ألفاظ شكلّت بلفظ واحدٍ لا إشكال فيه)[11].

فالتأويل هنا ضربٌ من حركة مرتدّة تحاول الرجوع باللفظ إلى معاني غير موضوعة في أصل الوضع، وإنما هي مضامين مبتكرة تحاول العودة إلى أصل الشيء لاكتشاف دلالاته لكن بغير ما وُضع للفظ في أصل الوضع، فضلاً عن ذلك، فالتأويل يعتمد كذلك على آليات التفسير المذكورة ليوظفها لأجل إضاءة النص، فضلاً عن الرجوع بحركة مرتدة وعكسية ومتطورة إلى نهايات المعنى، أي الوقوف على النص على ما تدلّ عليه لحظة التلقي بين النص والمتلقي، مع لحظة وعي النص ورتبته[12].

فالتأويل ما هو إلاّ حركة تضبط النص لأجل استنباط الدلالة المطلوبة من خلال الغور في أعماقه، فهو إذاً محاولة عقلية جادة لاستخراج المعاني الكامنة في النص واستنطاقه فضلاً عن إعادة تشكيل الدلالات المستوحاة منه، فالتأويل ما هو إلا وصف الظواهر بالاستقراء والتحليل والمقارنة والقياس ومناظرة المفهوم وغيرها من الأدوات العقلية المنهجية المتعددة[13].

بيد انه بهذا المفهوم المعاصر، ربّما تتعدّد أوجه الدلالة فيه، أو أن المؤول قد يسقط بعضاً من أفكاره على النص فيكون النص المبارك مفسراً ومبيناً لأفكاره وآرائه، لأن

(١١) لسان العرب،بن منظور:١/ ٢٦٤-أول.

(١٢) ظ:مقدمات منهجية في تفسير النص القرآني،د.عبد الأمير زاهد:٦٥.

(١٣) ظ:م.ن:٦٥.

من طبيعة الإنسان أن تكون لبيئته وثقافته ورؤاه التفكيرية أثرٌ في تحليل الظواهر، فلا بد من أن يكون لأسس الثقافة التي بنى عليها أفكاره من اسقاطات على سلوكه النفسي والعملي، فلا يمكنه أن يتخلى عنها بأيّ حالٍ من الأحوال، لهذا لا يمكن أن نعدَّ مستوى الدلالة في عصر نزول الوحي دلالة تأويلية، مع القول بأن الدلالة التأويلية فيما بعد عصر النبي محمدﷺ: وصحابته الأبرار لا يمكن الاستغناء عنها بأي حالٍ من الأحوال وذلك للحاجة الماسة إليها، على أن تقادم الأزمان والدهور تظْهَر الحاجة ماسة إلى آليات أكثر تعقيداً، ورؤى أنضج منهجاً للكشف عن المضامين القرآنية الكبيرة، وذلك لأن فهم النص في حقيقته "فنٌ"، فربما يقع سوء للفهم، وقد التفت شلاير ماخر (١٧٦٧-١٨٣٤م) إلى هذه المسألة وأكدّ أن تفسير المتن معرَّض دائماً، إلى خطر سوء الفهم، فهو يرى أن التأويل هو مجموعة القواعد المنهجية المستخدمة لرفع هذا الخطر، إذ اعتبر أن هدف التفسير هو الكشف عن نية المؤلف، وذلك بالتأكيد على محورين:

الأول: اللغوي: أي التأويل اللغوي، وهو مبنيّ على فهم القواعد والقوانين لأنواع العبارات والصور اللغوية والوسط الثقافي الذي يعيش فيه المؤلف والذي يعيّنُ تفكيره ويحدّده.

الثاني: النفسي: وهذا يدور حول الفهم النفسي للذهنية الخاصة بالمؤلف ونبوغه الخلاّق(١٤).

هذا الأمر فيه خطر مع ما فيه من إيجابيات، وذلك أن المؤوّل أو المفسّر سيضفي شيئاً من آرائه على النص، وربّما يسخّر النص المبارك لتفسير آرائه من حيث لا يدري، وهذا مما لا يحقّ للمفسرّ فيه، لأنه سوف ينتهي به إلى الوقوع بالتفسير بالرأي المحرّم وغير المعتبر، فيجب أن يكون ذهنه خالياً من أي رأي مسبق، وان كان هذا غير ممكن بصورة كاملة(١٥). وهو قليل في عهد الرسالة وما بعدها بقليل، وإن وقع بعض من ذلك فيهم، إذ تناقضت الآراء في المسألة الواحدة ونقل

(١٤) ظ: دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن، محمد علي الرضائي: ٣٠٠.
(١٥) ظ: م.ن: ٣٠٠.

أبو حيان الأندلسي(ت٧٤٥هـ)، من ذلك وتعجّب، فقال: (وقد جرينا الكلام يوماً مع بعض من عاصرنا، فكان يزعم أن علم التفسير مضطر إلى النقل عن فهم معاني تراكيبه، وإسناده إلى مجاهد وطاوس وعكرمة وإضرابهم، وان فهم الآيات متوقف على ذلك، والعجب له انه يرى أقوال هؤلاء كثيرة الاختلاف متباينة الأوصاف، متعارضة، ينقض بعضها بعض)[١٦].

فما هو إذاً مستوى الدلالة عند الرسول محمدﷺ والإمام عليؑ، وصحابته الكرام؟ أقول: أن عصر النبوة المباركة لم يكن كبقية العصور التي تلته، فهو عصرٌ كان فيه النَفَسُ الرسالي لا زال غضاً طريّاً، وصافياً نقياً وشفافاً، تجد فيه الأفكار الناضجة والرؤى الواضحة، وبياناً قلّ نظيره في اكتشاف دلالات النص المبارك، لأن مبْلغَ النص لا زال بين ظهرانيهم، فضلاً عن أخيه علي بن أبي طالبؑ وصحابته الغر الميامين، فكان عليٌؑ، هو نفسُ محمدﷺ[١٧]، بنص قوله تعالى ﴿فَقُلْ تَعَالَوْا نَدْعُ أَبْنَاءَنَا وَأَبْنَاءَكُمْ وَنِسَاءَنَا وَنِسَاءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ اللَّهِ عَلَى الْكَاذِبِينَ﴾ [سورة آل عمران:٦١]. وهو باب علمه، والموضّح لما خفي على أمته من تعاليم رسالته، فعن أبي ذر الغفاري(رض) قال:(قال رسول اللهﷺ: عليّ باب علمي ومبين لأمتي ما أُرسلْتُ به من بعدي، حبّه إيمان، وبغضه نفاق، والنظر إليه رأفة، ومودته عبادة)[١٨].

فالأوْلى أن يؤخذ عنهﷺ بدليل قول النبيﷺ، آنف الذكر، وهو كذلك، إذ كانؑ مصدراً كبيراً من مصادر التفسير لدى المسلمين، قال الزركشي: (وصدور

(١٦) البحر المحيط،أبو حيان الأندلسي:١/ ٨، (مقدمة المؤلف).

(١٧) ظ:الكشاف، الزمخشري: ١/ ٣٩٦، مجمع البيان، الطبرسي: م١/ ٤٥١-٤٥٢، وأحصى المرحوم كاظم الفتلاوي أكثر من مئة مصدر من الخاصة والعامة في أن دلالة (أنفسنا)، هو الإمام علي بن أبي طالبؑ.ظ: الكشاف المنقى/ كاظم الفتلاوي: ٢٧-٣١.

(١٨) ظ:الكشاف المنتقى/ كاظم الفتلاوي: ٢٧٠-٢٧١، وانظر مصادر رواية الحديث، عن طرق العامة.

المفسرين من الصحابة: عليّ ثم ابن عباس، وهو تجرّد لهذا الشأن-والمحفوظ عنه أكثر من المحفوظ عن عليّ إلا أن ابن عباس كان قد أخذ عن عليّ...)[19]، والى ذلك أشار ابن عباس(رضي الله عنهما).إذ يقول:(ما أخذت من تفسير القرآن فعن علي بن أبي طالب)[20]، وان ما يقوله الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام في إيضاح كتاب الله تعالى وبيانه إنما مصدره النبي صلى الله عليه وآله ونقل السيوطي(ت٩١١هـ)، عن النبي صلى الله عليه وآله:(ألا وإنّي أوتيت القرآن ومثله معه)[21].فهو مستودع علمه وموضح رسالته والمبيّن لدلالته، وكذلك ذريته من الأئمة الأبرار عليهم السلام، وقد سئل الإمام علي بن موسى الرضا عليه السلام، فقيل له:(إنك لتفسّر من كتاب الله ما لم يسمع، فقال عليه السلام: علينا نزل قبل الناس، ولنا فسر قبل أن يفسّر للناس، فنحن نعرف حلاله وناسخه ومنسوخه...)[22]، فهم المصدر الرئيس لمعرفة القرآن الكريم فضلاً عن بعض صحابة الرسول الكرام البررة للأسباب التي ذكرت مسبقاً، منهم عبد الله بن عباس وعبد الله بن مسعود وغيرهم، لأنهم ألصق الناسي بالرسول والرسالة، قال عبد الله بن سعود:(كان الرجل منّا إذا تعلّم عشر آيات لم يجاوزهن حتى يعرف معانيهن والعمل بهنّ)[23].

ولقد سبق الإمام علي بن أبي طالب عليه السلام غيره في فهم القرآن، ولم يدانه في ذلك أحدٌ من الصحابة لقرابته من رسولِ الله صلى الله عليه وآله واقتدائه به هدايةً وحبّاً، لذا كان فهمه للنص القرآني المبارك فَهْمَ متيقّن كتيقّنه من عقيدته الراسخة، وعارفاً بمضامينه، لا يفارقه في حلّهِ وترحاله، وفي مأكله وملبسه، وفي قيامه وقعوده، فهو منهجه في الحياة وسبيله الذي لا يحيد عنه، فكان القرآن مع عليّ، وعليّ مع القرآن، فأدرك مضامينه، واستضاء بنوره، فوضع لذلك قواعد لفهم الدلالة القرآنية وأسساً لمعرفة

(١٩) البرهان/ الزركشي:٢/ ١٠٢، ظ:تفسير القرطبي:١/ ٢٧.
(٢٠) تفسير القرطبي:١/ ٢٧.
(٢١) تفسير القرطبي:١/ ٢٩.
(٢٢) نور الثقلين، عبد علي الحويزي: ٤/ ٥٩٥.

= وإنما قال:(علينا نزل.....ولنا فسّر)فقدم الجار والمجرور لاختصاصه بهم دون غيرهم.
(٢٣) جامع البيان في تفسير القرآن/ الطبري: ١/ ٢٧.

مضامينه وإنتاج الدلالة منه.

أسس فهم الدلالة ومستلزماتها في نهج البلاغة

نستطيع أن نميّز بعض الأسس التي وضعها أمير المؤمنين علي بن أبي طالب(عليه السلام)، وهي مقومات مهمة لفهم الدلالة القرآنية،وإيضاح المعاني التي يطلبها النص المبارك، فمنها:

١-ملازمة القرآن الكريم:

وهي الدوام على مرافقته والعيش معه في السلوك والعمل، لأنّ ذلك يجعل من الإنسان خلقه القرآن، وقد كان رسول الله(صلى الله عليه وآله) خلقه القرآن، وان الابتعاد عنه يعني الجهل به، قال أمير البلغاء:(إلى الله أشكو من معشرٍ يعيشون جهالاً ويموتون ضُلالاً، ليس فيهم سلعة أبور من الكتاب إذا تلي حق تلاوته، ولا سلعة أنفق بيعاً ولا أغلى ثمناً من الكتاب إذا حرِّفَ عن مواضعه)[٢٤]. فهو يورث الجهل لان فيه ابتعاداً عن الكتاب، ومن لا رفقة له بالكتاب لا رفقة له بالعلم والصلاح، وكان(عليه السلام)، ارفقهم له، قال:(وان الكتاب لمعي، ما فارقته مذ صحبته)[٢٥]، فكان نوراً يستضيء به لفهم الحق والدلالة عليه، قال:(كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به،وستمعون به وينطق بعضه ببعض،ويشهدُ بعضه على بعض، ولا يختلف في الله ولا يخالف بصاحبه عن الله)[٢٦].

٢-الإقتداء بهدى آل البيت(عليهم السلام):

وهم آل بيت النبوة، ومهبط الوحي والتنزيل، بهم يقتدي الناس إلى طريق الهداية والصلاح فألزم(عليه السلام) الناس الاقتداء بهم لمعرفة وحيه حتى قال عنهم:(فيهم كرائم القرآن، وهم كنوز الرحمن)[٢٧]، وإليهم المرجع في كلّ حال لبيان ما غمض من دلالات القرآن الكريم، فهم أحفظ له من غيرهم، وأبين لمعانيه، قال(عليه السلام):(وبينكم عترة نبيّكم، وهم أزمة الحق وأعلام الدين وألسنة الصدق، فأنزلوهم بأحسن منازل القرآن، وردوهم ورود الهيم العطاش)[٢٨]، فالاهتداء بهداهم في

(٢٤) نهج البلاغة:٤٨.

(٢٥) م.ن :٢٢٥- ٢٢٦.

(٢٦) م.ن:٢٤٢.

(٢٧) م.ن:٢٧٠.

(٢٨) م.ن:١٤٣.

معرفة القرآن وبيان معانيه حقٌ لأنهم السنة صدق فيما يقولون وألزم من غيرهم للحق، وهذا يكون مبعث اطمئنان وأمان في الأخذ عنهم في القرآن الكريم، وقد أشار إمام المتقين عليه السلام إلى نفسه في ذلك لأن لا حجة للناس عليه في عدم العمل بالقرآن أو الوقوع في المعصية والزلل عن الحق، فهو من آل بيت النبوة الذين طهّرهم الله تطهيراً، قال تعالى: ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا﴾[سورة الأحزاب:٣٣]. وقد ضمّنَ الإمام علي عليه السلام هذا المعنى عندما قال:(واعذروا من لا حجة لكم عليه- وهو أنا-ألم أعمل فيكم بالثقل الأكبر"أي القرآن")[٢٩]، فهو لا ينأى عن القرآن، وفيه وحي نبينا صلى الله عليه وآله للناس كافة، فعن زيد بن ثابت، قال:(قال رسول الله صلى الله عليه وآله إني تارك فيكم ما أن تمسّكتم به لن تضلوا، كتابَ اللهِ وعترتي أهل بيتي، وإنهما لن يفترقا حتى يردا عليّ الحوض)[٣٠].

٣-الرجوع إلى الله ورسوله في الدلالة:

إنّ الرجوع إلى الله تعالى هو تحكيم كتابه الكريم، والرجوع إلى رسوله صلى الله عليه وآله تحكيم سنته في الناس، فقد قال الإمام أمير المؤمنين عليه السلام، بعد سماعه لأمر الحكمين:(ولما دعانا القوم إلى أن نحكّم بيننا القرآن لم نكن الفريق المتولّي عن كتاب الله سبحانه وتعالى وقد قال الله سبحانه﴿فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾[سورة النساء:٥٩]، فردّه إلى الله أن نحكم بكتابه، وردّه إلى الرسول أن نأخذ بسنته فإذا حكم بالصدق في كتاب الله فنحن أحق الناس به، وان يحكم بسنة رسول الله فنحن أحق الناس وأولاهم بها)[٣١]. فأكد الرجوع إلى كتاب الله وسنة نبيّه في إيضاح الحق وبيانه وعدم تحريف الكلم عن مواضعه بما يناسب الأهواء والرغبات، وانه عليه السلام أوْلَى من غيره في اتباع سنة الله ورسوله.

وكان يحثّ أصحابه إلى ذلك في كل موضع يجد فيه صلاحهم ويتابعهم عليه، ففي كتابه إلى مالك الاشتر يقول فيه:(واردد

(٢٩) نهج البلاغة:١٤٣.

(٣٠) احصى المرحوم كاظم الفتلاوي أكثر من مئة وثلاثين مصدراً أورد الحديث عن طرق العامة، ظ: الكشاف المنتقى/ كاظم الفتلاوي: ٢٠٨-٢١٤.

(٣١) نهج البلاغة:٢٣٠.

إلى الله ورسوله ما يضلعك من الخطوب، ويشتبه عليك من الأمور، فقد قال الله تعالى لقوم أحبَّ إرشادهم ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡۖ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ﴾ [سورة النساء:٥٩]. فالردّ إلى الله: الأخذ بمحكم كتابه، والردّ إلى الرسول: الأخذ بسنته الجامعة غير المفرّقة)[٣٢].

٤-عدم إتباع الهوى:

إتباع الهوى ميلٌ إلى رغبات النفس وانحراف عن جادة الصواب وعدم تحكيم العقل، وهذا يأخذ إلى الابتعاد عن فهم الدلالة المتوخاة في النص، وفرض قيود الذات عليه، فيجعل منه عائماً سطحياً لا يمكن الاستناد فيه إلى ركن مكين، لان الذات الإنسانية أمّارة بالسوء إلا ما رحم الله، قال تعالى: ﴿وَمَآ أُبَرِّئُ نَفۡسِيٓۚ إِنَّ ٱلنَّفۡسَ لَأَمَّارَةُۢ بِٱلسُّوٓءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّيٓ﴾ [سورة يوسف:٥٣]، وفي هذا مدعاة لوقوع الفتن بسبب من تعدّد الأهواء، قال أمير البلغاء عليه السلام: (إنما بدء وقوع الفتن أهواء تتبع، وأحكام تبتدع، يُخالَفُ فيها كتاب الله)[٣٣]، فمخالفة كتاب الله تعالى يكون بإتباع أحكام ليست من العقل في شيء، ولم تستند إلى حكم المنطق، وإنها هي أهواء يكون فيها الإنسان قد أتبع ما تمليه عليه نفسه، فتبعده عن أحكام الله ونواميسه التي أودعها كتابه العظيم.

٥-عدم فرض الأفكار المسبقة على النص:

أي الإسقاط الأيدلوجي المسبق على النص المبارك، وفرض آراء شخصية عليه، وتسخير النص الكريم لتفسير آراء المفسّر لا العكس، وهذا مخالف لمنطق العقل السليم والسلوك العلمي الرصين ويوجب الاختلاف في وضع الأحكام للنص الواحد، فيظهر كتاب الله وكأنه ناقص أو مبهم ويخالف بعضه بعضاً، وقد ذمّ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام ذلك ونبّه العلماء إليه، فقال: (أم أنزل الله سبحانه ديناً ناقصاً فاستعان بهم على إتمامه، أم كانوا شركاء له، فلهم أن يقولوا وعليه أن يرضى؟ أم انزل الله سبحانه ديناً تاماً فقصّر الرسول صلى الله عليه وآله عن تبليغه وأدائه،

(٣٢) نهج البلاغة:٥٥٤.

(٣٣) نهج البلاغة:٩٠.

والله سبحانه يقول: ﴿مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ﴾ [سورة الانعام:٣٨] وقال:فيه تبيانٌ لكلِّ شيء، وذكر أن الكتاب يُصدّق بعضه بعضا، وأنه لا اختلاف فيه، فقال سبحانه: ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾ [سورة النساء:٨٢].

وأن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا به)[٣٤].

٦-التفقه في الدين وتعلم القرآن الكريم: من الأسس المهمة للوصول إلى الحقيقة وبه خروج المرء من الجهالة والضلال، فالعلم به والتفقه فيه وسيلة مهمة لكسب المفسر والمؤول قدرة على فهم النص وإيضاح الدلالة، قال أمير المؤمنين عليه السلام:(وتعلموا القرآن، فإنه أحسن الحديث، وتفقهوا فيه فإنه ربيع القلوب، واستشفوا بنوره، فإنه شفاء الصدور، وأحسنوا تلاوته فإنه أنفع القصص)[٣٥]. فتعلمُّه يوجب حسن القول والكلام وترتيب الأفكار والرؤى، والتفقه فيه يأخذ إلى حيوية الفكر وفهم المعاني.

هذه بعض الأسس المستخلصة من كلام أمير المؤمنين عليه السلام التي بنى عليه فهمه للدلالة القرآنية، ونصح بها قومه ومريديه، وأما إنتاجها فمحلها المبحث الآتي.

عناصر إنتاج الدلالة القرآنية في نهج البلاغة

إن أسس فهم النص المبارك ضرورية جدا لمعرفة الدلالة المتوخاة، فعندما تكون أسس استناد الدلالة ومستلزماتها ضيقة الأبعاد وسطحية المفاهيم، عندئذ ستكون عناصر بناء الدلالة ذات ركائز ضعيفة، وبالنتيجة ستكون الدلالة المطلوبة لا ترقى إلى مضامين النص المبارك.

لقد ألزم إمام المتقين عليه السلام كلّ من يدرس النص القرآني العظيم أن يأخذ بأزمّته المتمثلة بتعلّم القرآن وتدبّره والهدي بهدي عترة النبي صلى الله عليه وآله وسنته المباركة وإبعاد الأفكار المسبقة وعدم إسقاطها على النص، وغيرها من الأسس الأخرى التي ربما لم يتوصل الباحث إلى معظمها لعظمة حكمة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام.

إنّ عناصر إنتاج الدلالة القرآنية في

(٣٤) نهج البلاغة:٨٢.
(٣٥) م.ن:٢٠٥.

نهج البلاغة تمثل الأبعاد الحقيقية لتفكيك النص الكريم وتحليله وبيان مضامينه الواقعية التي تناسب كل العصور والأزمان، أي تبقى مع بقاء القرآن الكريم، فهي تتناسب مع عالمية القرآن وأزليته، لذا نجد أن العاملين في المجال القرآني قد أفادوا كثيرا من تحليلات أمير المؤمنين عليه السلام على مدى الأيام والسنين منذ عصر الوحي حتى زماننا الحاضر يستقون أفكاره ودلالاته.

إنّ انضباط المنهج الذي اتبعه الإمام عليه السلام وتسديد الوحي الإلهي من خلال مباركة رسول الله صلى الله عليه وآله قد أدى أن يكون مصدرَ التأويل والتفسير والبيان والإيضاح للدلالة القرآنية التي يطلبها النص لكريم.

أما أهم العناصر الهادية لإنتاج الدلالة والوصول إليها من القرآن الكريم، فيمكن أن تتمثل ببعض السبل التي وجد فيها أمير المؤمنين عليه السلام طرقا سليمة للوصول إلى الهدف المطلوب ولكي تتناسب الدلالة مع عظمة القرآن الكريم ولتبقى حية مع الحياة الدنيا، وأفاد المفسرون والمؤولون من بعضها، وأفاد آخرون من أخرى، فأهمها:

١-تبيان خصائص القرآن:

وتتمثل في معرفة حلاله وحرامه وناسخه ومنسوخه، ومفصله ومجمله، وتبيين غوامضه وغيرها، قال الإمام علي عليه السلام :(كتاب ربكم فيكم، مبينا حلاله وحرامه،وفرائضه وناسخه ومنسوخه، ورخصه وعزائمه،وخاصه وعامه، وعبره وأمثاله، ومرسله ومحدوده، ومحكمه ومتشابهه، مفسرا مجمله، ومبينا غوامضه، بين مأخوذ ميثاق علمه، وموسع على العباد في جهله...)[٣٦]، أي أن معرفة خصائص القرآن الكريم تكون من القرآن ذاته، وبه يُبيّن ما غمض، ومنه يُفسّر مجمله ويوضّح متشابهه، ففي قوله تعالى: ﴿أَلْهَىٰكُمُ التَّكَاثُرُ ۝١ حَتَّىٰ زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ﴾ [سورة التكاثر:١-٢]، قال موضحا ما فيها:(يا له مراما ما أبعده، وزَورا-أي زائرين-ما أغفله! وخطرا ما أفظعه! لقد استخلوا منهم أي مدّكر وتناوشوهم من مكان بعيد!، أبمصارع آبائهم يفخرون! أم بعديد الهلكى يتكاثرون! يرجعون منهم أجسادا

(٣٦) م.ن:٢٤.

خوت،وحركات سكنت، ولئن يكونوا عِبَرا، أحق من أن يكونوا مفتخرا..)[٣٧].

وفي قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلۡإِنسَٰنُ مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ ٱلۡكَرِيمِ﴾ [سورة الانفطار:٦]، أوضح ما أبْهَمَ من دلالة وأجلى ما غشي من جهالة في الإنسان، فأبان عن ضعف حجته وقلة حيلته أمام الله تعالى قال:(الإنسان، أدحض مسؤولٍ حجة ً وأقطع مغترٍ معذرةً، لقد أبرح جهالة بنفسه)[٣٨].

فأزال الإبهام وأوضح ما غمض من ألفاظ القرآن، وأحكم متشابهه وأوسَعَ دلالته وقيّد مطلقه وفصّل مجمله.

٢-تفسير القرآن بالقرآن:

وهو أسلوب اتبعه عليه السلام في تفسير آيات القرآن بآيات أخر، مدلاً بذلك على أن القرآن وحدة متماسكة يفسر بعضه بعضا، ولا تناقض فيه، بل يصدّق بعضه بعضا، قال عليه السلام:(كتاب الله تبصرون به، وتنطقون به، وينطق بعضه ببعض، ويشهد بعضه على بعض)[٣٩]، فالقرآن حجة دامغة وخصيم قوي لمن اتهمه بالتناقض ،فيه نستدل على أخطائنا ونستنصح على أنفسنا، ففي موضع الجود بالنفس قال عليه السلام: (وخذوا من أجسادكم فجودوا بها على أنفسكم، ولا تبخلوا بها عنها، فقوله سبحانه: ﴿إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ﴾[سورة محمد:٧]...وقال تعالى﴿مَّن ذَا ٱلَّذِي يُقۡرِضُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضۡعَافٗا كَثِيرَةٗ﴾ [سورة البقرة:٢٤٥]، فلم يستنصركم من ذلّ ولم يستقرضكم من قلّ، استنصركم وله جنود السماوات والأرض وهو العزيز الحكيم، واستقرضكم وله خزائن السماوات والأرض وهو الغني الحميد...وإنما أراد أن: ﴿لِيَبۡلُوَكُمۡ أَيُّكُمۡ أَحۡسَنُ عَمَلٗا﴾ [سورة هود:٧]، فبادروا بأعمالكم تكونوا مع جيران الله في داره، رافق بهم رسله، وآزرهم ملائكته، وأكرم أسماعهم أن تسمع حسيس نار أبدا، وصان أجسادهم أن تلقى لغوبا ونصبا، ﴿ذَٰلِكَ فَضۡلُ ٱللَّهِ يُؤۡتِيهِ مَن يَشَآءُۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾ [سورة الجمعة:٤]..)[٤٠]، فأوضح آيات

(٣٧) نهج البلاغة:٤٢٤-٤٢٥.

(٣٨) نهج البلاغة:٤٣٤..

(٣٩) م.ن:٢٤٢.

(٤٠) نهج البلاغة:٣٣٦.

الله بآية ومستلها دلالاتها من غيرها في كتاب لا يأتيه الباطل من بين يديه ومن خلفه، فاستضاء بآياته على آياته وبأحكامه على مبتنياته، فتبارك الله أحسن الخالقين.

٣-تأويل النص القرآني:

وهي طريقة أخرى للوصول إلى ما يخفيه النص المبارك من دلالات عميقة بالرجوع إلى أعماقه، إذ ربما تبدو للنص معانٍ ظاهرة، ويُبطن معاني أخرى، فيحاول تشخصيها واستخراج جواهرها المخفية بتثوير القرآن، قال: (وإن القرآن ظاهره أنيق وباطنه عميق، لا تفنى عجائبه، ولا تنقضي غرائبه، ولا تكشف الظلمات إلا بـه)[٤١]. فاستشراف باطنه لا يتم إلا بالغور في أعماقه وسبر أغواره لإخراج لآلئه وصدفه وجواهره، فهو بحر لا كباقي البحار لا يدرك قعره، وعيون لا كالعيون، لا يُنضب ماؤها، قال: (ثُمَّ أَنْزَلَ عَلَيْهِ الْكِتَابَ نُوراً لا تُطْفَأُ مَصَابِيحُهُ وسِرَاجاً لا يَخْبُو تَوَقُّدُهُ وبَحْراً لا يُدْرَكُ قَعْرُهُ ومِنْهَاجاً لا يُضِلُّ نَهْجُهُ وشُعَاعاً لا يُظْلِمُ ضَوْءُهُ وفُرْقَاناً لا يُخْمَدُ بُرْهَانُهُ وتِبْيَاناً لا تُهْدَمُ أَرْكَانُهُ وشِفَاءً لا تُخْشَى أَسْقَامُهُ وعِزّاً لا تُهْزَمُ أَنْصَارُهُ وحَقّاً لا تُخْذَلُ أَعْوَانُهُ فَهُوَ مَعْدِنُ الإِيمَانِ وبُحْبُوحَتُهُ ويَنَابِيعُ الْعِلْمِ وبُحُورُهُ ورِيَاضُ الْعَدْلِ وغُدْرَانُهُ وأَثَافِيُّ الإِسْلامِ وبُنْيَانُهُ وأَوْدِيَةُ الْحَقِّ وغِيطَانُهُ وبَحْرٌ لا يَنْزِفُهُ الْمُسْتَنْزِفُونَ وعُيُونٌ لا يُنْضِبُهَا الْمَاتِحُونَ ومَنَاهِلُ لا يَغِيضُهَا الْوَارِدُونَ)[٤٢]، فيا له من وصف للقرآن، وأي جلال، فلم يُوصف بأجمل من هذا من قبل، ولم يوسم بأجلّ سمة من بعد، أظهر عمق دلالاته وسمو معانيه، فباطنه عميق معانيه غير المتناهية، وظاهره أنيق بجمال ألفاظه ودلالاته القريبة، فإذا استعصى على أحد معنى من ظاهر ألفاظه فليطلبه من عميق غوره، لأنه كثيف المعاني في قلة ألفاظ، ورائق الدلالة في جمال.

٤-اعتماد السنة الشريفة وأحاديث آل البيت:

في إنتاج الدلالة واستخلاص المعاني، فهم مفتاح الفهم ،لأن فيهم كنوز الرحمن،وهم وكرائم القرآن، قال: (وَبَيْنَكُمْ عِتْرَةُ نَبِيِّكُمْ وهُمْ أَزِمَّةُ

(٤١) م.ن:٤٩.

(٤٢) م.ن:٣٩٧-٣٩٨.

الْحَقِّ وأَعْلامُ الدِّينِ وأَلْسِنَةُ الصِّدْقِ فَأَنْزِلُوهُمْ بِأَحْسَنِ مَنَازِلِ الْقُرْآنِ وردُوهُمْ وُرُودَ الْهِيمِ الْعِطَاشِ)[٤٣]، فأرشد الناس إليهم لأنهم أهل القرآن نزل في بيوتهم، وهم أعلم به من غيرهم، فالصائر إليهم ناجٍ، والذاهب عنهم هالك في الجهل والضلالة، وشدّد النكير على من أخذ من غيرهم أو عن غير ممّن والاهم وخاصة في زمان كثرت فيه البدع واختلاف ما في أيدي الناس من الخبر، وقد صوّر رواة الحديث النبوي الشريف على أربع[٤٤]، وهم: المنافقون، والخاطئون، وأهل الشبهة، ورابعهم الصادقون الحافظون، وهم الذين يؤخذ عنهم، قال:(وَآخَرُ رَابِعٌ لَمْ يَكْذِبْ عَلَى اللَّهِ ولا عَلَى رَسُولِهِ مُبْغِضٌ لِلْكَذِبِ خَوْفاً مِنَ اللَّهِ وتَعْظِيماً لِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ ولَمْ يَهِمْ بَلْ حَفِظَ مَا سَمِعَ عَلَى وَجْهِهِ فَجَاءَ بِهِ عَلَى مَا سَمِعَهُ لَمْ يَزِدْ فِيهِ ولَمْ يَنْقُصْ مِنْهُ فَهُوَ حَفِظَ النَّاسِخَ فَعَمِلَ بِهِ وحَفِظَ الْمَنْسُوخَ فَجَنَّبَ عَنْهُ وعَرَفَ الْخَاصَّ والْعَامَّ والْمُحْكَمَ والْمُتَشَابِهَ فَوَضَعَ كُلَّ شَيْءٍ مَوْضِعَهُ)[٤٥]، فهؤلاء هم العاملون بنهج نبي الله ﷺ والذابون عن سنته؛لأنهم عقلوا ما سمعوا ورعوه، قال:(أعقلوا الخبرَ إذا سمعتموه،عقل رعايةٍ لا عقلَ روايةٍ، فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ورُعَاتَهُ قَلِيلٌ)[٤٦]، فمن منهجه دراسة الحديث أشريف ومعرفة مضامينه العميقة لا أن يؤخذ بظاهره دون النظر إلى باطنه.

٥-استنطاق القرآن الكريم وتدبره والغور في أعماقه:

وذلك لمعرفة أسراره وتشوير مضامينه، فهو متجدد وينطق بعضه على بعض،ويدلّ على معانيه.فالكل يأخذ منه ولا ينقص منه شيء، ففيه علم الأولين والآخرين، وفيه:(تِبْيَانٌ لِكُلِّ شَيْءٍ)[٤٧]، قال عليه السلام:(ذَلِكَ الْقُرْآنُ فَاسْتَنْطِقُوهُ ولَنْ يَنْطِقَ ولَكِنْ أُخْبِرُكُمْ عَنْهُ أَلا إِنَّ فِيهِ عِلْمَ

(٤٣) م.ن:١٤٣.

(٤٤) ظ: م.ن:٤٠٩-٤١١.

(٤٥) م.ن:٤١٠-٤١١.

(٤٦) م.ن:٦١٧، وفي خطبة له عليه السلام يذكر فيها آل محمد ﷺ ويصفهم بأنهم (عَقَلُوا الدِّينَ عَقْلَ وِعَايَةٍ ورِعَايَةٍ لا عَقْلَ سَمَاعٍ ورِوَايَةٍ فَإِنَّ رُوَاةَ الْعِلْمِ كَثِيرٌ ورُعَاتَهُ قَلِيلٌ). نهج البلاغة:٤٥٤.

(٤٧) ظ:م.ن:١٣٩.

مَا يَأْتِي والْحَدِيثَ عَنِ الْمَاضِي ودَوَاءَ دَائِكُمْ ونَظْمَ مَا بَيْنَكُمْ)[٤٨]، فالزائغ عنه هالك، والمتتبع له على سبيل النجاة من الشبهات،قال:(إِنَّ اللَّهَ بَعَثَ رَسُولاً هَادِياً بِكِتَابٍ نَاطِقٍ وأَمْرٍ قَائِمٍ لا يَهْلِكُ عَنْهُ إلا هَالِكٌ وإِنَّ الْمُبْتَدَعَاتِ الْمُشَبَّهَاتِ هُنَّ الْمُهْلِكَاتُ إلا مَا حَفِظَ اللَّهُ مِنْهَا)[٤٩]. فاستنطاقه بإتباعه وتدبره وتثوير معانيه وإرجاع بعضها على بعض.

٦-عرض الدلالة على القرآن:

وذلك من خلال عرض ما حصل عليه المفسر على القرآن والاحتجاج به عليه، قال عليه السلام :(وكَفَى بِالْكِتَابِ حَجِيجاً وخَصِيماً)[٥٠]، فإن اتفقت الدلالات مع خط القرآن أخذَ بها وإن تعارضت ضُرِبَ بها على عرض الحائط،لأن لا قيمة لها في مخالفتها للقرآن، وقد سئل عليه السلام عن صفات الله تعالى فقال:(فَمَا دَلَّكَ الْقُرْآنُ عَلَيْهِ مِنْ صِفَتِهِ فَائْتَمَّ بِهِ واسْتَضِئْ بِنُورِ هِدَايَتِهِ ومَا كَلَّفَكَ الشَّيْطَانُ عِلْمَهُ مِمَّا لَيْسَ فِي الْكِتَابِ عَلَيْكَ فَرْضُهُ ولا فِي سُنَّةِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وآله وسلم وأَئِمَّةِ الْهُدَى أَثَرُهُ فَكِلْ عِلْمَهُ إِلَى اللَّهِ سُبْحَانَهُ)[٥١]، فالقرآن هو الكاشف عن الحق في ضلل الباطل.

٧-القرآن حمّال وجوه:

القرآن لا تنتهي معانيه ولا يحدّه زمان أو مكان، وهو كلام الله تعالى والناطق بوحيه ومثال القدرة الإلهية غير المحدودة، تعددت أوجه الدلالة فيه، فكلٌ يفهمه على قدر قابليته الفكرية، وأسسه الثقافية ووفق معاييره وقياساته، فأنا استخلص منه دلالة، وآخر يستنتج منه فكرة لآية أو سورة معينة، أو قد يحملها آخر على هواه، فينحرف فيه عن دلالاته، لذا نهى الإمام عليه السلام الاختصام به، فمن وصية له لعبد الله بن عباس (رضي الله عنه) لما بعثه للاحتجاج على الخوارج، فقال له: (لا تُخَاصِمْهُمْ بِالْقُرْآنِ فَإِنَّ الْقُرْآنَ حَمَّالٌ ذُو وُجُوهٍ تَقُولُ ويَقُولُونَ... ولَكِنْ حَاجِجْهُمْ بِالسُّنَّةِ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَجِدُوا عَنْهَا مَحِيصاً)[٥٢]؛ لأن السنة الشريفة موضحه لما غمض، ومقيدة لما أطلق، ومفصلة لما أجمل، فلم يجدوا عنها مهربا.

(٤٨) م.ن:٢٧٨.
(٤٩) م.ن:٣٠٦.
(٥٠) م.ن:١٣١.
(٥١) م.ن:١٥٠.
(٥٢) م.ن:٥٩٥.

الخاتمة

في نهج البلاغة كان الأسلوب في استنباط الدلالة القرآنية وفهمها وإنتاجها يختلف عماً عليه لدى المفسّرين وغيرهم ممن أهتم بعلوم القرآن الكريم، وذلك لأنّ آيات الله وسوره كانت قد نزلت لتوها وبين ظهراني رسول الله وصحابته الكرام، فأسباب نزولها معلومة، وناسخها ومنسوخها معروف، وفيها قد قيّد رسول الله ﷺ مطلقها، وبين غوامضها وفصّل مجملها، حتى أصبحت خصائص القرآن الكريم هذه جزء من ثقافة المجتمع المدني آنذاك، فضلاً عن كون اللغة العربية عندهم لغة سليقة لا لغة تكلف، فكل هذه العوامل جعلت من الدلالة القرآنية في نهج البلاغة المتمثلة في خطب أمير البلغاء علي بن أبي طالب عليه السلام دلالة وضوح وبيان لا دلالة تفسير أو تأويل، لان هاتين الدلالتين تكونان عندما تبتعد المسافات الزمنية بين عصر نزول النص المبارك وعصر المفسّر، فكانت توضيحات الإمام عليه السلام لآيات الله تعالى وسوره قد تناسبت مع معانيها غير المتناهية فأفاد علماء التفسير والتأويل منها عبر كل الأزمان وبمختلف مستويات التفسير والتأويل للنص القرآني المبارك.

المصادر

- القرآن الكريم
- الإتقان في علوم القرآن-جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر السيوطي الشافعي(ت٩١١هـ)-ضبطه وصححه وخرّج آياته محمد سالم هاشم-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-٢٠٠٣م-١٤٢٤هـ.
- البرهان في علوم القرآن-للإمام بدر الدين محمد بن عبد الله الزركشي، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم-المكتبة العصرية-صيدا-بيروت-الطبعة الأولى-٢٠٠٤م-١٤٢٥هـ.
- البيان في تفسير القرآن-السيد أبو القاسم الموسوي الخوئي-دار التوحيد للنشر والتوزيع-الكويت-الطبعة الرابعة-١٩٧٩م-١٣٨٩هـ.
- التعريفات-أبو الحسن علي بن محمد بن علي الجرجاني المعروف بالسيد الشريف-دار الشؤون الثقافية العامة-وزارة الثقافة والإعلام-بغداد-العراق، طبع في مطابع دار الشؤون الثقافية العامة.

- تفسير البحر المحيط-لأثير الدين محمد بن يوسف بن علي بن حيان الشهير بأبي حيان الأندلسي الغرناطي(ت٧٤٥هـ)-حققه وخرّج آياته وعلق عليه، د.عبد الرزاق المهدي-دار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان-الطبعة الأولى-٢٠٠٢م-١٤٢٣هـ.
- تفسير القرطبي-لأبي عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي(ت٦٧١هـ)-تحقيق سالم مصطفى البدري-دار الكتب العلمية-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية-٢٠٠٤م-١٤٢٤هـ.
- جامع البيان في تفسير القرآن-تأليف أبي جعفر محمد بن جرير الطبري-دار المعرفة-بيروت-لبنان-الطبعة الرابعة-١٩٨٠م-١٤٠٠ هـ.
- دروس في المناهج والاتجاهات التفسيرية للقرآن-محمد علي الرضائي الأصفهاني-تعريب قاسم البيضاوي-قم-محرم ١٤٢٦هـ.
- سنن الدرامي-للإمام أبي محمد عبد الله بن بهرام الدارمي-دار الفكر-بيروت-الطبعة الثانية، ٢٠٠٣م، ١٤٢٤هـ.
- الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل-لأبي القاسم محمد بن عمر الزمخشري-حققه وخرّج أحاديثه عبد الرزاق المهدي-دار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان-الطبعة الثانية-٢٠٠١م-١٤٢١هـ.
- الكشاف المنتقى لفضائل عليّ المرتضى-كاظم عبود الفتلاوي-منشورات لسان الصدق-العراق-النجف الاشرف-الطبعة الأولى-٢٠٠٥م-١٤٢٦هـ.
- لسان العرب-للإمام العلامة ابن منظور، (ت٧١١هـ)، مؤسسة التأريخ العربي-دار إحياء التراث العربي-بيروت-لبنان-الطبعة الثالثة-١٩٩٣م-١٤١٣هـ.
- مقدمات منهجية في تفسير النص القرآني-الأستاذ الدكتور عبد الأمير زاهد-مطبعة الضياء-النجف الاشرف-٢٠٠٨م-١٤٢٩هـ.
- نهج البلاغة-وهو مجموع ما اختاره الشريف أبو الحسن محمد الرضي بن الحسن الموسوي من كلام أمير المؤمنين أبي الحسن على بن أبي طالب عليه السلام-ضبط نصّه وابتكر فهارسه العلمية الدكتور صبحي الصالح-قم-إيران-أنوار الهدى-الطبعة الثالثة-١٤٢٩هـ.
- نور الثقلين-عبد علي بن جمعة الحويزي العروس-قم-المطبعة العلمية-الطبعة الثانية-١٣٨٣هـ.

يتعرض السيد الباحث لمسألة تجسّم القرآن الكريم في صورة مرئية ، وله كلام مسموع وخطاب مفهوم يوم القيامة، يشكو الذين هجروه أو الذين لم يعملوا به ويشهد لمن حفظه تلاوةً وعملاً وأن الله- سبحانه- يحكم له بهذه الشهادة.

عرض السيد الباحث كل الروايات الواردة في هذا الخصوص والتي جاءت بها مصادر كثيرة لعموم المسلمين.

وفي خاتمة المطاف يناقش صور التجسّم التي وردت في الاحاديث ضمن تقسيم الأخبار على خمس صور للتجسّم ويخلص الى أن وقوع هذا الأمر وعدمه موكول الى صدق الراوي وعدمه و أن الآتي يوم القيامة هو القرآن الكريم نفسه وإن كان لبروز العمل القرآني وظهوره من قراءة وحفظ وغير ذلك، وجهٌ وجيه ايضا.

نظرة في
تجسّم القرآن الكريم

عبد الحليم عوض الحلي
الحلة الفيحاء - العراق

تمهيد:

المتتبع للروايات الواردة عن مصدر الشريعة الإسلامية الخاصة في شفاعة القرآن الكريم ووقوفه للقارىء والحافظ والكاتب له في القبر ويوم القيامة يرى في جملة منها ظهورها في تجسّم القرآن بل بعضها صريح في ذلك.

ففي بعضها "يمثل القرآن يوم القيامة برجلٍ"(١). وفي بعضها أنه بلغنا "أنّ القرآن يأتي يوم القيامة في صورة الشاحب المنافر، وفي نسخة يمكن أن يقرأ "المسافر"(٢).

وفي بعضها:"أنّ هذا القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه قبره كالرجل الشاحب فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك فيقول: أنا صاحبك القرآن أظمأتك في الهواجر"(٣).

وفي بعضها"يجيء القرآن يوم القيامة في أحسن منظور إليه صورةً فيمرّ بالمسلمين، فيقولون: هذا الرجل منا"(٤).

وفي بعضها أنّه ﷺ أخبر عن سورة معينة بأنها"تجيء لها جناحان يوم القيامة تظلّ صاحبها وتقول: لا سبيل عليه لا

(١)عوالي اللآلي ١: ٦٥ ح ١٠٨.
(٢)مصنّف عبد الرزاق ٣: ٣٧٤.
(٣)مسند أحمد ٥: ٣٤٨، كنز العمال ١: ٥٥٢ ح ٢٤٧.
(٤)الكافي ٢: ٦٠١ ح ١١، وسائل الشيعة ٤: ٨٢٤ ح ٢.

سبيل عليه"[٥].

وفي بعضها أنّ السائل يسأل الإمام أبا جعفر الباقر عليه السلام وهل يتكلّم القرآن؟ فيقول: "نعم والصلاة تتكلّم، ولها صورة وخلق تأمر وتنهى"[٦].

وفي بعضها "أن لآية الكرسي لساناً وشفتين يقدس الملك عند ساق العرش".[٧]

وفي بعضها"أن القرآن يتكلّم محتجاً على رب العالمين بأنّي كنت أرغب لهذا العبد فيما هو أفضل من هذا"[٨].

وفي بعضها"من نسي سورة مثلت له في صورة حسنة ودرجة رفيعة في الجنة"[٩].

وفي بعضها"أنّ الله سبحانه وتعالى يأتي بسورة الرحمن في صورة آدمي في أحسن صورة، وأطيب ريح حتى تقف من الله موقفاً لا يكون أحد أقرب إلى الله تعالى منها"[١٠]. وفي بعضها "فثارت السورة في وجهه"كما أنّ في بعضها"فتنطلق إلى الربّ فنقول: يا ربّ إنّ فلاناً عمد إليَّ من بين كتابك فتعلمني وتلاني"[١١].

طوائف الروايات

وبعد هذا الموجز لا بأس بتقسيم الروايات على طوائف وذكر رواية أو أكثر من كلّ طائفة.

الطائفة الأُولى: القرآن شافع لقارئه

القرآن يشفع لقارئه في القبر والقيامة، وتحدّثنا الأخبار بمخاصمته للمضيع فرائضه والمتعدّي حدوده، وبتمثله بصورة رجل لمن ضيّع الحدود ولم يقم الفرائض، والقرآن يقذف حججه عليه.

فقد روى عمر بن شعيب، عن أبيه، عن جدّه، قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله:

(٥)الدرّ المنثور ٥: ١٧٠، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٥ ح ٢.

(٦)الكافي ٢: ٥٩٦ ح ١، بحار الأنوار ٧: ١٣١ ح ٦.

(٧)مجمع البيان ٢: ٣٦٠، تفسير أبي الفتوح الرازي ٢: ٣١٨.

(٨)الكافي ٢: ٦٠٣ ح ٤، بحار الأنوار ٧: ٣٠٥ ح ٧٨.

(٩)مرآة العقول ١٢: ٤٩١ ح ٢.

(١٠)ثواب الأعمال: ١٤٣ ح ١، وسائل الشيعة ٤: ٨٠٩ ح ١.

(١١)الدرّ المنثور ٦: ٦٤٦، بحار الأنوار ٩٢: ٣١٤ ح ٤.

يمثّل القرآن يوم القيامة برجل، ويؤتى بالرجل، قد كان يضيّع فرائضه، ويتعدّى حدوده، ويخالف طاعته، ويرتكب معصيته.

قال: فيستنيل له خصماً. فيقول: أي ربّ حملت إيّاي شرّ حامل، تعدّى حدودي، وضيّع فرائضي، وترك طاعتي وركب معصيتي، فما زال يقذف بالحجج حتى يقال: فشأنك وإيّاه.

فيأخذ بيده، ولا يفارقه حتى يكبّه على منخره في النار.

ويؤتى بالرجل قد كان يحفظ حدوده، ويعمل بفرائضه، ويأخذ بطاعته ويجتنب معاصيه، فيستنيل حبّاً له.

فيقول: أي رب حملت إيّاي خير حامل، اتّقى حدودي، وعمل بفرائضي، واتّبع طاعتي وترك معصيتي، فما زال يقذف له بالحجج حتى يقال: فشأنك وإيّاه فيأخذ بيده فما يرسله حتى يكسوه حلّة الاستبرق ويعقد على رأسه تاج الملك ويسقيه بكأس الخلد[١٢].

ويتّضح من الخبر تجسّم القرآن الكريم يوم القيامة وتصوره بصورة رجل مخاصم ومدافع، مخاصم لمن ضيع الحدود وترك الفرائض إلى أن يكبه الله في النار، ومدافع عمن حفظ الحدود والتزم بها.

كما يتّضح تخويل الله سبحانه وتعالى القرآن لمجازاة ذلك العبد العاصي لحدود الله أو العامل بها، وهذا يكشف عن أن للقرآن حصة وسهماً في إجراء العقوبات الأُخروية، كما أنه ظهر من أخبار أُخر أنّ المعصوم من أهل بيت النبوة صلوات الله عليهم أجمعين له حصة وسهم في ذلك.

بل إنّ في بعض الأخبار ما ينطق بدفاع سورة من القرآن الكريم عن قارئها وحافظها وحاملها، كما ورد في الدرّ المنثور عن الزهرّي، عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: إنّ رجلاً ممّن كان قبلكم مات، وليس معه شيء من كتاب الله إلاّ تبارك، فلمّا وضع في حفرته أتاه الملك، فثارت السورة في وجهه.

فقال لها: إنّك من كتاب الله وأنا

(١٢) عوالي اللآلي ١: ٦٥ ح ١٠٨، مستدرك الوسائل ٤: ٢٣٥ ح ١٤.

أكره شقاوتك، وإنّي لا أملك لك ولا له ولا لنفسي نفعاً ولا ضراً، فإن أردت هذا به فانطلقي إلى الربّ فاشفعي له، فتنطلق إلى الربّ. فتقول: يا ربّ إنّ فلاناً عمد إلي من بين كتابك فتعلّمني وتلاني، أفمحرقه أنت بالنار ومعذّبه وأنا في جوفه؟ فإن كنت فاعلاً ذلك به فامحني من كتابك (إلى أن قال...).

فيقول: اذهبي فقد وهبته لك، وشفّعتك فيه، فتجيء سورة الملك، فيخرج كاسف البال لم يحل منه بشيء، فتجيء فتضع فاها على فيه، فتقول: مرحباً بهذا الفم، فربّما تلاني.

وتقول: مرحباً بهذا الصدر، فربّما وعاني، ومرحباً بهاتين القدمين فربّما قامتا بي وتؤنسه في قبره مخافة الوحشة عليه[١٣].

وهذه الرواية ظاهرة في مدافعة سورة الملك في القبر عن قارئها وعن الحافظ لها، بل الظاهر منها أن هذا الشخص قد أوكل أمره إلى هذه السورة، وأما التجسّم فهي وإن لم تكن صريحة فيه إلاّ أنه يظهر ذلك من أول الرواية إلى آخرها فدقق، ولك أن تتأمل في قول السورة: أفمحرقه أنت بالنار وأنا في جوفه وفي قولها: مرحباً بهذا الصدر فربما وعاني فإن هاتين العبارتين يظهر منهما عمق الارتباط بين الشخص وبين السورة أو أنها كانت في جوفه واقعاً وكان وعاءً لها بنحو من أنحاء وجودها.

وهذه رواية أُخرى فقد ورد في درر اللآلي في حديث طويل عن ابن مسعود: قال: وتوفي رجل فأُتي من قبل رجليه، فقالت رجله: إنّه ليس لكم سبيل عليّ، إنّه كان يقرأ سورة الملك. فأُتي من قبل بطنه، فقالت بطنه: لا سبيل لكم عليّ إنّه كان وعاءً لسورة الملك. فأُتي من قبل رأسه، فقال لسانه: لا سبيل لكم عليّ إنه كان يقرأ سورة الملك، فمنعته بإذن الله من عذاب القبر[١٤].

كما ورد في كتاب الكافي عن أبي

(١٣)الدرّ المنثور ٦: ٢٤٦، بحار الأنوار ٩٢: ٣١٤ ح ٤.

(١٤)درر اللآلي ١: ٣٤، مستدرك الوسائل ٤: ٣٠٤ ح ٤.

جعفر عليه السلام قال: سورة الملك هي المانعة تمنع من عذاب القبر، وهي مكتوبة في التوراة سورة الملك، من قرأها في ليلته فقد أكثر وأطاب، ولم يكتب بها من الغافلين، وإني لأركع بها بعد عشاء الآخرة وأنا جالس، وإن والدي عليه السلام كان يقرؤها في يومه وليلته، ومن قرأها إذا دخل عليه في قبره ناكر ونكير من قبل رجليه قالت رجلاه لهما: ليس لكما إلى ما قبلي سبيل، قد كان هذا العبد يقوم عليّ فيقرأ "سورة الملك" في كلّ يوم وليلة.

وإذا أتياه من قبل جوفه قال لهما: ليس لكما إلى ما قبلي سبيل، قد كان هذا العبد أوعاني سورة الملك، وإذا أتياه من قبل لسانه قال لهما: ليس لكما إلى ما قبلي سبيل، قد كان هذا العبد يقرأ بي في كلّ يوم وليلة" سورة الملك»[١٥].

وهذه الرواية كسابقتها يستفاد منها منع تحقق العذاب والعقاب على قارئها في القبر، وهذا التعبير يمكن أن نجعله من مؤيدات تجسّم القرآن الكريم بقرينة الرواية المتقدمة التي جاء فيها: فثارت السورة في وجهه.

وهذه رواية أُخرى تبين تصور سورة الرحمن وتجسّمها في صورة آدمي في أحسن صورة وأطيب ريح فقد ورد في ثواب الأعمال بسند ذكره عن الحسن، عن أبيه، عن أبي بصير، عن أبي عبد الله عليه السلام قال: لا تَدَعوا قراءة سورة الرحمن والقيام بها، فإنّها لا تقرّ في قلوب المنافقين، ويأتي بها ربّها يوم القيامة في صورة آدمي في أحسن صورة، وأطيب ريح، حتى يقف من الله موقفاً لا يكون أحد أقرب إلى الله منها.

فيقول لها: من الذي كان يقوم بك في الحياة الدنيا ويدمن قراءتك. فتقول: يا ربّ فلان وفلان فتبيض وجوههم. فيقول لهم: اشفعوا فيمن أحببتم فيشفعون، حتى لا يبقى له غاية ولا أحد يشفعون له. فيقول لهم: ادخلوا الجنّة واسكنوا فيها حيث شئتم[١٦].

(١٥) الكافي ٢: ٦٣٣ ح ٢٦، وسائل الشيعة ٤: ٨٧٦ ح١ والسند هكذا: عن عدّة من أصحابنا، عن سهل بن زياد، ومحمّد بن يحيى، عن أحمد بن محمّد بن عيسى جميعاً، عن ابن محبوب، عن جميل، عن سدير.

(١٦) ثواب الأعمال: ١٤٣ ح ١، وسائل الشيعة

وأنت تلاحظ أن وجه الإنسان يبيض يوم القيامة بمجرد أن تُقرَّ سورة الرحمن بقراءته وإدمانه عليها في الحياة الدنيا، كما أن ذلك الإنسان يعطى شفاعة فيمن يحب ببركة ذلك

وقد ورد في الكافي عن أبي بصير، قال: قال أبو عبد الله عليه السلام: من نسي سورة من القرآن مثلت له في صورة حسنة ودرجة رفيقه في الجنّة، فإذا رآها قال: ما أنت ما أحسنك ليتك لي ؟فتقول: أما تعرفني أنا سورة كذا وكذا، ولو لم تنسني رفعتك إلى هذا[17]. وسندها حسن كما بيّن ذلك المجلسي في مرآة العقول[18].

الطائفة الثانية: للسورة لسان وتتكلم.

تقدم في ثنايا الطائفة الأُولى ذكر دفاع السورة القرآنية عن صاحبها في يوم الحساب، وهذه مجموعة من الأخبار تبيّن ما يماثل أعضاء جسد الإنسان لبعض السور والآيات القرآنية فيقال: لها لسان ولها أجنحة و... فقد ورد في مجمع البيان، عن أبي بن كعب قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: يا أبا المنذر أيّ آية في كتاب الله أعظم؟

قلت: الله لا إله إلاّ هو الحيّ القيوم.

قال: فضرب في صدري ثمّ قال: ليهنئك العلم، والذي نفس محمّد بيده إنّ لهذه الآية لساناً وشفتين، يقدّس الملك عند ساق العرش[19].

وأخرج ابن الضريس، عن المسبب بن رافع أنّ النبي صلى الله عليه وآله قال: الم تنزيل تجيء لها جناحان يوم القيامة تظلّ صاحبها، وتقول: لا سبيل عليه، لا سبيل عليه[20].

وروى في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: من قرأ القرآن وهو شابّ مؤمن اختلط القرآن بلحمه ودمه، وجعله الله عزّ وجلّ مع السفرة الكرام البررة،

٤: ٨٠٤ ح ٢، والبرهان ٤: ٢٦٢ ح ٢.

(١٧) الكافي ٢: ٦٠٧ ح ٢.

(١٨) مرآة العقول ٤٩١١٢/ ح ٢ باب من حفظ القرآن ثمّ نسيه.

(١٩) مجمع البيان ٢: ٣٦٠، تفسير أبي الفتوح الرازي ٢: ٣١٨ مستدرك الوسائل ٤: ٣٣٧ ح ٢٨، مسند أحمد ٥: ١٤٢، الدرّ المنثور ١: ٤٢٣، مصباح الكفعمي: ٤٤١.

(٢٠) الدرّ المنثور ٥: ١٧٠، بحار الأنوار ٩٢: ٣٠٥ ح ٢.

وكان القرآن حجيزاً عنه يوم القيامة، يقول: يا ربّ إنّ كلّ عامل قد أصاب أجر عمله غير عاملي، فبلّغ به أكرم عطاياك. قال: فيكسوه الله العزيز الجبّار حلّتين من حلل الجنّة، ويوضع على رأسه تاج الكرامة.

ثمّ قال له: هل أرضيناك فيه؟ فيقول القرآن: يا ربّ قد كنت أرغب له فيما هو أفضل من هذا.فيعطى الأمن بيمينه، والخلد بيساره، ثمّ يدخل في الجنّة.

فيقال له: اقرأ، واصعد درجة. ثم يقال له: هل بلغنا به وأرضيناك؟ فيقول: نعم. قال: ومن قرأه كثيراً وتعاهده بمشقّة من شدّة حفظه، أعطاه الله عزّ وجلّ أجر هذا مرّتين[٢١].

أقول: قد مرّ بك في بعض روايات الطائفة المتقدمة أن الإنسان وعاء للقرآن، وتفسير الوعائية يمكننا أن نفهمه من خلال الخبر المتقدم بأنها اختلاط القرآن بدمه ولحمه.

الطائفة الثالثة: تمثّل القرآن في أحسن صورة.

نذكر هنا الروايات الواردة في تمثّل القرآن وتجسّمه وظهوره يوم القيامة في أحسن منظور إليه صورة:

روى الكليني في الكافي بسند ذكره عن أبي جعفر عليه السلام قال: يجيء القرآن يوم القيامة في أحسن منظور إليه صورة، فيمّر بالمسلمين فيقولون: هذا الرجل منّا فيجاوزهم إلى النبيّين، فيقولون: هو منّا فيجاوزهم إلى الملائكة المقربين، فيقولون: هو منّا حتى ينتهي إلى ربّ العزّة عزّ وجلّ فيقول: يا ربّ فلان ابن فلان أظمأت هواجره، وأسهرت ليله في دار الدنيا، وفلان بن فلان لم أُظمئ هواجره، ولم أُسهر ليله.

فيقول تبارك وتعالى: أدخلهم الجنّة على منازلهم. فيقوم، فيتّبعونه، فيقول للمؤمن: اقرأ وارق. قال: فيقرأ ويرقى حتى يبلغ كلّ رجل منهم منزلته التي

(٢١) الكافي ٢: ٦٠٣ ح ٤، والسند هكذا: عدة من أصحابنا عن أحمد بن محمّد وسهل بن زياد جميعاً عن ابن محبوب، عن مالك بن عطيّة، عن منهال القصّاب،، بحار الأنوار ٧: ٣٠٥ ح ٧٨، وسائل الشيعة ٤: ٨٣٣ ح ١، ثواب الأعمال: ١٢٦ ح ١.

هي له، فينزلها [٢٢].

وروى الكليني بسند ذكره عن يونس بن عمّار قال: قال الإمام أبو عبد الله عليه السلام: إنّ الدواوين يوم القيامة ثلاثة: ديوان فيه النعم، وديوان فيه الحسنات، وديوان فيه السيئات، فيقابل بين ديوان النعم وديوان الحسنات، فتستغرق النعم عامة الحسنات ويبقى ديوان السيئات.

فيدعى بابن آدم المؤمن للحساب، فيتقدم القرآن أمامه في أحسن صورة فيقول: يا ربّ أنا القرآن، وهذا عبدك المؤمن، قد كان يتعب نفسه بتلاوتي، ويطيل ليله بترتيلي، وتفيض عيناه إذا تهجّد، فأرضه كما أرضاني.

قال: فيقول العزيز الجبار: عبدي أبسط يمينك فيملأها من رضوان الله العزيز الجبّار، ويملأ شماله من رحمة الله.

ثم يقال: هذه الجنّة مباحة لك، فاقرأ، واصعد. فإذا قرأ آية صعد درجة [٢٣].

وروى في الكافي عن علي بن محمد، عن علي بن العباس، عن الحسين ابن عبد الرحمن، عن سفيان، عن أبيه، عن سعد الخفاف، عن أبي جعفر عليه السلام قال: يا سعد، تعلّموا القرآن، فإنّ القرآن يأتي يوم القيامة في أحسن صورة نظر إليها الخلق، والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف، ثمانون ألف صفّ أُمّة محمّد وأربعون ألف صفّ من سائر الأُمم.

فيأتي على صفّ المسلمين في صورة رجل فيسلّم، فينظرون إليه.

ثمّ يقولون: لا إله إلاّ الله الحليم الكريم، إنّ هذا من المسلمين، نعرفه بنعته وصفته، غير أنّه كان أشدّ اجتهاداً منّا في القرآن، فمن هناك اعطي من البهاء والجمال والنور ما لم نعطه.

ثم يجاوز حتى يأتي على صفّ

(٢٢) الكافي ٢: ٦٠١ ح ١١، وسائل الشيعة ٤: ٨٢٤/ ح ٢ والسند هكذا: عن أبي عليّ الأشعري، عن محمّد بن سالم، عن أحمد بن النضر عن عمرو بن شمر، عن جابر.

(٢٣) الكافي ٢: ٦٠٢ ح ١٢، بحار الأنوار ٧: ٢٦٧ ح ٣٤، وسائل الشيعة ٤: ٨٢٤ ح ٣، نور الثقلين ٣: ١٧١ ح ٢٣٩، والسند هكذا: علي بن إبراهيم، عن أبيه وعدّة من أصحابنا، عن أحمد بن محمّد وسهل بن زياد، جميعاً، عن ابن محبوب، عن مالك بن عطيّة.

الشهداء فينظر إليه الشهداء.

ثم يقولون: لا إله إلاّ الله الربّ الرحيم، إنّ هذا الرجل من الشهداء نعرفه بسمته وصفته، غير أنّه من شهداء البحر، فمن هناك أُعطي من البهاء والفضل ما لم نعطه.

قال: فيتجاوز حتى يأتي صفّ شهداء البحر في صورة شهيد، فينظر إليه شهداء البحر، فيكثر تعجّبهم ويقولون: إنّ هذا من شهداء البحر نعرفه بسمته وصفته، غير أنّ الجزيرة التي أُصيب فيها كانت أعظم هولاً من الجزيرة التي أُصبنا فيها، فمن هناك أُعطي من البهاء والجمال والنور ما لم نعطه.

ثم يجاوز حتى يأتي صفّ النبيين والمرسلين في صورة نبي مرسل، فينظر النبيّون والمرسلون إليه، فيشتدّ لذلك تعجّبهم، ويقولون: لا إله إلاّ الله الحليم الكريم إنّ هذا النبي مرسل نعرفه بسمته وصفته، غير أنّه أعطي فضلاً من هذا؟

قال: فيجتمعون، فيأتون رسول الله ﷺ فيسألونه، ويقولون: يا محمّد، من هذا؟ فيقول لهم: أو ما تعرفونه؟ فيقولون: ما نعرفه، هذا ممّن لم يغضب الله عليه. فيقول رسول الله ﷺ: هذا حجّة الله على خلقه.

فيسلّم ثمّ يجاوز، حتى يأتي على صفّ الملائكة في صورة ملك مقرّب، فتنظر إليه الملائكة فيشتد تعجّبهم، ويكبر ذلك عليهم لما رأوا من فضله.

ويقولون: تعالى ربّنا وتقدّس إنّ هذا العبد من الملائكة نعرفه بسمته وصفته، غير أنّه كان أقرب الملائكة إلى الله عزّ وجلّ مقاماً، فمن هناك البس من النور والجمال ما لم نلبس.

ثمّ يجاوز حتى ينتهي إلى ربّ العزّة تبارك وتعالى، فيخرّ تحت العرش، فيناديه تبارك وتعالى: يا حجّتي في الأرض، وكلامي الصادق الناطق، ارفع وسل تعط، واشفع تشفع.

فيرفع رأسه فيقول الله تبارك وتعالى: كيف رأيت عبادي؟

فيقول: يا ربّ منهم من صانني، وحافظ عليّ ولم يضيّع شيئاً، ومنهم من ضيّعني واستخف بحقّي وكذّب، وأنا

حجّتك على جميع خلقك.

فيقول الله تبارك وتعالى: وعزّتي وجلالي، وارتفاع مكاني، لاثيبنّ عليك اليوم أحسن الثواب، ولاعاقبن عليك اليوم أليم العقاب.

قال: فيرجع القرآن رأسه في صورة أُخرى.

قال: فقلت له: يا أبا جعفر، في أيّ صورة يرجع؟

قال: في صورة رجل شاحب متغيّر، يبصره أهل الجمع، فيأتي الرجل من شيعتنا الذي كان يعرفه، ويجادل به أهل الخلاف، فيقوم بين يديه.

فيقول: ما تعرفني؟ فينظر إليه الرجل، فيقول: ما أعرفك يا عبد الله.

قال: فيرجع في صورته التي كانت في الخلق الأوّل، ويقول: ما تعرفني؟ فيقول: نعم.

فيقول القرآن: أنا الذي أسهرتُ ليلك، وأنصبتُ عيشك، وفيّ سمعت الأذى ورجمت بالقول فيّ، ألا إنّ كلّ تاجر قد استوفى تجارته، وأنا وراءك اليوم.

قال: فينطلق به إلى ربّ العزّة تبارك وتعالى فيقول: يا ربّ عبدك وأنت أعلم به، قد كان نصباً بيّ، مواظباً فيّ، يعادى بسببي، ويحبّ فيّ ويبغض، فيقول الله عزّ وجلّ: ادخلوا عبدي جنّتي، واكسوه حلّة من حلل الجنّة وتوّجوه بتاج، فإذا فعل به ذلك عرض على القرآن.

فيقال له: هل رضيت بما صنع بوليّك؟ فيقول: يا ربّ إنّي أستقلّ هذا له فزده مزيد الخير كلّه. فيقول: وعزتي وجلالي وعلوّي وارتفاع مكاني، لأنحلنّ له اليوم خمسة أشياء مع المزيد له، ولمن كان بمنزلته، ألا إنّهم شباب لا يهرمون، وأصحّاء لا يسقمون، وأغنياء لا يفتقرون، وفرحون لا يحزنون، وأحياء لا يموتون.

ثم تلا هذا الآية: ﴿لَا يَذُوقُونَ فِيهَا الْمَوْتَ إِلَّا الْمَوْتَةَ الْأُولَىٰ﴾ [سورة الدخان: ٥٦]

قال: قلت: يا أبا جعفر، وهل يتكلّم القرآن؟ فتبسّم، ثمّ قال: رحم الله الضعفاء من شيعتنا، إنّهم أهل تسليم.

ثم قال: نعم يا سعد، والصلاة

تتكلّم، ولها صورة وخلق، تأمر وتنهي.

قال سعد: فتغيّر لذلك لوني. وقلت: هذا شيء لا أستطيع أن أتكلّم به في الناس. فقال أبو جعفر عليه السلام: وهل الناس إلاّ شيعتنا؟ فمن لم يعرف الصلاة فقد أنكر حقّنا.

ثمّ قال: يا سعد، أُسمعُك كلام القرآن؟ قال سعد: فقلت: بلى، صلى الله عليك. فقال: ﴿إِنَّ ٱلصَّلَوٰةَ تَنْهَىٰ عَنِ ٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۗ وَلَذِكْرُ ٱللَّهِ أَكْبَرُ﴾ [سورة العنكبوت: ٤٥] فالنهي كلام، والفحشاء والمنكر رجال، ونحن ذكر الله، ونحن أكبر(٢٤).

أقول: قد يستفاد من قوله عليه السلام في مقدمة الرواية: والناس صفوف عشرون ومائة ألف صف، ثمانون ألف صف أُمة محمد، وأربعون ألف صف من سائر الامم أن القيامة تقوم على حالٍ يكون فيه ثلثا الخليقة الإنسانية من المسلمين وثلثاً من سائر الامم، أو أننا إذا أردنا أن نحسب الامم من أول الخليقة إلى يوم القيامة، فإن المسلمين من أول الزمان إلى يوم القيامة ثلثا الامم وباقي الامم ثلث الناس.

والصفوف التي مرّ عليها القرآن الكريم في ذلك اليوم حسبما ذكرته الرواية عديدة، صف المسلمين، ثم الشهداء، ثم شهداء البحر ثم النبيون والمرسلون ثم الملائكة، وفي كل صف يمرّ عليه تتغير صورته إلى الصورة المناسبة لهم فمع المسلمين صورة في صورة رجل مسلم ومع النبيين في صورة نبي وهكذا

وكل واحد من هؤلاء الجماعة يعرفه بصفته ونعته لكن لا يعرفه باسمه ثم يرجع إلى صورة رجل شاحب، مع ذلك لا يعرفونه لكنه يؤدي مهمته، هذا في تجسم القرآن وكلامه والصلاة كذلك.

الطائفة الرابعة: القرآن رجل شاحب

جاء في الرواية المتقدمة إشارة إلى رجوع القرآن الكريم يوم القيامة إلى صورة رجل شاحب والشاحب: المتغيّر

(٢٤) الكافي ٢: ٥٩٦ ح١، بحار الأنوار ٧: ١٣١ ح٦ (قطعة) وص ٣١٩ ح ١٦ وج ٨٢/ ١٩٨ (قطعة)، وسائل الشيعة ٤: ٨٢٣ ح ١ (قطعة) ج ١٢: ٢٤٤ ح ١ (قطعة).

اللون من مرض أو خوف أو قلّة المأكل وقلة التنعم[٢٥].

وورد في الكافي عن أبي عبد الله عليه السلام قال: قال رسول الله صلى الله عليه وآله: تعلّموا القرآن فإنّه يأتي يوم القيامة صاحبه في صورة شابّ جميل، شاحب اللّون، فيقول له القرآن: أنا الذي كنت أسهرت ليلك، وأظمأت هواجرك، وأجففت ريقك وأسلت دمعتك، أؤول معك حيثما إلت، وكلّ تاجر من وراء تجارته، وأنا اليوم لك من وراء تجارة كلّ تاجر، وستأتيك كرامة من الله عزّ وجلّ، فأبشر، فيؤتى بتاج، فيوضع على رأسه، ويعطى الأمان بيمينه، والخلد في الجنان بيساره، ويكسى حلّتين.

ثمّ يقال له: اقرأ، وارق، فكلّما قرأ آية صعد درجة. ويكسى أبواه حلّتين إن كانا مؤمنين، ثمّ يقال لهما: هذا لما علّمتماه القرآن[٢٦]. وهذا الحديث صحيح السند، وقد التزم بصحة سنده العلامة محمد باقر المجلسي في مرآة العقول[٢٧].

ولعلّ المراد من "أنا لك من وراء تجارة كلّ تاجر "إنّي احصّل لك تجارة كلّ تاجر، أو أنا لك بعوض تجارة كلّ تاجر.

وأمّا قوله "والخلد في الجنان بيساره" فيجعلان في ملكيته، فاستعار اليمين والشمال لأنّ القبض والأخذ بهما.

وورد في التفسير المنسوب إلى الإمام العسكري عليه السلام أنّه قال رسول الله صلى الله عليه وآله: قال تعالى: ﴿هُدًى﴾ يعني هذا القرآن هدى ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة النمل:٢] يعني بشارة لهم في الآخرة، وذلك أنّ القرآن يأتي يوم القيامة بالرجل الشاحب يقول لربّه عزّ وجلّ: يا ربّ، هذا أظمأت نهاره، وأسهرتُ ليله، وقوّيت في رحمتك طمعه، وفسحت في مغفرتك أمله، فكن عند

(٢٥) مجمع البحرين ٢: ٨٦.

(٢٦) الكافي ٢: ٦٠٣ ح٣، وسائل الشيعة ٤: ٨٣٤ ح١ والسند هكذا: عن عدة من أصحابنا، عن أحمد بن محمد، وسهل بن زياد جميعاً، عن ابن محبوب، عن جميل بن صالح، عن الفضيل.

(٢٧) مرآة العقول ١٢: ٤٨٦.

ظنّي فيك وظنّه.

يقول الله تعالى: أعطوه الملك بيمينه، والخلد بشماله، وأقرنوه بأزواجه من الحور العين، واكسوا والديه حلّة لا تقوم لها الدنيا بما فيها.

فينظر إليهما الخلائق فيعظّمونهما، وينظران إلى أنفسهما فيعجبان منها، ويقولان: يا ربّنا، أنّى لنا هذه، ولم تبلغها أعمالنا؟

فيقول الله تعالى: ومع هذا تاج الكرامة، لم ير مثله الراؤون، ولا يسمع بمثله السامعون، ولا يتفكّر في مثله المتفكّرون.

فيقال: هذا بتعليمكما ولدكما القرآن، وتبصيركما إيّاه بدين الإسلام ورياضتكما إيّاه على حبّ محمّد رسول الله وعلي وليّ الله، وتفقيهكما إيّاه، لأنّهما اللذان لا يقبل الله لأحد إلاّ بولايتهما، ومعاداة أعدائهما عملاً، وإن كان ملء ما بين الثرى إلى العرش ذهباً تصدّق به في سبيل الله.

فتلك البشارات التي يبشرون بها، وذلك قوله عزّ وجلّ ﴿وَبُشْرَىٰ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ شيعة محمّد وعلي، ومن تبعهم من أخلافهم وذراريهم[٢٨].

وهذه رواية من طرق الجمهور عن عبد الله بن بريدة، عن أبيه، قال: كنت جالساً عند النبيﷺ فسمعته يقول: تعلموا سورة البقرة، فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا يستطيعه البطلة، ثمّ سكت ساعة، ثمّ قال: تعلّموا سورة البقرة وآل عمران فإنّهما الزهراوان، وإنّهما تظلان صاحبهما يوم القيامة كأنّهما غمامتان أو غيابتان أو فرقان من طير صواف، وإنّ القرآن يلقى صاحبه يوم القيامة حين ينشق عنه القبر كالرجل الشاحب.

فيقول له: هل تعرفني؟ فيقول: ما أعرفك.

فيقول: أنا صاحبك القرآن الذي أظمأتك في الهواجر، وأسهرت ليلك، وإن كلّ تاجر من وراء تجارته وإنّك اليوم من وراء كلّ تجارة، فيعطى الملك

(٢٨) التفسير المنسوب للإمام العسكري عليه السلام: ٤٥٠ ح ٢٩٧، بحار الأنوار ٩٢: ٣٢ ح ٣٤، مستدرك الوسائل ٤: ٢٤٦ ح١، البرهان ١: ١٣٣ ح١.

بيمينه والخلد بشماله، ويوضع على رأسه تاج الوقار، ويكسى والداه حلّتين لا تقوم لها الدنيا. فيقولان: بم كسينا هذا؟

ويقال لهما: بأخذ ولدكما القرآن، ثمّ يقال له: اقرأ واصعد في درج الجنّة وغرفها فهو في صعود ما دام يقرأ هذّاً كان أو ترتيلاً [٢٩].

قال الهيثمي في مجمع الزوائد بعد إيراد هذا الحديث: قلت: روى ابن ماجة منه طرفاً، ورواه أحمد، ورجاله رجال الصحيح.

ورد عن أبي أمامة، قال أمرنا رسول الله ﷺ بتعليم القرآن وحثنا عليه وقال: إنّ القرآن يأتي يوم القيامة أحوج ما كانوا إليه، فيقول للمسلم: تعرفني؟

فيقول من أنت؟ فيقول: أنا الذي كنت تحب، وتكره أن يفارقك، الذي كان يسحبك ويدنيك.

فيقول: لعلّك القرآن، فيقدم به على ربّه عزّ وجلّ فيعطى الملك بيمينه، والخلد بشماله، ويوضع على رأسه السكينة وينشر على أبويه حلّتان لا تقوم لها الدنيا فيقولان: لأي شيء هذا ولم تبلغه أعمالنا، فيقول: هذا بأخذ ولدكما القرآن [٣٠].

النظريات المحتملة

وبعد هذا العرض لمتون الروايات الواردة في مسألة تجسّم القرآن الكريم وتصوّره في القبر وفي الآخرة، نتعرض للنظريات المحتملة في هذه المسألة فنقول وبه الاستعانة:

النظرية الأُولى

إنّ المتصوّر يوم القيامة والآتي إلى الإنسان هو صورة القرآن الحقيقية، وهي عين صورته في الدنيا، غاية الأمر أنّ الإنسان لم يكن يراها في دار الدنيا، وكان يمنع من ذلك، وبعد الموت وارتفاع الحواجز والحجب ينكشف له واقع الأمر وحقيقته، ومن جملة تلك الحقائق المنكشفة حقيقة القرآن الكريم وواقعه، والدليل المقام على إمكان تصوير القرآن بهذه الصورة هو قياسه بالأعمال وتجسّمها في عالم الآخرة،

(٢٩) سنن الدارمي ٢: ٤٥٠ تفسير ابن كثير ١: ٣٥.

(٣٠) مجمع الزوائد ٧: ١٦٠.

بمعنى أنّ الأدلّة كما قامت على إمكان تصوير الأعمال التي يقوم بها الإنسان كالصلاة والصوم والزكاة في الآخرة بصورة رجل يدافع عن الإنسان في القبر ويشفع له يوم القيامة كذلك يمكن تصوير القرآن الكريم ومجيئه بصورة رجل يشفع للقاريء والحافظ والحامل، وهذا الرجل كان موجوداً في الدنيا بهذه الصورة، لكن النفس الإنسانية لا تراه في الحياة الدنيا للحجب وبالموت ترتفع الحجب فيراه.

النظرية الثانية

ما التزم به بعض كالمازندراني في شرح أُصول الكافي حيث قال: تصوير القرآن أمر ممكن، كتصوير الأعمال والأعراض بالأجسام، كما نطقت به رواياتنا وروايات العامة[٣١]. ومقصوده من تصوير القرآن هو تحويل القرآن الكريم إلى صورة متجسمة يوم القيامة كتحويل الأعمال إليها. ثم حكى ذهاب علماء المسلمين إلى إمكان ذلك، وأنّ القدرة الإلهية قادرة على مثل هذا الأمر حيث قال: وذهب إليه المحققون من الطرفين، فوجب أن لا يستبعد، ولا ينكر تعلّق القدرة القاهرة به[٣٢]. ولا بد من الإشارة إلى مسألة طريفة تستفاد من كلام المازندراني مفادها: أنّ تجسّم الأعمال كالصلاة والصوم والصدقة غير تجسّم القرآن، فهما شيئان متغايران، وكما أنّ الأول ممكن لأدلة بيّنت في محلها، كذلك يكون تجسّم نفس القرآن الكريم أمر ممكن.

وبعبارة أحسن: كما أنّ القدرة الإلهية تحوّل أفعال الإنسان كالصلاة والصوم والزكاة إلى صورة متجسّمة تدافع عن صاحبها وتشفع له في القبر والقيامة كذلك تتعلق القدرة الإلهية بتجسّم القرآن فيظهر في صورة تجسّمه تشفع وتدافع عن قارئه وحافظه.

وبالتنظير المتقدّم ثبت إمكان ظهور القرآن الكريم وبروزه بصورة جسم أو بصورة رجل يدافع عن صاحبه في عالم البرزخ والقيامة.

واختلاف النظرية الأُولى عن

(٣١)شرح أُصول الكافي للمازندراني ١١: ٥.

(٣٢)شرح أُصول الكافي للمازندراني ١١: ٥.

النظرية الثانية واضح، حيث إنّ النظرية الأُولى قائلة بأن ما يراه الإنسان يوم القيامة هو القرآن حقيقة، غاية ما في المسألة أن الإنسان لم تكن عنده قدرة على الرؤية، وبعد الوفاة تكون له القدرة عليها، وأما النظرية الثانية فإنها صريحة في تبدّل القرآن إلى شكل وجسم يوم القيامة ولا ربط للتبديل والتجسم بدار الدنيا.

النظرية الثالثة

المتصوّر بصورة في الآخرة ليس هو القرآن الحقيقي، ولا هو مثل القرآن، بل هو العمل القرآني، كالقراءة، والحفظ، والحمل، والكتابة، فالعمل القرآني هو الذي يظهر بصورة مدافعة عن الإنسان.

وعلى هذا فيكون المقصود من قوله: أنا القرآن، أو أنا السورة التي حفظتني، أنا عملك القرآني، أي قراءاتك القرآنية وحفظك القرآني، فكما أنّ العمل الصلاتي والصومي يتجسّم كذلك يتجسّم العمل القرآني.

فإن الشافع يوم المحشر هو القرآن إذا قريء، وبهذا أمكن إرجاع القرآن المتجسّم في القبر والآخرة إلى العمل القرآني، فيدخل في بحث تجسّم الأعمال، وكل دليل أُقيم على تجسّم الأعمال يشمل ما نحن فيه.

لكنّ الظاهر من كثير من الأخبار- وبالخصوص الروايات المبيّنة لشكاية القرآن الكريم من بعض أفراد الإنسان-أنّ المتصوّر والمتجسم يوم القيامة القرآن نفسه لا العمل القرآني.

النظرية الرابعة

التدبّر في الروايات الواردة في هذا المجال يلجئنا إلى القول بأن المراد من مجيء القرآن بصورة شاب جميل هو مجيء ذلك الرجل القاريء للقرآن الكريم في الحياة الدنيا، وقد أُضيف إليه هالة نورانية، وصفة كمالية عالية ظهر فيها فيستغرب من هذه الهيأة ويسأل من أين أتت لي هذه الهالة؟ فيقال له: أنا القرآن.

فقراءة القرآن تكسب الإنسان صفة البياض والجمال للقاريء وللحافظ، فقاريء القرآن وصفة النورانية واحد، وهي عبارة عن عارض ومعروض

عليه، وفي الآن نفسه الغيرية والمغايرة موجودة بين القاريء وبين العمل.

وصريح الروايات يؤيد ذلك، وآية ﴿نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ﴾[سورة التحريم: ٨]تدعم ذلك. وعلى هذا فيكون العمل القرآني أو القرآن قد أضاف هالة نورانية لذلك الشخص العامل به في الدنيا، وبهذه الإضافة تتحقق الاثنينية، والاستغراب من نفس العامل، وهذه الهالة النورانية هي الحاجز والحاجب عن عذاب القبر وهي الشافعة للأبوين في يوم القيامة.

النظرية الخامسة

أنّ الإنسان في القبر يعيش بخيالات وتصوّرات، وهذه الأمور المتخيلة قد تكون صوراً مفرحة، وقد تكون صوراً كريهة.

فالمسألة كلّها صور في صور، وخيالات في خيالات، غاية الأمر أنّ هذه الخيالات هي التي تعذّب الروح، وهي التي تسعد الروح لأجل ملازمتها الروح.

وهذه أضعف النظريات المحتملة، إذ أنّ الإنسان يعيش في القبر بحقائق وليس بخيالات وتصورات وإلا فإنه بناءاً على هذه النظرية يكون الإنسان في تخيلاته في القبر حاله حال شارب المخدرات.قال علي(عليه السلام): الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا ولا يكون الانتباه إلاّ الحقائق.

هذه جملة النظريات المتصوّرة في مسألة تجسّم القرآن.

وهنا اشارات

الإشارة الأُولى: إنّ الأخبار المبيّنة لصورة القرآن الكريم في الآخرة على أنحاء، بعضها في صورة رجل، وبعضها في صورة رجل جميل، وبعضها في صورة رجل شاحب اللون. فكيف يوفّق بين هذه الأخبار؟ وكيف تعطى صفة الشاحب للقرآن الكريم، وهو كلام الله تعالى؟ مع العلم أن الظاهر من كلمة الشاحب حسب ما فسرها اللغويون أنّه المتغيّر اللّون من مرضٍ أو خوفٍ أو قلّة المأكل وقلّة التنعم[٣٣] وقال ابن الأثير: والشاحب المتغير اللون

(٣٣)مجمع البحرين ٢: ٨٦.

والجسم لعارض من مرض أو سفر ونحوهما[٣٤].

وقد ذكر العلماء احتمالين لظهور القرآن بصورة الرجل الشاحب.

الأول: ما ذهب إليه المازندراني في شرحه على أُصول الكافي حيث قال: وكأنّ هذه الصورة هي التي حدثت بملامسة العصاة، وهي موجودة أيضاً في هذه الدار إلاّ أنها لا تراها الأبصار[٣٥].

ومقصوده: أنّ صورة القرآن جميلة جداً تتناسب مع كونه كلام الله تعالى، ولكن هذه الصورة أصابها الشحب بسبب فعل العصاة من المسلمين.

ولا يخفى عليك أن المازندراني التزم بالنظرية الثانية القائلة بتصوير القرآن كتصوير الصلاة والصوم وغير ذلك من الأعمال، والحال أنه هنا قال بأن حقيقة القرآن واحدة، لكن لا تراها الأبصار، وهو مفاد النظرية الأُولى.

الثاني: إنّ سبب ظهور القرآن بصورة الشاحب سماعه للوعيد الشديد باعتبار أنّ القرآن مخلوق من المخلوقات يصيبه ما يصيب العباد حين قيام الساعة، وإن كان الوعيد والوعد لا يخصه ولا يشمله، حيث إنّ الوعد والوعيد مؤثر في كلّ شيء من مخلوقات الله.

وقد نقل هذا الاحتمال المازندراني في شرح أُصول الكافي حيث قال: وقيل: سبب رجوعه إلى هذه الصورة سماعه الوعد والوعيد الشديد، وهو وإن كان على غيره، لكنّه لا يخلو من التأثير فيمن اطّلع عليه[٣٦].

وأمّا الأحاديث الحاكية بروز وظهور القرآن بصورة جميلة، فهي ناظرة إلى صورة القرآن الحقيقية المعبرة عن ذاته الحقيقية باعتباره كلام ربّ العزّة الحاوي لكلّ كمال وجمال، والله سبحانه وتعالى يلبس كلامه أحسن الصور وأجملها وأكملها.

الإشارة الثانية: هل الآتي في الآخرة القرآن الموجود بين الدفتين

(٣٤)النهاية في غريب الحديث ٢: ٤٤٨.
(٣٥)شرح أُصول الكافي للمازندراني ١١: ٧.
(٣٦)شرح أُصول الكافي للمازندراني ١١: ٧.

أو القرآن الموجود في اللوح المحفوظ أو القرآن الموجود في الصدور أو....

الظاهر من بعض جمل تلك الأحاديث أنّ الآتي يوم القيامة هو المحفوظ من القرآن في صدره، أو المداوم على قراءته بدليل قوله"اقرأ وارقأ وكلما قرأ صعد درجة». فالقرآن الباقي في ذاكرة الإنسان بعد موته هو الشفيع حسبما نفهم مما تقدم لا ذلك الموجود بين الدفتين.

قال ابن عربي: ظهر لبعض أهل المكاشفة صور سور القرآن فساطيط مائة وثلاث عشرة سورة وكان أمياً فقال: كنت أسمع أن القرآن مائة وأربع عشرة سورة فقيل له: قل هو الله أحد لا تسعها السماوات والأرض[٣٧].

(٣٧)فيض القدير شرح الجامع الصغير ٤: ٦٨٠.

ورؤيا أهل المكاشفة لا اعتماد عليها إن لم تكن مؤيّده بدليل قرآني أو روائي يثبت إمكان ذلك، وأما مسألة الوقوع وعدمه فتبقى موكولة إلى صدق الراوي وعدمه. هذا غاية ما نقوله في مسالة تجسّم القرآن الكريم والظاهر من مجموع الأدلة الروائية أنّ الآتي يوم القيامة هو القرآن الكريم نفسه، وإن كان لبروز العمل القرآني وظهوره من قراءة أو حفظ وغير ذلك وجه وجيه أيضاً، وعليه فلا مانع من أن يكون التجسّم للقرآن وللعمل القرآني، أسأله سبحانه أن يرزقنا شفاعة القرآن يوم الورود وأن يجعله مدافعاً عنّا يوم لا ينفع مال ولا بنون.

ملخص البحث

محاولة ناجحة لتصوير موقف القرآن الكريم من مسألة الطغيان والطغاة والظلم والظالمين على وفق ما سنّه التاريخ من اعتبارات وردت صريحة في القرآن الكريم بدءاً من قصة ابني آدم ومروراً بيحيى بن زكريا والحسين الشهيد عليهما السلام واعتداءات الدولة الأموية على رموز الاسلام و انتهاءاً بما تفعله الصهيونية العالمية اليوم في القدس وما تُعامِل به المسلمين في فلسطين. والسيد الباحث في كل ذلك يخلص الى أن النصر حليف المظلوم إن عاجلاً أم آجلا اذا اخلص دعاءه لله باستنزال النصر.

وأفاض في شرح سبل استجابة دعائهم ونصرهم على اعدائهم، وضرب لذلك أمثالاً من التاريخ مما ورد في القرآن الكريم ومصادر التاريخ المعتمدة.

الطغاة وسنن التاريخ في ضوء القرآن
مَشاهِدُ الصِّراعِ

الشيخ موسى نصار
النجف الاشرف - العراق

التعريف اللغوي:

الطاغية: من جاوز الحد ،وكل مجاوز حده في العصيان فهو طاغ[1] أو كل شيء جاوز القدر وعلا فقد طغى، ومنه تجاوُزُ الحد في العصيان أو المغالاة في الكفر والبغي.

في اللفظ القرآني: الطاغية أسم مؤنث، كالعاقبة والعافية، وجاء في القرآن في هلاك ثمود :بصيغة العذاب إذ ورد أنهم «أهلكوا بالطاغية» وهلاك ثمود بالطاغية معناه بطغيانهم، والتاء للمبالغة.

والطاغية أيضاً: الذي يسرف في الظلم والمعاصي، وقد أستعير اللفظ للأحمق المستكبر، والجبار العنيد[2] وعند الراغب لكل متعد وكل ما يُعبد من دون الله، أو شخص يكون رأساً في الضلال[3] وكذلك الطاغوت يطلق على الواحد والجمع، والمذكر والمؤنث، وهو كل معبود من دون الله أو شخص يكون رأساً في الظلال[4]

وقد وردت المادة في القرآن على معنيين: المعنى الحسي، طغيان الماء، والمعنوي

(١)الجوهري : الصحاح ج٢/ ص٢٤ (مادة : ط غ ى).

(٢) مجمع اللغة العربية : معجم الفاظ القرآن الكريم المجلد الثاني ص ١٣٧.

(٣) الراغب : المفردات ص ٣٠٥.

(٤) أتفق القدماء والمحدثون على أن «الطاغوت» معربة من الحبشية وهي في الأصل لبعض المعاني التي ذكروها، ولا مانع عندهم من التوسع في أستعمالها بعد التعريف/ معجم ألفاظ القرآن / ج٢ص١٣٧.

طغيان «الطغاة» وموضوعنا يتناول المعنوي، والـذي يشمل تصور القرآن الكريم «للطغاة» في حدود السنن القرآنية والأمثلة في سنن التاريخ كثيرة لا يمكن حصرها، ولكن الـذي يهمنا في البحث بعض الأمثلة الحاكية للطغاة المتفاعلة مع حركة التاريخ في ضوء ما ذكره القرآن سواء كانت قبل الأسلام أم بعده، فالتداخل في الدلالة على الحدث يحصل في أكثر أنماط السنن القرآنية.تركيزاً على الرموز الفاعلة في الحدث فتظهر الصورة برموزها معبرة عن الصراع في حالة التضاد بين التوحيد والوثنية ممثلة في الطغاة ومن قابلهم من أصحاب الأديـان من الأنبياء ومن على شاكلتهم من المصلحين فالقرآن الكريم أعطانا صـوراً واضحة عن الصراعات المتضادة الماثلة في صراع ثنائية التوحيد والـشرك أو الخير والـشر وهما يتفقان في المعنى دون اللفظ، فالخير: من معانيه في المصطلح القرآني «الحق» وهو التوحيد أيضاً والـشر: هو «الباطل» وهو الشرك أيضاً، وقد مثل القرآن الكريم في قوله تعالى ﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ ﴾[سورة الأنبياء: ١٨].

تضم الأية مفردات لغوية بمجموعها تشكل المعنى المطلوب، وهو دلالة على علوّ الحـق عـل الباطل في صراع في ما تقتضيه الحياة، وهو صراع أزلي منذ أن خلق الله الأنسان وأسكنه الأرض وقام في عمارتها بعقله وتدبيره لقوله تعالى ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ [سـورة هود: ٦١] أي جعلكم عُمّار الأرض بأن مكنكم من عمارتها[٥] والتمكين في الشيء التسلط عليه يتصرف فيه وتنطلق يده فيه[٦]، فكأن من سنن الحياة البقاء وسنن البقاء التزاحم الذي في طبيعته يظل حادثاً للصراع بين ما هو حق وما هو باطل، ومن سنن الله في عباده حماية «الحق» ودحض «الباطل» ولـذا أشـار الله بالأية الى سنته تعالى في حماية «الحق» أن يرمي «بالحق» على «الباطل» رمياً بعيداً فيهلكه فيكون نصيبه التلف والذهاب، فإن كان «الباطل» يحمل حجة أو عقيدة فحجة «الحق» تبطلها ،وإن

(٥)الطبرسي : مجمع البيان ج ٥ ص ١٧٤.
(٦)مجمع اللغة العربية : معجم الفاظ القرآن الكريم المجلد الثاني ص ٢٤٧.

كان الباطل عملاً وسنة.

- كما في عمل الطغاة والجبابرة- «فالحق» يستأصله ويبطله.

ويظهر من الآية حقيقة الرجوع الى الله تعالى والتوكل عليه وهو أنه تعالى لا يزال يقذف «بالحق» على «الباطل» فيحق «الحق» ويخلّصه من «الباطل» الذي يشوبه أو يخفيه حتى لا يبقى إلا «الحق» المحض وهو الله «الحق» عزّ أسمه[٧] قال ﴿وَيَعْلَمُونَ أَنَّ اللَّهَ هُوَ الْحَقُّ الْمُبِينُ﴾[سورة النور: ٢٥].

إذن فالصراع بين ثنائية «الخير والشر» يحمّل الأنسان عبء الدفاع عن «الحق»، وأكثر ما ركز القرآن على رمزية «التوحيد» لأنها حق بوصفها أكثر مجالات الصراع في القرآن كثافة. صراع التوحيد مع الشرك أي بين «الحق» و«الباطل» حيث أن التوحيد،وهو جوهر العقيدة، ليس إلا رفضا للعبودية للبشر في مختلف ضروبها وأشكالها، وهذا تحرير للأنسانية من مهانة الرق بكل أشكاله والأستعباد بكل أطواره، ومن فتنة تقديس الزعماء والأبطال والرؤساء الحكام وأغلال الخوف من الجبابرة والطغاة[٨] الذين ملأوا الأرض ظلماً وفساداً.

لذا عمدنا في بحثنا الى الأستبصار بمعطيات سنن التاريخ في ظل القرآن وفق ما جاء في الآية الكريمة التي خاطب الله تعالى بها نبيه ﷺ قائلاً: ﴿تِلْكَ مِنْ أَنبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهَا إِلَيْكَ مَا كُنتَ تَعْلَمُهَا أَنتَ وَلَا قَوْمُكَ مِن قَبْلِ هَٰذَا﴾[سورة هود :٤٩] وهي سنن الذين من قبلكم سواء كانوا على حق أم على باطل حتى تكونوا على بصيرة من أمركم، وهو الأهتداء الى الحق لقوله تعالى ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ﴾[سورة النساء: ٢٦] وفي هذا المضمار تناولنا في البحث مشهدين من مشاهد القرآن يحكيان قصتين تدل دلالتهما التاريخية على أنموذجين من الصراع «الخير» و«الشر» كان لهما الأولوية التاريخية في السبق.

المشهد الأول الصراع الوجودي:

كانت أولى المعطيات التاريخية في

(٧)الطباطبائي : الميزان ج١٤ ص٢٦٤.

(٨)عائشة عبد الرحمن : الشخصية الأسلامية دراسة قرآنية ص١٨٤.

القرآن قد جاءت في سباق الصراع الوجودي الذي نشب على الأرض من بني ادم عليه السلام جاء ضمناً في الحوار القرآني بين الله سبحانه وملائكته في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً قَالُوٓاْ أَتَجْعَلُ فِيهَا مَن يُفْسِدُ فِيهَا وَيَسْفِكُ ٱلدِّمَآءَ وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ قَالَ إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٠] في هذا المشهد الحواري تستكمل الحقيقة أدوارها، حيث أقتضت حكمة الله تعالى أن يستخلف الأنسان في الأرض لتتعين الغاية من وجوده عليها أما تثبيت هذه الحقيقة وتوكيدها، فهو ما يجري بأرادته تعالى في السماء والأرض لأن أدم عليه السلام لم يخلق ويستخلف عبثاً وإنما تكون مهمته الأولى بحسب خلافته عن الله تعالى أن يقوم بعمارة الأرض وأصلاح ما فسد فيها وهي سنة جارية على كل نبي أو مصلح أستخلف أن يقوم في عمارة الأرض وسياسة الناس.[٩] أما المهمة الثانية، فتكتمل فيها العلاقة بين الطرفين: الحكم والعدل، ويكمل الواحد منهما الأخر، في أقامة الحكم العادل في ربوع الأرض وبذلك سمي خليفة لأنه يخلف الله في أرضه لأقامة حدوده وتنفيذ ما يقتضيه عدله.

ولعل هذا المحور النظري القرآني الرائد يظل منطلقاً لمعظم الرسالات التي أراد الله تعالى تطبيقها في الأرض عند دخول الأنسان طور المعرفة حيث لا تتم الحياة في الأرض ويكتمل البقاء فيها إلا بالاجتماع والتعاون فلا تخلو من فساد وسفك دماء.[١٠] ولما عرفت الملائكة الحكمة من هذا الأستخلاف، وهو عمارة الأرض والحكم بالعدل، ظلت المعرفة عندهم ناقصة، كأنهم غفلوا عن معرفة ما في هذا المستخلف من أسرار مودعة فيه ولم تكن موجودة في غيره فضلاً عن أن يكون حجة الله في الأرض على خلقه، قال تعالى ﴿إِنِّيٓ أَعْلَمُ مَا لَا تَعْلَمُونَ﴾ أي أعلم من المصالح في ذلك ما هو خفي عليكم[١١] ولكن هناك أمراً لم تطلع عليه الملائكة قد

(٩) الآلوسي : روح المعاني ج١ ص٢٢٢.

(١٠) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج٢ ص١٦٨.

(١١) الزمخشري : الكشاف ج١ ص١٢٥.

خفي عنهم في هذا المستخلف في الأرض ؛ أن الله سبحانه علمهُ أسماءاً ولم يعلمهم، ولو علمهم إياها كانوا مثل أدم أو أشرف منه[١٢] قال تعالى: ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ثُمَّ عَرَضَهُمْ عَلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ فَقَالَ أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ [سورة البقرة: ٣١].

ولكن ما المراد من هذه الأسماء التي أودعها الله في آدم ولم يعلم بها أحد إلا الله تعالى؟ الأمر الذي عجزت عنه الملائكة لعدم إحاطتهم بمراتب الغيب؟ إذن فالمفيد أن الأسماء أمور غائبة عن العالم السماوي والأرض، خارج محيط الكون[١٣] وهي جزء من مبدأ ثبات السنن الأهية التي يجري عليها نظام الكون.ولكن السؤال الذي تفرضه الأية المباركة.ما هي حقيقة تلك الأسماء وما هي معرفة ذواتها وخواص صفاتها؟ وهل كان لهذه الأسماء لها وجود عيني، وهي مع ذلك مستورة تحت ستر غيب السماوات والأرض؟ إذن لماذا أودعها الله في أدم هل لكونه في مقام الأبوة والبنوة، حتى يصير أصلاً لها؟ كل ذلك أختلف فيه المفسرون، ولكن بعضهم ألمح لها عن بعد في ضوء الأهتداء القرآني فتحصلّ عنده أن هؤلاء الذين عرضهم الله تعالى على الملائكة موجودات عالية محفوظة عند الله تعالى، محجوبة بحجب الغيب، أنزل الله سبحانه كل أسم في العالم بخيرها وبركتها وأشتق كل ما في السماوات والأرض من نورها وبهائها، وأنهم على كثرتهم وتعددهم لا يتعددون تعدد الأفراد، ولا يتفاوتون تفاوت الأشخاص، وإنما يدور الأمر هناك مدار المراتب والدرجات ونزول الأسم من عند هؤلاء إنما هو بهذا القسم من النزول[١٤].

وتأكيد على هذا الطرح جاء في المعاني عن الأمام الصادق -عليه السلام-: إن الله تبارك وتعالى علّم أدم أسماء حججه كلها ثم عرضهم وهم أرواح على الملائكة فقال: ﴿أَنۢبِـُٔونِى بِأَسْمَآءِ هَٰٓؤُلَآءِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴾ بأنكم أحقّ بالخلافة في الأرض -لتسبيحكم وتقديسكم -من

(١٢) الطباطبائي : الميزان ج١ ص ١١٧.
(١٣) الطباطبائي : الميزان ج١ ص١١٧.
(١٤) الطباطبائي : الميزان ج١ ص١١٨.

آدم، فقالوا: ﴿سُبْحَانَكَ لَا عِلْمَ لَنَا إِلَّا مَا عَلَّمْتَنَا إِنَّكَ أَنْتَ الْعَلِيمُ الْحَكِيمُ﴾ قال الله تبارك وتعالى ﴿يَا آدَمُ أَنْبِئْهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ فَلَمَّا أَنْبَأَهُمْ بِأَسْمَائِهِمْ﴾ وقفوا على عظيم منزلتهم عند الله-عز ذكره-فعلموا أنهم أحق بأن يكونوا خلفاء الله في أرضه، وحجته على بريته ثم غيبّهم عن أبصارهم، وأستعبدهم بولايتهم ومحبتهم وقال لهم: ﴿أَلَمْ أَقُلْ لَكُمْ إِنِّي أَعْلَمُ غَيْبَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَأَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا كُنْتُمْ تَكْتُمُونَ﴾[سورة البقرة: ٣٣].

المشهد الثاني بد الصراع الأبدي بين الخير والشر:

إنَّ أستكمال حركة التاريخ على الأرض تتفق مع الغرض القرآني بالقدر الذي يرصد حركة الجيل الأول للآدمية في بدأ الصراع الأبدي بين الخير والشر على هذه الأرض، وتحقق ما توقعت الملائكة من إفساد فيها وسفك للدماء من أبناء أدم، طوّعت لأحدهما نفسه الأمارة بالسوء قتل أخيه، غيرة وحسداً، فقتله فأصبح من الخاسرين، ثم ثابت إليه نفسه اللوامة فأصبح من النادمين، قوله تعالى: ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ابْنَيْ آدَمَ بِالْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنْ بَسَطْتَ إِلَيَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِي مَا أَنَا بِبَاسِطٍ يَدِيَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّي أَخَافُ اللَّهَ رَبَّ الْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّي أُرِيدُ أَنْ تَبُوءَ بِإِثْمِي وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَابِ النَّارِ وَذَلِكَ جَزَاءُ الظَّالِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُ نَفْسُهُ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُ فَأَصْبَحَ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة المائدة: من ٢٧-٣٠] كيف قتله؟ بالضرب أو بالخنق؟ وفي أي موضع من الأرض كان مسرح هذا المشهد الفاجع؟ وبأي لسان كانت الخصومة والحوار ؟

ذلك ما لم يعلق القرآن بذكره، بل لم يعلق كذلك بذكر أسمي أبني آدم، القاتل والمقتول؟ وكم كان عمر كل منهما، وأيهما أكبر من أخيه[١٥] القاتل أم المقتول؟ ولماذا قتل أخاه؟ وعلى أي شيء قتله فالأية تنبيء عن ذلك ﴿إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ الْآخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ كل واحد منهما قدم

(١٥) عائشة عبد الرحمن: الشخصية الأسلامية دراسة قرآنية ص٤٧.

إلى الرب تعالى شيئاً يتقرب به القائل الأول هو القاتل والثاني هو المقتول، وسياق الأية يدل على أنهما علما تقبل قربان أحدهما وعدم تقبله من الآخر وأما أنهما من أين علما ذلك؟ أو بأي طريق أستدلوا عليه؟ فالأية ساكته عن ذلك، إلا أنها أظهرت حقيقة النزاع.

وفي الأية بيان لحقيقة الأمر في تقبل العبادات والقرابين موعظة وبلاغ في أمر القتل والظلم والحسد وثبوت المجازاة الألهية وأن ذلك من لوازم الربوبية لأنها لا تتم إلا بنظام متقن بين أجزاء العالم يؤدي الى تقدير الأعمال بميزان العدل وجزاء الظالم بالعذاب الأليم ليرتدع عن ظلمه أو يجزي بجزائه الذي أعده لنفسه وهو النار[16].

وتركيزاً على موضوع العبرة في قِدَم الصراع بين الخير والشر، وما تنزع إليه الآدمية من عواطف وأهواء، توطئة لأساس التشريع الديني في المجتمع البشري[17] ﴿أَنَّهُۥ مَن قَتَلَ نَفْسًۢا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِى ٱلْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾[سورة المائدة: ٣٢].

إذن وجه الأستفادة من هذا المشهد المأساوي دلالة المفارقة بين الأهتداء والضلال: فالأهتداء إحياء البشرية والضلال موتها وفي الأعتبار أول طاغية ضل في الأرض وسن القتل فيها هو ذلك الأنسان الطاغي الظالم.

المشهد الثالث: طاغية عصر النزول.

الطاغية الذي له أولوية السبق في تاريخ الوثنية القرشية هو الوليد بن المغيرة المخزومي الذي عرف عنه انه من أهل البلاغة والفصاحة في قريش، وقد أدرك بفطرته هذا المعجز البلاغي عندما سمع شيئاً من القرآن فعرف من دقة المعنى وجزالة اللفظ والإلزام البياني الذي توحيه طبيعة الكلمة المتميزة بصفتها والبائنة بنفسها تأثر لسماعه تأثراً وجدانياً، فوجد فيه مالا يوجد في غيره من الكلام، وقد أحكمت آياته إحكاماً استوفت ما في البلاغة من صناعة، وقد خُلق في اللغة خلقاً إلاهياً وليس صناعة أنشائية، فلا عجب إن أظهرت تلك الكلمات التي

(١٦)الطباطبائي: الميزان ج٥ ص ٣٠٠و٣٠١.
(١٧)عائشة عبد الرحمن: الشخصية الأسلامية دراسة قرآنية ص٤٧.

سمعها قوة في الدلالة على عجزه.

بهذه الصورة البلاغية تحدى القرآن طغاة قريش، وفيها رسم المشهد التاريخي الذي يحكي موقف الوليد الوجداني باعتبار قدرته البلاغية وفصاحته اللغوية على التمييز والتدبر على إعطاء البعد الأختياري قيمة مطلقة في الدلالة على ما جاء به القرآن من تعجيز بلاغي ثم وجد نفسه أمام كلمة الفصل «الإقرار بسحر القرآن له».

ذكر أصحاب التواريخ والسير أن الوليد بن المغيرة سمع شيئاً من القرآن الكريم فكأنه رق له فقالت قريش، صبأ والله الوليد ولتصبؤن قريش كلها، فأوفدوا إليه أبا جهل يثير كبرياءه واعتزازه بنسبه وماله ويطلب أليه أن يقول في القرآن قولاً يعلم به قومه أنه له كاره قال: فماذا أقول فيه؟ فوالله ما منكم رجل أعلم مني بالشعر ولا برجزه ولا بقصيده ولا بأشعار الجن والله ما يشبه الذي يقوله شيئاً من هذا. والله: إن لقوله لحلاوة، وإن عليه لطلاوة، وإنه ليحطم ما تحته، وإنه ليعلو وما يعلى.

قال أبو جهل: والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه قال: فدعني أفكر فيه. فلما فكر قال: إن هذا إلا سحر يؤثر. أما رأيتموه يفرق بين الرجل وأهله وموالية فتفرقوا كلهم وجلسوا على السُّبل يحذِّرون الناس(١٨).

في هذه الواقعة التاريخية تحدى القرآن طاغية من طغاة قريش فمثل دوره قائلاً: ﴿إِنَّهُۥ فَكَّرَ وَقَدَّرَ ﴿١٨﴾ فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿١٩﴾ ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ ﴿٢٠﴾ ثُمَّ نَظَرَ ﴿٢١﴾ ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ ﴿٢٢﴾ ثُمَّ أَدْبَرَ وَٱسْتَكْبَرَ ﴿٢٣﴾ فَقَالَ إِنْ هَٰذَآ إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ [سورة المدثر: ١٨-٢٤] وقد انحسر دور طغاة الوثنية القرشية بكلمة التوحيد، وجاء دور طغاة القرشية المتسلمة فكان الصراع بين كلمة الحق وجولة الباطل قائماً على أشده فأستشهد من أستشهد ولم يفرطوا بكلمة الحق وإن كانوا تحت سطوة إرهاب الطغاة، فصدق فيهم حديث رسول الله ﷺ «ما تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس»(١٩).

(١٨) أختلفت الفاظ النص بأختلاف الروايات ولكنها في جميعها تحكي قصة الوليد وقوله في القرآن إنه سحر/ أنظر ابى هشام: السيرة النبوية ج١ س٢٨٨و٢٨٩.

(١٩) عن عائشة عبد الرحمن الشخصية =

الطغاة الحاكمون وسنن الطغاة التاريخ

المشهد الرابع صراع الطغاة :

لما كان الإسلام دين الدولة فقد حدد صورة الحكم في قوله تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِي ٱلۡأَمۡرِ مِنكُمۡ﴾[سورة النساء: ٥٩] ثم بين صفة الحاكمين الذين يخرجون على حدود الشريعة، قوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمۡ يَحۡكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡكَٰفِرُونَ﴾ [سورة المائدة: ٤٤] ثم قال مؤكداً على صفة الكافرين بصفات أخرى قوله تعالى: ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ﴾[سورة المائدة: ٤٥] ثم قوله تعالى ﴿فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ﴾[سورة المائدة: ٤٧] وإذا سلمنا جدلاً-وهو غير ثابت حتماً-أن أولي الأمر هم الحكام الذين تلبسوا بالحكم سوف يكونون قادة الأمة ويحكمون بما أنزل الله، وقد ظهر من الوقائع التاريخية قديماً وحديثاً وما جرى فيها من أحداث تثبت أن حكمهم بخلاف ما أنزل الله.أذن هم خالفوا أمر الله فاستحقوا التوصيف الثلاثي «الكافرون والظالمون، والفاسقون» وهي صفات مختلفة حاصلة لموصوف واحد[٢٠] وهم الحاكمون بغير شرعة الله التي أخرجها لعباده لذا أصيبت الأمة من جراء قيادتهم لها وحكمهم فيها بخيبة أمل بالغة المرارة ولم يكن التاريخ في يوم ما بعيداً عن تصرفاتهم المخلة بمنظومة قيم الإسلام ومبادئه الإصلاحية، ولم تخل حقبة من وقائع حكمهم إلا وكانت مزدحمة بأشد المآسي والآلام حتى أصبح مجرد التفكير في الحياة الكريمة في ظل حكمهم جريمة لا تغتفر.

ظلت تلك المعاناة للحياة الكريمة على مدى عصور طويلة عرضة للمآسي والنكبات، من جراء الإرهاب السلطوي، قتلاً وتشريداً وتآمراً، أمتزج حكمهم الطاغوتي بروح الخداع والتظليل، والمساومة ولكن البعض من الذين ينشدون العيش الكريم لم يخدعوا ولم يضللوا ولم يساوموا وان كان منهم من لم يستطيعوا التغيير بما كلفوا به من أمر ونهي، فإن الله مع المستضعفين يثيبهم على ما صبروا وينجي المتقين لقوله تعالى: ﴿وَأَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَكَانُواْ يَتَّقُونَ﴾[سورة النمل: ٥٣].

= الأسلامية دراسة قرآنية ص ١١٣.

(٢٠) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج١٢ ص١٠.

وصف رسول الله هؤلاء الطغاة في حديث رواه الهيثمي في مجمعه بسند عن معاذ بن جبل قال سمعت رسول الله ﷺ يقول: «ألا إن رحى الإسلام دائرة، فدوروه مع الكتاب حيث دار، إلا إن الكتاب والسلطان سيفترقان، فلا تفارقوا الكتاب إلا إنه سيكون عليكم أمراء يقضون لأنفسهم، ما لا يقضون لكم، فإذا عصيتموهم قتلوكم، وان أطعتموهم أضلوكم».

قالوا: يا رسول الله كيف نصنع؟ قال: كما صنع أصحاب عيسى بن مريم نشروا بالمناشير وحملوا على الخشب، موت في طاعة خير من حياة في معصية الله[٢١].

أذن الكتاب والسلطان الجائر في تضاد دائماً، الكتاب يهدي للتي هي أقوم، والسلطان يهدي إلى الضلال والجور، فالحديث يعطي صورة جهادية للمؤمنين حتى لا تجف منابع العدل في الأرض، وهي كرامة ليست للناس بعامتهم بل خص الله بها الأولياء الصابرين المضحين في سبيله وهم يرون الموت بطاعة الله خير من الحياة بمعصيته، وجسد هذا الحديث قوماً-على كثرتهم-عملوا على امتثال قول رسول الله منهم الصحابي حجر بن عدي الكندي[٢٢] الذي استشهد من اجل الكرامة في الصراع الذي دار بين الأمويين ومبادئ الإسلام، وهو أول شهيد وقع من صرعى الطغاة.

(٢١) الهيثمي : مجمع الزوائد ج٥ ص٢٣٠.

(٢٢) حجر بن عدي الكندي الكوفي صحابي قتله معاوية سنة ٥١هـ-٦٧١م ذكر ابن سعد في طبقاته قال: إن حجر بن عدي وفد مع أخيه هاني إلى الرسول ﷺ مسلماً، فكان إسلامه بداية صحبة مباركة، وفاتحة درب جهادي طويل، سمع من الرسول ﷺ أحاديث شريفة حفظها فكانت جزءاً من السنة النبوية المتبعة.
كان سبب قتله، روي أن زياداً خطب يوماً في مسجد الكوفة فأطال الخطبة وأخّر الصلاة فقال له حجر: الصلاة فمضى في خطبته ثم قال مرة أخرى: «الصلاة» فمضى في خطبته فلما خشي حجر فوت الصلاة، ضرب بيده إلى كف من الحصى وحصب به زياداً وثار إلى الصلاة وثار الناس معه، فلما رأى ذلك زياد نزل فصلى بالناس ولما فرغ من صلاته كتب لمعاوية في أمره وكّثر عليه، فكتب أليه معاوية أن شدّه في الحديد ثم أحمله إليّ بعث زياد بحجر وأصحابه إلى معاوية فأنزلهم مرج عذراء وأمر بقتلهم ولم يدخلهم مدينة دمشق خوفاً من أن يعرف الناس حقيقة ما يفعل بالمسلمين/ الطبري: ج٥ ص٢٥٦.

ولما كان الرسول ﷺ قد حدد مسيرة الأمة وأخلاقياتها وضرب مثلاً من القرآن في السلوك محذراً من أتباع سنن الأمم المتقدمة والأخذ بها قائلاً: «لتتبعن سنن الذين من قبلكم شبراً بشبر وذراعاً بذراع حتى لو دخلوا جحر ضَب لاتبعتموهم، قلنا: يا رسول الله، اليهود والنصارى؟ قال: فمن ؟»[٢٣].

هذا التحذير أريد منه تجنب المماثلة في أتباع سنن اليهود الذين قتلوا الأنبياء وأولادهم حتى بلغ بهم الأمر أنهم مثلوا بالكثيرين منهم، وذلك بسلخ جلودهم وهم أحياء، وقطع رؤوسهم والتمثيل بهم كما حدث لنبي الله يحيى بن زكريا عليه السلام الذي نشروه بالمناشير وهو حي وأهدوا رأسه إلى بغي من بغايا بني إسرائيل قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ النَّبِيِّينَ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾[٢٤] [سورة البقرة: ٦١].

وهذا التوصيف في الحديث حذر منه رسول الله ﷺ فوقع قطعاً بعد وفاته فكان مصداقاً للآية القرآنية وما تضمنه الحديث في أتباع سنن الأولين، وهي صورة من حركة التاريخ في الطرح القرآني والنبوي في أظهار بعض الحوادث المأساوية التي لجأ إليها الطغاة واتخذوا منها مثلاً للتحدي أتضح أثره الجاهلي بعد وفاة رسول الله، فكانت مسيرة هؤلاء الطغاة في الأمة مماثلة لمسيرة الأمم الغابرة التي تحدث عنها القرآن الكريم وأشار أليها الحديث النبوي الشريف.

ظل حديث رسول الله ﷺ مدار بحث للمسلمين عن من يمثل هؤلاء اليهود الذين قتلوا الأنبياء وأولادهم في اتّباع سنتهم من المسلمين، وإذا بالمشهد يعود تاريخه مرة أخرى، فكان أول تآمر حدث على رسول الله من قريش على قتله في مكة، إلا أن الله عصمه منهم فلم يفلحوا، واجتمعوا على حربه في المدينة بقيادة أبي سفيان وفشلوا، ولكنهم نجحوا بعد وفاته ﷺ في تعقب ذريته وأبنائهم بالقتل والتنكيل والتشريد، فكان أول الضحايا منهم ريحانة رسول الله[٢٥] وسيد شباب

(٢٣) المقريزي : النزاع والتخاصم ص١٦.
(٢٤) انظر مجلة المنهاج السنة الثانية عدد ٣ ص٧٢.
(٢٥) بن حنبل : المسند ج٥ ص٥٢.

أهل الجنة[٢٦] الحسن بن علي عليه السلام قال المسعودي متحدثاً عن قتل معاوية للأمام الحسن مسموماً نقل عن جعفر بن محمد عن الحسن لقد سقيت السم عدة مرات فما سقيت مثل هذه[٢٧] وكان معاوية يستعين على التخلص من خصومه وتصفيتهم في دس السم لهم ممزوجاً بالعسل، كما فعل بمالك الاشتر[٢٨] في دس السم له وبعد وفاته (رض) قال معاوية كلمته المشهورة «أن لله جنوداً من عسل».

أما الحدث الأعظم الذي هز مشاعر المسلمين جميعهم فهو استشهاد سيد شباب أهل الجنة وريحانة رسول الله[٢٩] الحسين بن علي عليه السلام في عرصات كربلاء فكانت فعلة ما أبشعها في التاريخ قتل فيها الحسين عليه السلام وأهل بيته، وأصحابه وسبيت نساؤه، فكان استشهاده عليه السلام مصداقاً لسنن التاريخ التي اخبر عنها القرآن، في قتل أولاد الأنبياء، وحذر منها رسول الله، فكان يمائله في بشاعة القتل، من أبناء الأنبياء يحيى بن زكريا الذي نشر بالمناشير وهو حي واهدي رأسه إلى بغي من بغايا بني إسرائيل، والحسين رضت أضلاعه حوافر الخيل[٣٠] وجراحاته تشخب دماً، وحمل رأسه إلى بغي من بغايا بني أمية، حتى انتهكت فيه حرمة الله وحرمة رسوله، فكان وقع المأساة

(٢٦) بن حنبل : المسند ج٣ ص٨٢.

(٢٧) قال المسعودي: أن امرأته جعده بنت الأشعث بن قيس سقته السم وكان معاوية قد دس أليها أنك أن احتلتي في قتل الحسن وجهت أليك بمائة ألف درهم وزوجتك بيزيد فكان ذلك حتى بعثها على سمه فلما مات وفى لها بالمال ولم يف لها بالزواج من يزيد/ المسعودي : مروج الذهب ج٢ ص٥٠.

(٢٨) بعد توليه مالك على مصر من قبل أمير المؤمنين علي بن أبي طالب عليه السلام كتب معاوية إلى رجل من أهل الخراج قال له : أن الاشتر قد ولي مصر، فأن أنت كفيتنيه لم أخذ منك خراج ما بقيت، وخرج إلاشتر من العراق إلى مصر فلما أنتها الى القلزم أستقبله الرجل وقال : هذا منزل، وهذا الطعام وعلف لدوابك منزل الاشتر فاتاه بعلف وطعام، حتى أذا طعم أتاه بشربة من عسل قد جعل فيها سماً فسقاه إياه، فلما شربها مات، فلما سمع معاوية قال : كانت لعلي يمينان، قطعت أحدهما يوم صفين-يعني = عمار بن ياسر-وقطعت الآخرى اليوم- يعني الاشتر -أنظر الطبري: تاريخ الأمم والملوك ج٥ ص٩٦.

(٢٩) الامام احمد: المسند ج٣ ص٨٢.

(٣٠) ابن جرير الطبري: تاريخ الرسل والملوك ج٥ ص٤٥٥ وابن الأثير ج٤ ص٨٠.

على المسلمين عظيماً تجاوز الحد في بشاعتها، ولكن ظل الحدث العظيم بجراحه أقوى وأوسع امتداداً يتردد صداه في أعماق الزمن. قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَمَعَ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾ [سورة العنكبوت: ٦٩].

أذن الجهاد في الآية ليس جهاد التكليف لرد ألاعتداء والدفاع عن النفس، وإنما جهاد الطاعة للذين يتقون في دينهم التعصب والعناد ويسلكون طريق الاهتداء بالاستدلال[٣١] وذلك فرق بين أن يجاهد العبد في سبيل الله وبين أن يجاهد في الله، فالجهاد الأول يريد سلامة المجتمع المسلم والدفاع عن العدالة ضد كل أنواع الاضطهاد، والجهاد الثاني: إنما يريد بجهاده ابتغاء وجه الله تعالى فيمده سبحانه بالهداية إلى طريق دون طريق بحسب استعداده الخاص به ثم يختصه بنفسه جلت عظمه[٣٢] لقوله تعالى: ﴿أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [سورة الأنبياء: ٧٣] و[سورة السجدة: ٢٤] وهذا الاختصاص المعنوي للهداية بأمره أوجده الله كرامة لأولياء الله الذين خصهم بنعمة لقوله تعالى: ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُو۟لَٰٓئِكَ رَفِيقًا﴾ [سورة النساء: ٦٩].

التصور القرآني للنصر المحتم على الظالمين

الظلم في اللغة: وضع الشيء في غير موضعه وفي المثل، من أسترعى الذئب فقد ظلم[٣٣] والظالم والظلوم. الذي يأخذ ما ليس له ويضع الأشياء في غير موقعها وقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يَلْبِسُوٓا۟ إِيمَٰنَهُم بِظُلْمٍ﴾ ومعناه الشرك والأصل في الظلم ما ذكره أهل اللغة[٣٤].

وفي الشريعة: عبارة عن التعدي عن الحق إلى الباطل، وهو الجور، وقيل هو التصرف في ملك الغير ومجاوزة الحد[٣٥].

وفي اللفظ القرآني: الظلم ثلاثة الأول: المجاوزة في مابين الإنسان وربه فالكفر والشرك، والنفاق ظلم، لقوله تعالى: ﴿إِنَّ

(٣١) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج٥ ص٩٤.
(٣٢) السيد الطباطبائي : الميزان ج١ ص٣٥.
(٣٣) الجوهري : الصحاح ج٢ ص٦٧.
(٣٤) الأنباري : الزاهر ج١ ص٢١٦.
(٣٥) الجرجاني : التعريفات ص٨٢.

﴿ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ﴾[سورة لقمان: ١٣].

الثاني المجاوزة بين الإنسان وغيره من الناس ظلم لقوله تعالى: ﴿إِنَّمَا ٱلسَّبِيلُ عَلَى ٱلَّذِينَ يَظْلِمُونَ ٱلنَّاسَ﴾[سورة الشورى: ٤٢].

الثالث: المجاوزة في ما بين الإنسان ونفسه فهو ظلم لقوله تعالى: ﴿فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِّنَفْسِهِۦ﴾[سورة فاطر: ٣٢] وكل هذه المجاوزات الثلاثة في الحقيقة ظلم للنفس فان الإنسان في أول ما يهم بالظلم فقد ظلم نفسه[٣٦] لقوله تعالى: ﴿وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَقَدْ ظَلَمَ نَفْسَهُۥ﴾[سورة البقرة: ٢٣١].

أما ظلم النفس فانه يرتبط بالعمل الفاسد والإعراض عما أنزله الله تعالى وعدم الائتمار بأوامره والانتهاء عن نواهيه، هذا ألابتعاد يكون ظلماً للنفس حيث حملها على الانحراف عن الفضيلة والسعادة والطريق المستقيم وما أعد الله تعالى له من الكمال، فهو واقع بين اثنتين القلق الاضطراب النفسي في الدنيا والتعرض لسخط الله تعالى في الآخرة[٣٧].

وعندما يطغى الفساد والظلم في المجتمعات وتكثر المعاصي يتعلق الأمر بالأنبياء والمصلحين ويمنح الله المصلحين دوراً حاسماً لتحقيق مساعيهم الإصلاحية بين الناس فلا تخلو من أهمية نظراً لما تحمله مخاطبة قلوب المؤمنين وجدان الناس فهم لم يفقدوا ثقتهم بأنفسهم وان أصابهم الإحباط جراء التكذيب والاستخفاف بهم لقوله تعالى حكاية عن النبي نوح عليه السلام ﴿وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُوا۟ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُوا۟ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾ فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ مَن يَأْتِيهِ عَذَابٌ يُخْزِيهِ وَيَحِلُّ عَلَيْهِ عَذَابٌ مُّقِيمٌ﴾ [سورة هود: ٣٨-٣٩] ولكن عندما يشتد الظلم ويتفاقم الخطب في المجتمعات، تتدخل أرادة السماء لإنقاذ من صلح ومعاقبة الظالمين لقوله تعالى: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا ٱسْتَيْـَٔسَ ٱلرُّسُلُ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ قَدْ كُذِبُوا۟ جَآءَهُمْ نَصْرُنَا﴾[سورة يوسف: ١١٠].

إذن ليس من الممكن أن يترك الله عباده المخلصين تتقاذفهم قسوة الجبابرة وتتحكم في رقابهم أرادة الطغاة على أنها الأقوى بمقتضى صيرورة الإنسان عندما ينسلخ من روح الإيمان، وتحكمه أرادة الضلال

(٣٦) الراغب: المفردات ص٣١٦.
(٣٧) السيد السبزواري: مواهب الرحمن ج٤ ص٤٦.

فيتبع هواه وينسى ذكر الله فيصبح الشيطان له قريناً بالمصاحبة أو مرافقة قرناء السوء ورؤساء الضلال وهي حقائق على الأرض أوضحها القرآن في قوله تعالى: ﴿وَمَن يَعْشُ عَن ذِكْرِ الرَّحْمَٰنِ نُقَيِّضْ لَهُ شَيْطَانًا فَهُوَ لَهُ قَرِينٌ﴾ [سورة الزخرف: ٣٦].

وهناك سنن تحكم حركة الزمن لها طابع إعجازي خارج عن نطاق قوانين الطبيعة، وهي الأسباب الخفية التي تبتعد عن مجال المعرفة الإنسانية، وقد عرض القرآن الكريم تجارب وقصص متصلة بحركة التاريخ جعلت منها مجالا في لتقريب النصرة ليحفظ بها كرامة أوليائه في الدنيا والآخرة ﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ﴾[سورة غافر: ٥١].

أن مثل هذه النصرة وان كانت للأنبياء ومن اتبعهم بأيمان فان ذلك لا يعني أن غيرهم لا يتم لهم النصر من الله تعالى فهم منصورون ولكن بشرط عدالة قضيتهم وإيمانهم بها لأن الأيمان محور النصر والغلبة ويظهر أثره في الدنيا وان غلبوا في بعض الأحيان إلا أن هذا الغلب قد يكون امتحاناً وحافزاً على العمل في رفع كلمة الله ثم يسخّر الله من يقتص لهم من أعدائهم ولو بعد حين[٣٨].

أما كيف يكون النصر في الدنيا، فهم منصورون بالحجة والدلالة وقوة اليقين لكونهم على الحق، والحق غير مغلوب قطعاً، فهم منصورون على أعدائهم أما بإظهارهم عليهم في الدعوة أو في القتال أو بالانتقام منهم بعد موتهم كما نصر الله يحيى بن زكريا فأنه لما قتل قتل به سبعون ألفاً[٣٩].

المشهد الخامس المماثلة :

وهناك أمثلة ومفاهيم في تأويل طبيعة التصور الذي يحمله القرآن الكريم يتحدد في ضوء العلاقة الروحية المماثلة بين الأفراد أو الجماعات استجابة للأمر الإلهي وان تباعد الزمن، فهم في مسيرة روحية واحدة ومن تلك المماثلة ما حدث للأمام الحسين عليه السلام من المحنّ قلّ نظيرها في تاريخ الظلم والإرهاب، بالمقارنة مع ما حدث للنبي يحيى بن زكريا عليه السلام ولكن يظل الشبه قائماً بعناصره المشتركة بينهما وأبرزها شدة

(٣٨) الزمخشري : الكشاف ج٤ ص١٧٢.
(٣٩) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج٢٧ ص٢٦.

البلاء والصبر عليه قال الامام الصادق عليه السلام: أن اشد الناس بلاء الأنبياء والأوصياء ثم الأمثل فالأمثل (٤٠).

أما نوع العناصر المشتركة الماثلة في الحياة الاعتيادية هي التسمية التي لم يسبق أليها في تسمية احد من الناس وهو ما بشر الله به زكريا ﴿إِنَّا نُبَشِّرُكَ بِغُلَامٍ اسْمُهُ يَحْيَىٰ لَمْ نَجْعَل لَّهُ مِن قَبْلُ سَمِيًّا﴾ [سورة مريم: ٧] قال الأمام أبو عبد الله: وكذلك الحسين عليه السلام لم يكن له من قبل سميا (٤١).

أما المماثلة الثانية: أهدي رأس يحيى عليه السلام إلى بغي من بغايا بني إسرائيل (٤٢) وكذلك الحسين عليه السلام أهدي رأسه إلى بغي من بغايا بني أمية، روي عن سفيان بن عينية عن زيد عن علي بن الحسين عليه السلام قال: خرجنا مع الحسين عليه السلام فما نزل منزلاً ولا ارتحل منه إلا وذكر يحيى بن زكريا وقال يوماً: ومن هوان الدنيا على الله عز وجل أن رأس يحيى بن زكريا أهدي إلى بغي من بغايا بني إسرائيل (٤٣).

هذه الصورة صورة زكريا ظلت عالقة في ذهن الحسين عليه السلام وهو يتصفح في ذاكرته تاريخ الأنبياء والمرسلين فلم يجد من يماثله في المأساة التي سوف تحل به سوى مأساة يحيى بن زكريا عليه السلام وهو يجاهد بني إسرائيل الذين غيروا مجرى الشريعة وسفكوا الدماء البريئة.

وظلت هذه الخواطر تحز في نفسه، وهو يرى الأمويين يسعون إلى تغيير معالم شريعة جده رسول الله في المسلمين ويرتكبون الكبائر وينتهكون الحرمات ويسفكون الدماء وينشرون الفساد في الأرض، ولم يُر لهم من رادع يردعهم حتى أقضّت منكرات الأمويين مضجعة، وأخذت الهموم والأحزان تتقاذفه ولم يجد متنفساً يلجأ أليه إلا ساعة يفزع بها إلى ربه مستلهماً منه الصبر على ما يحدث أو يذهب إلى قبر جده مستنجداً به بما يفعله هؤلاء الطلقاء بشريعته وهو يتذكر قوله صلى الله عليه وآله: «أنه سيكون بعدي أمراء من صدقهم بكذبهم وأعانهم على ظلمهم فليس مني، ولست منه، وليس بوارد على الحوض- ومن لم يصدقهم بكذبهم، ولم يُعنهم على

(٤٠) الحر العاملي : الفصول المهمة ص٥٠٥.
(٤١) الطبرسي : مجمع البيان ج٦ ص٥٠٤.
(٤٢) وهو هيرودوس حاكم فلسطين.
(٤٣) الطبرسي : مجمع البيان ج٦ ص٥٠٤.

ظلمهم، فهو مني وأنا منه، وهو وارد علي الحوض»(٤٤).

لم يجد الحسين عليه السلام إلى هؤلاء البغاة المنحرفين طريقاً لتقويم اعوجاجهم إلا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر متخذاً من قول جده منهجاً لحياته «إذا رأيتم الظالم ولم تأخذوا على يديه يوشك أن يعمكم الله بعذابه»(٤٥) فخرج مجاهداً وقتل في كربلاء(٤٦) شهيداً محتسباً.

المماثلة الثالثة: لما قتل يحيى عليه السلام نزلت لعنة الله على بني إسرائيل وقتل به سبعون ألفاً (٤٧) ولما قتل الحسين عليه السلام مرج الأمر بالكوفة وتلاقحت أفكار الثوار وظلت حركة التوابين متصلة بثورات متتابعة بين قاتل ومقتول ومنتصر ومخذول فجعل الله بأسهم بينهم استجابة لدعاء الحسين يوم عاشوراء قال فيه: أما والله لو قتلتموني لألقى الله باسكم بينكم وسفك دماءكم ثم لا يرضى بذلك منكم حتى يضاعف لكم العذاب(٤٨).

فاستجاب الله لدعائه واضطربت الكوفة بأهلها وجعل الله بأسهم بينهم وانتصر الحسين على الظالمين ﴿الَّذِينَ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ الْأَمْثَالَ﴾ [سورة إبراهيم: ٤٥].

مشاهد الظالمين في القرآن

وهناك قد يتساءل بعض من الذين لا يريدون أن يعرفوا الحقيقة التي عليها مشيئة الله في عباده وموقع عدله فيهم وكأنهم يتناسون ويتجاهلون أمر الله، فهم عندما يتساءلون ويقولون ما بال هؤلاء الجبابرة وأنصاف الجبابرة يمارسون الظلم على الناس وهم يتمتعون بهذه الحياة بما شاؤا ؟.... وما لله تعالى لا يأخذ الظالمين بما ارتكبوا من الظلم ؟.... فكأن المقصود

(٤٤) الحاكم : المستدرك ج٣ ص٢٤٦.
(٤٥) الحر العاملي : وسائل الشيعة ج١١ ص٤٠٢.
(٤٦) عن هرثمة بن سليم : قال : غزونا مع علي عليه السلام صفين، فلما نزل كربلاء صلى بنا، فلما سلم رفع إليه من تربتها فشمها، ثم قال : واهاً لك يا تربة، ليحشرن منك قوم يدخلون الجنة بغير حساب.
ابن أبي الحديد : شرح نهج البلاغة ج٣ ص١٦٩ ص١٧٠.
(٤٧) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج ٢٧ ص٧٨.
(٤٨) ابن الأثير : الكامل في التاريخ ج٤ ص٤٧.

من هذا التساؤل هو التنبيه على انه تعالى لو لم ينتقم للمظلوم من الظالم، لزم أن يكون إما غافلاً عن ذلك الظالم أو عاجزاً عن الانتقام، أو كان راضياً بذلك.ولما كانت الغفلة، والعجز، والرضا بالظلم، محالا على الله تعالى(٤٩) أجاب الله عن هذا التساؤل في أربع آيات من سورة إبراهيم تتكون منها ثلاثة مشاهد.

المشهد السادس الإنذار:

يؤخرهم إلى يوم الرحيل، يوم شديد الوطء لا يصرف عنه صارف ولا يتخلف عنه أحد، وهو يوم الجزاء قوله تعالى ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱللَّهَ غَٰفِلًا عَمَّا يَعْمَلُ ٱلظَّٰلِمُونَ ۚ إِنَّمَا يُؤَخِّرُهُمْ لِيَوْمٍ تَشْخَصُ فِيهِ ٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٤٢﴾ مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ لَا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ۖ وَأَفْـِٔدَتُهُمْ هَوَآءٌ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٢-٤٣].

في الآية الأولى: تنبيه هؤلاء الغافلين وتأكيد الحجة على من تساءل «لا تحسبن الله غافلا عما يعمل هؤلاء الظالمون، بما يشاهد من تمتعهم وإترافهم في العيش وإفسادهم في الأرض إنما يمهلهم الله ويؤخر عقابهم إلى يوم تسكن فيه إبصارهم فلا تطرف، فهي في حيرة ودهشة مما حدث.

وفي الآية الثانية: وصف حال هؤلاء الظالمين، أنهم مادُّون أعناقهم رافعون رؤسهم لا يقدرون على ردّ طرفهم وينظرون في ذل وخشوع، وقلوبهم مدهوشة خالية من جميع الخواطر والأفكار فزعاً وخوفاً من شدة هول يوم القيامة، وفي الآية إنذار للظالمين وتسلية للمظلومين(٥٠).

المشهد السابع الأستئصال:

هو حركة استئصال في دار الدنيا وفي المصطلح القرآني الإنذار بعذاب الاستئصال في الدنيا-وهو الأظهر عند الطبرسي -(٥١) الذي يقطع دابر الظالمين إن كان آجلا أو عاجلاً، قوله تعالى: ﴿ وَأَنذِرِ ٱلنَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ ٱلْعَذَابُ فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ نُّجِبْ دَعْوَتَكَ وَنَتَّبِعِ ٱلرُّسُلَ ۗ أَوَلَمْ تَكُونُوٓا۟ أَقْسَمْتُم مِّن قَبْلُ مَا

(٤٩) الفخر الرازي : التفسير الكبير ج١٩ ص١٤١.

(٥٠) الطبرسي : مجمع البيان ج٦ ص٣٢١ والطباطبائي : الميزان ج١٢ ص٨٢.

(٥١) الطبرسي : مجمع البيان ج٦ ص٣٢١.

لَكُم مِّن زَوَالٍ ﴾[سورة إبراهيم :٤٤].

والإنذار في الآية حال المعاينة [٥٢] فهو إنذار بعذاب الاستئصال في الدنيا، والدليل عليه-كما يراه صاحب الميزان-قوله تعالى: ﴿فَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ رَبَّنَآ أَخِّرْنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ﴾ والمراد بقولهم الاستمهال بمدة قصيرة تضاف إلى عمرهم في الدنيا حتى يتداركوا فيه ما فوتوه بظلمهم كما يدل عليه قولهم-حكاية عنهم-نجب دعوتك ونتبع الرسل [٥٣].

أن هذا الإنذار عذاب قطعي لا صارف ولا رجعة فيه عن أمة ظالمة والأمة في مصلحة اللغوي «جماعة» [٥٤] فالآية تصف هذه الجماعة الظالمة المؤلفة من أفراد تربطهم مصالحة مشتركة تجمعهم كلمة الأمة.

أما عذاب ألاستئصال هذا فانه لا يصيب المؤمنين لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾ [سورة يونس: ١٠٣] وإنما يصيب الأمة الظالمة بحلول أجلها وهم طائفة من ظالمي الأمة لا جميع أفرادها [٥٥].

أما نوع هذا ألاستئصال الذي يعاقب الله به الظالمين، بمقتضى السنن الإلهية فمنه بحسب مقدار الأثم المقترف فتكون العقوبة أما بحركة طبيعية في الأرض كالخسف [٥٦] مثلاً الذي ورد في قوله تعالى: ﴿أَفَأَمِنتُمْ أَن يَخْسِفَ بِكُمْ جَانِبَ ٱلْبَرِّ﴾ [سورة الإسراء: ٦٧] ومنها خوارق العادات كالحجارة تمطرهم من فوقهم [٥٧] قوله تعالى: ﴿أَوْ

(٥٢) الطباطبائي : الميزان ج١٢ ص٨٣.

(٥٣) الطباطبائي : الميزان ج١٢ ص٨٢.

(٥٤) قال الأخفش : وهو اللفظ واحد وفي المعنى جماعة/ الجوهري : الصحاح ج١ ص٤٦.

(٥٥) الطباطبائي : الميزان ج١٢ ص٨٢.

(٥٦) الخسف في اللغة : المكان الذي يذهب في الأرض، وخسف الله به الأرض خسفاً، أي غاب به فيها ومنه قوله تعالى : ﴿فَخَسَفْنَا بِهِۦ وَبِدَارِهِ ٱلْأَرْضَ﴾ الجوهري الصحاح ج١ ص٣٤٥ والآية أشارت إلى قارون : وكان من قوم موسى عليه السلام.

(٥٧) الحجر في اللغة : مفرد والجمع في القلة أحجار وفي الكثرة حجار وحجارة/ الجوهري : الصحاح ج١ ص٢٣٦ والعقوبة في الحجارة من السماء أشار أليها القرآن قوله تعالى : ﴿وَأَرْسَلَ عَلَيْهِمْ طَيْرًا أَبَابِيلَ ۝٣ تَرْمِيهِم بِحِجَارَةٍ مِّن سِجِّيلٍ ۝٤ فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَّأْكُولٍ﴾ [سورة الفيل: ٣-٥] وهي واقعة لا تجري في صيرورتها الطبيعية وإنما من خوارق العادات، أن يقبل طيور معها حجارة حارقة تقصد قوم دون قوم فترميهم فتحرقهم وفي الآيات أشارة إلى قصة أصحاب الفيل إذ قصدوا

يُرْسِلَ عَلَيْكُمْ حَاصِبًا ثُمَّ لَا تَجِدُوا لَكُمْ وَكِيلًا﴾[سورة الإسراء: ٦٨] وغيرها من آيات الله التي أعدها للمستكبرين، وأخرى بشرية يعاقب بها الله الذين يخرجون على سلطانه في الأرض ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ عَذَابًا مِّن فَوْقِكُمْ أَوْ مِن تَحْتِ أَرْجُلِكُمْ أَوْ يَلْبِسَكُمْ شِيَعًا وَيُذِيقَ بَعْضَكُم بَأْسَ بَعْضٍ﴾[سورة الأنعام: ٦٥].

في الآية أثبات قدرته تعالى على أن يبعث على هذه الأمة عذاباً غير العذاب الذي كان يبعثه على الأمم السالفة، مثل الحجارة والخسف والطوفان والرياح المحرقة قال تعالى: ﴿فَكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنبِهِ فَمِنْهُم مَّنْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِ حَاصِبًا وَمِنْهُم مَّنْ أَخَذَتْهُ الصَّيْحَةُ وَمِنْهُم مَّنْ خَسَفْنَا بِهِ الْأَرْضَ وَمِنْهُم مَّنْ أَغْرَقْنَا وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَٰكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾[سورة العنكبوت: ٤٠] وقد رفع الله ذلك كرامة لرسول الله محمد ﷺ(٥٨) ولما كان لا مفر من العذاب في الدنيا لتكاثر الذنوب اقتضت حكمته تعالى أيجاد هذا الحراك الاجتماعي في الأمة بمقتضى العلة السببية أن يلبسهم شيعاً ويذيق بعضهم بأس بعض ليظهر الله بهم العدل مقابل الجور فكان هذا العذاب الذي «من فوقهم» وقد أشارت بعض التفاسير(٥٩) إلى هذه الفوقية على أنهم السلاطين الجبابرة «ومن تحت أرجلهم» إلى الطبقة السفلى وهم جلاوزة السلاطين الذين بهم يستقيم سلطانهم ويحفظ أمنهم.

هذه الرؤية القرآنية بحسب السنن

مكة لتخريب الكعبة المعظمة فأهلكهم الله بإرسال طير أبابيل ترميهم بحجارة فجعلهم كالعصف المأكول-كزرع أكلته الدواب وداسته-وهي من آيات الله أعدها لعقاب الطغاة المتكبرين الذين لا يفهمون إلا منطق القوة فيعاملهم الله بمنطقهم ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين.

(٥٨) روي السيوطي في الدر المنثور وابن كثير في تفسيره أخباراً كثيرة دالة على أنه لما نزلت الآية: ﴿قُلْ هُوَ الْقَادِرُ عَلَىٰ أَن يَبْعَثَ عَلَيْكُمْ﴾ إلى آخرها استعاذ النبي ﷺ إلى ربه ودعاه أن لا يعذب أمته بما أوعدهم من أنواع العذاب فأجابه ربه إلى بعضها ولم يجبه إلى بعض أخر وهو أن لا يلبسهم شيعاً ولا يذيق بعضهم بأس بعض/ أنظر الطباطبائي : الميزان ج٧ ص١٥٠.

(٥٩) الطبرسي : مجمع البيان ج٣ ص٣١٥ والفخر الرازي : التفسير الكبير ج١٣ ص٢٢ والطباطبائي : الميزان ج٧ ص١٥٠.

الجارية تعكس العلل والأسباب الكونية التي أوجدت الطبيعة الإنسانية وسيرتها بقوانين وأنظمة فلا حرية للإنسان قبالها فإنها تملكه وتحيط به من جميع الجهات وتقلبه ظهراً لبطن، وهي التي بإنشاء نفوذ أمرها صيرت الإنسان بشكله وصورته الظاهرة وخواصه الإنسانية من غير أن يكون له الخيرة من أمره، بل كان كما أريد له لا كما أراد هو.

المشهد الثامن الأصلاح الأجتماعي:

ثم جاءت الشرائع السماوية فأوجدت العلل والأسباب وما تهدي أليه من المصالح، كلها مصاديق لإرادة الله سبحانه في عباده فهو تعالى المالك المتصرف على الإطلاق وليس لغيره إلا العبودية له، فمالكيته المطلقة تسلب أيّة حرية متوهمة للإنسان بالنسبة إلى ربه، كما أنها تعطي الحرية بالقياس إلى سائر بني نوعه، كما يظهر على لسان قول القائل في قوله تعالى: ﴿أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِ شَيْئًا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ﴾ [سورة آل عمران: ٦٤] لذا فهو الحاكم سبحانه على الإطلاق، والمطاع في أمره بغير قيد وشرط كما قال تعالى: ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلَّا لِلَّهِ﴾ فما دام الحكم له تعالى أعطى حق الأمر والنهي والطاعة لرسوله ولأولي الأمر وللمؤمنين من الأمة الإسلامية فلا حرية لأحد قبال كلمة الحق التي يأتون به ويدعون أليه[٦٠] لقوله تعالى: ﴿أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ﴾ [سورة النساء: ٥٩] ثم جعل الله رقابه عامة على الحاكمين والخارجين على الشريعة لقوله تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ [سورة التوبة: ٧١].

هذا النص القرآني لنظام الحكم يرتكز على التعاون بين أفراد المجتمع إذا ما اتبعت الأمة كلمة «الحق» والحفاظ على مشروعية هذه المفردة القرآنية المطابقة للسنن الإلهية التي تعطي البعد الاعتقادي للحكم الإسلامي قيمة مطلقة في العدل الاجتماعي، فالحكم يعتمد عملياً على نظرية «التدافع والتعاون» وهو دفع أهل البغي والشر والظلم بأهل الإصلاح والإيمان قال تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ

(٦٠) الطباطبائي: الميزان ج١٠ ص٣٧٢.

﴿ٱلْأَرْضُ﴾[سورة البقرة: ٢٥١].

فالآية الكريمة تعطي أهمية تشريعية خاصة قائمة على المفهوم الفردي في المجتمع الإسلامي تحت ضوابط تشريعية ملزمة، فكل فرد مكلف في أصلاح نفسه وتغييرها بحسب السنن الأسلامية القائمة على التزام العدل، واجتناب الظلم، أما لوقع البغي والظلم على جماعة وكانوا ملازمين لكلمة «الحق» فالنصر حليفهم حتماً لقوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَابَهُمُ ٱلْبَغْىُ هُمْ يَنتَصِرُونَ﴾[سورة الشورى: ٣٩] قال الراغب: الانتصار والاستنصار طلب النصرة، والتناصر التعاون[٦١] في دفع المعتدي من الذين إذا أصاب الظلم بعضهم طلب النصرة من الآخرين إذا كانوا متفقين على الحق كنفس واحدة فكأن الظلم أصابهم جميعا فطلبوا المقاومة واعدوا عليه النصرة[٦٢] فهم لا يزالون في حفظ الله ما دام الحق فيهم، وربما يتحقق النصر بدفع الظلم بالظالم[٦٣] وتضعيف شوكته ليستعد المصلح ويتمكن من قهره والغلبة عليه، وربما يلقي الرعب والخوف في نفوس المفسدين من صولة القوة ليكون رادعاً في وقف الفساد وكبح جماح المفسدين[٦٤] وقد تكون إحدى المجموعات مؤمنة فتجاهد الأخرى المنافقة دفاعاً عن المقدسات والشعائر الدينية وذلك يفهم من قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ﴾[سورة الحج: ٤٠].

لم يكن ذكر الأماكن العبادية المقدسة للأديان الثلاثة: اليهودية والنصرانية والإسلام مجتمعة في آية واحدة واستبعاد القوى الظالمة، واقتران الجهاد بعملية الدفع إلا وقد أريد بها الحفاظ على وحدة المجتمع بكل طوائفه من شرور أعداء الدين ودفع الناس بعضهم ببعض عن مقدساتهم، وإكتسابهم أسباب القوة والمنعة بفضل مشيئة الله تعالى، ولولا أن الله يدفع أهل الباطل بأهل الحق وأهل الفساد في الأرض بأهل الإصلاح فيها، لغلب أهل الباطل

(٦١) الراغب : المفردات ص٤٩٥.

(٦٢) الطباطبائي : الميزان ج١٨ ص٦٤.

(٦٣) كما حدث في العراق حين سلط الله بوش على صدام.

(٦٤) السيد السبزواري : مواهب الرحمن ج٤ ص١٤٢.

والفساد وبغوا على الصالحين وأوقعوا بهم حتى يخلوا لهم وحدهم السلطان فتفسد الأرض بفسادهم، ولكن من فضل الله على عباده وإحسانه أليهم أن أذن لأهل الحق والعدل والإصلاح بقتال المفسدين في الأرض والكافرين والبغاة المعتدين[٦٥] لحماية المقدسات ومسيرة الشعائر الإلهية من التوقف، والآية وان أشارة إلى فتنة مرت بالمسلمين في بداية الدعوة من كفار قريش إلا أنها لا تزال قائمة لها امتدادها في التاريخ وقد تظهر بين فترة وأخرى عندما تجد من يوقظها، وقد مر الشعب العراقي بهذه الفتنة واكتوى بنارها بسبب رؤية تكفيرية مناوئة للمسلمين عملت على ايقاظها مؤسسات دينية بنيت قائمة على غير تقوى الله ووظف لها مُفتون وفتاوى مساندة للإرهاب الذي طال عمله التخريبي أماكن العبادة من مساجد وكنائس وأضرحة مقدسة فقاموا على تدميرها وقتل زوارها وعلى الرغم من أن القرآن ينظر إلى الأديان المنّزلة بوصفها أمتداداً للتوحيد لقوله تعالى: ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِيَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ﴾ [سورة آل عمران: ٨٤] ولكنهم فرقوا وليس له بمسلمين فكان هذا الاعتداء على أمكنة العبادة ليس من عمل المسلمين قطعاً وإنما يراه البعض مدفوعاً بفكر يهودي وتمويل صهيوني في أطار الصراع التاريخي مع الإسلام[٦٦].

(٦٥) رشيد رضا : المنار ج١ ص٤٩١.

(٦٦) كان الغرض من هذا التحدي واضحاً، وهو تعويد المسلمين على عدم الاهتمام بمقدساتهم بحيث أذا تكرر وقوع الحدث في دور العبادة بدون أي مقاومة كان من السهل عليهم تنفيذ قرارهم في تخريب بيت المقدس وذلك للحوادث التي وقعت فيه وتكررت وكانت مقدمة لمشروعهم ألاستيلائي وإقامة هيكل سليمان ومن تلك الحوادث قام المستوطنون اليهود ١٩٨٤/١/٢٧ بمحاولة نسف المسجد الأقصى بواسطة عبوة ناسفة تزن ٢٩كيلو غراماً وفي ١٩٩٠/٤/١٢ وكانت مجزرة الأقصى نفذها جنود إسرائيليون وسقط خلالها ٣٢قتيلاً وفي ١٩٩٤/٢/٢٠ مجزرة الحرم الإبراهيمي الشريف في الخليل نفذها مجموعة من الصهاينة يتزعمهم اليهودي «جولد شتاين» وأدت إلى استشهاد ما يزيد على ٦٠فلسطينياً وجرح نحو ٢٠٠آخرين.
هذه المقدمات في القدس والخليل وإذا ما سنحت لهم الفرصة في التآمر على أمكنة العبادة بعد تغاضي

المشهد التاسع موعظة التوريث:

جاء تأكيداً في الآية على هؤلاء الذين ورثوا ديارهم ومساكنهم، وتحذيراً من العودة إلى الظلم لقوله تعالى: ﴿ وَسَكَنتُمْ فِي مَسَٰكِنِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓاْ أَنفُسَهُمْ وَتَبَيَّنَ لَكُمْ كَيْفَ فَعَلْنَا بِهِمْ وَضَرَبْنَا لَكُمُ ٱلْأَمْثَالَ ﴾[سورة إبراهيم: ٤٥].

وهي ظواهر متصلة بالمسار الإنساني حيث استعمل القرآن الكريم الصورة الحسية في دلالتين :

الأولى: حين المشاهدة أو الإخبار عندما اتضح لكم كيف فعلنا بأولئك الظالمين الذين سكنتم في مساكنهم ممن سبقوكم وظهر لكم في المعاينة أن أصحاب هذه التجربة الحياتية في الظلم والفساد كيف كان عاقبه ظلمهم الذي استفرغوا فيه جهدهم.

الثانية: يظهر من الصورة البيانية الموضحة حالة الإنذار حيث ضربنا لكم الأمثال أن أولئك الذين تقدموا أخذناهم بذنوبهم في الدنيا كما أخذنا مَنْ قبلَهم، والله تعالى قادر على الإعادة كما هو قادر على الابتداء[٦٧].

إذن هذه المشاهد التي تقدم ذكرها في التصور القرآني أوضحت حالة الظالمين الطغاة ومصيرهم الأسود في الدنيا قبل الآخرة وقد يعمد القرآن الكريم في بعض الأحيان إلى البداهة وإيقاظ الإحساس، لينفذ منها مباشرة إلى البصيرة ويتخطاها إلى الوجدان، فتكون مادته هي المشاهدة المحسوسة، والحوادث المنظورة[٦٨] لكل من يريد الاقتداء بها وتغيير ما في النفس بحسب السنن التي أوجدها الله لعباده وكانت رحمة منه تعالى، ولكن الظالمين الطغاة لم ولن يعترفوا بوجود هذه الدلائل الإيمانية التي تحدث عنها القرآن الكريم وذهبوا إلى المغالطة

المسلمين عن مقدساتهم سهل لليهود مشروعية تهويد القدس وتغيير معالم المسجد الأقصى، وكانت البداية حفر النفق ليس تحت المسجد الأقصى فحسب، وإنما وصولاً إلى كنيسة القيامة والى معظم مناطق القدس الشرقية من أجل مسح هذه المواقع وإقامة هيكل سليمان مكانها حتى يصبح قرار مشروعهم نافذا ليس هناك مسجد أقصى ولا كنيسة قيامة وإنما هيكل سليمان فقط/ انظر الملف الأسود للإرهاب الصهيوني مجلة المنهاج السنة الثانية عدد٣ ص٢٧٦.

(٦٧) الزمخشري: الكشاف ج٢٠ ص٥٦٥ والفخر الرازي: التفسير الكبير ج٢٩ ص١٤٣.

(٦٨) سيد قطب: التصوير الفني في القرآن ص١٢٩.

وتلبيس الأمر ليس على من يتبعهم وإنما على أنفسهم لقلة إيمانهم بما يعتقدون، ولما قست قلوبهم وزين الشيطان لهم عملهم، ارتكبوا أبشع الجرائم التي تحدّث عنها التاريخ.

وقد تحدث التاريخ عن معاناة المصلحين وعن حالات القهر والظلم التي تعرض لها أهل البيت وشيعتهم وقد مورس عليهم أشكال الاضطهاد والتعسف وتحملوا اشد المحن في دعوتهم إلى الحق والعدل بكل عطائها الإصلاحي سلوكاً ومنهجاً، ولكن القوم في شغل عن ما يدعون إليه، ختم الله على قلوبهم فهم لا يفقهون من دعوتهم من شيء كأن في أذانهم وقراً مما يدعون أليه، فكان صبرهم على ما يفعلون عظيماً، فجاهدوهم على دين الله وشرعه وان الله لا يضيع عمل عامل ينصر أوليائه الذين مستهم الضراء في دينهم لقوله تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ﴾ [سورة البقرة: ٢١٤].

ومن الواضح أن مثل هذه الفضيلة لا يمكن تحصيلها إلا من مسته البأساء والضراء -كما في التصور القرآني- وزلزلوا بأنواع البلايا والرزايا وكانوا في غاية الثبات والصبر وضبط النفس على المكاره، حتى إذا ما استيأسوا وضاقت بهم الأفاق بما رحبت استنزلوا النصر بالدعاء فاستجاب لهم أنه ناصر أوليائه وان الله لا يؤخر نصره عن الوقت الذي توجبه الحكمة[٦٩] ولا يمكن أن ندرك أبعاد هذا النصر إلا في ضوء التغيرات القائمة على الأرض التي ذكرها التاريخ أو التي واكب المعاصرون أحداثها ضمن سياق الصراعات والفتن المتأججة حيث القى الله في روعهم الخلاف فذاق بعضهم بأس بعض، فما كانت إلا لحظات حاسمة أندحر فيها رؤوس الإجرام وانتصرت أرادة الله ومشيئته، وبقيت هذه الرموز الدينية شامخة بقبابها وشعائرها متأصلة في قلوب محبيهم وشيعهم، واندحر الذين في قلوبهم مرض وسيق بهم إلى جهنم وبئس المصير.

(٦٩) الطبرسي: مجمع البيان ج٢ ص٣٠٩.

ملخص البحث

يدور البحث حول: أن موضوع العدد من الموضوعات ذات الأهمية في القرآن الكريم وهو ما أكده كثير من العلماء والمفسرين وقد قامت السيدة الباحثة باحصاء الآيات التي ورد فيها العدد والتي تصل الى اربعمئة وخمس وثمانين آية كريمة.

وقد رأت أن العدد استعمل في آيات الأحكام اكثر من استعماله في آيات الخليقة وهو دليل على أن الحكم الذي يضعه الله -سبحانه- قاطعاً ومحدوداً .

كما كشفت السيدة الباحثة عن ان استعمالات العدد، وفي مختلف المجالات ، دليل على تقييد الأمور وتحديدها بأعداد يفهمها الناس وأن هذه هي من علامات الرأفة الأهية والمغفرة الرحمانية بعباده.

ثم ذيلت البحث بمسرد لآيات العدد.

العدد في آيات الخليقة وآيات الأحكام

م.م. حوراء مهدي عبد الصاحب الكوفي
كلية الفقه - جامعة الكوفة

المبحث الأول

العدد في العربية

العدد لغةً:

تقود محاولة تتبع مضامين كلمة العدد في المعجمات اللغوية إلى الاستنتاج الذي مفاده، أنّ المادّة اللغوية التي تتألف منها هذه اللفظة وهي (العين، والدال، والدال) وما يمكن أن يشتق منها تدل على إحصاء الشيء وعده.

يقول ابن منظور (ت: ٧١١هـ): أصل العدد من (عدّ) وهو "إحصاء الشيء وعدّه يعدّه عدّاً وتعداداً وعدّة وعدَّد. والعدد أيضاً مقدار ما يُعد ومبلغه، وجمعه أعداد[١]".

ولو رجعنا إلى المعجمات اللغوية لوجدنا أنّ اللغويين يتقاربون في فهمهم دلالة هذه اللفظة اللّغوية، ونلحظُ أنّ التعريف مَصوغٌ، ومكررٌ بألفاظٍ وعباراتٍ أُخر، ومرجع اتفاقهم إلى نقل اللاحق عن السابق كما هو متعارفٌ عليه في تلك الأزمنة[٢].

وقد وردت مادّة (العدد) في القرآن الكريم في سبعة مواضع[٣]، وتشابهت

(١) لسان العرب، ابن منظور: مادة (عدَّ).

(٢) ظ: جمهرة اللغة، ابن دريد: ١/ ٧٤، تهذيب اللغة، الأزهري: ١/ ٨٧، تاج العروس، الزبيدي: ٨/ ٣٥٣.

(٣) ظ: [سورة يونس: ٥]، [سورة الإسراء: ١٢]، [سورة الكهف: ١١]، [سورة المؤمنون: ١١٢]، [سورة الجن: ٢٤، ٢٨]، [سورة الهمزة: ٢].

ست آيات في الدلالة على معنى العدد من ناحية دلالتها على عدد سنين الأيام والشهور التي يعلم بها الإنسان وقته، كما في قوله تعالى: ﴿وَلِتَعْلَمُوا عَدَدَ السِّنِينَ وَالْحِسَابَ وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلًا﴾ [سورة الإسراء: ١٢]، أما في قوله تعالى: ﴿لِيَعْلَمَ أَن قَدْ أَبْلَغُوا رِسَالَاتِ رَبِّهِمْ وَأَحَاطَ بِمَا لَدَيْهِمْ وَأَحْصَىٰ كُلَّ شَيْءٍ عَدَدًا﴾[سورة الجن:٢٨] فقد أختلف المفسرون في تأويل معناها عن معاني الآيات الأُخَره، وهو إنّ الله (سبحانه وتعالى) أحصى كل شيء في هذا الكون من القَطْر والرمل وورق الأشجار وزبد البحار، فلم يفته علم شيء حتى مثاقيل الذر والخردل، وعن ابن عباس (ت:٦٨هـ) إنّه قال في معنى هذه الآية المباركة معناه عدّ الله جميع المعلومات المعدومة والموجودة عدّاً فعلم صغيرها، وكبيرها، وقليلها، وكثيرها، وما لا يكون وما كان ما لم يكن ولو كان كيف كان.

ولفظة (عدداً) في الآية القرآنية جاءت على قرئتين، أولهما: أن يكون (عدداً) حالاً ويصير معنى الآية ضبط كلّ شيءٍ معدوداً ومحصوراً. وثانيهما: أن تكون لفظة (عدداً) مصدراً في معنى إحصاء ؛ لأن الإحصاء والعدد يكونان بمعنى واحد(٤).

وقد سلك المفسرون مسلكاً آخر في تعريف العدد، إذ ورد عن الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ) أنّه قال: "العددُ آحاد مركبةٌ، وقيل تركيب الآحاد وهما واحد(٥)".

واختلف النحويون في تعريف العدد فمنهم من اتفق مع اللغويين في التعريف، قال ابن يعيش (ت:٦٤٣هـ): "العدد مصدر عددت الشيء عداً إذا أحصيته والعدد الاسم(٦)".

ومنهم من اتفق مع المفسرين للقرآن الكريم، إذ ورد عن ابن الحاجب (ت: ٦٤٦هـ) قال:

"العدد مقادير آحاد الأجناس(٧)".

وفهمه هذا متفقٌ مع الراغب الأصفهاني.

(٤) ظ: الكشاف، الزمخشري: ٣/ ٢٧٩،ومجمع البيان، الطبرسي: ١٠/ ٥٦٤.

(٥) معجم مفردات ألفاظ القرآن الكريم، الأصفهاني: ٣٦٢ مادة عدد.

(٦) شرح المفصل، ابن يعيش: ٦/ ١٦.

(٧) الايضاح في شرح المفصل، ابن الحاجب: ١/ ٦٠٦.

ويعطينا التهانوي (ت:بعد ١١٥٨هـ) في موسوعته تعريفاً شاملاً للعدد بقوله: "إنه الواحد،وما يتحصل منه أما بالتجزئة كالكسور أو التكرار كالصحاح أو بهما كالمختلطات[٨]".

وهذا الفهم أوسع واشمل لتعريف العدد، ومنبهاً للكسور التي لم يذكرها اللغويون والنحويون في تعريفاتهم للعدد مع أنها من العدد.

ويرى بعض المحدثين أن كلمة (العدد) من الوضوح إذ لا تحتاج إلى تعريف، قال عباس حسن: "لم يترك القدامى كلمة العدد من غير تعريف مع وضوح معناها وبداهة مدلولها فجاء تعريفهم حاملاً من الغموض والخفاء والإبهام ما يحمله كل تعريف للبديهة، وكل توضيح للواضح"[٩].

وأَعتقِد أنّ الكلمة حتى لو كانت واضحة لا يعنى أنها لا تحتاج إلى تعريف، ولاسيما انّ كلمة العدد في اللغة تدل على بعض من المعاني التي تظهر في مواقع وسياقات مختلفة ولأَغراضٍ متعددة والتي تحتاج إلى دقة في التعبير ووضوح في المعنى.

ويأتي مع (العدد) في الجملة (معدود) وهو الاسم المتعلق بالعدد والمميز له ويسمى (معدوداً) أو (تمييز العدد)، ويكون من ناحية حكمه الإعرابي، مجروراً مع أعداد معينة ومنصوباً مع أعداد أخرى.

والعدد لفظ مبهم لا يتضح معناه بنفسه ولا يعيّن مدلوله ومعدوده إلا بشيء يميزه ويكشف عنه الغموض وذلك هو المعدود.

وقد تطور مفهوم العدد والمعدود عند علماء الأصول، إذ تناول علماء الأصول موضوع (العدد) من ناحية تأثيره في استنباط الحكم الشرعي، فبحثوا في كون ربط الحكم الشرعي بعدد معيّن هل يدل على انتفاء الحكم خارج هذا العدد أم لا ؟.

والرأي المعتمد عندهم: "أنّ التحديد بالعدد لا مفهوم له"، أي تحديد الموضوع بعدد خاص لا يدل على انتفاء الحكم فيما عداه، فإذا قيل: (صمْ ثلاثة أيام من كل شهر) فإنه لا يدل على انتفاء استحباب

(٨) كشاف اصطلاحات الفنون، التهانوي: ٤/ ٩٤٩.

(٩) النحو الوافي، عباس حسن: ٤/ ٣٨٩.

صوم غير الثلاثة فلا يعارض الدليل على استحباب صوم أيام أُخر[10]".

ويمكن أن نأتي بشاهد آخر على فهم الأصوليين لمفهوم العدد والمعدود بقوله تعالى: ﴿اسْتَغْفِرْ لَهُمْ أَوْ لَا تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ إِن تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ سَبْعِينَ مَرَّةً فَلَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَهُمْ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ كَفَرُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ﴾ [سورة التوبة: ٨٠].

والمراد هنا في الآية المباركة أنّ الله سبحانه وتعالى لن يغفر للكفار حتى لو استغفر لهم النبي الأكرمﷺ سبعين مرّةً أو زاد على هذا العدد المذكور، فإن الله تعالى لن يغفر لهم، إذ أنّ الوجه من تعليق الاستغفار بسبعين مرةً، المبالغةُ لا العدد المخصوص، ويجري ذلك مجرى قول القائل: (لو قلت لي ألف مرةٍ ما قبلت).

والمراد إني لا أقبل منك، فكذلك الآية يتضح فيها نفي الغفران جملة ؛ لأنّ الاستغفار للكافرين لا فائدة منه لأنهم لا يؤمنون أبداً بسبب كفرهم بالله عز وجل ورسولهﷺ فلا فائدة في الاستغفار لهم[11].

وقد استعمل العدد في العربية وبشكل واسع بما فيها من كلام منظوم ومنثور، وسنقتصر على نماذج من الخطب الإسلامية وأروع من يمثل الخطباء في ذلك الوقت وحتى وقتنا هذا الإمام علي بن أبي طالبعليه السلام، فقد استعمل أمير المؤمنينعليه السلام (العدد) بأنواعه المتعددة وخير ما تجسده خطبهعليه السلام، ومن ذلك قولهعليه السلام في خلق العالم: (تردُّ أوله إلى آخره، وساجيه إلى مائره، حتى عبّ عبابُهُ، ورمى بالزبد ركامُهُ، فرفعهُ في هواء منتفق، وجوّ منعهق، فسوى منه سبع سماواتٍ[12]، وقولهعليه السلام في ذكر المعاد وبعث الخلائق: (فلا شيء إلا الله الواحد القهار الذي إليه مصير جميع الأمور[13])، وإذا أنعمنا النظر في هذين المقطعين نجد إشارة واضحة على تأثر الإمام عليعليه السلام الكبير بالقرآن الكريم واقتباسه منه، فقد كانت نصوص القرآن الكريم تسيل من فمه الشريف ؛ لأنّه

(١٠) أصول الفقه ،محمد رضا المظفر: ١/ ١٢٩.

(١١) ظ: مجمع البيان، الطبرسي: ٥/ ٨٤.

(١٢) نهج البلاغة للإمام عليعليه السلام / ١٨.

(١٣) المصدر نفسه / ٢٠٥.

أُشرِب القرآن وحفظه ورعاه، وكيف لا يكون كذلك وهو ربيب رسول الله ﷺ فكلام الإمام علي عليه السلام تحت كلام الخالق وفوق كلام المخلوق.

وكذلك من كلام له عليه السلام في أقسام الرواة: (وإنما أتاك بالحديث أربعة رجال ليس لهم خامس[١٤])، ومن حكمة له عليه السلام في أصناف الناس: (الناسُ ثلاثة: فعالمٌ ربّاني، ومتعلمٌ على سبيل نجاة، وهمجٌ رعاع أتباع كل ناعق، يميلون مع كلّ ريح، لم يستضيئوا بنور العلم، ولم يلجؤوا إلى ركن وثيق[١٥])، في هذا الكلام دليلٌ على التنظيم والضبط الذي طبع الحياة العامة ومنها الحياة الفكرية بعد ظهور الإسلام، إذ نلحظ أنّ الإمام علي عليه السلام يقسم الأقسام ويصنف الأصناف ويضبطها ضبطاً منطقياً بحيث تكون القسمة جامعة مانعة، فعلمه رباني إذ لم يترك الأمور غير واضحة بل وضع لها قيوداً وحدوداً لتكون مفهومة لدى القارئ والسامع، وأكثر إيحائية حينما تتعلق بأطواء النصوص، وهذا لم يكن معهوداً قبل نزول القرآن الكريم.

المبحث الثاني

مجالات استعمال العدد في آيات الخليقة

تعددت مجالات استعمال العدد في القرآن الكريم وكانت العقائد والأحكام من بين مجالات استعماله.

أما في العقائد فكان من بين المجالات التي استعمل فيها العدد هي في عدد أيام خلق السماوات والأرض، وفي عدد السماوات والأرض، ومجالات أخرى.

وبما أنّ عدد آيات الخليقة في القرآن العظيم، بعد إحصائي لها، إجمالياً تصل إلى(أربعمائة وخمس وستين) آيةً، فإنّ عدد الآيات التي تضمنت العدد (خمس وعشرون) آيةً، فتكون النسبة المئوية لاستعمال العدد في آيات الخليقة (٥,٤٨٪).

ومن بين استعمالات العدد في آيات الخليقة كالآتي:

* عدد خلق أيام السماوات والأرض:

ورد في القرآن الكريم أنّ خلق السماوات والأرض قد تم في ستة أيام، إذ ورد ذكرها في سبعة مواضع[١٦]، منها

(١٤) المصدر نفسه / ٢٤٣.

(١٥) المصدر نفسه / ٣٨٢.

(١٦) ظ: الاعراف: ٥٤، يونس: ٣، هود:

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱلرَّحْمَٰنُ فَسْـَٔلْ بِهِۦ خَبِيرًا﴾[سورة الفرقان:٥٩].

وفي هذه الآيات المباركة دليل على المقدرة الإلهية والعظمة الربانية، إنّ الله سبحانه وتعالى أنشأ وأبدع خلق السماوات والأرض في ستة أيام من أيام الدنيا، وهذا أحد عجائب الصنعة وبدائع الحكمة أنشأهما وأبدعهما في ستة أيام بلا زيادة ولا نقصان، ولو شاء الله لأبدعهما دفعة واحدة ولكنه خلقهما في هذه المدة لمصلحة، والوجه فيه إنّ في ذلك مصلحة للملائكة وعبرة لهم ولغيرهم إذا أخبروا بذلك، ولو أراد الله عز وجل لخلقهما في أقل من لمح البصر.

ورتب الله جل وعلا خلق السماوات والأرض على أيام الأسبوع، فابتدأ بالأحد، والاثنين، والثلاثاء، والأربعاء، والخميس، والجمعة، فاجتمع له (سبحانه وتعالى) في يوم الجمعة فلذلك سُمي الجمعة (ورد ذلك عن مجاهد)[١٧].

وقد فصّل الله عز وجل القول في خلق السماوات والأرض في سورة (فُصلت) ولم يذكر الأيام الستة بل جاء كلامه مفصلاً والمجموع يكون ستة أيام في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ مِن فَوْقِهَا وَبَٰرَكَ فِيهَا وَقَدَّرَ فِيهَآ أَقْوَٰتَهَا فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً لِّلسَّآئِلِينَ﴾[سورة فصلت:١٠]. إنّ الله سبحانه وتعالى قدّر أقواتها أي أرزاق أهلها ومعايشهم وما يصلحهم، وفي قراءة (ابن مسعود) وقسم أقواتها ﴿فِىٓ أَرْبَعَةِ أَيَّامٍ سَوَآءً﴾، فذلك لمدة خلق الله عز وجل الأرض وما فيها كأنه قال كل ذلك في أربعة أيام كاملة مستوية بلا زيادة ولا نقصان، إذ خلق الله جل وعلا الأرض في يومي الأحد والاثنين وما فيها في يوم الثلاثاء ويوم الأربعاء، وفي اليومين الآخرين خلق فيها سبع سماوات[١٨]. والله على كل شيء قدير، فما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، سبحان الله والحمد لله رب العالمين.

٧، الفرقان: ٥٩، السجدة: ٤، ق: ٣٨، الحديد: ٤.

(١٧) ظ: مجمع البيان، الطبرسي: ٤/ ٦٥٩.

(١٨) ظ: الكشاف، الزمخشري: ٤/ ١٨٨.

ولو أنعمنا النظر في هذه الآيات الكريمة نلحظ أنها في ستة مواضع قد ارتبط خلق السماوات والأرض باستواء الله سبحانه وتعالى على العرش أو ذكر العرش، عدا موضعين هما سورتا (فُصلت) و(ق) في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾[سورة قّ:٣٨].

والسر في ذلك بعد اطلاعي على كتب التفسير أنها نزلت في اليهود تكذيباً لهم في قولهم إنّه تعالى استراح من خلق السماوات والأرض -في ستة أيام- يوم السبت على عرشه، فجاء الرد هنا بهذه الآية المباركة وإنّ الله تعالى خلقهما في ستة أيام ﴿وَمَا مَسَّنَا مِن لُّغُوبٍ﴾، يحتمل أن تكون جملة استئنافية و(اللغوب) معناه (الإعياء أو التعب)[١٩].

والله قادر على كل شيء بديع السماوات والأرض.

*عدد السماوات:

جاء في القرآن الكريم عدد السماوات وعددها هو (سبع سماوات) في ثمانية مواضع[٢٠]، منها قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا ۖ مَّا تَرَىٰ فِى خَلْقِ ٱلرَّحْمَٰنِ مِن تَفَٰوُتٍ ۖ فَٱرْجِعِ ٱلْبَصَرَ هَلْ تَرَىٰ مِن فُطُورٍ﴾ [سورة الملك:٣]، وعندما يرد العدد يرد وكأنّه شيءٌ معروف مدرك بالحواس أو ثابت، جاء في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَوْا۟ كَيْفَ خَلَقَ ٱللَّهُ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ طِبَاقًا﴾ [سورة نوح:١٥]، و(الطباق) معناها أنّ الله تعالى خلقها واحدة فوق الأخرى كالقباب، وجاءت دليلاً ومنبهاً على قدرته وتوحيده.

وقد وردت مسميات أخرى للسماوات، إذ سميت (طرائق) كما في قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعَ طَرَآئِقَ وَمَا كُنَّا عَنِ ٱلْخَلْقِ غَٰفِلِينَ﴾ [سورة المؤمنون:١٧)، وكذا سميت (شِداد) كما في قوله تعالى: ﴿وَبَنَيْنَا فَوْقَكُمْ سَبْعًا شِدَادًا﴾ [سورة النبأ:١٢].

وأرى أنّ مرجع هذا التعدد والتنوع في طرق التعبير عنها، هو محاججة للكافرين،

(١٩) ظ: الاتقان، السيوطي: ١/ ٢٧، والبحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ٨/ ١٢٨.

(٢٠) ظ: [سورة البقرة: ٢٩]، [سورة المؤمنون: ١٧، ٨٦]، [سورة فصلت: ١٢]، [سورة الطلاق: ١٢]، [سورة الملك: ٣]، [سورة نوح: ١٥]، [سورة النبأ: ١٢].

وكذلك دليل على أنها ما خُلِقَتْ عبثاً ولكنها خُلقت بمنهاج الحكمة وعظيم القدرة، والله أعلم.

ولو أنعمنا النظر في هذه الآيات المباركة نرى أنّ عدد الأرضيين كذلك (سبعاً)، ولم يرد العدد صريحاً وإنما ورد ضمناً، كما في قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [سورة الطلاق: ١٢]، نلحظ أنّ عدد الارضين لم يرد في هذه الآية على وجه الصراحة وإنما ورد ضمناً وكان عددها سبعاً أيضاً.

ولو لاحظنا هذه الآيات التي وردت نرى أنّ الأرض جاءت مفردة ولم يأتِ ذكر الأرض مجموعاً فيها مثلما وردت السماء مجموعة (سماوات).

قال ابن الأثير (ت:٦٣٧هـ): "ما ورد استعماله من الألفاظ ولم يرد إلا مجموعاً كلفظة الأرض فإنها لم ترد في القرآن الكريم إلا مفردة فإذا ذُكرت السماء مجموعة جيء بها مفردة معها في كلّ موضعٍ من القرآن ولما أريد أن يؤتى بها مجموعة قيل ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [٢١]".

(٢١) المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ابن الاثير: ١/ ٤٢٤.

لا خلاف في أنّ السماوات سبع بنص القرآن المجيد والحديث والمثلية في العدد، أي سبع أرضين يتنزل الأمر بينهن من السماوات السبع إلى الأرضين السبع[٢٢].

قال القرطبي (ت:٦٧١هـ): "ذكر تعالى أنّ السماوات سبع ولم يأتِ للأرض في التنزيل عدد صريح لا يحتمل التأويل إلا قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ وقد اُختلف فيه قيل: ومن الأرض مثلهنّ في العدد ؛ لأن الكيفية والصفة مختلفة بالمشاهدة والإخبار فتعين العدد، وقيل: ومن الأرض مثلهنّ أي في غلظهنّ وما بينهن، وقيل: هي سبعٌ إلا أنّه لم يفتق بعضها من بعض والآثار بأنّ الأرضين سبعٌ كثيرة[٢٣]".

وقد اتفق المفسرون على المثلية في العدد، وهو أنّ عدد السماوات سبع ومثلها الأرض سبع، ولكن بعض المفسرين لا يقولون بقطعية العدد، إذ أنّ العدد لديهم

(٢٢) ظ: البحر المحيط، أبو حيان الأندلسي: ٨/ ٢٨٦.

(٢٣) الجامع لأحكام القرآن، القرطبي: ١/ ٢٥٨-٢٦٠.

ليس له مفهوم.

فاذا قال الله سبحانه وتعالى سبع سماوات، فليس بمانع أن يكون العدد أكثر، فسواء أكان سبعاً أم ألفاً فذلك كلّه من فعل الله تعالى دالاً على جماله وكماله، فالعدد عندهم ليس بقيدٍ فنسبة النظر فيه إلى البحث الإلهي كنسبة النظر إلى طبقات البصلة وعددها وعدد حبّ الرُّمان، فالمقصود من ذلك كونه من فعل الله عز وجل(٢٤).

والذي ارتضيه ما ذهب إليه الفريق الأول من المفسرين وهو ظاهرة المثلية في العدد لا في الكيفية ؛ لأنّ كيفية السماء مخالفة لكيفية الأرض.

*خلق الإنسان:

ورد في القرآن الكريم كيفية خلق الإنسان الذي كرمه الله سبحانه وتعالى على الكائنات الأخرى، إذ خلقنا الله عز وجل من نفسٍ واحدة، وقد ورد عدد خلق الإنسان في خمسة مواضع(٢٥)، كما في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا﴾ [سورة الأعراف: ١٨٩].

وبينت الآيات القرآنية أنّ الله عز وجل خلق الإنسان من نفسٍ واحدة، دلالة على عظمته ومقدرته على أن يخلق الإنسان المتكامل الأجزاء والأوصاف من نفس واحدة وبث منها رجالاً ونساءً، كما في قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء:١]، أي يا بني آدم خلقكم الله سبحانه وتعالى وفرّعكم من أصلٍ واحد وهو نفس آدم عليه السلام وخلق هذا الخلق الفائت للحصر، وخلق حواء من قصيراه أي من أضلاعه، ولم تخلق أنثى غير حواء من قصيرى رجل وبث فيها رجالاً ونساءً كثيراً(٢٦).

* خلق الملائكة:

قوله تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ

(٢٤) ظ: الجواهر في تفسير القرآن، الطنطاوي: ١/ ٥٠.

(٢٥) ظ: [سورة النساء: ١]، [سورة الاعراف: ١٨٩]، [سورة الانعام: ٩٨]، [سورة الزمر: ٦]، [سورة لقمان: ٢٨].

(٢٦) ظ: الكشاف، الزمخشري: ٤/ ١١٣. (وفيه نظر)

﴿وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ يَزِيدُ فِي ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[سورة فاطر: ١].

يبين الله عز وجل كيفية خلق الملائكة الذين تعددت أسماؤهم في القرآن الكريم[٢٧]، قال الإمام محمد الباقر عليه السلام: "إنّ الله (عز وجل) خلق اسرافيل وجبرائيل وميكائيل من تسبيحة واحدة، وجعل لهم السمع والبصر وجودة العقل وسرعة الفهم".

فالملائكة مكرّمة من عند الله سبحانه وتعالى، وورد في القرآن الكريم أنّ الملائكة على ثلاثة أصناف منها تمتلك جناحين، ومنها ثلاثة أجنحة، ومنها أربعة، وعن الخصال بإسناده عن محمد بن طلحة يرفعه إلى النبي الأكرم صلى الله عليه وآله قال: "الملائكة ثلاثة أجزاء فجزء لهم ثلاثة أجنحة، وجزءٌ لهم جناحان، وجزءٌ لهم أربعة أجنحة، وفي الأغلب أنّه وصف للملائكة[٢٨]".

* خلق الحيوانات:

جاء في القرآن الكريم كيف خلق الله (سبحانه وتعالى) الحيوانات، كما ورد ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ خَلَقَ كُلَّ دَآبَّةٍ مِّن مَّآءٍ فَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ بَطْنِهِۦ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰ رِجْلَيْنِ وَمِنْهُم مَّن يَمْشِي عَلَىٰٓ أَرْبَعٍ يَخْلُقُ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة النور: ٤٥].

وهذا أحد الأدلة على وحدانية الله سبحانه وتعالى وهو الاستدلال بأحوال الحيوانات، ويبين النص القرآني أنّ من هذه الحيوانات من يمشي على رجلين، ومنهم من يمشي على أربع، إلا أنّه لم يستوفِ القسمة في العدد فإنا نجد بعض الحيوانات من تمشي على أكثر من أربع مثل (العناكب والعقارب) بل مثل هذه الحيوانات من له أربع وأربعون رجلاً الذي يسمى (دخان الأذن)، وذكر أربع لأنّه كالنادر فكان ملحقاً بالعدم والفلاسفة يقرون بأنّ ما له قوائم كثيرة فاعتماده إذا مشى على أربع جهاته لا غير فكأنه يمشي على أربع[٢٩].

* عِدة الشهور:

ورد في القرآن الكريم عِدة الشهور وهي أثنا عشر شهراً، وإنّ من هذه الشهور أربعة حُرُم، قد حرم الله تعالى فيها القتال

(٢٧) تعددت اسماء الملائكة في القرآن الكريم إذ سميت السبررة، والكرام الكاتبين، والرقيب، العتيد.

(٢٨) ظ: الميزان، الطباطبائي: ١٧/ ٧.

(٢٩) ظ: مفاتيح الغيب، الرازي: ٣/ ١٧.

وسفك الدماء، وهي (ذو القعدة، وذو الحجة، والمحرم، ورجب)، كما في قوله تعالى: ﴿إِنَّ عِدَّةَ ٱلشُّهُورِ عِندَ ٱللَّهِ ٱثْنَا عَشَرَ شَهْرًا فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ يَوْمَ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ مِنْهَآ أَرْبَعَةٌ حُرُمٌ ذَٰلِكَ ٱلدِّينُ ٱلْقَيِّمُ فَلَا تَظْلِمُوا۟ فِيهِنَّ أَنفُسَكُمْ وَقَٰتِلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ كَآفَّةً كَمَا يُقَٰتِلُونَكُمْ كَآفَّةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [سورة التوبة:٣٦].

فاليوم الذي خلق الله سبحانه السماوات والأرض خلق هذه الشهور الأربعة الحُرم.

* مجالات أخرى:

قوله تعالى: ﴿وَمِن كُلِّ شَىْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ [سورة الذاريات:٤٩].

فلفظة (زَوْجَيْنِ) في الآية المباركة دالة أما على الضدين فالذكر والأنثى كالضدين والزوجان منهما، أو من المتشكلين فإنّ كلّ شيء له شبيه ونظير، وضد، وند[٣٠].

فالعدد في الآية الكريمة أُبهم دلالة على أنّه مفهوم من قبل المنطق العقلي، فمعناه (زوجين اثنين) وهذا مفهوم من السامع والقارئ معاً.

المبحث الثالث

مجالات استعمال العدد في آيات الأحكام

أُستعمل العدد في آيات الأحكام وكان وروده كقيدٍ أو قاطع لحكم معين وضعه الله سبحانه وتعالى للتقيد به وعدم جواز مخالفته، إذ ورد العدد في هذه الآيات لتحديد المدة التي يجب الالتزام بها.

وبما أنّ عدد آيات الأحكام في القرآن الكريم -اجمالاً- تصل إلى خمسمائة آية[٣١]، فإنّ عدد الآيات الموجود فيها عدد-بعد إحصائي لها-هي (إحدى وثلاثون آيةً)، فتكون النسبة المئوية لاستعمال العدد في آيات الأحكام (٦,٠٢٪)، وبذلك يكون استعمال العدد في القرآن العظيم ومن بين الأحكام الواردة في الكتاب العزيز هي:

* عِدة المتوفى عنها زوجها:

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَٰجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ [سورة البقرة: ٢٣٤]. ويتوفون في الآية معناها يموتون ويقبضون، وأصل

(٣٠) ظ: المصدر نفسه: ٧/ ٦٧١.

(٣١) ظ: كنز العرفان في فقه القرآن، جمال الدين السبوري: ١/ ١٣ وما بعدها.

التوفي أخذ الشيء فالتي يتوفى زوجها عليها أن تتربص بنفسها-والتربص (الترقب)- أربعة أشهر وعشرة أيام، فاذا انقضت لها الأربعة أشهر حل للأزواج الزواج بها.

وقال (عشراً) ولم يقل (عشرة) ؛ لأنّ العرب إذا أبهمت العدد من الليالي والأيام غلّبوا الليالي[٣٢].

*عِدة المطلقة:

وضع الله سبحانه وتعالى للمطلقات عدة تعتد بها المرأة المطلقة إذا طلقها زوجها، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [سورة البقرة: ٢٢٨].فعلى المرأة أن تتربص بنفسها ثلاثة قروء، و(القروء) جمع القُرْء وهو لفظٌ يطلق على الطهر والحيض معاً، فهو على ما قيل من الكلمات التي تحمل معنيين أي من الأضداد، غير أنّ الأصل في مادّة (قرء) هو الجمع لكن لا كلّ الجمع الذي يتلوه الصرف والتحويل ونحوه، وعلى هذا فالأظهر أن يكون معناه الطهر لكونه حالة جمع الدم ثم استعمل في الحيض لكونه حالة قذفه بعد الجمع وبهذه العناية أُطلق على الجمع بين الحروف للدلالة على معنى القراءة[٣٣].

و(القرء) أيضاً كما نُقل عن الشافعي (ت: ٢٠٤هـ) هو الانتقال من طهر إلى حيض[٣٤].

*الإيلاء:

قال المسيب: كان الايلاء ضرار أهل الجاهلية، فالرجل في زمن الجاهلية كان يترك المرأة ولا يحب أن يتزوجها غيره، فيحلف أن لا يقربها فيتركها لا أيّما ولا ذات زوج، فانزل الله عز وجل الآية المباركة ﴿ لِّلَّذِينَ يُؤْلُونَ مِن نِّسَآئِهِمْ تَرَبُّصُ أَرْبَعَةِ أَشْهُرٍ ۖ فَإِن فَآءُو فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾[سورة البقرة:٢٢٦].

فالحكم من (الايلاء) كما جاء عن ابن مسعود، والنخعي، وقتادة، إنّه لا يقربها يوماً أو أقل أو أكثر ثم لا يطؤها أربعة أشهر فتَبين منه بالايلاء[٣٥].

*عدد الزوجات:

احلّ الله سبحانه وتعالى للرجل أن

(٣٢) ظ: معاني القرآن، الفراء: ١/ ١٥١.

(٣٣) ظ: الميزان، الطباطبائي: ١/ ٢٨٩.

(٣٤) ظ: البحر المحيط، الأندلسي: ٢/ ١٨٦.

(٣٥) ظ: المصدر نفسه: ٢/ ١٨٠.

يتزوج ما طاب له من النساء الحلائل وعددهنّ مثنى وثلاث ورُباع كما في قوله تعالى: ﴿فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً﴾ [سورة النساء: ٣] ومعناه اثنين اثنين، وثلاثاً ثلاثاً، وأربعاً أربعاً، وهذا العدد غير منصرف، فإذا خاف الزوج ألاّ يعدل بين زوجاته الاربع فعليه أن يكتفي بواحدة.

* كفارة اليمين:

قال تعالى: ﴿لَا يُؤَاخِذُكُمُ اللَّهُ بِاللَّغْوِ فِي أَيْمَانِكُمْ وَلَٰكِن يُؤَاخِذُكُم بِمَا عَقَّدتُّمُ الْأَيْمَانَ ۖ فَكَفَّارَتُهُ إِطْعَامُ عَشَرَةِ مَسَاكِينَ مِنْ أَوْسَطِ مَا تُطْعِمُونَ أَهْلِيكُمْ أَوْ كِسْوَتُهُمْ أَوْ تَحْرِيرُ رَقَبَةٍ ۖ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ ۚ ذَٰلِكَ كَفَّارَةُ أَيْمَانِكُمْ إِذَا حَلَفْتُمْ ۚ وَاحْفَظُوا أَيْمَانَكُمْ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾[سورة المائدة:٨٩].

بين الله سبحانه وتعالى في هذه الآية حكم كفارة اليمين التي على الإنسان الوفاء بها.

واليمين يكون على نوعين منه أنّ الحالف لا يعقد عليه وهذا الجاري لدينا من عادة اعتادها الشخص ولا سيما في قبيل البيع والشراء مثلاً يقول (والله)، (بلى والله)، فانّ الله عز وجل لا يؤاخذانا عليه، أمّا النوع الآخر والذي يؤاخذنا الله جل وعلا عليه والقيام بكفارة الذي يعقد عليه الحالف هو اليمين الممضاة شرعاً. فكفارتُهُ والتي تستر به مساءة المعصية-قال الراغب الأصفهاني (ت ٤٢٥هـ): والكفارة ما يغطي الإثم ومنه كفارة اليمين-فعليه إطعام عشرة مساكين، وإذا لم يستطع فعليه صيام ثلاثة أيام متتابعات[٣٦].

* كَفّارة الظهار:

وضع الله سبحانه وتعالى حكماً للذين يجعلون نساءهم كأمهاتهم اللاتي ولدتهم، فيقول الزوج لزوجته: أنت عليّ كظهر أمي، فلا يجوز الاقتراب منها إلا أن يؤدي كفارته، قال تعالى: ﴿فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[سورة المجادلة:٤].

تكون كفارة الرجل، إما الصيام ومدته

(٣٦) ظ: الميزان، الطباطبائي: ٦/ ١١٠ وما بعدها.

شهران متتابعان من دون انقطاع، أو إطعام ستين مسكيناً. وهذه حدود الله سبحانه وتعالى التي على الإنسان التقيد بها.

* حكم الاستئذان للخادم والعبد:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لِيَسۡتَـٔۡذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَبۡلُغُواْ ٱلۡحُلُمَ مِنكُمۡ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٖۚ مِّن قَبۡلِ صَلَوٰةِ ٱلۡفَجۡرِ وَحِينَ تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعۡدِ صَلَوٰةِ ٱلۡعِشَآءِۚ ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡۚ لَيۡسَ عَلَيۡكُمۡ وَلَا عَلَيۡهِمۡ جُنَاحُۢ بَعۡدَهُنَّۚ طَوَّٰفُونَ عَلَيۡكُم بَعۡضُكُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلۡأٓيَٰتِۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٞ﴾ [سورة النور:٥٨].

بين الله عز وجل حكم الاستئذان للعبيد والإماء، إذ وضح الله سبحانه وتعالى للمالكين أن يأمروا عبيدهم وإماءهم أن يستأذنوا عليهم إذا أرادوا الدخول إلى مواضع خلواتهم كما جاء عن ابن عباس (ت: ٦٨ هـ)، وقيل أراد العبيد خاصة عن ابن عمر وهذا مروي عن الإمام أبي جعفر الصادق عليه السلام.

ويكون الاستئذان في ثلاثة أوقات والتي عبر عنها في قوله تعالى: ثَلَاثُ عورات، والعورات هنا الأوقات من ساعات الليل والنهار، إذ فصّل الله سبحانه وتعالى هذه الأوقات التي يجب الاستئذان فيها وثم أجملها بقوله تعالى ﴿ثَلَٰثُ عَوۡرَٰتٖ لَّكُمۡ﴾، أي هذه الأوقات ثلاث عورات لكم، سمى الله سبحانه وتعالى هذه الأوقات عورات؛ لأن الإنسان يضع ثيابه فيها فتبدو عورته[٣٧].

* الإجارة:

جعل الله عز وجل حداً معيناً للأجرة التي تعقد بين طرفين اثنين، إذ وضحت الآية المباركة والتي قصّت علينا قصة النبي موسى عليه السلام، قال تعالى: ﴿قَالَ إِنِّيٓ أُرِيدُ أَنۡ أُنكِحَكَ إِحۡدَى ٱبۡنَتَيَّ هَٰتَيۡنِ عَلَىٰٓ أَن تَأۡجُرَنِي ثَمَٰنِيَ حِجَجٖۖ فَإِنۡ أَتۡمَمۡتَ عَشۡرٗا فَمِنۡ عِندِكَۖ وَمَآ أُرِيدُ أَنۡ أَشُقَّ عَلَيۡكَۚ سَتَجِدُنِيٓ إِن شَآءَ ٱللَّهُ مِنَ ٱلصَّٰلِحِينَ﴾ [سورة القصص:٢٧].

أي أزوجك إحدى ابنتيَّ هاتين، (وهي صفة لا بنتيَّ)، على أن تكون أجيراً لي واستأجرك للرعي لمدة ثماني سنين، فإن أتممت عشراً فمن عندك وهو تفضل منك

(٣٧) ظ: مجمع البيان، الطبرسي: ٧ / ٢٤٣.

وليس واجبٌ عليك[٣٨].

* الجهاد:

قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَى ٱلْقِتَالِۚ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَٰبِرُونَ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفًا مِّنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ﴾ [سورة الأنفال:٦٥].

في هذه الآية المباركة أمر الله سبحانه وتعالى نبيه الكريم محمدﷺ أن يحرض المؤمنين على الجهاد والقتال في سبيله، إذ كان الحكم في أول النبوة في أصحاب الرسولﷺ أنّ الرجل الواحد وجب عليه أن يقاتل عشرة من الكفار فإن هرب منهم فهو فار من الزحف، والمائة يقاتلوا ألفاً علم الله سبحانه وتعالى أن فيهم الضعفاء الذين لا يقدرون على ذلك فانزل قوله تعالى ﴿ٱلْـَٰٔنَ خَفَّفَ ٱللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًاۚ فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّاْئَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا۟ مِاْئَتَيْنِۚ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوٓا۟ أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾ [سورة الأنفال:٦٦].

(٣٨) ظ: المصدر نفسه: ٧/ ٣٩٠.

ففرض الله تعالى أن يقاتل رجل من المؤمنين رجلين من الكفار، فإن فرّ منهما فهو الفار من الزحف، وان كانوا ثلاثة من الكفار وواحداً من المسلمين ففر المسلم منهم فليس هو الفار من الزحف[٣٩].

وقد أباح الله سبحانه للمسلمين الغنيمة في الحرب، إذ ورد قوله تعالى: ﴿وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ﴾ [سورة الأنفال:٤١].

عن ابن الطيار، عن أبي عبد اللهؑ قال: "يخرج خمس الغنيمة ثم يقسم أربعة أخماس على من قاتل على ذلك أو وليه".

ويجوز أخذ الغنيمة من الذين ينصبون الحرب للمسلمين وإلا فلا يجوز أخذ مال مسلم ولا ذمي على وجه من الوجوه، كما ورد عن أبي عبد اللهؑ قال: "خُذْ مال الناصب حيث ما وجدته وادفع إلينا الخمس". قال محمد بن إدريس: الناصب المعني في هذا الحديث هو الذي ينصب الحرب للمسلمين[٤٠].

(٣٩) ظ: بحار الأنوار، المجلسي: ١٠٠/ ٣٠.

(٤٠) ظ: بحار الأنوار، المجلسي: ١٠٠/ ٥٥ وما بعدها.

*الميراث

جعل الله سبحانه وتعالى حكماً أو قانوناً للذي يموت ويترك ماله، سواء أكان له أولاد أم لم يترك أولاداً وترك أخوة وأخوات، فقد قسم الله عز وجل الميراث بالعدل والمساواة بين الذكر والأنثى كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَاجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصِينَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَلَهُنَّ الرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْتُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّكُمْ وَلَدٌ فَإِن كَانَ لَكُمْ وَلَدٌ فَلَهُنَّ الثُّمُنُ مِمَّا تَرَكْتُم مِّن بَعْدِ وَصِيَّةٍ تُوصُونَ بِهَا أَوْ دَيْنٍ وَإِن كَانَ رَجُلٌ يُورَثُ كَلَالَةً أَوِ امْرَأَةٌ وَلَهُ أَخٌ أَوْ أُخْتٌ فَلِكُلِّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا السُّدُسُ فَإِن كَانُوا أَكْثَرَ مِن ذَٰلِكَ فَهُمْ شُرَكَاءُ فِي الثُّلُثِ مِن بَعْدِ وَصِيَّةٍ يُوصَىٰ بِهَا أَوْ دَيْنٍ غَيْرَ مُضَارٍّ وَصِيَّةً مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَلِيمٌ﴾ [سورة النساء:١٢].

وقوله تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ إِنِ امْرُؤٌ هَلَكَ لَيْسَ لَهُ وَلَدٌ وَلَهُ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ وَهُوَ يَرِثُهَا إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ فَإِن كَانَتَا اثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا الثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ وَإِن كَانُوا إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَاءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ الْأُنثَيَيْنِ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النساء:١٧٦].

وبما أنَّ الله لطيف بعباده حكيم عليم بأفعال الإنسان، فقد وضع شهوداً على الوصية كما في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾ [سورة المائدة: ١٠٦].

فعدد الشهود الذين يشهدون على الوصية اثنان وصفة هذين الرجلين انهما ذوا عدل من المسلمين أو غير المسلمين(٤١).

*العقوبات:

جاء الدين الإسلامي دين حق وعدل، وإزاء ذلك وضع الله تعالى لعباده حدوداً يتقيد بها، وإذا لم يفعل العبد ما أمر الله سبحانه وخرج عن حدوده وجبت عليه عقوبة، ومن هذه العقوبات عقوبة الزانية والزاني، قال تعالى: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا

(٤١) ظ: الميزان، الطباطبائي: ٦/ ١٩٦.

﴿كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِاْئَةَ جَلْدَةٍ﴾ [سورة النور: ٢] فالزانية من النساء، والزاني من الرجال قد أفاد اللفظ في الآية المباركة العموم في الجنس، فكل واحد منهما مائة جلدة لشناعة ما فعلوه.

بعد أن بين الله تعالى حدّ الزنا ذكر بعد ذلك حدّ القاذف بالزنا والذي يقذف العفائف من النساء بالفجور والزنا وعقوبته ثمانون جلدة كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ﴾ [سورة النور: ٤].

والله عز وجل لطيفٌ رحيم بعباده، إذ لا تتحقق العقوبة إلا بالشهادة وعدد الشهود أربعة شهود، هذا حكم المحصنات الأجنبيات.

أما حكم المتزوجات فإن زوجها يشهد أربع شهادات فيقول مرة بعد أخرى: (أشهد بالله إني لمن الصادقين)، كما جاء في قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَٰجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَآءُ إِلَّآ أَنفُسُهُمْ فَشَهَٰدَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾ [سورة النور:٦].

والشهادة الخامسة يقول فيها: (لعنة الله عليّ إن كنت من الكاذبين) جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [سورة النور:٧].

والذي يدرؤا عن المرأة العذاب ان تقول أربع شهادات واحدة تلو الأخرى: (اشهد بالله إنه من الكاذبين فيما قذفني من الزنا)، وفي الخامسة (غضب الله عليّ ان كان من الصادقين)، كما في قوله تعالى: ﴿وَيَدْرَؤُا۟ عَنْهَا ٱلْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَٰدَٰتٍۭ بِٱللَّهِ ۙ إِنَّهُۥ لَمِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ﴾ [سورة النور:٨] وقوله تعالى: ﴿وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[سورة النور:٩][٤٢].

والله سبحانه يؤكد على الشهادة قبل حد العقوبة، ووجب أن يكونوا أربعة شهداء، قال تعالى: ﴿وَٱلَّٰتِى يَأْتِينَ ٱلْفَٰحِشَةَ مِن نِّسَآئِكُمْ فَٱسْتَشْهِدُوا۟ عَلَيْهِنَّ أَرْبَعَةً مِّنكُمْ﴾ [سورة النساء: ١٥].

والشهادة لا تتحقق بعقوبة الزنا فقط بل مثلها عقوبة الإفك-وهو الكذب العظيم الذي يقلب الأمر عن وجهه-وهم

(٤٢) ظ: مجمع البيان، الطبرسي: ٧/ ٢٠١ وما بعدها.

أربعة شهداء قال تعالى: ﴿لَّوْلَا جَآءُو عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا بِالشُّهَدَآءِ فَأُولَٰئِكَ عِندَ اللَّهِ هُمُ الْكَاذِبُونَ﴾ [سورة النور:١٣].

ومن مجالات العقوبة ما حدث لبني إسرائيل حينما طلبوا من النبي موسى عليه السلام بأنهم لن يصبروا على طعام واحد الذي يرزقهم به الله سبحانه وتعالى، بقوله تعالى: ﴿وَإِذْ قُلْتُمْ يَا مُوسَىٰ لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَاحِدٍ﴾[سورة البقرة: ٦١].

فأرادوا بالواحد ما لا يختلف ولا يتبدل، ولو كان على مائدة الرجل ألوان عدة يداوم عليها كل يوم لا يبدلها، وقيل لا يأكل فلان إلا طعاماً واحداً يراد بالوحدة نفي التبدل والاختلاف(٤٣).

* الحج:

فرض الله سبحانه وتعالى على الناس حج بيت الله الحرام من استطاع إليه سبيلاً، وقد وضع الله عز وجل واجبات يجب على الذي يقصد البيت الحرام الالتزام بها، منه قال تعالى: ﴿وَأَتِمُّوا الْحَجَّ وَالْعُمْرَةَ لِلَّهِ فَإِنْ أُحْصِرْتُمْ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ وَلَا تَحْلِقُوا رُءُوسَكُمْ حَتَّىٰ يَبْلُغَ الْهَدْيُ مَحِلَّهُ فَمَن كَانَ مِنكُم مَّرِيضًا أَوْ بِهِ أَذًى مِّن رَّأْسِهِ فَفِدْيَةٌ مِّن صِيَامٍ أَوْ صَدَقَةٍ أَوْ نُسُكٍ فَإِذَا أَمِنتُمْ فَمَن تَمَتَّعَ بِالْعُمْرَةِ إِلَى الْحَجِّ فَمَا اسْتَيْسَرَ مِنَ الْهَدْيِ فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْحَجِّ وَسَبْعَةٍ إِذَا رَجَعْتُمْ تِلْكَ عَشَرَةٌ كَامِلَةٌ ذَٰلِكَ لِمَن لَّمْ يَكُنْ أَهْلُهُ حَاضِرِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ﴾[سورة البقرة:١٩٦].

فالذي لا يقدر على ذبح الهدي فعليه صيام ثلاثة أيام في الحج وسبعة أيام إذ رجع إلى أهله ومجموع هذه الأيام عشرة.

* مجالات أخرى:

استعمل العدد في مواضع غير التي ذكرناها سابقاً، وفيها جاء العدد دالاً على التحديد وكونه قاطعاً لظاهرة خاصة، ومنها مخاطباً النبي الأكرم صلى الله عليه وآله في قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَيِ اللَّيْلِ وَنِصْفَهُ وَثُلُثَهُ﴾[سورة المزمل: ٢٠].

والثلث أي ثلاثة أرباع الليل و(الثلثين) أي أقرب من ثلث الثلثين، والهاء الموجودة في (ثلثه) تعود إلى الثلثين(٤٤).

وكذلك محذراً الرسول الأكرم صلى الله عليه وآله من المشركين بقوله تعالى: ﴿وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ

(٤٣) ظ: الكشاف، الزمخشري: ١/ ١٤٥.

(٤٤) ظ: مجمع البيان: ٧/ ١٣٤.

عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ﴾[سورة النساء: ١٠٢]. أي يميلون ويهجمون عليكم هجمة واحدة.

فإنّ الواضع لهذه الأحكام هو الله الواحد الذي لا شريك له والمخبر عن هذه الأحكام هو النبي الأكرم ﷺ كما جاء ذلك في قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ﴾[سورة الكهف: ١١٠]. فيأمر الله نبيه الكريم ﷺ أنّه لا فضل لي عليكم إلا بالدين والنبوة وأنا بشر آدمي والأمر كله يرجع إلى الله عز وجل، ومؤكداً ذلك بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَٰهُكُمْ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ فَاسْتَقِيمُوا إِلَيْهِ وَاسْتَغْفِرُوهُ وَوَيْلٌ لِّلْمُشْرِكِينَ ﴾ [سورة فصلت:٦].

فهارس البحث

فهرست العدد في آيات الأحكام

- [سورة البقرة: ٦١، ١٩٦، ٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٤].
- [سورة النساء: ٣، ١١، ١٢، ١٥، ١٠٢، ١٧٦].
- [سورة المائدة: ٨٩، ١٠٦].
- [سورة الأنعام: ١٤٣، ١٤٤].
- [سورة الأنفال: ٤١، ٦٥، ٦٦].
- [سورة الحج: ٣٤].
- [سورة النور: ٢، ٤، ٦، ٧، ٨، ٩، ١٣، ٥٨].
- [سورة القصص: ٢٧].
- [سورة المجادلة: ٤].
- [سورة الطلاق: ٤].
- [سورة المزمل: ٢٠].

فهرست العدد في آيات الخليقة

- [سورة البقرة: ٢٩].
- [سورة النساء: ١].
- [سورة الأنعام: ٩٨].
- [سورة الأعراف: ٥٤، ١٨٩].
- [سورة التوبة: ٣٦].
- [سورة يونس: ٣].
- [سورة هود: ٧].
- [سورة الرعد: ١٦].
- [سورة المؤمنون: ١٧].
- [سورة النور: ٤٥].
- [سورة الفرقان: ٥٩].
- [سورة لقمان: ٢٨].
- [سورة السجدة: ٤].
- [سورة فاطر: ١].
- [سورة الزمر: ٤، ٦].

- [سورة فُصلت: ١٢].
- [سورة ق: ٣٨].
- [سورة الذاريات: ٤٩].
- [سورة الحديد: ٤].
- [سورة الطلاق: ١٢].
- [سورة الملك: ٣].
- [سورة نوح: ١٥].
- [سورة النبأ: ١٢].

فهرست الآيات التي بدأت بالعدد

- قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [سورة النساء:١].
- قال تعالى: ﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ جَاعِلِ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ رُسُلًا أُو۟لِىٓ أَجْنِحَةٍ مَّثْنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَ ۚ يَزِيدُ فِى ٱلْخَلْقِ مَا يَشَآءُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾ [سورة فاطر:١].

فهرست الآيات التي انتهت بالعدد

- قال تعالى: ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌا۟ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓا۟ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّوا۟ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌ﴾ [سورة النساء:١٧٦].
- قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ ۖ يَتَنَزَّلُ ٱلْأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَىْءٍ عِلْمًا﴾ [سورة الطلاق:١٢].
- قال تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَن لَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ [سورة المزمل:٢٠].

العدد (واحد) في آيات الخليقة والأحكام

- [سورة البقرة: ٦١] (مدنية).
- [سورة النساء: ١، ١١، ١٠٢] (مدنية).
- [سورة الأنعام: ٩٨] (مكية).
- [سورة الأعراف: ١٨٩] (مكية).
- [سورة الرعد: ١٦] (مدنية).
- [سورة الحج: ٣٤] (مدنية).
- [سورة النور: ٢] (مدنية).
- سورة لقمان: ٢٨] (مكية).

- [سورة الزمر: ٤، ٦] (مكية).

العدد (اثنان) في آيات الخليقة والأحكام

[سورة النساء: ٣، ١١، ١٧٦] (مدنية).

- [سورة المائدة: ١٠٦] (مدنية).
- [سورة الأنعام: ١٤٣، ١٤٤] (مكية).
- [سورة فاطر: ١] (مكية).

العدد (ثلاثة) في آيات الخليقة والأحكام

- [سورة البقرة: ١٩٦، ٢٢٨] (مدنية).
- [سورة النساء: ٣، ١١، ١٢] (مدنية).
- [سورة النور: ٥٨] (مدنية).
- [سورة فاطر: ١] (مكية).
- [سورة الزمر: ٦] (مكية).
- [سورة الطلاق: ٤] (مدنية).
- [سورة المزمل: ٢٠] (مكية).

العدد (أربعة) في آيات الخليقة والأحكام

- [سورة البقرة: ٢٢٦، ٢٣٤] (مدنية).
- [سورة النساء: ٣، ١٢] (مدنية).
- [سورة التوبة: ٣٦] (مدنية).
- [سورة النور: ٤، ٦، ٨، ١٣، ٤٥] (مدنية).
- [سورة فاطر: ١] (مكية).

العدد (خمسة) في آيات الأحكام

[سورة الأنفال: ٤١] (مدنية).

- [سورة النور: ٧، ٩] (مدنية).

العدد (ستة) في آيات الخليقة

- [سورة الأعراف: ٥٤] (مكية).
- [سورة يونس: ٣] (مكية).
- [سورة هود: ٧] (مكية).
- [سورة الفرقان: ٥٩] (مكية).
- [سورة السجدة: ٤] (مكية).
- [سورة ق: ٣٨] (مكية).
- [سورة الحديد: ٤] (مدنية).

العدد (سبعة) في آيات الخليقة والأحكام

- [سورة البقرة: ٢٩، ١٩٦] (مدنية).
- [سورة المؤمنون: ١٧] (مكية).
- [سورة فُصلت: ١٢] (مكية).
- [سورة الطلاق: ١٢] (مدنية).
- [سورة الملك: ٣] (مكية).
- [سورة النوح: ١٥] (مكية).
- [سورة النبأ: ١٢] (مكية).

العدد (ثمانية) في آيات الخليقة والأحكام

- [سورة القصص: ٢٧] (مكية).
- [سورة الزمر: ٦] (مكية).

العدد (عشر) في آيات الخليقة والأحكام

- [سورة البقرة: ١٩٦، ٢٣٤]

(مدنية).

- [سورة المائدة: ٨٩] (مدنية).
- [سورة القصص: ٢٨] (مكية).

العدد (مائة) في آيات الأحكام

- [سورة الأنفال: ٦٥، ٦٦] (مدنية).
- [سورة النور: ٢] (مدنية).

العدد (ألف) في آيات الأحكام

- [سورة الأنفال: ٦٥، ٦٦] (مدنية).

فهرست المصادر والمراجع

خير ما نبتدئ به

- القرآن العظيم
- الإتقان، جلال الدين السيوطي (ت:٩١١هـ)، مطبعة حجازي، القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٣٦٠هـ-١٩٤١م.
- أصول الفقه، محمد رضا المظفر، مطبعة دار النعمان، النجف الأشرف، الطبعة الثانية، ١٣٨٦هـ-١٩٦٦م.
- الإيضاح في شرح المفصل، أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب النحوي (ت: ٦٤٦هـ)، تحقيق وتقديم: د. موسى بناي العليلي، مطبعة المعاني، بغداد.
- البحر المحيط، محمد بن يوسف أبو حيان الأندلسي القرطبي (ت: ٧٥٤هـ)، دار الفكر للطباعة والنشر، الطبعة الثانية، ١٣٩٨ هـ-١٩٧٨م.
- بحار الأنوار، محمد باقر المجلسي (ت: ١١١١هـ)، المطبعة الإسلامية، ١٣٨٨هـ.
- الجامع للأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري الخزرجي القرطبي (ت:٦٧١هـ)، مطبعة دار الكتب المصرية، مصر، ١٣٥٣هـ.
- شرح المفصل، موفق الدين بن يعيش (ت:٦٤٣هـ)، مطبعة عالم الكتب، بيروت.
- الكشاف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، جار الله محمود الزمخشري (ت:٥٣٨هـ)، دار الكتب العربي، بيروت-لبنان.
- كشاف اصطلاحات الفنون، محمد أعلى بن علي التهانوي (ت:بعد ١١٥٨هـ)، مطبعة خياط، بيروت.

- كنز العرفان في فقه القرآن، جمال الدين المقداد بن عبد الله السبوري، مطبعة نوبهار، الطبعة الأولى، دار الهدى للتوزيع والنشر الدولي، ١٤١٩هـ.
- لسان العرب، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم ابن منظور (ت:٧١١هـ)، دار صادر للطباعة والنشر، بيروت، ١٣٧٤هـ-١٩٥٥م.
- المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر، ضياء الدين ابن الأثير (ت:٦٣٧هـ)، تحقيق: أحمد الحوفي وبدوي طبانة، دار الرفاعي، الطبعة الثانية، ١٤٠٣هـ-١٩٨٣م.
- مجمع البيان في تفسير القرآن، أبو علي بن الحسن الطبرسي، مطبعة أمير، قم الطبعة الثامنة.
- معجم مفردات القرآن الكريم، أبو القاسم الحسين بن محمد بن المفضل الراغب الأصفهاني (ت: ٥٠٢هـ)، ضبطه وصححه: إبراهيم شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- معاني القرآن، أبو زكريا يحي بن زياد الفراء (ت:٢٠٧هـ)، تحقيق: د. عبد الفتاح إسماعيل شلبي، مراجعة: أ.علي النجدي ناصف، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٧٢م.
- مفاتيح الغيب (التفسير الكبير)، أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين الفخر الرازي (ت: ٦٠٤هـ)، المطبعة البهية المصرية، الطبعة الأولى، ١٣٥٣هـ-١٩٣٤م.
- الميزان في تفسير القرآن، محمد حسين الطباطبائي (ت:١٤٠٢هـ) مؤسسة الاعلمي ،بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٣٩٠هـ-١٩٧١م.
- النحو الوافي، عباس حسن، دار المعارف بمصر، القاهرة، ١٩٧٥.
- نهج البلاغة للإمام علي عليه السلام، الشريف الرضي (قدس سره)، تحقيق: د.محمد الدشتي، مطبعة الهادي، الناشر مؤسسة أمير المؤمنين الثقافية للتحقيق، الطبعة الثانية، ١٤٢٥هـ.

ملخص البحث

تناول السيد الباحث في هذه الدراسة بالتحليل المستوى الصوتي لسورة الشمس المباركة. وقد نهج فيه منهج التحليل الاسلوبي الذي يسعى الى الانضباط والضبط. والدراسة موزعة على ثلاثة محاور:

الأول: وقد شمل المستويات اللغوية الاربعة: (الصوتي والصرفي والنحوي والدلالي).

الثاني: متابعة الظواهر اللغوية والاسلوبية وما احدثت من بلاغة وتأثير.

الثالث: تناول التصوير الفني، ومنه التصوير المعتَمِد على نقل الحقيقة، والتصوير البياني معتمداً على التشبيه أو المجاز أو الكناية. يوصل من تناسق بين مكونات السورة.

سورة الشمس
- دراسة أسلوبية -

احمد حسين خشان الهاشمي
المعهد العراقي للدراسات العليا

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيۡلِ إِذَا يَغۡشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلۡأَرۡضِ وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفۡسٖ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ۝٨ قَدۡ أَفۡلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ۝١٠ كَذَّبَتۡ ثَمُودُ بِطَغۡوَىٰهَآ ۝١١ إِذِ ٱنۢبَعَثَ أَشۡقَىٰهَا ۝١٢ فَقَالَ لَهُمۡ رَسُولُ ٱللَّهِ نَاقَةَ ٱللَّهِ وَسُقۡيَىٰهَا ۝١٣ فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمۡدَمَ عَلَيۡهِمۡ رَبُّهُم بِذَنۢبِهِمۡ فَسَوَّىٰهَا ۝١٤ وَلَا يَخَافُ عُقۡبَٰهَا ﴾

[سورة الشمس: ١-١٥].

صدق الله العلي العظيم

التمهيد

سورة الشمس؛ مكية، وآياتها خمس عشرة، وهي من السور القصار.

مدار سياق سورة «الشمس» التحذير، أما قطبه فهو مجانبة الظلم، والابتعاد عن الدسّ، وصرف الكذب، والامتناع عن الفجور والطغيان، والإمساك عن القتل إلاّ بالحق. فكان عاقبة هذا التحذير، والتجاوز عليه، والقفز عليه إلى الجريمة، الوعيد بالويل والثبور.

ابتدأت السورة بسبعة مُقسَمات دالة على توكيد جملة من الوصلات الخبرية عن: عمل الإنسان في الدنيا: عمل الخير، وعمل الشر، وما يترتب على ذلك من الفلاح والخيبة، واعتنى النص الكريم في مشهد الطغيان في قوم ثمود، كإشباع لأسلوب التحذير بعد الكشف عن عاقبتهم الوخيمة.

ويدور سياق سورة «الشمس» على أمرين: القسم والتحذير.

١-القسم: يمثل القسم الأداة التأسيسية لفعل التحذير في النص الكريم، وحمل المتلقي على التصديق والإيمان، أو زعزعة ما يخالف ذلك «لجأ القرآن إلى القسم متبعاً النهج العربي في توكيد الإخبار به، لتستقر في النفس، ويتزعزع ما يخالفها، وإذا كان القسم لا ينجح أحياناً في حمل المخاطَب على التصديق، فإنه كثيراً ما يوهن في النفس الفكرة المخالفة، ويدفع إلى الشك فيها، ويبعث المرء على التفكير القوي فيما ورد القسم من أجله»[١].

٢-التحذير:[٢] هو نصب الاسم بفعل محذوف، يفيد التنبيه، والتحذير، ويقدّر بحسب ما يناسب المقام؛ (احذر)، (باعد)، (تجنب)، (قِ)، (توقَّ)، ونحوها، ويكون التحذير :

أ -تارة بلفظ (إيّاك) وفروعه، نحو: إيّاك والكذب؛ فإيّاك ضمير بارز منفصل في محل نصب لفعل محذوف تقديره: «باعد» أو «قِ» أو «احذر»، والكذب معطوف على إياك، أو مفعول به لفعل محذوف أيضا، كما تقدم، ولكَ أن تجعلَ(الواو) للمعية، والكذب مفعولاً معه.

ب- وتارة بدون إياك وفروعه، نحو: نفسَكَ والشر، والأسدَ الأسدَ.

ج- وتارة بلفظ إياه، وإياي، وفروعهما إذا عطف على المُحذَّر، كقوله:

فلا تصحبْ أخا الجهلِ وإياكَ وإياه

والعامل في التحذير يُضمرُ وجوباً في ثلاثة مواضع:

١- أن يكون المُحذَّرُ به نفس (إياك) وفروعه.

٢- أن يكون هناك عطف.

٣- أن يكون هناك تكرار، كقولك: الأسدَ، الأسدَ.

المبحث الأول :المقاييس الصوتية:

تتعلق المقاييس الصوتية بخصائص

(١) من بلاغة القرآن، بدوي، أحمد، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٣م، ١٣٢.

(٢) ينظر: إعراب القرآن وبيانه، الدرويش، كمال الملك للنشر، إيران، ط٢، ١٤٢٨هـ، ٨/ ٣٣٣.

الصوت من جهة وبالتوازنات الصوتية[٣] من جهة ثانية، وعن التوازنات يتولد نسق إيقاعي يطرد بين مكونات النص، برغم ندرة ورود مصطلح الإيقاع[٤].

والقيم الصوتية تتعلق مباشرة بنوع من المعاني يسمى المعاني الطبيعية «التي لا توصف آثارها بأنها عرفية ولا ذهنية لأنها في الواقع مؤثرات سمعية انطباعية ذات وقع على الوجدان تدركها المعرفة ولا تحيط بها الصفة»[٥].

وتشير الدراسات التراثية خاصة التأسيسية منها، إلى هذه الموازنات الصوتية التي من الممكن لمس أثرها في النص القرآني «فإنك لا تسمع كلاماً غير القرآن منظوماً ولا منثوراً إذا قرع السمع خلص له إلى القلب من اللذة والحلاوة في حال ومن الروعة والمهابة في أخرى ما يخلص منه إليه»[٦].

ارتبطت المقاييس الصوتية بالدراسات الإعجازية فالرماني (ت٣٨٤هـ) أول من أشار إلى ذلك فأبرز التوازنات الصوتية في النص القرآني وعدَّ التلاؤم الصوتي من مؤكدات الإعجاز القرآني، وكذلك الباقلاني (ت٤٠٣هـ) الذي عدَّ الفواصل -وهي وقفات صوتية -من الصور التي يمكن أن يتعلق بها الإعجاز، ولم يأخذ عبد القاهر الجرجاني (ت٤٧١هـ) بالمقياس الصوتي غاية للإعجاز، ويعتمد الفخر الرازي (ت٦٦١هـ) في «نهاية الإيجاز» فصلاً للمبحث الصوتي، ويرى ابن سنان الخفاجي أن الفصاحة قائمة على الصوت مع إشارته إلى وجود السجع في القرآن.

ومن القيم الصوتية في الدراسات القرآنية -الواجب مراعاتها -في النص الكريم: التكرار والتثنية، التماثل والتباين، التلاؤم والتنافر «الإيجاز والتشبيه والاستعارة والتلاؤم والفصل والتجانس

(٣) الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، العمري، محمد، أفريقيا الشرق، بيروت والمغرب، ٢٠٠١م، ١٥ وما بعدها.

(٤) أول من استعمل مصطلح الإيقاع ابن طباطبا (٣٢٢هـ) في عيار الشعر، قائلاً: «وللشعر الموزون إيقاع».

(٥) البيان في روائع القرآن، حسان، تمام، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م، ١/ ١٧٥.

(٦) بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ضمن ثلاث رسائل، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٩١م، ٧٠.

والتصريف والتضمين والمبالغة وحسن البيان»[٧]. ويظهر منها الحيز الصوتي هاماً بمقاييسه وإجراءاته، فمن الأقسام العشرة يتمثل المكون الصوتي في التلاؤم والفواصل والتجانس والتصريف إذا عددناه تصرفاً في الصيغ بما يحقق تنويعاً إيقاعياً. ويستخلص الجاحظ (ت٢٥٥هـ) مقياساً صوتياً للأسلوب القرآني المعجز بقوله :«التلاؤم نقيض التنافر، والتلاؤم تعديل الحروف في التأليف»[٨].

أولاً

الموسيقى اللغوية

إن لغة القرآن في نظمها وتركيبها تعكس خصائص مبتكرة في الجزالة والإحكام في توازن صوتي يعبر عن دلالات دقيقة كانت من قبل عصية على الفهم والإدراك «تأليف صوتي يكاد يكون موسيقياً محضاً في التركيب، والتناسب بين أجراس الحروف والملائمة بين طبيعة المعنى، وطبيعة الصوت الذي يؤديه»[٩].

وهناك علاقة تكاد تكون معلومة لدى المتذوق صاحب الملكة السمعية، بين الأصوات الموسيقية والوظيفية التي تؤديها في النص الكريم في حركية مكثفة تطرب وتهتز لها الأبدان والنفوس «يستطيع كل عربي أن يوقّع بأحرفه وكلماته على لحنه الفطري ولهجة قومه، توقيعاً يطلق من نفسه الأصوات الموسيقية التي يشيع بها الطرب في هذه النفس، بما يسمونه في لغة العرب بياناً وفصاحةً، وهو في لغة الحقيقة الموسيقى اللغوية»[١٠].

ثانياً

السجع والفاصلة

صنف الرماني في مقاييسه الصوتية بين السجع والفاصلة من خلال معيار المعنى فجعل الأول متبوعاً والثاني تابعاً للمعنى

(٧)النكت في إعجاز القرآن، الرماني، أبو عيسى (ت٣٨٤هـ)، ضمن ثلاث رسائل، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٩١م، ٧٦.

(٨) البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.١/ ٣٦.

(٩) إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، مصطفى صادق، ٤٦.

(١٠) (م.ن)، ٤٦- ٤٧.

«الفواصل بلاغة والسجع عيب، ذلك أن الفواصل تابعة للمعاني، وأما الأسجاع فالمعاني تابعة لها»[١١].

ثالثاً

التجانس

أما التجانس وهو صورة توازنية هامة في الدرس البلاغي فإن الرماني يجعله من إجراءات الأسلوب البليغ التي تنتهي بإثبات تميّز الأسلوب القرآني، وهو بيان بأنواع الكلام الذي يجمعه أصل واحد في اللغة»[١٢].

رابعاً

اللين والشدة

ومقياس هذا الاختيار الصوتي هو صحة الجرس والنصاعة واللين والهشاشة وعدم الاعتياص[١٣]، وهذه المقاييس أوردها الرازي في اختيار بعض الأصوات ثم أجمل وظيفتها قائلاً: «وهذه الاعتبارات لا بد من رعايتها ليكون الكلام سلساً على الأسلات، عذباً على العذبات، وهي كالشرط للفصاحة والبلاغة»[١٤].

المبحث الثاني

الدراسة الصوتية

الحرف العربي المكتوب (صوت منطوق) و(اللغة رموز) والقرآن (تلاوة)، يحدد فكرة ناهضة مفادها: (النظم الصوتي) في الدلالة القرآنية ونهايتها بفاصلة -صوت- تحمل معنى الآية، فالصوت العربي له صفات تمثل معناه في تركيب الكلمة، والكلمة بأصواتها تحمل معنى غير المجرد حيث السياق الذي ترد فيه فتكون دلالة صوتية ذات معنى محدد جديد قد يغيرها السياق أو تغير معنى السياق وفق تركيب الجملة أو (الآية) مما يعطي سمة أسلوبية لهذا النص القرآني عن سواه من نفس القرآن فتختلف السور على وفق ما تحمل بين أصواتها من معنى لذلك، وفكرة السياق/ السمة الأسلوبية هي من بنات أفكار الشيخ صبحي الصالح في كتابه (مباحث في علوم القرآن) [١٥] في حديث عام عن السياق القرآني الخاص والعام.

(١١) النكت في إعجاز القرآن، الرماني، ٩٧.
(١٢) ينظر: (م.ن)، ٩٩.
(١٣) ينظر: نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي، ٨٨.
(١٤) ينظر: (م.ن)، ٨٤.
(١٥) ينظر: ٣١٧.

صفات الأصوات ومعانيها

تحفل الكتب التراثية بالكثير من الدراسات الصوتية موضوعاً ومعنى، فهي مبثوثة في كتاب (الخصائص)[١٦] لأبن جني (ت ٣٩٤هـ) وفيما يخص تركيبة الكلمة ثم الجملة في إشارات صوتية لهذا التركيب، ويتضح هذا الموضوع في كتاب (إعجاز القرآن والبلاغة النبوية) للرافعي، إذ يقول: «هذه الفواصل التي تنتهي بها آيات القرآن الكريم ما هي إلا صور تامة للأبعاد التي بها جمل الموسيقى، وهي متفقة مع آياتها في قرار الصوت اتفاقاً عجيباً يلائم الصوت والوجه الذي يساق عليه بما ليس وراءه من العجب مذهب»[١٧]، ولم يشر الرافعي إلى معنى الصوت، وهذا ما فاته، وإنما أشار إلى توافق ما أسماه الموسيقى وقصد الموسيقى الداخلية ؛ أي التناغم بين الأصوات للكلمة ثم الجملة أو الآية كما في كتابه إلا أنه أشار إلى صوت الجملة وتقطيعها الصوتي، وكذلك لم يشر إلى المعنى الدلالي الذي يؤديه (الصوت = الرمز)، إلا أنه ربط بين نهاية الآية -بفاصلة وبين الأصوات وتراكيبها داخل الجملة وأطلق اسم النظم الموسيقي عليها وحددها في الجمل القصار وأهمل الجمل الطوال.

والموسيقى الداخلية للنص الكريم تُبْعَثُ من الحركة والحرف واللفظ المفرد في كل تعبير قرآني «وإننا ندرك كل الإدراك أن الموسيقى الداخلية لتُبعث في النص الكريم من الحركة ومن الحرف ومن اللفظ المفرد في كل آية فتلقي ظلالها بجرسها ونغمها على التركيب فيستقل بتصوير لوحة كاملة يكون فيها اللون زاهياً أو شاحباً، وفيها الظل شفيفاً أو كثيفاً»[١٨].

المبحث الثالث

المستوى الصوتي في سورة الشمس

إذا أقسم القرآن بمصنوعات الله تعالى كان في ذلك تنبيه إلى ما فيها من روعة، تدفع إلى التفكير في خالقها، وتأمل جمال القسم في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ۝٢ وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ۝٤ وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ

(١٦) ينظر: ١/ ٨٧.
(١٧) ينظر: ٢١٦.
(١٨) من أساليب التعبير القرآني، الزوبعي، طالب محمد إسماعيل، ٣٥٩.

﴿وَمَا طَحَىٰهَا ۝٦ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ۝٨ قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾.

وفي ذلك مواءمة دلالية، أوَ لا ترى هذا القسم مثيراً في النفس أقوى إحساسات الإعجاب بمدبر هذا الكون ومنظم شؤونه هذا التنظيم المُحكم الدقيق، على وفق توالي الفاصلات بين الأقسام بين ملائمة اللفظ ومراعاة المعنى، والفاصلة ؛ هي كلمة آخر الآية في كتاب الله، وفي اللسان «وأواخر الآيات في كتاب الله فواصل بمنزلة قوافي الشعر... واحدتها فاصلة»[١٩].

وقال الزركشي: «هي كلمة آخر الآية، كقافية الشعر، وقرينة السجع»[٢٠].

وفي الآيات المتقدمة توجيه للأثر السمعي إلى الجرس الصوتي، والتوليف اللفظي، ولفت الانتباه إلى التنوع الدلالي، والارتباط العضوي بين مضمون الآيات وخواتيمها، ولإبراز الجانب الموسيقي في الفواصل، ومراعاة متطلبات الإيقاع ومقتضيات التلاؤم النغمي راعت الآيات ما يلي[٢١]:

بناء كثير من الفواصل على الوقف حتى لا يختل الإيقاع.

١-تفضيل كثير من الفواصل لأصوات معينة لحرف الروي وختامها بحروف المد والنون تمكيناً للقارئ من تحقيق الترنم والتمكن من التطريب بذلك كما الزركشي الذي ينقل عن سيبويه قوله: «إنهم إذا ترنموا يلحقون الألف والواو والياء... لأنهم أرادوا مدَّ الصوت»[٢٢].

وكما هو واضح في الآيات الكريمة تنتهي بفاصلة منفردة الإيقاع تكون موحدة في أدائها، تكون كالمقطع الأخير الذي يشير إلى الانتهاء، ويختزل الصوت في مدِّ صوت الألف العميق (الجوفي)، ولا يفوت النص أن جعل جميع الضمائر في الفواصل عائدة على مؤنث أصلاً أو فصلاً، مما يعطي أثراً موحداً وأداءً منظماً في موسيقى الآية.

(١٩) لسان العرب، مادة (فصل).
(٢٠) البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين، ١/ ٥٣.
(٢١) دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، أحمد، مختار عمر، ٧٣.
(٢٢) التعبير الفني في القرآن، بكري، أمين، ٢٠٤.

٢- يقول الله تعالى في سورة النازعات: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ ولو أننا قارنا سياق هذه الآية بسياق آية الشمس ﴿وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾ لوجدنا ما كان دالاً في (دحاها) قد تحوَّل إلى (طاء) في (طحاها) ولقد عرفنا من دراسة سيبويه لصوتي (الدال والطاء) أنه لا فرق بينهما في النطق إلا التفخيم، فلو فخمت (الدال) لصارت (طاء) أي: أن الأرض تحتاج إلى زخم صوتي وترددي مدوٍّ لمناسبة القسم المتقدم من السورة.

جملة هذه السمات أحدثت «الانسجام الموسيقي الذي فيه تؤلف العبارة من كلمات متسعة ذات حركات وسكنات يشعر المرء عند تلاوتها بما يكمن وراءها النظام من موسيقى واتساق»[٢٣].

أما عن حرف (الواو) فقد تكرر في السورة -على قصرها- خمس عشرة مرة مما أسهم مع الفاصلة بوصفه أولاً والفاصلة آخراً خبباً وترنيماً متدرجاً يقع لصالح إغناء المعنى وإثرائه في مقاطع تكون متوازنة صوتياً تشحذ الذوق وتستمليه تأملاً في السماع.

أما مقطع الفعل في السورة الكريمة فقد تكرر في تسعة عشر موضعاً في زمن الماضي الذي التصق به بنبرة تلتقي مع الفاصلة لتهيء منظومة في نغمة محكمة ومتوازنة في جميع الآيات.

وعن التوازنات الصوتية فقد أحدثت (إذا) مع (وما) تنقلات متشكلة إيقاعاً ووزناً، و(إذا) في الآيات الأربع الأولى، و(وما) في الثلاث التي بعدها مع الفارق بين الدلالتين، كما سيوضح في موضوع الدلالة.

وفي الآية الرابعة عشرة أحدثت (الفاء) تسارعاً إيقاعياً يناسب الحركة الاتساقية التي تتوالى سريعاً في السياق العام للآية (فكذبوه، فعقروها، فدمدم، فسواها) في إيقاع ونبرة تصاعدية متلاحقة بفعل بناء درامي متوالٍ. مما أكسب النص تنغيماً يحتاج إلى المزيد من التأمل والتدبر، أما الفعل

(٢٣) من بلاغة القرآن، ٢٤٥، وينظر: الفاصلة القرآنية، لاشين، عبد الفتاح، ٥١.

(دمدم) والفعل (سواها) فكان الثاني نتيجة للأول وهو (دمدم) أي: «فأطلق عليهم العذاب»[٢٤]، وهو النسق الذي يسمح لكل لفظ «بأن تتسع شحنته من الإيقاع ليصور مشهداً شديد الحركة، متلاصق الأحداث، فلا ضرورة لهذا التراخي»[٢٥].

المبحث الرابع

المستوى اللغوي والصرفي

و(ضحاها) قال القرطبي[٢٦]: الضُحى مؤنثة، يقال: ارتفعت الضُحى فوق الضَحْوِ، وقد تُذكَّر، فمن أنَّث ذهب إلى أنها جمع ضَحْوة، ومن ذكَّر ذهب إلى أنها اسم على وزن (فُعَل) نحو: صُرَد، وقال ابن خالويه: الضحى مقصور، مثل، هُدى، والضحى مؤنثة، تصغيرها ضُحَيَّة، والأجود أن تقول في تصغيرها: ضحيَّ بغير هاء، لئلا يشبه تصغيرها ضحوة، والضُحى: وجه النهار، ويقال: ليلة أضحيان ؛ إذا كان القمر فيها مضيئاً من أولها إلى آخرها، وقد أضحى النهار ؛ إذا ارتفع، ويقال: ضَحِيَ فلان للشمس، يضحى ؛ إذا برز لها وظهر، قال تعالى: ﴿وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [سورة طه: ١١٩]. ورأى ابن عمر رجلاً يلبي وقد أخفى صوته، فقال له: أضحَ لمن لبَّيت له، أي: أظهر، وقال عمر بن أبي ربيعة:

رأت رجلاً أما إذا الشمسُ عارضت
فيضحى وأما بالعشيِّ فيَخصَرُ

و«الضَّحْوُ، والضَحْوَةُ، والضَحْيَةُ كعشية: ارتفاع النهار، والضُحى: فويقه، ويذكَّر، ويصغَّر ضحياً بلا هاء والضُحاء بالمد ؛ إذا قرب انتصاف النهار، بالضم والقصر، وأتيتك ضحوةً، وضحىً، وأضحى: صار فيها، والشيء: أظهره، وضاحاه: أتاه فيها»[٢٧].

(جلاها): بسطها ؛ لأن ما يظهر للرائي فيها يكون كالبساط، فلا ينافي كرويتها، وفي المختار[٢٨]: «طَحاه: بسطه

(٢٤) الكشّاف، الزمخشري، ٤/ ٧٦٤.
(٢٥) أساليب البيان في القرآن، الحسيني، جعفر، ١٧٣.
(٢٦) ينظر: الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، ٢٠ / ٧٣.
(٢٧) القاموس المحيط، مادة (ضحو).
(٢٨) مختار الصحاح، مادة (طحا).

مثل دحاه، وبابه: عدا»، وفي القاموس: «وطحا: يطحو: بَعُدَ وهَلَكَ، وألقى إنساناً على وجهه، والطحا: المنبسط من الأرض، وطحى كسعى، وبسط، وانبسط، واضطجع، وذهب في الأرض، وطحا به قلبُهُ: ذهب به في كل شيء.

(دسّاها) أي: «دسَّسَها في المعاصي، فأبدل من إحدى السينات ياءً، نحوُ: تَظَنَّيْتُ، وأصله تَظَنَّنْتُ»[٢٩].

(فدمدم): أطبق عليهم العذاب بذنبهم فأهلكهم، قال الفرّاء[٣٠]: «وحقيقة الدمدمة: تضعيف العذاب وترديده، ويقال: دمدمتُ على الشيء: أطبقتُ عليه»، وفي الصحاح[٣١] «ودمدمتُ الشيء؛ إذا ألزقتهُ بالأرض، ودمدمَ اللهُ عليهم، أي: أهلكهم، ويقالُ: ودمدمتُ على الميت التراب أي: سويتُهُ عليه».

(عقباها): تَبِعَتُها، وعاقبتُها، وفي القاموس «وأعْقَبَهُ الله بطاعته: جازاهُ، والعقبى: جزاءُ الأمر»[٣٢].

(٢٩) مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، ٣١٤.
(٣٠) معاني القرآن، الفراء،
(٣١) الصحاح، الجوهري، مادة (دمدم).
(٣٢) القاموس المحيط، مادة (عقب).

المبحث الخامس

المستوى التركيبي (النحوي)[٣٣]

﴿وَٱلشَّمۡسِ وَضُحَىٰهَا ۝١ وَٱلۡقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا﴾

(الواو): حرف قسم وجر، (الشمس): مجرور بواو القسم، والجار والمجرور متعلقان بفعل القسم المحذوف، (وضحاها): عطف على الشمس، (والقمر): عطف أيضاً، و(إذا): لمجرد الظرفية متعلقات بفعل القسم المحذوف، وقد استشكل بأن فعل القسم إنشاء وزمانه الحال، فلا يعمل في (إذا)؛ لأنها للاستقبال، والإلزام اختلاف العامل والمعمول في الزمان، وهو محال، وأُجيبُ بأنه يجوز أن يقسم الآن بطلوع النجم في المستقبل، فالقسم في الحال، والطلوع في المستقبل، ويجوز أن يُقسم بالشيء المستقبل، كما تقول: أُقسم بالله؛ إذا طلعت الشمس، فالقسم متحتم عند طلوع الشمس، وإنما يكون فعل القسم للحال إذا لم يكن معتمداً على شرط، هذا، وقد بسطنا القول

(٣٣) إعراب القرآن الكريم وبيانه، الدرويش، محي الدين، ٨ / ٣٢٩.

بسطاً مفيداً ووافينا عند الكلام على سورة التكوير، وجملة (تلاها) في محل جر بإضافة الظرف إليها، ﴿وَٱلنَّهَارِ إِذَا جَلَّىٰهَا ۝٣ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا﴾: الجملتان منسوقتان على ما تقدَّم، مماثلتان له في الإعراب، ﴿وَٱلسَّمَآءِ وَمَا بَنَىٰهَا ۝٥ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا﴾: عطف أيضاً، و(ما): في الجمل الثلاث مصدرية أو بمعنى: من، وعلى كل حال فهي معطوفة على الاسم قبلها، أو المصدر المنسبك منها، ومن الفعل معطوف عليه، وشجب الزمخشري كونها مصدرية.

﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا﴾: منسوق أيضاً على ما تقدَّم، والتنكير في نفس لإرادة الجنس، كأنه قال: وواحدة من النفوس، وقال الزمخشري: فإن قلت: لم نكرت النفس؟ قلت: فيه وجهان: أحدها: أن يريد نفساً خاصة من النفوس، وهي نفس آدم، كأنه قال: وواحدة من النفوس، انتهى. وهذا فيه بعد للأوصاف المذكورة بعدها[٣٤]، فلا تكون إلا للجنس. ألا ترى إلى قوله: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ كيف تقتضي التغاير في المزكى وفي المدسى؟.

﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾: الفاء عاطفة، وألهمها فعل ماضٍ، وفاعل مستتر، ومفعول به، و(فجورها): مفعول به ثانٍ، و(تقواها): عطف على فجورها، وقد اختلفوا في معنى الإلهام؛ قال ابن جبير: ألزمها، وقال ابن عباس: عرَّفها، وقال ابن زيد: بيَّن لها، وقال الزجاج: وفقها للتقوى، (فألهمها فجورها)، أي: خذلها، وقيل: عرَّفها، وجعل لها قوة يصح معها اكتساب الفجور، واكتساب التقوى، وقال الزمخشري: ومعنى إلهام الفجور والتقوى: اتهامها، وإغفالها، وإن أحدهما حسن، والآخر قبيح، وتمكينه من اختيار ما شاء منهما، وفيه تلميح إلى مذهب المعتزلة القائل بالتحسين والتقبيح العقليين، أي: إن الحسن والقبح مدركان بالعقل، أي أن الحسن والقبح لا يدركان إلا بالسمع؛ لأنهما راجعان إلى الأحكام الشرعية مع عدم إلغاء خط العقل من إدراك

(٣٤) ينظر: تفسير البحر المحيط، الأندلسي، أبو حيان، ١٠/ ٤٨٩.

الأحكام الشرعية وعندهم أنه لا بد في علم كل حكم شرعي من مقدمتين: عقلية، هي الموصلة إلى العقيدة، وسمعية مفرغة عليها، وهي الدالة على خصوص الحكم، هذا، والإلهام في اللغة :إلقاء الشيء في الروع، قال الراغب [٣٥]: وتختص بما يكون من جهته تعالى، وجهة الملأ الأعلى، قال تعالى: ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ فعلم أنه غير مختص بالخير، بل يعمُّه، والشر، وفي الاصطلاح: إلقاء معنى في القلب بطريق الفيض من غير كسب، فيختص بالخير لعدم إطلاق الفيض في الشر، بل يطلق فيه الوسوسة ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَن زَكَّىٰهَا ۝٩ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا﴾ الجملة جواب القسم، وحذفت اللام لطول الكلام، وقيل: الجواب محذوف، تقديره: لتبعثُنَّ، وقال الزمخشري: تقديره: ليدمدمنَّ الله عليهم، أي: على أهل مكة لتكذيبهم رسول الله ﷺ، كما دمدم على أهل ثمود ؛ لأنهم كذّبوا صالحاً، وأما: قد أفلح؛ فكلام تابع لقوله ﴿فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا﴾ على سبيل الاستطراد، وليس من جواب القسم في شيء، و(قد): حرف تحقيق، أفلح فعل ماضٍ، و(من): موصول فاعل، وجملة (زكاها): صلة، وفاعل (زكاها): ضمير يعود على (من)، وقيل: ضمير الله تعالى، أي: قد أفلح من زكّاها الله تعالى بالطاعة، وقد خاب من دسّاها ؛ عطف على الجملة السابقة مماثلة لها. ﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِطَغْوَىٰهَا ۝١١ إِذِ انۢبَعَثَ أَشْقَىٰهَا﴾ كلام مستأنف، مسوق لتقرير ما ذكر من فلاح من زكّى نفسه، أو زكّاها الله، ومن دسى نفسه، أو دسّاها الله، وكذبت ثمود: فعل ماضٍ وفاعل، وبطغواها متعلقان بكذّبت ومعنى الباء: السببية، أي: بسبب طغيانهم، وجعلها في الكشاف للاستعانة مجازاً، كقولك: كتبتُ بالقلم، يعنى: فعلت التكذيب بطغيانها، وكل من الطغوى والطغيان مصدر، لكن اختير التعبير بالطغوى ؛ لأنه أشبه برؤوس الآي، قال في المختار: طغى يطغى بفتح الغين فيهما، ويطغو طغياناً، وطغواناً أي: جوز

(٣٥) ينظر: مفردات ألفاظ القرآن، الأصفهاني، ٧٤٨.

الحد، وطغى بالكسر مثله، والطغوى بالفتح، مثل: الطغيان. أما الزمخشري فقال: الغوى من الطغيان، فصلوا بين الاسم والصفة في فعلى، من بنات الياء بأن قلبوا الياء واواً في الاسم، وتركوا القلب في الصفة، فقالوا: امرأة خزيى، وصديى. و (إذ) ظرف لما مضى من الزمن متعلق بـ (كذَّبت)، أو بالطغوى، وجملة (انبعث): في محل جر بإضافة الظرف إليها، و(أشقاها): فاعل (انبعث)، والمراد به: قُدار بن سالف بضم القاف، ويضرب به المثل في الشؤم، فيقال: أشأم من قُدار، ويلقب بأحمر ثمود، ويجوز أن يكونوا جماعة، والإفراد لتسويتك في التفضيل إذا أضفته بين الواحد، والجمع، والمذكر، والمؤنث، وعبارة ابن خالويه -وقد خلط بها خلطاً عجيباً-: فإذا كان المذكر أشقى فالمرأة شقواء؛ لأنه من ذوات الواو كقوله: ﴿قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا﴾ [سورة المؤمنون: ١٠٦]، وشقاوتنا و(ها): جر بالإضافة، وجمع أشقى: شُقْو، مثل: حمر، وصفر، فإن جمعت جمع سلامة قلت في المذكر: أشقون، وفي المؤنث: شقواوات، مثل: حمراوات، قال ابن هشام معقِّباً قوله: إذا كان المذكر أشقى فالمؤنث شقواء والجمع شقو ليس بجيد؛ إذ لم يفرق بين أفعل الذي يكون نعتاً للنكرة، وبين أفعل الذي يجري مجرى الأسماء، ولا يكون نعتاً للنكرة إلا بمن، وإنما يكون مضافاً، أو مقروناً بأل، وإنما الأنثى في هذا الشقيا، وجمع المذكر: الأشقون، والأشاقي في القياس جائز، وكما نقول: الأكبر، الأكبرون، والأكابر، وجمع الأنثى: الشُّقْى، الشقيات، كما تقول: الكبرى، والكبر، الكبريات.

﴿فَقَالَ لَهُمْ رَسُولُ اللَّهِ نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾: الفاء عاطفة، و(قال): فعل ماضٍ مبني على الفتح، و(لهم): متعلقات بـ (قال)، و(رسول الله): فاعل، (ناقة الله): منصوب على التحذير على حذف مضاف ن أي: ذروا عقرها، واحذروا سقياها

و(سقياها): عطف على ناقة الله، أي: وشربها ﴿فَكَذَّبُوهُ فَعَقَرُوهَا فَدَمْدَمَ عَلَيْهِمْ رَبُّهُمْ بِذَنْبِهِمْ فَسَوَّاهَا

﴿١٤﴾ ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: الفاء عاطفة، و(كذبوه): فعل، وفاعل، ومفعول به، (فعقروها): عطف على كذَّبوه، أي: عقرها قُدار في رجليها فأوقعها، فذبحوها، وتقاسموا لحمها، (فدمدم): عطف أيضاً، و(عليهم): متعلقان بـ (دمدم) أيضا، والباء للسببية، أي: بسبب ذنبهم، (فسوّاها): عطف على دمدم، و(الواو: حرف عطف، و(لا): نافية، و(يخاف عقباها): فعل مضارع، وفاعل مستتر، ومفعول به، وإنما جعلنا الواو عاطفة ؛ لتلائم قراءة الفاء، وهي سبعية أيضا، على أن المعربين المفسرين يقولون إن الواو حالية، أو استئنافية، وممن قال بأنها عاطفة: ابن خالويه.

إشارة (١):

في قوله: ﴿وَلَا يَخَافُ عُقْبَاهَا﴾: استعارة تمثيلية ؛ على اعتبار أن الضمير في يخاف لله عز وجل، وهو الظاهر، أي: أنه سبحانه لا يخاف عاقبتها، كما تخاف الملوك عاقبة أفعالها، والمقصود من الاستعارة: إهانتهم، وإذلالهم، ويجوز أن يعود الضمير على الرسول، أي: أنه لا يخاف عاقبة إنذاره لهم، وتبقى الاستعارة، وقال السدِّي ومقاتل والزجاج وأبو علي: الواو واو الحال، والضمير في يخاف عائد على أشقاها، أي: انبعث لعقرها، وهو لا يخاف عقبى فعله ؛ لكفره، وطغيانه، والعقبى خاتمة الشيء، وما يجيء من الأمور بعقبة، وهذا فيه بُعد لطول الفصل بين الحال وصاحبها.

إشارة (٢):

ومن العجيب: أن النسفي ذكر في تفسيره [٣٦] أن قوله تعالى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾

إغراء، ولا شك في إشكاله بحسب الظاهر ؛ لأن الإغراء لا يصدق عليه بحسب الظاهر، بل الصادق عليه إنما هو التحذير.

(٣٦) مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسَّفي، ٤/ ١٢٦.

الخاتمة

ينساق النص القرآني في ضوء نظام مُعجز مُحكم، يشبه بعضُه بعضاً، ويرتقي بقدر تعلقه بأسباب مكونات النص الإعجازية على وفق النظام نفسه: الصوتي، الصرفي والتركيبي، والبياني، والدلالي، وكل هذه المكونات يحكمها السياق بترابطه، وتماسكه، وجماله، وعذوبته، وموسيقاه المتفردة التي تحدث عنها علماء إعجاز القرآن القدامى والمحدثين، ولكنهم لم يتناولوا نظام القرآن تناولاً كلياً، بل كان تناولهم إياه تناولاً جزئياً.

وهذا النظام المعجز هو من أسباب حفظ القرآن وصيانته منذ نزوله وإلى يومنا هذا من غير تغيير أو تطور لفظي في نصه، فاللفظ ثابت، والمعنى متحرك ؛ ذلك أن نظام القرآن يحوي المتغيرات الزمانية والمكانية.

المصادر والمراجع

١- أساليب البيان في القرآن، الحسيني، جعفر، مؤسسة الطباعة والنشر، طهران، ١٤١٣ هـ.

٢- إعجاز القرآن والبلاغة النبوية، الرافعي، مصطفى صادق، دار الكتاب العربي، بيروت، د.ت.ن.

٣- إعراب القرآن وبيانه، الدرويش، محي الدين، كمال الملك للنشر، إيران، ط٢، ١٤٢٨هـ.

٤- البرهان في علوم القرآن، الزركشي، بدر الدين، تحقيق: محمد أبو الفضل إبراهيم، دار المعرفة بيروت، ط٢، ١٩٧٢.

٥- بيان إعجاز القرآن، الخطابي، ضمن ثلاث رسائل، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٩١م.

٦- البيان في روائع القرآن، حسان،

تمام، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٠م.
٧- البيان والتبيين، الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر، تحقيق: عبد السلام هارون، دار الفكر، وطبعة دار الكتب العلمية، بيروت، ١٩٩٨م.
٨- تفسير البحر المحيط، الأندلسي، أبو حيان».
٩- التعبير الفني في القرآن، بكري، أمين، دار الشروق، بيروت، ١٩٧٣.
١٠- الجامع لأحكام القرآن، القرطبي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، ١٩٨٥.
١١- الخصائص، ابن جني، تحقيق: محمد على النجار، دار الهدى، بيروت، (د.ت.ن).
١٢- دراسات لغوية في القرآن الكريم وقراءاته، أحمد، مختار عمر، عالم الكتب، القاهرة، ط٢، ٢٠٠٦.
١٣- الفاصلة القرآنية، لاشين، عبد الفتاح، دار المريخ، الرياض، ١٩٨٢.
١٤- القاموس المحيط، الفيروز أبادي، محمد بن يعقوب، دار الجيل، بيروت، ١٩٨٧.
١٥- الكشّاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، الزمخشري، محمود بن عمر، دار الكتاب العربي، بيروت، ط٣، ١٩٨٧.
١٦- لسان العرب، ابن منظور، محمد بن مكرم، دار المعارف، القاهرة، ١٩٨٤.
١٧- مباحث في علوم القرآن، الصالح، صبحي، دار العلم للملايين، بيروت، ط٢٧، ٢٠٠٧.
١٨- مدارك التنزيل وحقائق التأويل، النسَّفي، عبد الله بن أحمد بن محمود، تحقيق: إبراهيم محمد رمضان، دار القلم، بيروت، ط١، ١٩٨٩.
١٩- مختار الصحاح، الرازي، محمد بن أبي بكر، دار الرسالة، الكويت، ١٩٨٣.
٢٠- معاني القرآن، الفراء، أبو زكريا، تحقيق: محمد علي النجار، أحمد

يوسف بخاتي، دار الكتب المصرية، ١٩٥٥.

٢١- مفردات ألفاظ القرآن، الراغب الأصفهاني، تحقيق: صفوان عدنان داوودي، طليعة النور، قم، ١٤٢٧.

٢٢- المقاييس الأسلوبية في الدراسات القرآنية، الحضري، جمال، المؤسسة الجامعية، بيروت، ط١، ٢٠١٠ م.

٢٣- من أساليب التعبير القرآني، الزوبعي، طالب محمد إسماعيل، دار النهضة العربية، بيروت، ط١، ١٩٩٦.

٢٤- من بلاغة القرآن، بدوي، أحمد، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، ط٥، ٢٠٠٣م.

٢٥- الموازنات الصوتية في الرؤية البلاغية والممارسة الشعرية، العمري، محمد، أفريقيا الشرق، بيروت والمغرب، ٢٠٠١م،

٢٦- النكت في إعجاز القرآن، الرماني، أبو عيسى (ت٣٨٤هـ)، ضمن ثلاث رسائل، تحقيق: محمد خلف الله ومحمد زغلول سلام، دار المعارف، مصر، ط٤، ١٩٩١م.

٢٧- نهاية الإيجاز في دراية الإعجاز، الفخر الرازي، محمد بن عمر، تح: أحمد حجازي السقا، دار الجيل، بيروت، ط١، ١٩٩٢.

ملخص البحث

بعد مقدمة تمهيدية بَيَّن فيها السيد الباحث معنى (السمع) لغة واصطلاحا، يصل الى استنتاج مفاده أن ذكر هذه الحاسة في القرآن الكريم يعد من الظواهر الإعجازية البلاغية . فلها شأن كبير في علمي التفسير والعقيدة.

فـورود كلمة (السمع) في الـقـرآن يـدل على معانٍ كثيرة سامية وفيه من الدلالات الاعجازية ما فيه ، وان هذه الدلالات لا يمكن الوقوف عليها الا بالرجوع الى المطوّلات من كتب التفسير.

ثم يتدرج السيد الباحث في حديثه لدراسة هذه اللفظة (باشتقاقاتها) في القرآن الكريم معرجا على بيان اختلاف الفرق الاسلامية في دلالة هذه الصفة ثم على موقف العلم من هذه الحاسة وهو يدلل بذلك على صدق دعوى الرسول الاعظمﷺ في عصر لم يكن يعرف الطب والفسلجة... وختم بحثه بتقرير أن السمع مصدر هداية ، تجلّت في هذا العضو من الانسان.

دلالة السمع في القرآن الكريم

م.م. ضرغام كريم الموسوي
جامعة كربلاء - العراق

السمع في اللغة

جاء في لسان العرب: (السمع) حس الأذن[1]، وعرفه الراغب: هو قوة مودعة في الأذن به تدرك الاصوات، وفعله يقال السمع ايضاً [2]، وسمعه سمعاً وسمعاً وسماعاً وسماعة وسماعية، وقال بعضهم: السمع المصدر، والسمع الاسم، والسمع ايضاً: الاذن والجمع اسماع، واستمع اليه اصغى.

وقد يراد به القبول والعمل بما يسمع[3]، لأنه اذا لم يقبل ولم يعمل فهو بمنزلة من لم يسمع. وسمعه الصوت واسمعه: استمع اليه وتسمع اليه: اصغى، فاذا ادغمت قلت اسمع اليه. والمسمعة والمسمع و المسمع: الاذن، وقيل المسمع فرقها الذي يسمع به ومدخل الكلام فيها: يقال فلان عظيم المستمعين والسامعتان الاذنان من كل شيء ذي سمع، أي به قوة على ادراك المسموع.

وقد تأتي سمعت بمعنى اجبت، ومنه قولهم: سمع الله لمن حمده، أي اجاب من حَمِدَهُ وتقبله، يقال اسمع دعائي أي اجب،

(١) ابن منظور: جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم (ت٧١١) لسان العرب مادة السمع (الطريحي فخر الدين (ت ١٠٨٥هـ) مجمع البحرين تح، السيد احمد الحسيني دار الكتب العالمية بيروت-ج٤ ص٣٤٧.

(٢) الاصفهاني: الحسين بن محمد بن المفضل (ت٤٢٥ هـ) مفردات الفاظ القران :تح صفوان عدنان الدار الشامية، ط ١٩٩٦، م، ص٤٢٤.

(٣) ابن منظور: م.س.

لأن غرض السائل الاجابة والقبول.

السمع في الاصطلاح

يرد السمع في اصطلاح القران الكريم على عدة أوجه:

الوجه الاول: سمع الاذن وإدراك المسموعات، قال تعالى: ﴿رَبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِي لِلْإِيمَٰنِ﴾[سورة ال عمران: ١٩٣] والمنادى النبي ﷺ، وقال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[سورة الانسان: ٢] أي جعلنا له القدرة على السمع، او القدرة على إدراك المسموعات [٤].

الوجه الثاني: سمع القلب: وهو قبوله المسموع، قال تعالى: ﴿مَا كَانُوا۟ يَسْتَطِيعُونَ ٱلسَّمْعَ﴾[سورة هود: ٢٠] أي لم يطيقوا سمع الإيمان بقلوبهم، وقال تعالى: ﴿وَكَانُوا۟ لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾[سورة الكهف: ١٠١] أي سمع الايمان بالقلب [٥].

(٤) ابو محمد الحسين بن محمد الدامغاني/ قاموس القران/ تح. عبد العزيز سيد الاهل ط٢ دار العلم للملايين، ١٩٧٧ م، ص ٢٤٧، الكرباسي محمد جعفر ابراهيم: الانباء بما في كلمات القران من اضواء، مطبعة النجف ط١، ص ٢٣٧.

(٥) لسان العرب: مادة (سمع).

الوجه الثالث: صفة من صفات الله عز وجل و المراد به علمه بالمسموعات فلا يعزب عن ادراكه مسموع، وإنْ خفي وهو يسمع بغير جارحة [٦] قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا﴾[سورة النساء: ٥٨] ﴿قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا﴾[سورة المجادلة: ١] ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَىٰهُم﴾[سورة الزخرف: ٨٠]فهو سميع ذو سمع بلا تكييف ولا تشبيه بخلقه فليس كمثله شيء [٧].

الوجه الرابع: الإصغاء: نحو قوله تعالى ﴿لَا يَسَّمَّعُونَ إِلَى ٱلْمَلَإِ ٱلْأَعْلَىٰ وَيُقْذَفُونَ مِن كُلِّ جَانِبٍ﴾[سورة الصافات: ٨]، وقوله تعالى: ﴿نَّحْنُ أَعْلَمُ بِمَا يَسْتَمِعُونَ بِهِۦٓ﴾[سورة الاسراء: ٤٧]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ﴾[سورة محمد: ١٦]، قوله تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ﴾[سورة يونس: ٤٢]

الوجه الخامس: دقة السمع، وشدته: قال تعالى ﴿لَهُۥ غَيْبُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِۦ وَأَسْمِعْ﴾[سورة الكهف: ٢٦] أي ما ادق علمه بما يبصر ويسمع، وقال تعالى ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾

(٦) قاموس القران، ص ٢٤٧.

(٧) لسان العرب: م.س.

[سورة مريم: ٣٨] أي ما اصدق سمعهم وبصرهم في هذا اليوم[٨].

الوجه السادس: الفهم[٩]: قال الله تعالى: ﴿وَإِذَا تُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا قَالُوا قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَاءُ لَقُلْنَا﴾[سورة الانفال: ٣١] وقوله ﴿سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[سورة البقرة:٩٣] أي فهمنا وارتسمنا، وقوله تعالى ﴿وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ قَالُوا سَمِعْنَا وَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾[سورة الانفال: ٢١] يجوز ان يكون معناه فهمنا وهم لا يفهمون[١٠].

الوجه السابع: بمعنى القبول والاجابة، قال تعالى ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا﴾[سورة البقرة: ٩٣] فاسمعوا اريد به اقبلوا وأجيبوا ومنه قوله سمع الله لمن حمد أي من حمده[١١].

فهذه ابرز المعاني التي جاء بها القران الكريم ولكلٍ من هذه المعاني التي اطلعنا عليها صفة خاصة في استعمالها وكيف وهو كتاب الله عز وجل المعجز، وسوف نطلع عليها ان شاء الله من خلال هذا البحث.

دلالة السمع في القرآن الكريم

«السمع صفة لله عز وجل»

السمع: من صفات الله عز وجل الازلية وهي من صفات المعاني ومن أسمائه الحسنى وشأنها ادراك كل مسموع وان خفي، فهو سميع بغير جارحة[١٢]، فهي صفة تنكشف بها المسموعات من غير آلة فلا يعزب عن سمعه شيء وضدها الصمم فالأصوات لا تخفى عليه وسماعه السر والنجوى وهي لازمة لكماله عز وجل وقد اتصف بها المخلوق والله احق بالاتصاف بها من المخلوق والا لزم ان يكون للمخلوق من صفات الكمال ما ليس للخالق، ووجوب اتصاف الله تعالى بها، فلو لم يتصف بها لزم ان يتصف بضدها وهذا نقص والنقص عليه محال[١٣] واختلف المتكلمون في تفسير صفات المعاني على قولين:

(٨) قاموس القران ص ٢٤٧.
(٩) مفردات الراغب ص٤٢٤.
(١٠) مفردات الراغب ص ٤٢٥.
(١١) الطبرسي الفضل بن الحسن (ت ٥٤٨ هـ)/ مجمع البيان في تفسير القران/ -ط٢- بيروت-ج١ ص١٦٢.
(١٢) رشدي عليان-عبد الرحمن الدوري/ اصول الدين الاسلامي ط١ جامعة بغداد١٩٧٧ ص١٣٤.
(١٣) المصدر السابق/ ص١٣٥.

الاول: وهو قول الاشاعرة والماتريدية وهو: ان الله يتصف بصفة تسمى سمعاً وهذه الصفة لديهم ازلية (أي ليست حادثة لأن الله تعالى الواجب الوجود لا تقوم الحوادث بذاته) وقائمة بذاته أي ليست قائمة بذاتها أي ليست وجوداً خارجياً مستقلاً وهي ليست غير الذات ولا عين الذات ولكنها زائدة عن الذات [١٤].

الثاني: وهو مذهب المعتزلة والفلاسفة الامامية وهو نفي الصفات الزائدة عل الذات فالله سميع بالذات فالله تعالى سميع بالذات بلا سمع وقالوا ان القديم ذات واحدة قديمة ولا يجوز اثبات ذوات قديمة، واستبدلوا بأن القديم واحد لا غير وانه ليس في الازل الا الله تعالى.

وكل ما عداه ممكن وكل ممكن حادث ولو اقتضى ان صفات الله تعالى غير ذاته فأما ان تكون قديمة واما حادثة، وعلى الاول يلزم تعدد القديم وعلى الثاني يلزم ان يكون الله تعالى قد وجد في الازل بدون سمع لأن المفروض ان هذه الصفات قد حدثت بعده، وكلاهما محال فتعين ان صفاته عين ذاته ونفس حقيقته، ولا شيء زائد عليه وقائم به [١٥].

وهذا الخلاف بين الفرق الاسلامية ينتهي جميعاً الى القول بوحدانية الله تعالى وتنزيهه عن كل مالا يليق به.

وقد مررت على هذا الاختلاف بسرعة حتى تتضح للقارئ مفاهيم المتكلمين في تفسير الصفات و الان نلقي نظرة على الاليات التي تناولت سمع الله والصيغ التي جاء بها فمنها:

١-الفعل الماضي: قال تعالى ﴿لَّقَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَاءُ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا وَقَتْلَهُمُ الْأَنبِيَاءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا عَذَابَ الْحَرِيقِ﴾ [سورة ال عمران: ١٨١] قال الراغب في مفرداته (اذا وصفت الله تعالى بالسمع فالمراد به علمه بالمسموعات)[١٦] فمعنى (سمع الله) ادراك قولهم وعلمه به، ومثله قوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي

(١٤) ابن ابي شريق القدسي (ت ٩٠٦) المسامرة بشرح المسايرة مطبعة السعادة مصر ص٧٠.

(١٥) محمد جواد مغنية/ معالم الفلسفة الاسلامية/ دار احياء التراث، بيروت، ص١١٧.

(١٦) مفردات الراغب ص ٤٢٦.

زَوْجِهَا﴾[سورة المجادلة: ١] فقد جاء عن عائشة حيث نزلت هذه الآية (الحمد لله الذي وسع سمعه الاصوات) لقد جاءت المجادِلة (وهي خولة بنت ثُعلبة) الى النبي ﷺ تكلمه وانا في ناحية البيت ما اسمع ما تقول فأنزل الله عز وجل﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا﴾فسبحان الله عما يصفون.

فسمْعُ الله محيط بكل شيء قال تعالى ﴿ قَالَ رَبِّي يَعْلَمُ الْقَوْلَ فِي السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴾[سورة الانبياء: ٤] فلا يخفى على الله شيء فهو اقرب الينا من حبل الوريد.

وكما جاء في رواية الحسن البصري[١٧]: ان سائلاً سأل رسول الله النبي ﷺ أقريب ربنا فنناجيه ام بعيد فنناديه ؟ فنزل قوله تعالى ﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ﴾[سورة البقرة: ١٨٦] فالمراد بالقرب هنا ليس المسافة بل الاحاطة بدقائق الامور، لأن ذلك لا يجوز الا في الممكن.

٢- الفعل المضارع: قال تعالى: ﴿ قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ ﴾[سورة طه: ٤٦] وكيف يخاف والله معهما فقد استخدم هاتين الحاستين لبيان ان الله معهما وحافظٌ لهما وهو مطلع على أدق الامور[١٨]، وكذا قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ﴾ [سورة الزخرف:٨٠] فهو يسمع حتى ما حدَّث به الرجل نفسه او غيره في مكان خال[١٩] وردَّ الله تعالى عليهم بقوله: ﴿بَلَىٰ وَرُسُلُنَا لَدَيْهِمْ يَكْتُبُونَ﴾ أي ما يقولونه ويفعلونه.

٣-الاسم: ويأتي دائماً من ابنية المبالغة، على وزن فعيل[٢٠] وفي التنزيل﴿وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا بَصِيرًا ﴾[سورة النساء :١٣٤] وهو اسم مشتق يدل على معنى أوصفة بالموصوف على وجه الثبوت والدوام[٢١]

(١٧) مجمع البيان: ج١ ص ٢٧٨.

(١٨) ابن كثير عماد الدين ابو الغداء اسماعيل (ت :٧٤٤ هـ) تفسير القران العظيم دار الحديث القاهرة ١٩٨٦ م ج٣ ص١٦٢.

(١٩) الزمخشري: جار الله محمود بن عمر بن محمد (ت ٥٣٨ هـ) الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الاقاويل في وجوه التأويل دار المعرفة بيروت ط١ ج٤ ص/ ٢٥٨.

(٢٠) احمد الحملاوي-شذا العرف في فن الصرف دار الكتب العالمية بيروت ص ٩٤.

(٢١) محمد سعيد اسبر، المعجم الشامل في اللغة بيروت-ط١ -١٩٨٥ م ص٨٥٤.

لا تنفك هذه الصفة عن ذات الله عز وجل وهي تفيد معاني كثيرة منها:

أ- ادراك ما دق ولطف: قال تعالى ﴿وَإِنْ عَزَمُوا الطَّلَاقَ فَإِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[سورة البقرة :٢٢٧] فالآية الكريمة في معرض الطلاق فالله تبارك وتعالى يعلم ويسمع ما يُحدّث العازم به نفسه ويناجيها بذلك، وذلك الحديث لا يسمعه الا الله كما يسمع وسوسة الشيطان(٢٢).

ب- السمع بمعنى القبول والاجابة(٢٣): كما في قول المصلي :(سمع الله لمن حمده) أي يقبل حمد من حمده ويثبت عليه ذكر السمع والارادة والقبول والإجابة شائع في المخاطبات العرفية يقال: فلان سمع حاجتي فقضاها وفي الحديث (أي السمع اسمع؟) قال جوف الليل.

ج- تأتي بمعنى الكمال والتتمة (٢٤): لأنها من المعاني التي تخرج لها صيغة فعيل قال تعالى ﴿فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ﴾[سورة البقرة: ١٣٧] فهو ضمان من الله لإظهار الرسول ﷺ على بني قريظة وبني النضير وكمال هذا الدين وتمامه وفيه وعيد(٢٥).

٤- صيغة التعجب: قال تعالى ﴿لَهُ غَيْبُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ أَبْصِرْ بِهِ وَأَسْمِعْ﴾ [سورة الكهف:٢٦]فأخرجه مخرجَ التعجب على وجه التعظيم ولم يقل اسمع به لأنه يلزم التفاضل وهذا محال على الله عز وجل لأنه ليس محلاً للحوادث ولان السمع قوة في الاذن فالله تعالى لا يوصف به.

السمع صفة لله عز وجل وأبعادها

١- الترغيب والترهيب :

قال تعالى ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لَا يَقْضُونَ بِشَيْءٍ إِنَّ اللَّهَ هُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [سورة غافر: ٢٠] وقد ذكر الزمخشري في كشافه انه اراد بها وعيداً لهم بأنه يسمع ما يقولون ويبصر ما يعملون وانه يعاقبهم عليه وتعريض بما يدعون من دون الله عز وجل، وانها-الآلهة-لا تسمع ولا تبصر(٢٦) فهذا اكثر ايقاعاً وترهيباً من سخطه. ففي هذه الآية وامثالها نوع من التهديد وفيها

(٢٢) تفسير الكشاف ج١ ص ٢٧٠.
(٢٣)حسنين محمد مخلوف- صفوة البيان لمعاني القران -وزارة الاوقاف الكويتية ط١ ص٧٠٧.
(٢٤) تفسير الكشاف ج١ ص١٨.
(٢٥) تفسير الكشاف ج١ ص١٩٤.
(٢٦) الكشاف الجزء ٤ ص ١٥٤.

إرشاد الى مراقبة الانسان لأقواله ونياته، وهذا يتعلق في جميع مجالات الحياة العبادية والمعاملاتية ومنه قوله تعالى: ﴿أَمْ يَحْسَبُونَ أَنَّا لَا نَسْمَعُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُم﴾[سورة الزخرف: ٨٠] فالله عز وجل محيط بما يُسرُّه المرء وما يناجي به غيره.

٢- تقوية العزيمة وشد الازر :

قال تعالى: ﴿قَالَ لَا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾[سورة طه: ٤٦]فمعية الله تعالى بسماعه ورؤيته تودع في نفسيهما الطمأنينة والسكينة والقوة التي تمكنهم من الوقوف امام الطاغية في عصرهم- فرعون-وليس خوفهم هذا على انفسهم وانما خوفهم منبعث من رفض فرعون ارسال بني اسرائيل مع موسى عليه السلام.

٣- الحث على الدعاء :

قال تعالى: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي وَهَبَ لِي عَلَى الْكِبَرِ إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِنَّ رَبِّي لَسَمِيعُ الدُّعَاءِ﴾[سورة ابراهيم: ٣٩] فهذا الدعاء من لطائف حكمة الله عز وجل في تعليم الأمة الدعاء والاتجاه الى الله تبارك وتعالى.

٤-الرد على المشركين:

لقد رد الله تعالى على المشركين الذين جعلوا مع الله الهاً آخر لا يسمع ولا يجيب بقوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِهِ مَا يَمْلِكُونَ مِن قِطْمِيرٍ ﴿١٣﴾ إِن تَدْعُوهُمْ لَا يَسْمَعُوا دُعَاءَكُمْ وَلَوْ سَمِعُوا مَا اسْتَجَابُوا لَكُمْ﴾ [سورة فاطر: ١٣- ١٤].

السمع عند الإنسان

يستعمل القران الكريم لفظ الآية في الأمور الجليلة العظيمة ليدل على عظمة الله سبحانه وتعالى فيقول ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ وَفِي أَنفُسِهِمْ﴾[سورة فصلت: ٥٣] والسمع من الآيات الانفسية التي تدل على عظمة الخالق سبحانه وتعالى. والله عز وجل ذكرها في القران الكريم في معرض المن على البشر لأنها طريق العلم والمعرفة وبها تكسب السعادة الابدية. قال تعالى﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾[سورة الملك: ٢٣] والمتتبع لآيات القران الكريم يجد ان لفظة السمع قد صيغت بصيغ عدة لحكمة وغاية وكيف وهو من الله تبارك وتعالى ﴿وَلَوْ كَانَ مِنْ عِندِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا﴾[سورة النساء :٨٢] ومن خلال هذا البحث نتعرف على اهم

الصيغ وابعادها الحسية و والمعنوية.

اولاً: فعل ماضٍ:

وقد جاء للمفرد والمذكر والمؤنث والجماعة فمثل الاول قوله تعالى: ﴿فَمَنْ بَدَّلَهُۥ بَعْدَمَا سَمِعَهُۥ فَإِنَّمَآ إِثْمُهُۥ عَلَى ٱلَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُۥٓ﴾[سورة البقرة: ١٨١] ومثال الثاني قال تعالى ﴿فَلَمَّا سَمِعَتْ بِمَكْرِهِنَّ أَرْسَلَتْ إِلَيْهِنَّ وَأَعْتَدَتْ لَهُنَّ مُتَّكَـًٔا﴾ [سورة يوسف: ٣١] ومثال الثالث قوله تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ﴾[سورة البقرة: ٩٣] ويرد الفعل الماضي على ازمنة متعددة اشهرها:

أ-الماضي المطلق: سواء القريب أم البعيد وهو الذي مضى قبل زمن المتكلم قال تعالى: ﴿قَالُوا۟ سَمِعْنَا فَتًى يَذْكُرُهُمْ يُقَالُ لَهُۥٓ إِبْرَٰهِيمُ﴾ [سورة الانبياء: ٦٠].

ب- الماضي المنقطع: هو الذي حصل مرة واحدة ولم يتكرر قال تعالى: ﴿وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[سورة المائدة: ٨٣].

ج-الماضي القريب: هو ما صُدِّر بـ (قد) كقوله تعالى ﴿قَدْ سَمِعْنَا لَوْ نَشَآءُ لَقُلْنَا مِثْلَ هَٰذَآ ۙ إِنْ هَٰذَآ إِلَّآ أَسَٰطِيرُ ٱلْأَوَّلِينَ﴾[سورة الانفال: ٨]وهنا (قد) تفيد التحقيق والتوكيد، انهم سمعوا القران وعلموا انه ليس كلام بشر ولكنهم اصروا على كفرهم بل تمادوا وقالوا يمكننا ان نأتي بمثل هذا القرآن.

ثانياً: فعل مضارع: وقد جاء ايضا للمفرد والجمع وهو يدل على ازمنة متعددة:

أ-الدلالة على الحال والاستقبال: قال تعالى: ﴿يَسْمَعُ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا ۖ فَبَشِّرْهُ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [سورة الجاثية: ٨]فهو يسمع آيات الله في الحال وفي الاستقبال لكن يصر على كفره وعدم استجابته.

ب- الدلالة على الحال تنصيصاً: اذا اقترن بما يدل على الحال نحو قوله تعالى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ ۖ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[سورة الجن: ٦٢] او النفي اطلاقاً نحو قوله تعالى ﴿وَمَآ أَنتَ بِهَٰدِ ٱلْعُمْىِ عَن ضَلَٰلَتِهِمْ ۖ إِن تُسْمِعُ إِلَّا مَن يُؤْمِنُ بِـَٔايَٰتِنَا فَهُم مُّسْلِمُونَ﴾[سورة الروم: ٥٣] أي ما تُسمِع الا من يؤمن بآياتنا ويصدق بها فهو الاكثر استفادةً من حاسة السمع.

ج- الدلالة على الاستقبال تنصيصاً: وذلك اذا اقترن بما يدل على الاستقبال نحو قوله تعالى: ﴿يَوْمَ يَسْمَعُونَ الصَّيْحَةَ بِالْحَقِّ ذَٰلِكَ يَوْمُ الْخُرُوجِ﴾[سورة ق: ٤٢] او دخول اداة نصب نحو قوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّىٰ يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾[سورة التوبة: ٦] او دخول نون التوكيد نحو قوله تعالى ﴿وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ الَّذِينَ أَشْرَكُوا أَذًى كَثِيرًا﴾[سورة ال عمران: ١٨٦] او دخلت عليه اداة شرط نحو قوله تعالى ﴿وَإِن يَقُولُوا تَسْمَعْ لِقَوْلِهِمْ كَأَنَّهُمْ خُشُبٌ مُّسَنَّدَةٌ﴾[سورة المنافقون:٤].

ثالثاً: فعل الامر: وهو ما يدل على طلب وقوع الفعل من الفاعل المخاطب مع قبول ياء المخاطبة بغير لام الامر[٢٧]. وزمنه غالباً للمستقبل لأمرٍ مطلوبُهُ لم يتم. ومعنى الامر الاصلي: هو طلب فعل على وجه الاستعلاء والالزام نحو قوله تعالى: ﴿خُذُوا مَا آتَيْنَاكُم بِقُوَّةٍ وَاسْمَعُوا قَالُوا سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا﴾[سورة البقرة: ٩٣]

(٢٧) الشامل في اللغة مصدر سابق ص ١٧٩.

وكذا قوله تعالى ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ﴾[سورة طه: ١٣]وفي القرآن امثلة كثيرة.

ويخرج فعل الامر الى معان اخرى هي:

أ-الالتماس: ويكون بين المتساوين في المرتبة قال تعالى: ﴿إِنِّي آمَنتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾[سورة يس: ٢٥]

ب-النصح والإرشاد: في قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [سورة الحج: ٧٣].

ج- التهديد: في قوله تعالى ﴿وَاسْتَمِعْ يَوْمَ يُنَادِ الْمُنَادِ مِن مَّكَانٍ قَرِيبٍ﴾[سورة ق :٤١]. وغيرها كثير.

رابعاً الاسم:

ورد لفظ السمع اسماً في قوله تعالى ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[سورة الانسان: ٢] أي اعطيناه حاسة السمع والبصر حتى يتمكن من معرفة الحق والباطل وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾[سورة المائدة: ٤١] أي قابلون له: يقال لا تستمع من فلان أي لا تقبل ومنه سمع الله لمن حمده اي تقبل منه

وفيه وجه آخر وهو انهم يسمعون منك ليكذبوا عليك[٢٨].

وقوله تعالى ﴿وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا﴾ [سورة الكهف: ١٠١] وقوله تعالى ﴿أَفَرَءَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَىٰهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَىٰ عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَىٰ سَمْعِهِۦ وَقَلْبِهِۦ﴾ [سورة الجاثية :٢٣] وورد السمع مصدراً واريد به حس الاذن في قوله تعالى ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾ [سورة يونس: ٣١] والآيات الكثيرة في القرآن الكريم التي ذكرت حاسة السمع بصيغة الاسم.

خامساً: ان يرد السمع بصيغة تعجب: قال تعالى: ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا لَٰكِنِ الظَّالِمُونَ الْيَوْمَ فِي ضَلَالٍ مُّبِينٍ﴾ [سورة مريم: ٣٨] والمعنى ما اسمعهم وما أبصرهم في ذلك اليوم لما يخلع قلوبهم ويسود وجوههم وقد كانوا في الدنيا صماً وعمياناً[٢٩].

حاسة السمع في القران الكريم وابعادها

اولاً: الاستماع الى القرن الكريم:

قال تعالى ﴿وَإِذَا قُرِئَ الْقُرْآنُ فَاسْتَمِعُوا لَهُ وَأَنصِتُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ﴾ [سورة الاعراف: ٢٠٤] قال الجبائي (انها نزلت في ابتداء التبليغ ليعلموا ويتفقهوا)[٣٠] وهذا هو الهدف من انزال القران الكريم كي يسمع الناس الهدى قال تعالى ﴿وَقُرْآنًا فَرَقْنَاهُ لِتَقْرَأَهُ عَلَى النَّاسِ عَلَىٰ مُكْثٍ﴾ [سورة الاسراء: ١٠٦] وقال تعالى ﴿لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَن بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ حَيَّ عَن بَيِّنَةٍ وَإِنَّ اللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ [سورة الانفال: ٤٢] ومن هذا نجد ان زعماء قريش كانوا لا يستمعون للقرآن ويبتعدون عنه قال تعالى ﴿وَهُمْ يَنْهَوْنَ عَنْهُ وَيَنْأَوْنَ عَنْهُ وَإِن يُهْلِكُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ﴾ [سورة الانعام: ٢٦] ولم يكتفوا بذلك بل منعوا الناس من الاستماع للقرآن قال تعالى ﴿وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَا تَسْمَعُوا لِهَٰذَا الْقُرْآنِ وَالْغَوْا فِيهِ﴾ [سورة فصلت: ٢٦] حتى لا يؤثر في نفوس سامعيه ويأخذ بمجامع قلوبهم و ما يشعرون ولم يكتفوا بذلك بل منعوا الناس من الاستماع للقران فهم يحرضون جهالهم كي يحدثوا ضجيجاً عند تلاوة القران كي لا يسمعه اهل مكة و قاصدوها. وكان

(٢٨) مجمع البيان ج٣ ص١٩٢.
(٢٩) تفسير الجلالين ص ٢٤.
(٣٠) مجمع البيان ج٤ ص ٥١٤.

للسماع في مكة مذاهب فمنهم من كان كما قال تعالى ﴿يَسْمَعُ آيَاتِ اللَّهِ تُتْلَىٰ عَلَيْهِ ثُمَّ يُصِرُّ مُسْتَكْبِرًا كَأَن لَّمْ يَسْمَعْهَا﴾[سورة الجاثية: ٨] واخرون يتمادون في الغي حيث ﴿يَجْعَلُونَ أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِم﴾[سورة البقرة :١٩] كما وصفهم تعالى كي لا يسمعوا الحق مع ان سمعهم لا عيب فيه الا انهم عطلوه ولم ينتفعوا به ولم يدحض عنهم عذاب الله عز وجل وقال تعالى ﴿فَمَا أَغْنَىٰ عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَارُهُمْ﴾[سورة الاحقاف: ٢٦] في الاستماع الى الدلائل بل صرفوا بالاستماع الى الباطل واللهو[٣١] وقال تعالى ﴿وَمِنْهُم مَّن يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَن يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا﴾[سورة الانعام: ٢٥] بخلاف قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ﴾[سورة الزمر: ١٨] فهؤلاء قالوا وقال تعالى ﴿وَأَنَّا لَمَّا سَمِعْنَا الْهُدَىٰ آمَنَّا بِهِ﴾[سورة الجن: ١٣] وهذا الايمان الصادق لم يقف عند حد معين بل انقادت قلوبهم الى الحق قال تعالى ﴿تَرَىٰ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا مِنَ الْحَقِّ﴾[سورة المائدة: ٨٣] هكذا وقع القران الكريم في النفوس الذي قالت عنه الجن ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا﴾[سورة الجن: ١]وقصة ابن ام مكتوم واضحة وجلية وانه كان اعمى لكنه نفعه سمعه وامن بالرسول ﷺ[٣٢] قال تعالى ﴿عَبَسَ وَتَوَلَّىٰ ۝١ أَن جَاءَهُ الْأَعْمَىٰ ۝٢ وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّىٰ﴾ [سورة عبس: ١ -٣]. وقد اجريت تجارب على عدد من المتطوعين الأصحاء لقياس اية تغيرات فسيولوجية في اثناء استماعهم تلاوات قرآنية. وقد تم تسجيل وقياس اثر القران الكريم عند عدد من المسلمين المتحدثين بالعربية بالنسبة لغير المتحدثين بالعربية، مسلمين كانوا ام غير مسلمين.... فقد تليت عليهم مقاطع من القران باللغة العربية ثم تليت عليهم ترجمة هذه المقاطع باللغة الانكليزية. وفي كل هذ المجموعات ثبت وجود اثر مهدئ للقرآن الكريم لديهم بنسبة ٩٧ ٪ وهذا الاثر ظهر في شكل تغيرات فسيولوجية تدل على تخفيف درجة

(٣١) محمد علي الصابوني-صفوة التفاسير-ج٣ ص١٥٨.

(٣٢) محمد الامين بن المختار الشنقيطي/ اضواء البيان في تفسير القران بالقران-بيروت-ط ١/ ١٩٩٣ ج٩ ص٤٨.

توتر الجهاز العصبي التلقائي.

ولقد ظهر من الدراسات المبدئية ان تأثير القران يمكن ان يعزى الى عاملين :

الاول: هو صوت القران الكريم في كلمات عربية، بغض النظر عما اذا كان المستمع قد لايفهمها وبغض النظر عن ايمان المستمع.

الثاني: هو معنى المقاطع القرآنية التي تليت حتى ولو كانت مقتصرة على الترجمة الانكليزية من دون الاستماع الى الكلمات القرآنية باللغة العربية[٣٣] وهذا مصداق قوله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ الْقُرْآنِ مَا هُوَ شِفَاءٌ وَرَحْمَةٌ لِلْمُؤْمِنِينَ﴾[سورة الاسراء: ٨٢]وهذا من معجزات الخالق سبحانه وتعالى.

ثانياً: اقسام حاسة السمع:

قال تعالى ﴿لِنَجْعَلَهَا لَكُمْ تَذْكِرَةً وَتَعِيَهَا أُذُنٌ وَاعِيَةٌ﴾[سورة الحاقة: ١٢] أي حافظة للحديث معتبرة فهي تسمع سماع تدبر وتعقل، وكأن الآية المباركة تقسم الاذن على واعية وغير واعية ومصداق كلامنا هذا قوله تعالى: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾[سورة يونس: ٦٧] أي يسمعون الحجج سماع تدبر وتفهم وتعقل وكذا قوله تعالى ﴿مَنْ إِلَٰهٌ غَيْرُ اللَّهِ يَأْتِيكُم بِضِيَاءٍ أَفَلَا تَسْمَعُونَ﴾[سورة القصص: ٧١] فلا يسمع الا من طلب الحق بالنظر في آياتنا وانما ضربت الامثال في القران الكريم لتسمع قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾[سورة الحج: ٧٣] اما مصداق الاذن غير الواعية قوله تعالى ﴿وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا﴾[سورة الاعراف: ١٧٩]فالسماع وان وجد لديهم لكنهم لا يفقهون ما يسمعون، قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ﴾[سورة الاعراف: ١٧٩] فالأنعام تسمع الاصوات وربما تنزجر لبعضها أي لبعض الاصوات قال تعالى﴿ وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾[سورة البقرة: ١٧١]فهذه الانعام تنزجر عند ورود الماء والعشب[٣٤].

فالاستجابة للأيان ولما أُنزِل على النبي ﷺ لا تكون الا ممن يسمع قال

(٣٣) انظر مجلة الكوثر العدد ٤١/ لسنة ٢٠٠٠ م النجف الاشرف، ص١٨.

(٣٤) الكشاف للزمخشري، ج١، ١٧٣.

تعالى ﴿إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَىٰ يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ﴾[سورة الانعام: ٣٦]لأنهم هم الذين يتفكرون ويستدلون على وجود الله عز وجل ومن لم يتفكر ولم يتأمل بالآيات بمنزلة من لم يسمع(٣٥).

ثالثاً: تقدم السمع على غيره من الحواس:

قال تعالى ﴿وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: ٧٨] ان البلاغة القرآنية تقتضي احياناً ان يقدم لفظ على غيره لسبب يستوجب حسن النظم القرآني وبلاغته. ففي هذه الآية المباركة تجد لفظة السمع قدمت على الابصار والافئدة وهذا التقدم اما بالسبق الزمني لنمو حاسة السمع قبل غيرها من الحواس او التقدم بالعلية والسببية، فالعالم مقرون بالسمع فمن لا يسمع لا يتعلم. او التقدم بالمرتبة فالسمع يسبق البصر لأن رتبته السبق او التقدم للشرف لأنه الواسطة لتلقي الرسالة وفهم مضمونها(٣٦). وممن يذهب الى هذا ابن قتيبة واحتج بقوله تعالى: ﴿أَفَأَنتَ تُسْمِعُ الصُّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ﴾[سورة يونس: ٤٢]قال فلما قرن بذهاب السمع ذهاب العقل ولم يقرن بذهاب النظر الا ذهاب البصر كان دليلاً على ان السمع أفضل(٣٧) وهذا دليل واضح على نظرية المعرفة فالسمع آلة لإزالة الجهل الذي ولدنا عليه واجتلاب العلم للعمل(٣٨).

رابعاً: حاسة السمع وكثرة الاصوات:

قال تعالى ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ﴾[سورة يونس :٣١] نجد ان لفظة السمع جاءت مفردة بخلاف لفظة الابصار التي جاءت جمع تكسير وهذا النقاب تكشفه لنا البلاغة القرآنية ويثبته العلم الحديث وهو ان حاسة السمع لا تستطيع ان تستمع الى اصوات عدة في وقت واحد استماع تدبر وتعقل بخلاف حاسة البصر التي جاءت جمعاً فأنها تستطيع ان ترى اكثر من شخص...

(٣٥) مجمع البيان مصدر سابق ج٢ ص ٢٩٦.
(٣٦) ينظر التقديم والتاخير، مصدر سابق ص١٤٢-١٤٣.
(٣٧) ابن قيم الجوزيه (ت ٧٥١ هـ) بدائع الفوائد دار الكتب العربية بيروت ج٣ ص١٦٤.
(٣٨) ينظر التقديم والتأخير في القران حميد احمد عيسى العامري/ ١٤٢-١٤٣.

فالبناء القرآني عبر عن هذه الحقيقة من خلال صياغة الكلام فالمفرد وهي الاذن لا تسمع الا واحداً والجمع وهي الابصار يمكن ان ترى اشياء عدة..[٣٩].

خامساً: الترهيب والترغيب:

قال تعالى: ﴿فَبَشِّرْ عِبَادِ ۝١٧ الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ﴾[سورة الزمر :١٧-١٨]، فهذه البشرى توفر الرغبة والدافع الى الطاعات وتذكر ما اعد الله تعالى لعباده المتقين من الدرجات ويحمله على التحرز من الزلات ويؤدي بقلبه من كدر الى صفاء[٤٠] ومنه قوله تعالى ﴿فِي جَنَّةٍ عَالِيَةٍ ۝١٠ لَّا تَسْمَعُ فِيهَا لَاغِيَةً﴾[سورة الغاشية: ١٠- ١١]فهذا يجعل في الانسان الرغبة في الحصول على هذه المكانة قال تعالى ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾[سورة المطففين: ٢٦] والأمثلة في الترغيب كثيرة فيما يخص السمع.

اما الترهيب فهو الذي تزجر به بعض النفوس التي لا تطمع بما عند الله، لذا جاء السمع مرهباً قارعاً للقلوب لما اعده الله للمعاندين قال تعالى ﴿إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا﴾[سورة الفرقان: ١٢] ونسب الله الرؤية للنار لأنه ابلغ كأنها تعرفهم عند رؤيتهم فهي تزفر كالغضبان وكذا قوله تعالى: ﴿إِذَا أُلْقُوا فِيهَا سَمِعُوا لَهَا شَهِيقًا وَهِيَ تَفُورُ﴾[سورة الملك: ٧].

سادساً: قبس من اخلاق النبي ﷺ:

قال تعالى ﴿وَمِنْهُمُ الَّذِينَ يُؤْذُونَ النَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ وَرَحْمَةٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ رَسُولَ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾[سورة التوبة: ٦١].

و الاذن: الذي يستمع الى ما يقال له ويصغي اليه ويقبله وان المنافقين عابوا على الرسول ﷺ هذه الصفة وانها تدل على اخلاقه العالية ﷺ حيث انه يسمع منكم وَقَبِل منكم إيمانكم الظاهر، ولا يكشف أسراركم ولا يفضحكم فهو اذن كما قلتم، الا انه اذن خير لكم لا اذن سوء، فهو مَدْح له ﷺ وثناء عليه، وان كانوا قصدوا به الذم والتقصير بفطنته وشهامته[٤١].

(٣٩) ابو عبد الله محمد بن احمد القرطبي/ الجامع لأحكام القران/ مطبعة الشعب ج١ ص٧٣.

(٤٠) القشيري الرسالة القشيرية-بغداد ص٢٦١.

(٤١) الكشاف للزمخشري ج٢ ص٢٧٥.

سابعاً: اقتران الابتلاء بالسمع والبصر:

قال تعالى: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾ [سورة الانسان: ٢] بعد ان خلق الله الانسان شق له السمع والبصر، ليكون اهلاً للابتلاء ولا تكون له حجة بعدم معرفة آياته عز وجل قال تعالى: ﴿لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى اللَّهِ حُجَّةٌ بَعْدَ الرُّسُلِ﴾ [سورة النساء: ١٦٥] فهذا دليل على عدل الله عز وجل حيث لا يكلف الا بمقدور ولا يكلف الا مع وجود شروط التكليف والاختبار والابتلاء ومستلزماته.

ثامناً: السمع من الاشهاد:

قال تعالى ﴿وَمَا كُنتُمْ تَسْتَتِرُونَ أَن يَشْهَدَ عَلَيْكُمْ سَمْعُكُمْ وَلَا أَبْصَارُكُمْ﴾ [سورة فصلت: ٢٢] فالله عز وجل يخاطب الناس ويقول لهم لم يتهيأ لكم ان تستروا اعمالكم عن هذه الاعضاء لأنكم كنتم بها تعملون المعاصي حذرا ان تشهد عليكم جوارحكم بها لأنكم ما كنتم تظنون ذلك لجهلكم بالله عز وجل فهان عليكم ارتكاب المعاصي[٤٢] ويشهد عليهم السمع بما قرعه من الدعاء الى الحق فأعرضتم عنه ولم تقبلوه.

تاسعاً: السمع بعد فوات الأوان:

قال تعالى ﴿رَبَّنَا أَبْصَرْنَا وَسَمِعْنَا فَارْجِعْنَا نَعْمَلْ صَالِحًا إِنَّا مُوقِنُونَ﴾ [سورة السجدة: ١٢] أي ابصرنا الرشد والصدق في وعيدك وكنا بمنزلة العمى فابصرنا وسمعنا الحق وتصديقك رسلك وكنا بمنزلة الصم فسمعنا فهنا انكشف الغطاء الذي كان على ابصارنا وذهب الوقر الذي على اذانهم فما اسمعهم وابصرهم في هذا اليوم قال تعالى ﴿أَسْمِعْ بِهِمْ وَأَبْصِرْ يَوْمَ يَأْتُونَنَا﴾ [سورة مريم: ٣٨] هذا اليوم الذي يجعل الولدان شيباً ﴿وَخَشَعَتِ الْأَصْوَاتُ لِلرَّحْمَٰنِ فَلَا تَسْمَعُ إِلَّا هَمْسًا﴾ [سورة طه: ١٠٨].

عاشراً: العداء التاريخي لليهود:

قال تعالى ﴿وَمِنَ الَّذِينَ هَادُوا سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ﴾ [سورة المائدة: ٤١] ذكر صاحب مجمع البيان ان (سماعون) كناية عن اليهود والمنافقين وقيل خاصة عن اليهود، فهم جميعاً مستجيبون للكذب، واختار الله عز وجل صيغة (فعالون) لما فيها من المبالغة، فكثرة

(٤٢) انظر مجمع البيان للطبرسي ج٩ ص١٠.

المباني تفيد كثرة المعاني في الغالب، فهم قابلون للكذب، فمنهم يسمعون قولك ويكذبون عليك لما في انفسهم من حقد على الامة العربية والنبي ﷺ خاصة قال تعالى ﴿لَتَجِدَنَّ أَشَدَّ النَّاسِ عَدَاوَةً لِّلَّذِينَ آمَنُوا الْيَهُودَ وَالَّذِينَ أَشْرَكُوا﴾[سورة المائدة: ٨٢] فهذا حسد من عند انفسهم للنبي ﷺ ومن صفاتهم انهم يحرفون كلام الله واحكامه ومن تجاوز في العظيم يهون عليه الكذب في الصغير، فهذه الآية واشباهها تسلية للنبي ﷺ يقول كيف ان اليهود يؤمنون بك مع انهم يحرفون كلام الله في التوراة ويحرفون كلامك [٤٣] فهم قد امنوا بالتوراة وكانت ضلالتهم تحريف احكام التوراة تحريفاً لفظياً او معنوياً وكتمان آياتها والحاق ما ليس منها بها افتراء منهم وتساهلاً في اقامة احكامها ومبالغة في التعصب بمذهبهم واستعداداً لرسالة نبينا ﷺ وسوء الادب والطعن بالنسبة اليه بل الى حضرة الخالق عز وجل [٤٤].

(٤٣) الكشاف للزمخشري ج١ ص ١٩٤.

(٤٤) محمد الدمشقي النيسابوري/ ارشاد الراغبين في الكشف عن أي القران المبين/ مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٥ ص٩.

المبحث الثالث

السمع والجن

لقد قرع القران الكريم ابواب مسامع الخلق. والجن نوع من الخلق الا انهم مستورون عن جوارحنا ويؤكد القران الكريم وجودهم ويذكر انهم مخلوقون من النار كما ان الانسان مخلوق من التراب [٤٥] قال تعالى ﴿وَالْجَانَّ خَلَقْنَاهُ مِن قَبْلُ مِن نَّارِ السَّمُومِ﴾[سورة الحجر: ٢٧] وانهم يعيشون ويموتون ويبعثون كالإنسان قال تعالى ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ حَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ﴾ [سورة الاحقاف: ١٨] وانهم مكلفون كالإنسان لقوله تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾[سورة الذاريات: ٥٤] ومنهم مؤمنون ومنهم كفار ومنهم صالحون واخرون غير صالحين قال تعالى ﴿إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ۝١ يَهْدِي إِلَى الرُّشْدِ فَآمَنَّا بِهِ﴾[سورة الجن: ١-٢] وقال تعالى ﴿وَأَنَّا مِنَّا الْمُسْلِمُونَ وَمِنَّا الْقَاسِطُونَ﴾[سورة

(٤٥) د. محمد رواس قلعة جي، معجم لغة الفقهاء، دار النفاش ط١ بيروت-لبنان ١٩٨٥ ص ١٦٦.

الجن: ١٤] ويظهر من القران الكريم ان ابليس من الجن وان له ذرية وقبيلاً قال تعالى ﴿كَانَ مِنَ ٱلْجِنِّ فَفَسَقَ عَنْ أَمْرِ رَبِّهِۦٓ﴾[سورة الكهف :٥٠] وقال تعالى ﴿أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوْلِيَآءَ مِن دُونِى﴾[سورة الكهف: ٥٠] وقال تعالى ﴿إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ﴾ [سورة الاعراف: ٢٧] وروي عن ابن عباس انه قال: كان في الجاهلية كهنة ومع كل واحد شيطان فكان يقعد من السماء مقاعد للسمع فيستمع من الملائكة ما هو كائن في الارض فينزل ويخبر به الكاهن فيغشيه الكاهن الى الناس فلما بعث الله عيسى عليه السلام منعوا من ثلاث سماوات ولما بعث محمد ﷺ منعوا من السموات كلها وحرست السماء بالشهب. وهي من الكرامات التي اعطيت للنبي ﷺ وانهم لم يروا هذا قبل زمانه وعلى لسان احد من الجن قال تعالى ﴿وَأَنَّا لَمَسْنَا ٱلسَّمَآءَ فَوَجَدْنَٰهَا مُلِئَتْ حَرَسًا شَدِيدًا وَشُهُبًا﴾ [سورة الجن: ٨] هذا بعد مبعثه اما قبل مبعثه ﷺ قال تعالى ﴿وَأَنَّا كُنَّا نَقْعُدُ مِنْهَا مَقَٰعِدَ لِلسَّمْعِ فَمَن يَسْتَمِعِ ٱلْـَٔانَ يَجِدْ لَهُۥ شِهَابًا رَّصَدًا﴾[سورة الجن: ٩]، ولسماع الجن بعدان:

احدهما: ايجابي وهو باعترافهم بأن ما سمعوه كلام خارق للعادة يهدي الى معارف عقائدية وعملية تصاب بها حقيقة الوجود للوصول الى السعادة الابدية فنجد ان هذه الآيات قد نفذت من اسماعهم الى قلوبهم فأمنوا بها وصدقوا برسالة النبي ﷺ وقولهم لن نشرك بعبادة ربنا احدا تأكيدٌ لمعنى ايمانهم به، فهم يسمعون سماع تدبر للقران الكريم عن امرهم، فهو من باب الاعجاز الغيبي، فاخبره الله عن ايمانهم بكتاب موسى عليه السلام ولم يكن ﷺ على اطلاع بهذا من قبل[٤٦].

الاخر: سلبي وهو ما كان قبل اسلامهم وايمانهم فهم لم يستعملوا سمعهم كما اراد الله عز وجل بل كانوا يسترقون اخبار السماء وكانوا يرجمون حتى في الجاهلية الا ان الرجم شدد عليهم في بعثة النبي ﷺ فمن خلال تتبع الآيات الكريمة نجد ان الجن مكلفون والمكلف يجب ان يزود بآلة التكليف حتى يعرف ما

(٤٦) نظام الدين النيسابوري/ تفسير غرائب القران ج ٢٩ ص٦٠.

يرد في حقه، كما ان منهم من يسمع آيات الله فلا يصر مستكبراً بل يذعن ويؤمن ويعترف بالحق ويذهب الى قومه ناصحاً بانه سمع قراناً عجباً انزل بعد كتاب موسى عليه السلام وان بعضهم علم بحدوث انقلاب في الكون على الواقع الفاسد المتمثل بالشرك والفساد، وذلك لما وجدوا انظمة الأفلاك قد غيرت وملئت السماء بالحرس والشهب فقال تعالى: ﴿وَأَنَّا لَا نَدْرِيٓ أَشَرٌّ أُرِيدَ بِمَن فِي ٱلْأَرْضِ أَمْ أَرَادَ بِهِمْ رَبُّهُمْ رَشَدًا﴾[سورة الجن: ١٠].

وهذا من نعم الله عز وجل الرحمانية التي امتدت الى الجن فزودهم بهذه النعمة التي تكتسب بها السعادة الابدية، فمن هذا تتجلى هذه النعمة التي لم تكن للإنسان فحسب بل حتى للجن الذين لهم قدرات خارقة فلم يستطيعوا الاستغناء عنها.

ومن جهة اخرى فأنه يدل على اعجاز القران الكريم الذي اثر في نفوس هذا الخلق العجيب، قال تعالى ﴿وَإِذْ صَرَفْنَآ إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ ٱلْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ ٱلْقُرْءَانَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوٓا۟ أَنصِتُوا۟ ۖ فَلَمَّا قُضِىَ وَلَّوْا۟ إِلَىٰ قَوْمِهِم مُّنذِرِينَ ﴿٢٩﴾ قَالُوا۟ يَٰقَوْمَنَآ إِنَّا سَمِعْنَا كِتَٰبًا أُنزِلَ مِنۢ بَعْدِ مُوسَىٰ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ يَهْدِىٓ إِلَى ٱلْحَقِّ وَإِلَىٰ طَرِيقٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾[سورة الاحقاف: ٢٩-٣٠] فتبارك الله أحسن الخالقين.

السمع بين الشريعة والعلم

«السمع في الشريعة»

لقد اولت الشريعة الاسلامية اهتماماً كبيراً بحاسة السمع، لما لها من الاثر البالغ في بناء الانسان، ولمكانتها المهمة نجد ان الله عز وجل اوجب على من اتلف هذا العضو او قوته قصاصاً او دية قال تعالى ﴿وَكَتَبْنَا عَلَيْهِمْ فِيهَآ أَنَّ ٱلنَّفْسَ بِٱلنَّفْسِ وَٱلْعَيْنَ بِٱلْعَيْنِ وَٱلْأَنفَ بِٱلْأَنفِ وَٱلْأُذُنَ بِٱلْأُذُنِ وَٱلسِّنَّ بِٱلسِّنِّ وَٱلْجُرُوحَ قِصَاصٌ﴾[سورة المائدة :٤٥] لأن إتلافها عمداً يعد عبثاً او تغيير لخلق الله عز وجل يعاقب من يسيء الى الحيوان بقطع اذنه او تشويه خلقه جاء في التنزيل على لسان إبليس ﴿وَلَأُضِلَّنَّهُمْ وَلَأُمَنِّيَنَّهُمْ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُبَتِّكُنَّ ءَاذَانَ ٱلْأَنْعَٰمِ وَلَآمُرَنَّهُمْ فَلَيُغَيِّرُنَّ خَلْقَ ٱللَّهِ﴾ [سورة النساء: ١١٩]فكيف اذا كان المجني عليه هو الانسان الذي سخر له ما في الكون وكرمه الله على غيره من المخلوقات قال تعالى﴿وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِىٓ ءَادَمَ

وَحَمَلْنَٰهُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ﴾[سورة الاسراء: ٧٠] واوجب الفقهاء في ذهابه كله دية كاملة، وفي ذهاب سمع احدى الاذنين نصف الدية، لا فرق في ذلك بين الصغير و الكبير وضعيف السمع وقويه ومقطوع الاذن وصحيحها(٤٧).

كما كانت للشريعة وقفة اخرى مع السمع وهي ما يسمعه الانسان فهو مسؤول عما يسمع قال تعالى ﴿إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الاسراء: ٣٦] فكان ما يسمعه الانسان على طريقة الفقهاء في تقسيم الأحكام الشرعية الى محرم ومكروه وواجب ومستحب ومباح.

اما المحرم: فيكون في الاستماع الى الغيبة والنميمة والتجسس على عورات الناس ودليله من الكتاب قال تعالى ﴿وَلَا تُطِعْ كُلَّ حَلَّافٍ مَّهِينٍ ۝١٠ هَمَّازٍ مَّشَّآءٍۭ بِنَمِيمٍ﴾[سورة القلم: ١٠-١١]وقوله تعالى﴿وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم﴾[سورة الحجرات: ١٢].

اما دليله من السنة فقول الرسول ﷺ: (من استمع الى حديث قوم وهم له كارهون صب في أذنيه الانك يوم القيامة)(٤٨) والأنك الرصاص المذاب، ونقل الغزالي (ان المستمع شريك المتكلم) في ذلك يقول (فمن تركها مخافتي ابدلته ايماناً يجد حلاوته في قلبه)(٤٩).

وكذا اذا كان السمع يهيج الخواطر و الوسواس في القلب، ومنه نجد ان الله عز وجل نهى عن اظهار صوت الحلي، قال تعالى ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾[سورة النور: ٣١] كما ذهب الشيعة الامامية(٥٠) الى تحريم الغناء مطلقاً واستدلوا بنصوص كثيرة اليك بعضاً منها قال تعالى ﴿فَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلرِّجْسَ مِنَ ٱلْأَوْثَٰنِ وَٱجْتَنِبُوا۟ قَوْلَ ٱلزُّورِ ﴾[سورة الحج: ٣٠]لكون المراد من قول الزور الغناء او ان الغناء منه، وقوله تعالى﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْتَرِى لَهْوَ ٱلْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ﴾ [سورة لقمان: ٦] اما جمهور الفقهاء فقد

(٤٧) معجم لغة الفقهاء ص ٢٥٠.

(٤٨) شمس الدين الذهبي، كبائر الكبائر ص١٧١.

(٤٩) الغزالي منهاج العابدين ومعه الكشف والتبين وبداية الهداية مكتبة الجندي/ ١٩٧٢/ ص٧٩-٨٠.

(٥٠) سعد مزهر جاسم السامرائي/ حكم السماع في الشريعة الاسلامية، رسالة ماجستير/ بغداد ١٩٩٨ ،ص٦٣.

ذهبوا الى كراهيته بشرط ان يكون مجرداً من الآلة الموسيقية وعن الكلام المشتمل على ما يحل أنشاده وسماعه ولا يكون من امرأة لرجل او بالعكس.

وقد ذهب الى هذا كل من الحنفية والمالكية والشافعية والحنابلة وبعض الأمامية وهو المروي عن ابن عباس وابن مسعود وابن عمر والشعبي والضحاك والفضيل بن عباس والحسن البصري ويزيد بن الوليد. فالحنفية وان قالوا بالكراهية الا أنهم حرموا سماعه، اذا كان بلفظ لا يحل مصحوب بآلة موسيقية محرمة.

وقالت المالكية بتحريم الغناء اذا كان بصوت مغنيه يثير صوتها الشهوة في السامع، وقالت الشافعية بالتحريم اذا كان مصحوباً بآلة موسيقية محرمة او مصحوبة بذكر محاسن النساء[٥١].

اما الغزالي فقد ذكر عوارض للسماع يحرم بها هذا السماع وهي:

العارض الاول: ان يكون المسمع امرأة لا يحل النظر اليها وتخشى من سماعها الفتنة وكذا الصبي الامرد، وهذا محرم لما فيه خوف الفتنة.

العارض الثاني: في الالة ان تكون من شعار اهل الفسق والشرب والمخنثين.

العارض الثالث والرابع: في نظم الصوت وهو الشعر ان كان فيه الغناء والفحش وفي المستمع اذا كانت شهوته مفرطة فالسماع اليه حرام[٥٢].

واما ما ذكره ابن حجر الهيتمي حول تحريم السماع الى الغناء المجرد عن واحد من الامور التالية عند الشافعية:

١-يحرم كثيره دون قليله

٢- يحرم فعله وسماعه الا اذا كان في بيت خال.

٣- يحرم اذا اقترن به سكر او اكثر منه.

٤- اذا كان يحتمل وجه الفسق[٥٣]

اما الحنابلة فقد قالوا بكراهيته مطلقاً والغناء يحرم عندهم سماعه بواحدة من

(٥١) سعد مزهر جاسم السامرائي/ حكم السماع في الشريعة الاسلامية، رسالة ماجستير/ ص٦٣.

(٥٢) ابو حامد الغزالي (ت ٥٠٥) احياء علوم الدين ج٢ ص٢٩١.

(٥٣) ابن حجم الهيتمي احمد بن محمد بن علي/ كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع ج٢ ص٢٦٧-٢٦٨ ت (٩٧٤ هـ).

العوارض التي ذكرها غيرهم.

وقد استند اصحاب الرأي وهم الجمهور في حجتهم إلى قوله تعالى﴿ وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشۡتَرِي لَهۡوَ ٱلۡحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ بِغَيۡرِ عِلۡمٖ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًاۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عَذَابٞ مُّهِينٞ ﴾ [سورة لقمان: ٦].

وعن ابي موسى الأشعري ان النبي ﷺ قال (من استمع الى صوت غناء لم يؤذن له ان يستمع الى صوت الروحانيين في الجنة فقيل ما صوت الروحانيين يا رسول الله قال :قراء اهل الجنة)(٥٤) وقال انس ابن مالك: قال رسول الله ﷺ (من جلس الى فينة يسمع منها صب في اذنيه الانك يوم القيامة)(٥٥)، وعن ابن عمر بن الخطاب ان النبي ﷺ قد نهى عن الغناء والاستماع الى الغناء والغيبة والاستماع الى الغيبة ونهى عن النميمة والاستماع إلى النميمة (٥٦).

وقد ذهب الجمهور إلى كراهية الغناء وسماعه باستدلالهم بالمنقول نصرة لرأيهم وذلك لما للغناء من عواقب واثار ينتجها ويخلفها لمن يتعاطى هذه الصنعة، هذا اذا كان الغناء خالياً من ما ذكره من ضوابط يجب مراعاتها للخروج من دائرة الحرمة الى الكراهية.

اما من ذهب الى اباحته، فهم ابن حزم الظاهري و الغزالي وابن القيسراني في كتابه السماع وقيدوا الاباحة بقيد عدم الاضلال عن سبيل الله عز وجل (٥٧).

اما المكروه من السماع: فهو ما اورث لهواً او غفلة، قال النبي ﷺ (ما اجتمع قوم في بيت من بيوت الله يتلون كتاب الله ويتدارسونه بينهم الا غشيتهم الرحمة وتنزلت عليهم السكينة وحفتهم الملائكة وذكرهم الله فيمن عنده)(٥٨).

اما الواجب من السماع: قوله تعالى ﴿ وَإِذَا قُرِئَ ٱلۡقُرۡءَانُ فَٱسۡتَمِعُواْ لَهُۥ وَأَنصِتُواْ لَعَلَّكُمۡ تُرۡحَمُونَ ﴾[سورة الاعراف :٢٠٤] فظاهره وجوب الاستماع

(٥٤) سنن الترمذي ١٤/ ٥٤ بسند ضعيف.

(٥٥) جامع الاحكام للقرطبي ج١٤ ص٥٣ وعزاه الى النيسابوري كما اخرجه ابن حزم في المحلى ٩/ ٥٧.

(٥٦) كف الرعاع ص٢٧٨ ابن حجر الهيتمي ومجمع الزوائد ومتع الفوائد، علي بن ابي بكر الهيتمي.

(٥٧) القيسراني: محمد بن طاهر السماع/ تح ٠ ابو الوفاء المراغي/ اصدار المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية/ القهرة١٩٧٩/ ص٣٥.

(٥٨) الرسالة القشيرية/ ٢٦٤.

والإنصات وقت قراءة القران في الصلاة وغيرها. وقيل كانوا يتكلمون في الصلاة فنزلت هذه الآية وصارت سنة في غير الصلاة وهذا الحكم في الصلاة خاصة خلف الامام الذي يؤتم به اذا سمعت قراءته عن ابن عباس وابن مسعود وسعيد بن جبير والامام جعفر بن محمد عليه السلام[٥٩].

اما المستحب: فيكون فيما يحدث في النفس شوقاً الى ربها حتى ان النبي صلى الله عليه وآله امر بتزيين الصوت عند القراءة كي لا ينفر الناس منه، عن انس بم مالك عن النبي صلى الله عليه وآله (ان حسن الصوت زينة للقرآن) [٦٠] وعن البراء بن عازب قال رسول الله صلى الله عليه وآله (زينوا القران بأصواتكم)[٦١] والمباح فيما عدا ما ذكر.

كما ان الشريعة المقدسة أولت اهتماماً كبيراً بصوت المرأة لما فيه من فتنة للمستمع وهو عورة، فجاءت أحكام الشريعة مبينة لحكم سماع صوت المرأة حيث اقرت :

١- صوت المرأة عورة ان لم يحدث فتنة في نفس المستمع فلا تكثر الكلام مع الرجال الاجانب.

٢- لا يجوز لها الجهر بقراءة القرآن في الصلاة وخارجها بحضرة من يسمعها من الرجال الاجانب [٦٢].

وقفة علمية مع السمع

من لطائف خلق الله خلق الاذن قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾[سورة فصلت :٥٣]فلقد خلقها عز وجل على هيئة تمكنها من استقبال الموجات الصوتية، وهذا التوافق بين شكلها ووظيفتها، كما اثبت العلم الحديث انها تقوم بوظيفة أخرى وهي الحفاظ على توازن الجسم والحفاظ عليه من الوقوع من حالة الحركة قال تعالى ﴿كَأَنَّ فِىٓ أُذُنَيْهِ وَقْرًا﴾[سورة لقمان: ٧] والوقر هو الثقل في الأذن[٦٣] والسمع يتكون من ثلاثة تراكيب: الأذن الخارجية

(٥٩) مجمع البيان، الطبرسي ج٤ ص٥١٤.
(٦٠) جامع الاحكام للقرطبي ج١ ص١٨/ سنن النسائي ٢/ ١٧٩ سنن الدارمي ٢/ ٤٧١
(٦١) مجمع البيان الطبرسي ج١ ص١٦/ مختصر سنن ابو داوود ٤/ ١٣٧ ومجمع الفوائد ٧/ ١٧٠
(٦٢) بن حجر الهيتمي كف الرعاع ج٢ ص٢٦٧
(٦٣) الاصفهاني مفردات الراغب ص ٨٨٠.

والوسطى والداخلية لكل منها تشريحه الدقيق ووظيفته الفسيولوجية والوظيفة المعقدة(٦٤).

فيكون هذا البناء الرباني ادعى للتفكر والنظر، فهذ احد أساتذة الطب وهو يشرح لطلابه كيف يتم انتقال الصوت وحصول السمع حيث يقول اننا نعرف كيف يتم هذا الأمر-اما كيف تدركه الخلايا العصبية وتفهمه فلا نتدخل نحن في هذا البحث، هكذا يخونه ذهنه العلمي عندما أراد بحث حاسة السمع المعقدة التي يجب ان تطرق بابها ولا يتهرب منها، فهذا النبي الأمي ﷺ يطرق لنا الباب قبل الف وأربعمائة سنة بيد الآيات الباهرات ليدل على اثار الله في الأرض ويلزم الملحدين من انصار الطبيعة-امهم-كما يزعمون، فهذا الإتقان المحكم، والدقة الرائعة في هذا التصميم الا يدل على خالق حكيم، فقدرة الخالق تتجلى في خلق الاذن وكيف تعمل وكيف انها جهزت بأجهزة حماية لدرء الإخطار من هوام الأرض وغيرها(٦٥).

فقد جاء القران الكريم يبين ما عجز عنه الطب الحديث من ان عملية الإدراك للأصوات في الخلايا العصبية مقصورة على الله عز وجل قال تعالى: ﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ ﴾[سورة يونس: ٣١] وهو دليل إيماني مهم(٦٦)، على ان القرآن كتاب الله المقروء والأرض وما فيها كتاب الله المنظور قال تعالى ﴿ سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ ﴾ [سورة فصلت: ٥٣] ومن دلائل الإعجاز السبق القرآني للعلم الحديث في كثير من العلوم حيث اقر القرآن الكريم: ان السمع اول الحواس الخمس نضوجاً عند الجنين قال تعالى﴿ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُوْلَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴾ [سورة الاسراء: ٣٦]، فبعد أربعة عشر قرناً يعلن العلم الحديث هذه الحقيقة وهي ان السمع ينضج ويكتمل في الجنين قبل غيره من الحواس حيث

(٦٤) الدكتور السيد الجميلي. الاعجاز الطبي في القرآن منشورات مكتبة التحرير بغداد ط ١/ ١٩٨٢ ص ١٠٦.

(٦٥) د.السيد الجميلي. الاعجاز الطبي في القران منشورات، ص ١٠٧.

(٦٦) د. خالص كنجو/ الطب محراب الايمان، ص ١٩٣.

يسمع الأصوات ويتأثر بها وهو جنين في بطن امه، وعند ولادته لم تتطور لديه حاسة الأبصار وقد يظل الطفل أسبوعين او ثلاثة لا يرى شيئاً امامه انما يقلب عينه ذات اليمين وذات الشمال، ولو قرب شيئاً من عينه لا يرمش ولا يرعش، بخلاف حاسة السمع فهي موجودة وانه ينتبه للأصوات ويفزع عند العطاس، وتكون موجودة وان كان نائماً، بخلاف حاسة الأبصار فأنها متوقفة تماماً عن عملها بينما حاسة السمع قائمة تستقبل الأصوات وتمارس وظيفتها بلا توقف [٦٧].

فالقرآن ينقلنا الى واحة أخرى من واحات الإعجاز التي يشم رائحة زهورها من قصة اصحاب الكهف وكيف ضرب على سمعهم كي لا يسمعوا صوت الرعد والزلازل قال تعالى ﴿فَضَرَبْنَا عَلَىٰٓ ءَاذَانِهِمْ فِي ٱلْكَهْفِ سِنِينَ عَدَدًا﴾[سورة الكهف: ١١].

كما يقرر لنا العلم الحديث ان تعلم النطق يتم عن طريق السمع في الدرجة الأولى، فأن ولد الإنسان وهو اصم، فأنه يصعب عليه الانسجام مع المحيط الخارجي او التفاهم معه ويحدث لديه قصور عقلي شديد، ويعني ان هذا الجهاز هو الذي ينمي مدركات الإنسان وذهنه ووعيه، من هذا يتدرج الانسان في الوعي والإدراك، الا تسمعون قوله تعالى ﴿وَٱللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّنۢ بُطُونِ أُمَّهَٰتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْـًٔا وَجَعَلَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۙ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ [سورة النحل: ٧٨] وأقرّ القرآن الكريم حقيقة أخرى مفادها: ان الكثير من الذين حُرِموا نعمة البصر -حتى وهم صغار- يتعلمون ويبلغون درجة راقية من الفهم والإدراك والعلم والامثلة كثيرة.

ولكننا لم نسمع بأن الانسان الذي يولد وهو اصم يمكن ان يرتقي في سلم المعرفة ويصبح عالماً، لأن الفهم والنطق يتلازمان الى درجة لا يمكن فصل بعضهما عن بعض، قال تعالى ﴿لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ﴾ [سورة الحج: ٤٣]. وان الله لم يبعث نبياً اصم ولكن قد يكون فاقداً للبصر كنبي الله يعقوب عليه السلام [٦٨] هذا بالنسبة الى الرسل اما

(٦٧) السيد الجميلي الاعجاز الطبي: ص٦٥.

(٦٨) انظر الكشاف للزمخشري ج٢، ص٥٣١.

البشر فيمكن تبليغ الاعمى اما الاصم فلا يمكن تبليغه وجاء في محكم كتاب الله عز وجل ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَٱسْتَمِعُوا۟ لَهُۥٓ﴾ [سورة الحج :٧٣] ومما اقره القران الكريم ان مدى السمع اقل من مدى الرؤية فقد جاء السمع للترقي من الأدنى الى الاعلى قال تعالى ﴿لَا تَخَافَآ ۖ إِنَّنِى مَعَكُمَآ أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ [سورة طه: ٤٦] فالسمع يوحي بالقرب فالذي يسمعك عادة قريب بخلاف الذي يرى فقد يرى الشخص ولكن لا يسمع ما يقول(٦٩) فتعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

السمع مصدر هداية

تجلت رحمة الله بعباده بتعدد مصادر الهداية فنجد مصادر الهداية على قسمين قد صرح القرآن بهما:

احدهما: قال تعالى ﴿سَنُرِيهِمْ ءَايَٰتِنَا فِى ٱلْءَافَاقِ وَفِىٓ أَنفُسِهِمْ﴾ [سورة فصلت: ٥٣] ويعبر عن هذا النوع بالهداية التكوينية فالأرض وما فيها و السماء وما يطير فيها ما هي الا دلائل على وجود الله عز وجل وهو كتاب الله المنظور.

الاخر: قال تعالى ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبْعَثَ فِىٓ أُمِّهَا رَسُولًا يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِنَا﴾ [سورة القصص: ٥٩]

وهذا النوع من الهداية يسمى بالهداية التشريعية ولحاسة السمع خصيصة تميزها عن غيرها من الحواس الا وهي: انها تدخل تحت النوعين من الهداية فرب سائل يسال لم؟

نقول: انها تعد هداية في تكوينها ودالة على خالق مدبر مريد لا كما يزعم الملحدون الماديون انها من خلق الطبيعة والصدفة، وتارة اخرى لما لها من قابلية أودعها الله فيها في الاستماع للأصوات وتفهمها والإصغاء الى الرسل والسماع منهم عليهم السلام.

فهي تتناول جميع جوانب بناء الإنسان التي يسعى الإسلام الى بنائها من اجل الوصول بالإنسان الى مرحلة التكامل البشري لنيل السعادة الأبدية وهنا لا بد من ذكر اهم هذه الجوانب

الجانب العقائدي: فنجد ان القرآن أورد حقائق تخص السمع الذي به تثبت وحدانية الله عز وجل وهو الهدف

(٦٩) حمدي احمد عيسى العامري التقديم والتأخير في القران الكريم بغداد ١٩٩٦ ص ١٤٣.

الاسمي من الخلق قال تعالى ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ﴾ [سورة الذاريات: ٥٦]فجانب العقيدة لا يكتمل عند الانسان ان لم تكن له اذن واعية يدرك بها الهدى ويعلم بها علم اليقين قال تعالى ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَسْمَعُونَ﴾ [سورة يونس: ٦٧] أي يسمعون الحجج والدلالات على توحيده سماع تدبر وتفهم وتعقل، والسماع هنا واجب كما جاء في كثير من الروايات والاحاديث التي اوردها صاحب الرسالة القشيرية.

الجانب العبادي: فهذا الجانب يهذب حاسة السمع ويبعدها عن الانحراف عما حرمه الله عز وجل فيفرض عليه عدم الكذب في ما يسمع قال الله عز وجل في أحكام الوصية ﴿فَمَن بَدَّلَهُ بَعْدَ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ﴾ [سورة البقرة: ١٨١] ويشدد هذا في الاحكام الشرعية قال تعالى ﴿وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا أَوْ قَالَ أُوحِيَ إِلَيَّ وَلَمْ يُوحَ إِلَيْهِ شَيْءٌ﴾ [سورة الانعام: ٩٣] وعدم حضور المجالس التي يستهزأ فيها بآيات الله عز وجل قال تعالى ﴿أَنَّ إِذَا سَمِعْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُوا مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا فِي حَدِيثٍ غَيْرِهِ﴾ [سورة النساء: ١٤٠] وغيرها من الآيات التي تجعل من الانسان المسلم قدوة في المجتمع مع ارساء الثقة بالنفس والاخرين.

الجانب الاخلاقي: وهذا الجانب ينشئ لنا مجتمعاً تسوده اخلاق السماء التي ترفض التجسس على المسلم قال تعالى ﴿وَلَا تَجَسَّسُوا وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ وقال رسول الله ﷺ «من استمع حديث قوم وهم له كارهون صب في اذنيه الانك يوم القيامة»(٧٠) بل يتجلى الجانب الاخلاقي بأدق صورة قال تعالى ﴿وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ﴾ [سورة النور: ٣١] حيث نهى الإسلام عن اظهار صوت الحلي بعد ما نهاهن عن اظهار الحلي، لما فيه من حركة تهذيب النفس وتربية لها(٧١).

الجانب الاجتماعي: إنَّ تزعزع الثقة بين ابناء المجتمع تؤدي إلى تخلخله وتفككه فيحل فيه الضعف ويكون لقمة سائغة لأنصار الشيطان ونحن اليوم نعيش خطر

(٧٠) الكبائر ص١٧١.
(٧١) ينظر الكشاف للزمخشري ج٣ ص٢٣٣.

(العولمة) التي تسعى لتصدير الافكار الهدامة عن طريق وسائل الأعلام فيجب تحصين الفرد المسلم وان لا يتبع كل ما يسمع من نعيق فهؤلاء هم كما قال تعالى: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [سورة النور: ١٩] ولا يفوتنا ان نذكر رأي الشيخ عبد الرحمن الصفوري الشافعي في فضل السمع على البصر، حيث يقول (فضل السمع على البصر من وجهين):

الاول: انه يدرك المسموعات من كل جانب والبصر لا يدرك الا من واحدة وهي المقابلة، ومن خصائص نبينا محمدﷺ انه كان يرى مَنْ وراءه كما يرى مَنْ أمامه.

الثاني: ان السمع لا تحجبه ظلمةٌ ولا حجاب أما البصر فيحجبه ذلك[٧٢].

(٧٢) عبد الرحمن الصفوري الشافعي/ نزهة المجالس ومنتخب النفائس ج١ ص٧١-٧٢.

المصادر والمراجع

(القران الكريم)

- الاعجاز الطبي في القران الكريم/ د. السيد الجميلي، منشورات مكتبة التحرير، بغداد ط١، ١٩٨٢.
- احياء علوم الدين/ ابي حامد محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥) ط١ دار الكتب العلمية بيروت.
- ارشاد الراغبين في الكشف عن أي الذكر المبين/ محمد منير الدمشقي النيسابوري/ مكتبة الهلال بيروت ١٩٨٥.
- اصول الدين الاسلامي رشدي عليان- عبدالرحمن الدوري جامعة بغداد ١٩٧٧
- اضواء البيان في تفسير القران بالقران/ محمد الامين الشنقيطي بيروت ط١ ١٩٩٣
- الانباء بما في كلمات القران من اضواء: محمد جعفر ابراهيم الكرباسي، مطبعة النجف، ط١.
- بدائع الفوائد، ابن قيّم الجوزية ابو عبدالله محمد بن ابي ايوب (ت ٧٥١ هـ) دار الكتب العربية-بيروت.
- تفسير الجلالين/ جلال الدين محمد بن احمد المحلي والشيخ جلال الدين السيوطي، طبعة مصر، مطبعة الشعب.
- تفسير غرائب القران/ نظام الدين الحسن بن محمد بن حسين النيسابوري بهامش جامع البيان للطبري -ط/ الاميرية- بولاق/ ١٣٢٣ هـ.
- تفسير القران العظيم/ ابن كثير عماد الدين ابي الفداء اسماعيل. (ت: ٧٧٤)

دار الحديث-القاهرة ١٩٨٦.
- التقديم والتأخير في القران الكريم/ حميد احمد عيسى العامري دار الشؤون الثقافية بغداد ١٩٩٦.
- الجامع لأحكام القران/ ابو عبدالله محمد بن احمد القرطبي (ت: ٦٧١) مطبعة الشعب.
- حكم السماع في الشريعة/ سعد مزهر جاسم السامرائي-رسالة ماجستير/ بغداد ١٩٩٨
- الرسالة القشيرية/ عبدالكريم بن هوزان القشيري (ت ٤٦٥ هـ) دار التربية-بغداد
- السماع للقيسراني محمد بن طاهر/ تح/ ابو الوفاء المراغي/ اصدار المجلس الاعلى للشؤون الاسلامية القاهرة ١٩٧٠
- السيرة النبوية/ ابن هشام عبد الملك (ت ٢١٨ هـ) تح/ مصطفى السقا وجماعته/ ط٣ بيروت ١٩٧٣ (بالاوفست عن طبعة القاهرة-١٩٣٦).
- الشامل في اللغة/ محمد سعيد اسبر/ محمود الجنيدي بيروت ط ١ م ١٩٨٥.
- شذا الصرف/ احمد الحملاوي، دار الكتب العالمية/ بيروت
- صفوة البيان/ حسنين محمد مخلوف-وزارة الاوقاف الكويتية ط١
- صفوة التفاسير/ محمد علي الصابوني/ دار الفكر-بيروت-ط ٢ ١٩٩٨.
- الطب محراب الايمان/ د. خالص كنجو مؤسسة الرسالة بيروت، ١٩٧١.
- في ظلال القران/ سيد قطب/ دار الشروق/ بيروت/ ١٩٨٢
- قاموس القران/ الحسين بن محمد الدامغاني/ تح/ عبد العزيز سيد الاهل-ط٢-دار العلم للملايين/ بيروت ١٩٧٧.
- الكبائر/ شمس الدين ابي عبدالله محمد بن عثمان بن قايماز الذهبي بغداد مطبعة منير/ ط١
- الكشاف/ جار الله محمود بن عمر الزمخشري (ت ٥٣٨ هـ) دار المعرفة-بيروت-ط١
- كف الرعاع عن محرمات اللهو والسماع/ احمد بن محمود بن علي بن حجر الهيتمي
- (ت٩٧٤) ط٤ البابي الحلبي/ مصر
- الكوثر/ مجلة نصف شهرية ع ٤١ النجف الاشرف ٢٠٠٠
- لباب النقول في اسباب النزول/ جلال الدين السيوطي م/ الهاشميه/ دمشق ١٣٥٨.
- لسان العرب/ جمال الدين ابو الفضل محمد بن مكرم بن منظور. (ت ٧١١ هـ) دار صادر-بيروت ١٩٥٥.

- مجمع البيان في تفسير القران/ الفضل بن الحسن الطبرسي (ت ٥٤٨) ط٢-دار احياء التراث-بيروت.
- مجمع البحرين/ فخر الدين الطريحي (ت ١٠٨٥ هـ) دار الكتب العلمية بيروت ج ٤/ تح/ احمد الحسيني.
- المسامرة بشرح المسايرة/ ابن ابي الشريف القدسي (ت ٩٠٦) م/ السعادة مصر.
- معالم الفلسفة الاسلامية/ محمد جواد مغنية م دار احياء التراث بيروت.
- مع الانبياء في القران الكريم/ عفيف عبد الفتاح طبارة ط١٤ دار العلم للملايين بيروت ١٩٨٥.
- معجم لغة الفقهاء/ محمد رواس قلعة جي/ دار النفائس ط١-بيروت ١٩٨٥
- المعجم المفهرس لالفاظ القران الكريم/ محمد فؤاد عبد الباقي دار الحديث القاهرة ١٩٩٦ ط١
- مفردات الراغب/ الحسين بن محمد بن المفضل الاصفهاني (ت ٤٢٥هـ) مفردات الفاظ القران الكريم/ ت/ صفوان عدنان/ الدار الشامية ط١ ١٩٩٦ بيروت.
- منهاج العابدين ومعه الكشف والتبيين وبداية الهداية/ محمد بن محمد الغزالي (ت ٥٠٥ هـ)
- نزهة المجالس ومنتخب النفائس: الشيخ عبد الرحمن الصفوري الشافعي/ قديم/ طه عبد الرؤوف سعد ك مكتبة زهران القاهرة.

ملخص البحث

يضم هذا القسم بحثين مهمين قدم بهما العلامة الهندي عبد الله يوسف علي لترجمته معاني آي القرآن الكريم. وقد نشرت المجلة الأقسام الثلاثة في أعداد سابقة.

والبحث الأول من هذا القسم يتحدث فيه عن الجنة التي وعد الله بها عباده الصالحين بحديث رومانسي شاعري أخاذ ينم عن دقة فهمه لما وعد الله -سبحانه- به.

أما البحث الثاني فهو بحث تاريخي مختصر لواقع العالم المتحضر قبل الاسلام والمتمثل بالدولتين البيزنطية والفارسية وما جاورهما من الأمم . وقد جسّد الباحث الصراع الدامي بين الدولتين وموقف القرآن الكريم من تصوير جوانب من هذا الصراع.

وقد تخللت الترجمة تعليقات وشروح مفيدة من قبل السيد المترجم على شكل هوامش.

بُحُوثُ العَلَّامَةِ الهِنْدِيِّ

عَبْدِ اللهِ يُوسُفَ عَلِيّ عَلَى هَامِشِ تَرْجَمَةِ القُرْآنِ

الجزء الرابع

ترجمة سعد شريف طاهر

البحث الأول: جنة المسلم

١-إن الكتابة عن جنة المسلم بإمعان تعني وصف المُثل الروحية للإسلام وتخيل العالم الأخروي عند الذين يتبعون الأسباب الحقيقية لخلقهم لأنهم خلق الله كما جاء في التنزيل. ومثل هذه المهمة تتطلب أكثر من مساحة بحث. ولكني افترض هنا جمع أمور أشرت لها في ملاحظات متناثرة على النص القرآني مما لم يتسع شرحها في المساحة الخاصة بالملاحظات. وهذا هو الأهم حيث يتخيل بعض النقاد الذين يجهلون الإسلام. أن الإسلام يسلّم بجنة شهوانية ويؤكدون روايات مشوشة ذكرها بعض إخواننا من ذوي التفكير المادي حول هذا الموضوع.

٢-يصح القول بأن الإسلام يستعمل صوراً متنوعة لوصف الأمور الروحية حيث لا تصفها كلمات أكثر من تلك الصور، ولكنه يتجنب تصوير الذات الإلهية حتى لا يسئ ذووا العقول الجوفاء فهمها ويستخدمون تلك الصور في وصف البشر، حيث ينعم البشر بأشكال مادية للسعادة والقناعة والبهجة والروابط الاجتماعية والعقلية لتُعكس على المُتع والعلاقات الأكثر روحية في جنة روحية ليس فيها غراميات الآلهة والآلهات وأنواع الغيرة والشجارات التي تشوه بلاط المُشتري (رب آلهة الإغريق) في اولمبيا بالرغم من إن الأساطير الإغريقية كانت أنقى الأساطير الوثنية. وبرغم كل جهود

ووجنر في تمجيد (جنة فالكير) فإن في تلك الجنة أعمالاً عليا وعواطف جامحة في جو من الخيبة والنزاع.

تُرسم الصورة المسيحية في تخيل الله وعرشه على وفق ما ورد في سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي باستعارات للذات الإلهية (أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخُلقت)[1].

أما صورتنا فهي لا تحمل هذه الاستعارات ولم يتم تعليمنا بأن موضوع الخَلق متعة إلهية. بل إن ما درسناه إن الإنسان خُلق لتطوير نفسه ولتحقيق قدره العالي الذي يتحقق بفهمه وطاعته ومعرفته لله.

٣-إن عقيدتنا في الآخرة ليست عقيدة صارمة في الثواب والعقاب. فالوعد بالثواب يُلمح إلى شيئين: أ-الحافز إلى طريق معين للعمل والفوز بالثواب ب-تخصيص الثواب على قدر ميزات ومقدار ما يستحقه المتلقي. أما بخصوص المحفزات راجع [سورة آل عمران:٣١] ﴿قُلْ إِن كُنتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ وفي [سورة البقرة:١٦٥] ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى الَّذِينَ ظَلَمُوا إِذْ يَرَوْنَ الْعَذَابَ أَنَّ الْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعَذَابِ﴾ فكل عمل نعمله له نتيجته الحَسنة لأرواحنا على أن يكون دافعه فقط لوجه الله، [سورة البقرة:٢٧٢] ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ابْتِغَاءَ

(١) جاء في نهاية سفر الرؤيا ليوحنا اللاهوتي/ الإصحاح الرابع من الكتاب المقدس العهد الجديد (صرت في الروح وإذا عرشٌ موضوع في السماء وعلى العرش جالس وكان الجالس في المنظر شبه حجر اليشب والعقيق وقوس قزح حول المنظر شبه الزمرد وحول العرش أربعة وعشرون عرشاً ورأيت على العروش أربعة وعشرين شيخاً جالسين متسربلين بثياب بيض وعلى رؤوسهم أكاليل من ذهب. يخر الأربعة والعشرون شيخاً قدام الجالس على العرش ويسجدون للحي إلى أبد الآبدين ويطرحون أكاليلهم أمام العرش قائلين أنت مستحق أيها الرب أن تأخذ المجد والكرامة والقدرة لأنك أنت خلقت كل الأشياء وهي بإرادتك كائنة وخُلقت. (المترجم)

وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ في حين يطلب المتقون المثابرون الصابرون وجه ربهم، [سورة الرعد:٢٢] ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

٤-هل يُخصص الثواب لميزات أو لما يستحقه المتلقي؟ أبداً، ففي أحسن الأحوال يمكن أن تُقدّر ميزاتنا واستحقاقنا للثواب بالقليل لكن رحمة الله ونعمته واسعتان، [سورة الأنعام: ١٤٧] ﴿فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَٰسِعَةٍ وَلَا يُرَدُّ بَأْسُهُۥ عَنِ ٱلْقَوْمِ ٱلْمُجْرِمِينَ﴾ حيث قال تعالى في [سورة الأعراف:١٥٦] ﴿وَٱكْتُبْ لَنَا فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِى ٱلْءَاخِرَةِ إِنَّا هُدْنَآ إِلَيْكَ ۚ قَالَ عَذَابِىٓ أُصِيبُ بِهِۦ مَنْ أَشَآءُ ۖ وَرَحْمَتِى وَسِعَتْ كُلَّ شَىْءٍ ۚ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلَّذِينَ هُم بِـَٔايَٰتِنَا يُؤْمِنُونَ﴾ نعمته عامة وفي كل مكان، [سورة آل عمران:٧٤] ﴿يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ ذُو ٱلْفَضْلِ ٱلْعَظِيمِ﴾ وإذا فعل الإنسان خيراً فأن ثوابه أفضل من فعله. ولكن المسيئين يعاقبون بقدر سيئاتهم، [سورة القصص:٨٤] ﴿مَن جَآءَ بِٱلْحَسَنَةِ فَلَهُۥ خَيْرٌ مِّنْهَا ۖ وَمَن جَآءَ بِٱلسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى ٱلَّذِينَ عَمِلُوا۟ ٱلسَّيِّـَٔاتِ إِلَّا مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾ وهكذا فعدالته صارمة ولكنها في مصلحة الإنسان ونعمته ابعد من أن تُحصى، [سورة الروم:٣٩] ﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَا۟ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُوا۟ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ﴾ لاحظ الملاحظة (٢) ٥٩٠٩ في [سورة النبأ:٣٦] ﴿جَزَآءً مِّن رَّبِّكَ عَطَآءً حِسَابًا﴾. ويمكن ترجمة (الهدية الكافية) بـ الهدية الوفيرة الفياضة، وعبارة أعطى فأحسَب تعني أعطى بكرم وسخاء.

٥-من المستحسن أن يصبح الإنسان صالحا بنفسه على أمل الثواب فحسب أو للخوف من العقاب في مرحلة معينة من التطور الروحي عندما تكون المحفزات الأعلى صعبة الفهم، ولكن لان نور الإسلام ينير أكثر فأكثر فيمكن رؤية

(٢) تقول الملاحظة ليس التعويض ثواباً فقط بالنسبة إلى المزايا لكنه هدية من الرحمن. هدية على نحوٍ وافٍ، كافية لتقنع كل الرغبات الطاهرة. (المترجم)

الفضيلة بذاتها ثواباً والشر بذاته عقاباً لان الأول ينسجم مع مشيئة الله والآخر يناقضها ومناقضاً لطبيعة الإنسان السليمة كما خلقها الله بيده طبقاً للنموذج الذي جعل فيه الإنسان ولا تبديل لعمل عمله الله، [سورة الروم:٣٠] ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَٰلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴾ فهل هناك ثواب على الخير إلاّ الخير؟، [سورة الرحمن:٦٠] ﴿ هَلْ جَزَاءُ الْإِحْسَانِ إِلَّا الْإِحْسَانُ ﴾ نحن مطالبون بالتوبة عندما نقع في الخطيئة. ولكن التوبة لا تعني (التوبة في المسوح والرماد)[٣] أو التظاهر بالتشاؤم المظلم بل تعني ترك المرض من اجل الشفاء والاعوجاج (وهو الشيء غير الطبيعي) من اجل الطريق المستقيم، والعودة لفطرتنا التي خلقنا الله عليها من زيف إغراءات الشيطان، [سورة الروم:٣١] ﴿مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴾

(٣) تعبير من الكتاب المقدس.

والملاحظة ٣٥٤٣[٤].

"الخوف من الله" هو بداية الحكمة والتعقل ولكنه ليس الخوف بالمعنى الاعتيادي للكلمة وليس على الصالحين خوفٌ ولا هم يحزنون، [سورة البقرة:٣٨] ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴾ والخوف من الله ليس اضطهاداً سلبياً من قبل شعور خارجي بل هو توكيد ايجابي لرغبتنا الذاتية بأن لا نغضب ربنا الذي يرعانا بحنان. والخوف لكي لا نخسر الرضا الإلهي. انه نوع من الحب وتطهير لإرادتنا، وعليها يعتمد مستقبلنا تحت رحمة ونعمة الله. فعلينا أن نسعى جاهدين لأن نصل إلى عفوه. فقوتنا صغيرة ولكنه سيقبل خضوعنا واستسلامنا بـ(الإسلام) وسيشملنا بعفوه ونعمته وسيُسيِّر تقدمنا بموجب القانون الذي سنه الله بحكمته.

٦-وهكذا أصبحت عقيدة القانون

(٤) أن نعود إلى التشبيه بالإبرة المغناطيسية. فإذا انقلبت الإبرة بفعل معرقلات علينا أن نعيد إليها حريتها لتشير الى القطب المغناطيسي مرة أخرى من جديد. (المترجم)

الإلهي أو ثمرة الأفعال. فكل عمل لابد له من نتيجة. كما جاء في الملاحظة [٥] ٤٦٧١ [لسورة الزخرف:٧١-٧٣] ﴿يُطَافُ عَلَيْهِم بِصِحَافٍ مِّن ذَهَبٍ وَأَكْوَابٍ ۖ وَفِيهَا مَا تَشْتَهِيهِ الْأَنفُسُ وَتَلَذُّ الْأَعْيُنُ ۖ وَأَنتُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٧١﴾ وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٧٢﴾ لَكُمْ فِيهَا فَاكِهَةٌ كَثِيرَةٌ مِّنْهَا تَأْكُلُونَ﴾ وترتبط هنا الفاكهة بالكلمات الأخيرة للآية ٧٣ فأنتم جُعلتم الوارثين بسبب أفعالكم الحسنة في الحياة وإنها ليست عقيدة الثواب كما كان يطلق عليها.

يقاس الثواب بالمزايا الحسنة ولكن النعيم هنا وراء كل المزايا والاستحقاقات. إنها عقيدة الأعمال وثمارها، فكل عمل لابد له من نتيجة. في النظرة الأولى ربما تقارن بعقيدة ألـ (كرما) البوذية [٦] ولكنها تختلف عنها في المطالبة بـ رحمة الله اللا محدودة وقوة تأثير التوبة. ليس هناك كفارة بديلة لان هناك مسؤولية فردية ومع هذا فهي ليست عقيدة (التبرير بالإعمال) لان أحسن أعمالنا تتضاءل أمام "الجنة" التي نؤملها. وهي ليست عقيدة الكرما التي تلعب دوراً بارزاً في الفلسفة البوذية والهندوسية. ولإيماننا الحي بالنعمة الإلهية والرحمة فإنها تتدخل وتقبل توبتنا وتعطينا فرصاً جديدة في كل مرحلة من اختبار سلوكنا في الحياة. لكن تبقى إرادتنا عاملاً مهماً. فلا يمكننا قبول شكل آلي للعزيمة التي تقضي على الإرادة الإنسانية في حكم العالم المصغر في داخلنا وتقضي أيضاً على شيءٍ مثل الإرادة الإلهية في حكم العالم الرباني المصغر والعالم الكبير بدوننا.

٧- وإذا كانت تلك العناصر الأساسية في حياتنا وقدرنا فكيف يمكننا أن نعبّر بشكل صحيح عن أفكارنا حول الجنة بلغة بشرية؟ إن جنتنا مستقلة عن الزمان والمكان والظروف الزائلة. فلا يمكن الآن لأحد أن يعرف بالضبط المباهج الروحية الانعكاسية المخبأة له، [سورة السجدة:١٧] ﴿فَلَا تَعْلَمُ نَفْسٌ مَّا أُخْفِيَ لَهُم

(٥) الفاكهة والأكل تعبيران مجازيان وحتى لو كانتا رمزين فالأكل والشرب مقترحان بصحون وأكواب كما في الآية ٧١ أعلاه.

(٦) عقيدة الكرما البوذية هي العاقبة الأخلاقية الكاملة لأعمال المرء في طور من أطوار الوجود بوصفها العامل الذي يقرر قدر ذلك المرء.

مِن قُرَّةِ أَعْيُنٍ جَزَآءً بِمَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾. ولكن علينا أن نستخدم مفردات تُلمِح لكل هذه الحالات الثلاث، وبذلك يمكننا التعبير عنها فقط بالإحساس والتصور. ولو كنا نعرف جوهر الإحساس والتصور فسنستفيد منه كثيراً. وإذا توسعنا بالتطبيقات المدهشة في العالم المادي فلا نستطيع أن نحصل على ومضات العالم الروحي الذي كان القصد من الإحساس والتصور فتح نافذة لعيوننا الروحية. ويوجد مثل ذلك الإحساس والتصور في القرآن الكريم.

٨-إن أبسط إحساس نوظفه هو الحدائق أو جنات النعيم ولكنه صعب المنال، [سورة المائدة:٦٨] ﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لَسْتُمْ عَلَىٰ شَيْءٍ حَتَّىٰ تُقِيمُوا التَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَيَزِيدَنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم مَّا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ طُغْيَانًا وَكُفْرًا فَلَا تَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ وفي كل اللغات الإسلامية فأن كلمة جنات تختص بالجنة الإلهية . لنحلل بعض الأفكار التي نربطها بشكل معقول بالكلمة المادية (حدائق) والمصطلح المعنوي (النعيم).

٩-إن حياتنا تعتمد على إدراك الحواس، ويمكننا تفسير أعلاها وأنبلها إلى مفردات لها علاقة بـ (الجنة) في كل حواسنا الخمسة بأحسن أشكالها. وتسعفنا حواسنا الخمس بادراك الجنة. فللعين هناك الأخضر العام بكل تدرجاته الجميلة في أوراق النبتة والألوان والأشكال الرائعة في الأزهار وترتيب الممرات والرياض[٧] وتدرجات الضوء والظل وجمال السُّحُب الناعمة الذائبة في الضباب الخفيف ومناظر الطبيعة والأنهار الباردة وهي تجري تحت خرير ماء الجداول المدندن.

أما للإذن فموسيقى الطيور وموسيقى الشلالات وموسيقى نور القمر المتناغم مع صوت البشر بصحبة آلة كالقيثارة أو بدونها. ولحاسة الشم فليس هناك عطر الورود فقط بل عبير الرياض وندى الصباح الرقيق وحتى تربة الحدائق. أما للتذوق واللمس فالفواكه الرائعة وللمس الزهور الناعمة التويجية والمروج الخضراء

(٧) الرياض جمع روضة وهي حديقة تفصل بين أحواض الزرع فيها ممرات ومماشي. (المترجم)

كالسجاد فضلاً عن قبلات النسيم العليل جميعها تسعف الحواس للنعيم الأعلى الذي يمكننا إدراكه من خلال حواسنا.

١٠-لا نصور الجنة فقط بل الجنة ذات الأنهار والعيون الجارية من تحتها. وهذا ما يوسع آفاقنا أكثر. ويمكننا تصوير الطبيعة بالضفاف وشُرَفِ المنازل المتلاصقة والمروج المنحدرة والأرض المرتفعة والوديان. فما هو التشبيه الروحي لذلك؟

يجب أن لا نتخيل الجنة مكاناً كئيباً مليئاً بترانيم مستمرة للمزامير[٨]. وهناك مراتب مختلفة وأذواق ووقار بحسب منزلة كل فرد وخصوصيته. وذلك معنى الإصرار على الخصوصية، ومع هذا فإنهم يشكلون أخوَّةً واحدةً متساوون في السلام، مجتمع منسجم واحد. وهناك سيكون تصنيف رباعي طبقاً لاختلاف الخبرات الروحية المكتسبة في هذه الدنيا. ١-الأنبياء وهم الذين قادوا الإنسانية. ٢-المخلصون الناذرون أنفسهم لله وللدين الذين ساندوا القضية الإلهية بأنفسهم وكل ما كانوا يملكون. ٣-الشهداء والشاهدون الذين خدموا وعانوا. ٤-الناس الصالحون عامة أولئك اللذين عاشوا حياة اعتيادية ولكن بأهداف صالحة دوماً. كل هؤلاء متحدون بصداقة واحدة جميلة، [سورة النساء:٦٩] ﴿وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقٗا﴾. والملاحظة٥٨٦[٩] أو هناك

(٨) المزامير جمع مزمور وهي ترانيم النبي داوّدعليه السلام.

(٩) قصة المعنى الروحي العميق حتى الإنسان الأكثر تواضعاً ممن تقبل الإيمان وعمل صالحاً يصبح حالاً عضواً مقبولاً في أخوة روحية جميلة عظيمة. إنها صحبة تعيش دوماً تحت نور شمس نعمة الله. هذه القصة مصورة في [سورة الفاتحة:٥] ﴿إِيَّاكَ نَعۡبُدُ وَإِيَّاكَ نَسۡتَعِينُ﴾. انه تسلسل هرمي مجيد فيه أربع درجات مخصصة: ١-الدرجة الأعلى هي درجة الأنبياء أو الرسل الذين تلقوا إلهاماً مطلقا من الله الذين علموا الإنسانية المثل والأخلاق. وتلك المرتبة في الإسلام للرسول محمدﷺ. ٢-وبعدهم الذين كان شعارهم الإخلاص والحقيقة وهم الذين أحبوا وساندوا الحقيقة الإلهية بأنفسهم ووسائلهم وتأثيرهم وكل ما ملكوا. وتلك الدرجة اعتلاها الصحابة المقربون من النبي محمدﷺ ونموذج منهم =

تصنيف آخر في [سورة الواقعة:١١] ﴿أُولَٰئِكَ الْمُقَرَّبُونَ﴾، آية ٢٧ ﴿وَأَصْحَابُ الْيَمِينِ مَا أَصْحَابُ الْيَمِينِ﴾ تمييزاً عن أصحاب الشمال الذين لا يصلون الى الجنة، هم الأقربون إلى الله في الدرجة والاحترام الذين لن تكون بينهم وبين النور الإلهي النقي أستار أو حجب، [سورة النور:٣٥] ﴿اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِن شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُّورٌ عَلَىٰ نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَن يَشَاءُ وَيَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ وفي اللغة الصوفية "أنهم سيكونون في النعيم المقدس الذي لا ينطَقُ به لأنه أقدس من أن يُذكَر وهو رؤية العيون الإلهية. وربما (أصحاب الجنة وأولئك الذين في المرتفعات)، [سورة الأعراف:٤٦] ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌ وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ وَنَادَوْا أَصْحَابَ الْجَنَّةِ أَن سَلَامٌ عَلَيْكُمْ لَمْ يَدْخُلُوهَا وَهُمْ يَطْمَعُونَ﴾ تشير إلى نفس الفئتين من الأرواح ومهما يكن تفسير المتصوفة لهذه المقاطع فما من شك بأن الاحتفاظ بالشخصية الإلهية المتفردة في الآخرة سيعني النعيم بأشكال مختلفة لكل فئة.

١١-كيف يمكننا تعريف مفردة نفسية مثل "النعيم" بمفردات رمزية عامة؟ فإذا كانت تحمل فكرة القناعة باية مفردات مجردة، فعلينا أن نعرف رمزية الحياة الاعتيادية؟ ومع هذا ترتفع إلى فكرة التهذيب والرقة والقناعة. وجُعلت أفعال الأكل والشرب روحية واجتماعية (مهيأة للمجتمع) وسيكون اختيار أنواع اللحوم والفواكه والمشروبات متوفراً. وسيضيف لباس الذوق الأكثر فنية وقاراً للتعامل

= حضرت أبو بكر الصديق. ٣-بعدهم جيش الشاهدين الكرماء الذين أدلوا بشهادتهم بالحقيقة الإلهية. والشهادة قد تكون بالاستشهاد كما في حالة الإمام الحسن والإمام الحسين عليهما السلام أو باللسان كما عند الوعاظ الحقيقيين أو بأقلام العلماء المخلصين أو حياة الإنسان المخلص في خدمته. ٤-أخيراً مجاميع غفيرة من الناس الاعتياديين الصالحين الذين يؤدون أعمالهم الاعتيادية بإخلاص. إنهم مرتبة وصَفُّ الزمالة الجميلة التي تبوئ فيها كل منزلته ومع ذلك فهم جميعاً يشعرون بأنهم حصلوا على المجد. (المترجم)

الاجتماعي وستكون هناك عروش ورموز للشرف. وستكون هناك صحبة وصحبة فردية وصحبة العمر المتقارب إضافة إلى الصحبة العامة.

أما الذين نحبهم في هذه الحياة (الدنيا) مثل الأمهات والزوجات والأطفال والأخوات والأصدقاء والأقرباء فسوف يضافون إلى متعنا بصحبتهم بحب إلهي في جنة السماء متحول لأعلى مرتبة من الحب الأرضي في جنة الله الأرضية. وبالطبع ستكون حالة الإيمان والحياة الجيدة متصلة، إذ لا يمكن للتنافر أن يدخل ليشوه وقار السماء، [سورة الرعد:٢٣] ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ﴾ والملاحظة رقم ١٨٣٧ [١٠] شرح للآية السابقة [سورة الرعد]

و[سورة الزخرف:٧٠-٧٢] ﴿ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ أَنتُمۡ وَأَزۡوَٰجُكُمۡ تُحۡبَرُونَ ٧٠ يُطَافُ عَلَيۡهِم بِصِحَافٖ مِّن ذَهَبٖ وَأَكۡوَابٖۖ وَفِيهَا مَا تَشۡتَهِيهِ ٱلۡأَنفُسُ وَتَلَذُّ ٱلۡأَعۡيُنُۖ وَأَنتُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٧١ وَتِلۡكَ ٱلۡجَنَّةُ ٱلَّتِيٓ أُورِثۡتُمُوهَا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ﴾. والملاحظات ٤٦٦٨، ٤٦٦٩، ٤٦٧٠. [١١].

(١٠) إن الروابط في هذه الدنيا مؤقتة وزائلة لكن الحب في الصلاح ابدي. وفي جنة النعيم الخالدة سيجتمع شمل الصالحين بأقرب الناس وأعزهم لهم ممن أحبوهم شرط أن يكونوا صالحين أيضاً لأن في الخلود لا يحسب أي شيء آخر. إن روابط الدم والروابط الزوجية تخلق روابط جسدية معينة في هذه الحياة والتي قد تؤدي إلى الخير أكثر وربما إلى الشر أيضا وكل ما هو جسدي أو سيء سيزول ولكن الخير سيأتي بمعنى آخر في التقدير الإلهي النهائي. وهكذا سيجد الحب الطاهر المقدس للأسلاف والأحفاد والأزواج والزوجات والإخوان والأخوات (الذين تشملهم كلمة ذرية) نعيماً جديداً في حبهم الخالص وسيجد معنىً صوفياً جديداً في الروابط القديمة سريعة الزوال. هل سنعجب لِلَمِّ الشمل بين يعقوب ويوسف؟ أو بين موسى وهارون أو بين النبي المصطفى والسيدة خديجة؟ وفي الحقيقة فأن الصالحين سيعاد لم شملهم في الآخرة، [سورة يوسف:١٠١] ﴿رَبِّ قَدۡ ءَاتَيۡتَنِي مِنَ ٱلۡمُلۡكِ وَعَلَّمۡتَنِي مِن تَأۡوِيلِ ٱلۡأَحَادِيثِۚ فَاطِرَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ أَنتَ وَلِيِّۦ فِي ٱلدُّنۡيَا وَٱلۡأٓخِرَةِۖ تَوَفَّنِي مُسۡلِمٗا وَأَلۡحِقۡنِي بِٱلصَّٰلِحِينَ﴾.

(١١) الملاحظات رقم ٤٦٦٨-٤٦٧٠ شرح للآيتين السابقتين لسورة الزخرف. والجنة هي نوع من كل ما هو جميل للعين والعقل والروح وكل ما هو مريح وفي المزاج =

وسوف لن يقتنع الحب الإلهي المتكامل بالنفس ولكن كنغمة موسيقية تجد لحنها بالتواصل مع الأُخريات.

١٢-وبالطبع فلن يكون للجنس الجسدي (الشهواني) مكان في الجنة ولكن في دستورنا يكون ذا قيمة عقلية ونفسية مما يمكننا تصويره في الحب الإلهي المتكامل هناك. وقد أُسيء فهم كلمة (حور) في [سورة الدخان:٥٤] ﴿كَذَٰلِكَ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ و[سورة الطور:٢٠] ﴿مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٍ مَّصْفُوفَةٍ ۖ وَزَوَّجْنَٰهُم بِحُورٍ عِينٍ﴾ وأُعطيت عنها فكرة خاطئة. فهي ليست تعني إناثاً بالشكل نحوياً، ومصاحبة الحور في الجنة ستكون للجميع رجالاً ونساءاً (كما كانوا في هذه الحياة) ممن يحتفظون بمسؤولياتهم وليست الصفات الجنسية الجسدية وأما كلمة (ملاك) بالانجليزية (غير أصلها بالإغريقية أو اللاتينية) فهناك الربط الخاص بالفضائل الأنثوية للطهارة والنعمة والجمال والبراءة والحقيقة والإرادة الطيبة. أنظر الملاحظة[١٢] ٤٧٢٩ في [سورة الدخان:٥٤] المذكورة أعلاه و [سورة النبأ:٣٣] ﴿وَكَوَاعِبَ أَتْرَابًا﴾ وملاحظة[١٣] ٥٩٠٦.

= الذهني. حالة من النعيم المتكامل قلما يخطر في البال في هذا العالم المليء بالمشاكل والملاحظة ٤٦٦٩: سيكون معنا كل أحبائنا وأعزائنا (خصوصاً زوجاتنا). وسوف لا يكون الحب مقنعاً للنفس بل مثل النغمة الموسيقية التي ستجد لحنها بالتواصل مع بقية النغمات. وستمد السفينة الغنية الجميلة يد العون لرغباتنا النقية وتعطي قناعة كاملة وخالدة لأرواحنا في أي طريق. أما الملاحظة ٤٦٧٠: وسوف لن نكون هناك كالغرباء أو ضيوف مؤقتين ولكن كورثة في الخلود بسبب الحياة الصحيحة التي عشناها على الأرض.

(١٢) الحور تعني ضمناً الأفكار التالية:-١-الطهارة وربما ارتبطت كلمة (حواريون) وهم أتباع السيد المسيح عليه السلام الأوائل بهذا الجذر للكلمة. ٢-الجَمال خصوصاً للعيون حيث يكون البياض الشديد لمقلة العين ظاهر التفوق مقابل السواد الشديد للبؤبؤ، وبالتالي يعطي مظهر البريق وشدة المشاعر عكس الكآبة أو رغبة التعبير. ٣-الحقيقة والإرادة الخيرة.(المترجم)

(١٣) الرمز الثاني أصحاب العذارى البكارى ذوات الأعمار المتساوية يرمز للطهارة والنعمة والجمال والبراءة والحقيقة والانسجام والعطف. وترمز الأنوثة هنا لهذه النوعيات وكذلك سيكون المصاحبون لمن كانوا في هذا العالم أما رجال أو نساء =

أما مناقب الرجولة من الوسامة والقوة وحماسة الشباب للخدمة فقد ذكرت بربطها الذهني بالجنة، [سورة الطور:٢٤] ﴿وَيَطُوفُ عَلَيْهِمْ غِلْمَانٌ لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ لُؤْلُؤٌ مَّكْنُونٌ﴾ والملاحظة[١٤] ٥٠٥٨ وبعبارة أخرى إن الرمزية تنبع من آرائنا عن الجمال والنعمة الإلهية والتناغم والقوة والشباب والخدمات كوننا نعرف هذه الأشياء بإشكالها النقية هنا ولأشياء أكثر طهارة ونبلاً مما يصعب على أية لغة أن تصفها بشكل دقيق.

١٣-رُسِمَ رمز العيون أو الينابيع وأكواب الشرب أو الخمر بطريقة جميلة في سورة الدهر. لاحظ أن الكلمة العربية (شراب) تعني أما الشرب أو الخمر. وفي اللغة الصوفية فإن الخمر أو الأكواب هي وسائل بلوغ النشوة الروحية. في حين تُلَطّف اللغة القرآنية النشوة بالبرودة وتربطها بالمُنشّط المُلَطّف أكثر من كونها نشوة بلا حدود وبتوهج روحاني خصوصاً في المراحل الأولى للنعيم الروحي عندما تدخل الروح عالمها الجديد. وبعد أن يمر الحدث الأكبر ليوم الحساب تدخل الروح إقليم النعيم وتُسقَى كأساً من نبع الكافور الصوفي، [سورة الدهر:٥] ﴿إِنَّ الْأَبْرَارَ يَشْرَبُونَ مِن كَأْسٍ كَانَ مِزَاجُهَا كَافُورًا﴾ وملاحظة ٥٨٣٥. تمثل رمزياً ينبوعاً في عالم النعيم، واللذائذ المضافة لكأس الخمر (الإلهي) الجميل

= لعدم وجود جنات منفصلة لهم ولهن. والتركيز هنا على الأعمار المتساوية لأن بذلك الرمز يتكامل تصور الانسجام والحنان. ولأن الجنة ستكون بمنأى عن الزمن وعن سلطة الموت فليس هناك معنىً للعمر والشباب عدا الرمز للحالة الوسطى من المزاج والأذواق والمشاعر ولكلها سيكون انجازاً مقدساً.

(١٤) ويستمر الرمز الذي يحمل في ثناياه معنى أخلاقياً غير المعنى الظاهري، فلا يوجد جنس في الجنة لكن نوع النعمة الإلهية وَرِقَّة الأنوثة تم التطرق لها في كلمة «حور». وأما نوع الوسامة وقوة البنية وعظمة الرجولة فقد ذُكرت هنا في رمز اللؤلؤ الموجود في أنقى مياه والمحروس جيداً من العوامل الجوية والشوائب وستكون خدمات الشباب المتحمسة بدون المنفعة الذاتية. (مكنون) أي محروس بشكل جيد ومغلق ومحجوب عن التعرض للظروف الجوية القاسية حيث شوه التعرض للغازات والأبخرة والحوامض بريق أم اللآلئ، وعندما لا تستعمل فعلاً فإنها محفوظة بصناديق مقفلة ومحروسة من تدهور الوسائط.

النقي الذي لا يسبب السكر، [سورة الواقعة:١٨-١٩] ﴿بِأَكْوَابٍ وَأَبَارِيقَ وَكَأْسٍ مِّن مَّعِينٍ ۝١٨ لَّا يُصَدَّعُونَ عَنْهَا وَلَا يُنزِفُونَ﴾ وفي اللغة الرمزية فأن الكافور يمثل كل ما هو نافع للصحة ويُبرّد وينعش ويهدئ ويكون مقبولاً ويحضّر بمقاييس غير محدودة ثم يعطي التذليل الذي تكون فيه الروح مكاناً للشعور بامتلاك: الوقار والشرف متمثلاً بأثواب حريرية خفيفة وعروش ويرون التذليل بما حولهم، [سورة الدهر ١٢-١٤] ﴿وَجَزَىٰهُم بِمَا صَبَرُوا جَنَّةً وَحَرِيرًا ۝١٢ مُّتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا ۝١٣ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلَالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلًا﴾.

ثم يأتي مكان العالم الهائل متمثلاً بالبهاء والسعادة السماوية. ويمثل شرب كأسٍ من الزنجبيل متمثلاً بنكهة دافئة المذاق من عين تسمى سلسبيلا (ابتغوا الوسيلة) وملابس بهيجة للحفل ومأدبة ملكية (إلهية) جميلة وبهية رموزاً لتُري المدخل إلى الحضرة التي تفوق الوصف. وهناك أيضاً عينٌ أو نبع أسمُه (تسنيم) يشرب منها المقربون إلى الله، وهم الوحيدون الذين يتحملون نكهته لأنهم الوحيدون الذين يتحملون بهاء الله الساطع، ولكن كل إنسان صالح سيذوق من هذا الينبوع الممزوج بالخمر الإلهي لدرجة إن تلقيته الروحية تمكنه من الاستمتاع به [سورة المطففين:٢٧-٢٨] ﴿وَمِزَاجُهُۥ مِن تَسْنِيمٍ ۝٢٧ عَيْنًا يَشْرَبُ بِهَا الْمُقَرَّبُونَ﴾.

١٤-توصف أعلى غبطة في الجنة بالقرب من الله، وفي مرضاة الله الواسعة، انظر [سورة آل عمران:١٤-١٥] ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ۝١٤ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ لِلَّذِينَ اتَّقَوْا عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾.

ولمرضاة الله الواسعة نظير في مرضاة الإنسان الواسعة ترتفع لهذا السمو في الجنة، [سورة الفجر:٢٧-٣٠] ﴿يَا أَيَّتُهَا النَّفْسُ الْمُطْمَئِنَّةُ ۝٢٧ ارْجِعِي إِلَىٰ رَبِّكِ رَاضِيَةً مَّرْضِيَّةً

﴿٢٨﴾ فَٱدۡخُلِي فِي عِبَٰدِي ﴿٢٩﴾ وَٱدۡخُلِي جَنَّتِي﴾.

١٥-وبعدُ فتلك هي صورة الخلاص عند المسلم. ولا تتضمن الخلاص من عواقب خطايانا بالمعاناة أو استحقاقات الآخرين ولا في النرفانا[١٥] أو الإبادة أو الامتصاص بل بتحقيق الشخصية المتكاملة والنعيم الذي ينمو في دواخلنا ولا يعتمد على الظروف الخارجية. وربما تتطلب أقصى الجهود أو الجهاد طيلة حياة الإنسان أو أكثر. ولكنه في الانجاز الأسمى في بلوغ كل الرغبات والسعادة العظيمة في التفوق، [سورة الدخان:٥٧] ﴿فَضۡلٗا مِّن رَّبِّكَۚ ذَٰلِكَ هُوَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾" وملاحظة[١٦] ٤٧٣٣.

١٦-وتُختصر عناصرها العديدة بمقطعين من الجمال المفرد، [سورة يس:٥٥-٥٨] ﴿إِنَّ أَصۡحَٰبَ ٱلۡجَنَّةِ ٱلۡيَوۡمَ فِي شُغُلٖ فَٰكِهُونَ ﴿٥٥﴾ هُمۡ وَأَزۡوَٰجُهُمۡ فِي ظِلَٰلٍ عَلَى ٱلۡأَرَآئِكِ مُتَّكِـُٔونَ ﴿٥٦﴾ لَهُمۡ فِيهَا فَٰكِهَةٞ وَلَهُم مَّا يَدَّعُونَ ﴿٥٧﴾ سَلَٰمٞ قَوۡلٗا مِّن رَّبّٖ رَّحِيمٖ﴾، و [سورة الطور:١٧-٢٨] ﴿إِنَّ ٱلۡمُتَّقِينَ فِي جَنَّٰتٖ وَنَعِيمٖ ﴿١٧﴾ فَٰكِهِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ وَوَقَىٰهُمۡ رَبُّهُمۡ عَذَابَ ٱلۡجَحِيمِ ﴿١٨﴾ كُلُواْ وَٱشۡرَبُواْ هَنِيٓـَٔۢا بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴿١٩﴾ مُتَّكِـِٔينَ عَلَىٰ سُرُرٖ مَّصۡفُوفَةٖۖ وَزَوَّجۡنَٰهُم بِحُورٍ عِينٖ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَٱتَّبَعَتۡهُمۡ ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَٰنٍ أَلۡحَقۡنَا بِهِمۡ ذُرِّيَّتَهُمۡ وَمَآ أَلَتۡنَٰهُم مِّنۡ عَمَلِهِم مِّن شَيۡءٖۚ كُلُّ ٱمۡرِيِٕۭ بِمَا كَسَبَ رَهِينٞ ﴿٢١﴾ وَأَمۡدَدۡنَٰهُم بِفَٰكِهَةٖ وَلَحۡمٖ مِّمَّا يَشۡتَهُونَ ﴿٢٢﴾ يَتَنَٰزَعُونَ فِيهَا كَأۡسٗا لَّا لَغۡوٞ فِيهَا وَلَا تَأۡثِيمٞ ﴿٢٣﴾ ۞ وَيَطُوفُ عَلَيۡهِمۡ غِلۡمَانٞ لَّهُمۡ كَأَنَّهُمۡ لُؤۡلُؤٞ مَّكۡنُونٞ ﴿٢٤﴾ وَأَقۡبَلَ بَعۡضُهُمۡ عَلَىٰ بَعۡضٖ يَتَسَآءَلُونَ ﴿٢٥﴾ قَالُوٓاْ إِنَّا كُنَّا قَبۡلُ فِيٓ أَهۡلِنَا مُشۡفِقِينَ ﴿٢٦﴾ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيۡنَا وَوَقَىٰنَا عَذَابَ ٱلسَّمُومِ ﴿٢٧﴾ إِنَّا كُنَّا مِن قَبۡلُ نَدۡعُوهُۖ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلۡبَرُّ ٱلرَّحِيمُ﴾.

يصف المقطع الأول مسرح الأحداث رمزياً وطبيعة النعيم. ويستمر القول بأن السعادة سوف لن تكون منفردة منعزلة بل ستكون مشاركة بالترابط على

(١٥) النرفانا هي السعادة القصوى التي تتخطى الألم والتي تُلتمس في البوذية عن طريق قتل شهوات النفس.(المترجم)

(١٦) رأينا بالنجاة هو التجنب السلبي لكل عواقب عمل الشر والبلوغ الايجابي لكل وأكثر من كل ما يمكن أن تشتهيه قلوبنا، لأن فضل الله يسبق أي شيء رأته عيوننا أو سمعته آذاننا أو يمكن أن يتصوره خيالنا. (المترجم)

عروش السمو والسلام. وتصّور أكثر القناعة النفسية الداخلية غير المترابطة بظروف خارجية بل تعكس الأذواق الداخلية للشخصيات. «سينالون ما كانوا يطلبون». وستكون جنة الموسيقار مليئة بالموسيقى، وجنة عالم الرياضيات بالتماثل والتكامل الرياضي، وجنة الفنان بجمالية الشكل. وسيكون النور واحداً ولكن إشاعاته كثيرة. وستنتهي الجنة بالتحية (السلام) من الله الذي مجده الرحمة والانسجام.

وفي المقطع الثاني تشديد على هذه النقاط مرة أخرى ولكن من وجهات نظر أخرى. وسوف لن تكون قناعة ونعيماً اجتماعياً فردياً بل جماعي تتشارك فيه العوائل والأصدقاء ممن أحببناهم في هذه الحياة. وستكون حياتهم غنية بذلك الترابط، بينما ستبقى ذكريات الحب وكل ما هو جيد في هذه الحياة باقية وستكون نظيفة من كل المخاوف وأنواع القلق القديمة في إدراك سام، وذروة الكل إن الله هو الحقيقة الواحدة وهو الخير والرحمن الرحيم. وستدرك الأرواح في الجنة بأعلى إحساس روحي هيبة الله.

البحث الثاني

الاتصال الاول بين الإسلام والحركات العالمية

الإمبراطوريتان المعاصرتان البيزنطية والفارسية انظر [سورة الروم:٢-٧]

﴿غُلِبَتِ ٱلرُّومُ ۝٢ فِيٓ أَدۡنَى ٱلۡأَرۡضِ وَهُم مِّنۢ بَعۡدِ غَلَبِهِمۡ سَيَغۡلِبُونَ ۝٣ فِي بِضۡعِ سِنِينَۗ لِلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ مِن قَبۡلُ وَمِنۢ بَعۡدُۚ وَيَوۡمَئِذٖ يَفۡرَحُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ۝٤ بِنَصۡرِ ٱللَّهِۚ يَنصُرُ مَن يَشَآءُۖ وَهُوَ ٱلۡعَزِيزُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥ وَعۡدَ ٱللَّهِۖ لَا يُخۡلِفُ ٱللَّهُ وَعۡدَهُۥ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ۝٦ يَعۡلَمُونَ ظَٰهِرٗا مِّنَ ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَهُمۡ عَنِ ٱلۡأٓخِرَةِ هُمۡ غَٰفِلُونَ﴾.

والملاحظات عليها تشير سورة الروم الى الصراع بين الإمبراطور البيزنطي هرقل والملك الفارسي كسرى أبرويز (كسرى الثاني). وستتناول الآن مراجعة مختصرة جداً لعلاقات هاتين الإمبراطوريتين العظيمتين والطريقة التي تضاءلتا فيها تدريجياً أمام بزوغ شمس الإسلام. وليس للقصة دلالات سياسية فقط بل دلالات

روحية في تاريخ العالم.

٢-لو اخذنا الإمبراطورية البيزنطية على إنها استمرار للإمبراطورية التي نشأت خارج الجمهورية الرومانية فإن الصراع الأول حدث عام ٥٣ق.م عندما هُزم القنصل كرا سوس (المشهور بخزائنه) في حربه مع البارثيين. ولو عدنا الى الوراء أكثر إلى عصر دول المدن الإغريقية نشير إلى الغزو الفارسي لليونان من قبل الملك الفارسي (أحشو يرش الأول) عام ٤٨٠ق.م. والتأثير المنفّر لذلك الغزو البري والبحري على التعاون المشترك بين الدول الإغريقية. توسعت الإمبراطورية الفارسية في تلك الأيام غرباً إلى البحر المتوسط وساحل آسيا الصغرى. ولأنها شملت المدن الإغريقية في آسيا الصغرى استمر التبادل في الحرب والسلم بين بلاد فارس والعالم الهيليني (الإغريقي). وعندما يشتد التنافس بين المدن كانت المدن الإغريقية تناشد الملك العظيم (شاهنشاه بلاد فارس) بالمساعدة ضد خصومها. وفي معاهدة سلام (انطليا) عام ٣٨٧ق.م في زمن السلالة الاخمينية الفارسية أصبحت بلاد فارس الدولة المتسلطة على قوة اليونان تاركة لها حرية التصرف في الشؤون الداخلية.

٣-ثم جاء صعود مقدونيا وفتح بلاد فارس على يد الاسكندر عام ٣٣٠ق.م حيث أمتد النفوذ الهيليني إلى أواسط آسيا شرقاً والى بلاد الشام بضمنها فلسطين جنوباً ومصر وعموم شمال أفريقيا. ووصلت إلى روما في توسعها غرباً إلى المحيط الأطلسي. وشرقاً أنهمك ورثة الاسكندر بالفتوحات فأصبحت سيدة البلدان بما فيها حوض البحر المتوسط. أما الأمم المنضوية تحت الإمبراطورية الرومانية فقد ذابت لا شعورياً بالاسم وبالشعب الروماني.

٤-وفي ذلك الحين تمردت قوات محلية في بلاد فارس على السلطة الهيلينية ورأس رمحها في بارثيا وفرضت نفسها وأسست السلالة الاشكنانية سنة ١٠م. استعاد الاشكنانيون بلاد فارس وأسسوا حدوداً لهم بخط من النهاية الشرقية

للبحر الأسود جنوباً إلى نهر الفرات عند نقطة شمال شرق بالميرا ذات النخل الطويل المروحي السعف. وانضوت تحت سيطرتهم منطقة القوقاز (باستثناء حوض البحر الأسود) وأرمينيا وجنوب وادي الرافدين. وكانت تلك الحدود الاعتيادية بين الإمبراطورية الفارسية والبيزنطية إلى أن مسحت الإمبراطورية الإسلامية المملكة القديمة لبلاد فارس والجزء الأكبر من الإمبراطورية البيزنطية وضمت مصر وفلسطين وسوريا وتدريجياً آسيا الصغرى وبالنهاية أطفئت كل الإمبراطورية البيزنطية.

٥-وصل التاريخ الفارسي مرحلة حين طُرد الاشكنانيون واستولى الساسانيون على السلطة بقيادة اردشير الأول عام ٢٢٥م. فكانت الإمبراطورية الساسانية امتداداً للإمبراطورية الاخمينية وردت فعل ضد الفساد الأخلاقي للديانة الزرادشتية التي زحفت تحت حماية الإمبراطورية البارثية الاشكنانية لكن الإصلاحات الدينية كانت جزئية وبرز التفاعل بين الديانة المسيحية حين أسس الصوفي الكبير (ماني) وهو رسام إضافة إلى كونه قائداً دينياً مذهب المانوية[١٧] الذي أزدهر في عهد شاهبور الأول (٢٤١-٢٧٢م) ويبدو انه بَشَّر بشكل من أشكال الغنوصية (المذهب ألعرفاني) حيث امتزجت الفلسفة الإسكندرية ذات الديانة المسيحية بالاعتقاد الفارسي القديم بمبدأ الثنوية مبدأ الخير والشر. وقد فشل الساسانيون بتطهير الديانة والتزموا فقط بعبادة النار كميزة رئيسية في عبادتهم أما في السلوك والتعاليم الأخلاقية فيخضعون لرذائل الغطرسة والتبذير والانغماس في الشهوات الحسية واحتكار القوة والامتياز الذي بموجبه يحق لهم شجب الدين أو استئصاله، وذلك ما بناه الإسلام.

٦-عندما انتقلت عاصمة الإمبراطورية الرومانية إلى القسطنطينية

(١٧) وهو مذهب أسسه ماني الفارسي (٢١٦-٢٧٦م) يدعو إلى الإيمان بالثنوية قوامها الصراع بين النور والظلام. (المورد/ منير البعلبكي١٩٨٦بيروت). المترجم

(بيزنطة) في عهد قسطنطين عام ٣٣٠م تكرر الصراع بين روما وبلاد فارس أكثر وأكثر. أما شبه الجزيرة العربية فلم يغزها أي من الطرفين الروماني والفارسي بالرغم من إن أجزاءها البعيدة عن المركز تدخلت بهذا الطرف أو ذاك في أوقات مختلفة ومن الطريف الإشارة إلى إن الإمبراطور الروماني فيليب (٢٤٤-٢٤٩م) كان عربي المولد وإن فن العمارة لدى الأنباط في مدينة البتراء والحجر يظهر تمازجاً فطرياً للحضارات الرومانية والإغريقية والمصرية والعربية.

٧-تلقت الجزيرة العربية التأثيرات الحضارية الفارسية والبيزنطية ولكنها بقيت متفرجة صامتة عن نزاعاتهم إلى إن دخل الإسلام في معترك السياسات العالمية.

٨-أما الساحل اليمني من الجزيرة العربية والذي يمكن الوصول إليه نحو بحر من قِبل بلاد فارس فكان ساحة الحرب بين الإمبراطوريتين الفارسية والحبشية عبر البحر الأحمر فقط. وكانت للجزيرة العربية والحبشة علاقات ثقافية وسياسية لعدة قرون حيث كانت الأمهرية اللغة الحبشية الرسمية حليفة قريبة للغة العربية وإن الشعب الأمهري ظهر كمستعمر وغازٍ من الجزيرة العربية من خلال اليمن. ولفترة قريبة من مولد النبي الأكرم محمدﷺ احتلت الحبشة اليمن لبعض الوقت لتحل محل سلالة يهودية. اعتنق الأحباش الديانة المسيحية، وبالرغم من إن كنيستهم كانت منفصلة عن الكنيسة البيزنطية عقائدياً إلا أن هناك تعاطفاً كبيراً بين البيزنطيين والأحباش بسبب الديانة المسيحية المشتركة. وكان أبرهة الحبشي نائباً عن الملك في اليمن وهو الذي خطط لتدمير بيت الله في مكة حيث قاد حملة أكثر قوامها الفيلة لاجتياح مكة وتدمير الكعبة. وقد واجه صداً كارثياً أُشير إليه في القرآن الكريم في سورة الفيل. حدث هذا في سنة ميلاد النبيﷺ حيث سمي بعام الفيل. مما أشار إلى بداية نزاع كبير مكّن الجزيرة العربية في آخر الأمر من تبوء مكانٍ قيادي بين أمم العالم.

أُعطيت سنة ٥٧٠م سمةَ لميلاد الرسولﷺ رغم إن التاريخ يجب أن يكون

دقيقاً فالرقم وسط بين ٥٦٩-٥٧١م وهذا أكثر الاحتمالات. وبعد هزيمة الأحباش حل الفرس في اليمن وبقيت قوتهم هناك الى حوالي السنة السابعة للهجرة تحديدا ٦٢٨م عندما قبلت اليمن الإسلام.

٩-كان الحدث الأبرز في التاريخ البيزنطي في القرن السادس عهد جوستينين (٥٢٧-٥٦٥م) وفي التاريخ الفارسي عهد انوشروان (٥٣١-٥٧٩م). وكان جوستينين مشهوراً بانتصاراته في أفريقيا وبتصنيف القانون والتشريع الروماني. وبرغم الحياة المخزية لملكته تيودورا فقد أحتل مكاناً محترماً في تاريخ الإمبراطورية الرومانية. أما انوشروان فقد عُرف في التاريخ الفارسي بـ (الملك العادل). وقد كانا حاكمين معاصرين لفترة ٣٤سنة. وفي عهدهما كانت الإمبراطوريتان الفارسية والبيزنطية في اتصال متقارب في الحرب والسلم. وقد فات انوشروان أن الإمبراطور الروماني متبنيه. ولو لم يُسقط التبني لأصبح من المطالبين بالعرش البيزنطي. غزا سوريا ودمر أنطاكيا المدينة المسيحية المهمة عام ٥٤٠م. وكان الفضل لقدرة القائد الروماني بالياسروس الدفاعية في إنقاذ الإمبراطورية البيزنطية من كوارث أخرى في الشرق. من جهة أخرى اجتاح (أفراس) القسطنطينية من الجانب الغربي. وتحالف جوستينين مع الأحباش كأمّة مسيحية ودخل الفرس والأحباش في صراع في اليمن. كانت أحوال العالم تُحاك في الجزيرة العربية على الأصعدة كافة. فلم ينقذ الإسلام الجزيرة العربية فقط بل مكّنها من التوسع وأن تلعب دوراً بارزاً في تاريخ العالم بعد محو الإمبراطورية الفارسية والتدمير الجزئي للإمبراطورية البيزنطية.

١٠-يعدُ القرن السادس والنصف الأول من القرن السابع الميلادي فترة عجيبة في تاريخ العالم حيث حدثت فيها أحداث وتحولات عظيمة. فقد أشرنا إلى ما حدث للإمبراطوريتين الفارسية والبيزنطية اللتين هيمنتا على الأجزاء المتحضرة في أوربا وأفريقيا وغرب آسيا. أما الدولتان الوحيدتان اللتان لهما

علامة في التاريخ في ذلك الوقت فهما الهند والصين.

ففي الهند كانت الفترة الرائعة لـ (هارشا فاردانا ٦٠٦-٦٤٧م) التي ازدهرت فيها العلوم والآداب والفنون والسلطة السياسية على أسس سليمة بينما قاربت المتطلبات الدينية بين الهند والصين بعلاقات حميمة. ففي الأعوام ٦٢٩-٦٤٥م قام الرحالة البوذي الصيني الشهير (يوانغ-جوانغ أو يوانغ-تسانغ أو هسوان-تسانغ) برحلة حج دينية إلى الهند.

وفي الصين تأسست سلالة (تي أنغ) المجيدة عام ٦١٨م وقد أسر الفن الصيني لتلك السلالة العالم بأسره. وسياسياً أمتد النفوذ الصيني من المحيط الهادئ شرقاً إلى الخليج (الفارسي)[١٨] غرباً تسوده الوحدة والسلام. (كانت الصين تُعَدُّ منعزلة بشكل أو بآخر برغم وجود علاقات دبلوماسية مع بلاد فارس والقسطنطينية ومغادا والنيبال على مستوى السفراء حيث استقبلت سفراء من تلك الإمبراطوريات عام ٦٤٣م.

ومع هذا البهاء والبريق فقد دبت بذور الاضمحلال بانهيار الفرس والبيزنطيين في الجيل اللاحق وسادت الفوضى في الهند بعد وفاة (هارشا). ولم تعد الإمبراطورية الصينية بمأمن من (البرابرة). والسور العظيم الذي بُني في القرن الثالث قبل الميلاد لم يعد له نفع. ففي عام ٦٨٣م أخذت قبائل الخيتان من الشمال الغربي والتبت من الجنوب تتحرش بالصين.

أما الإمبراطورية الرومانية فقد بدأت القبائل الجرمانية والغوثية والوندالية[١٩] تضغط أكثر فأكثر في الإمبراطورية. وفي آسيا أخذ الأتراك والافاريون بالضغط على الفرس

(١٨) يقصد به الخليج العربي (المترجم).

(١٩) قبائل الوندال اجتاحت فرنسا واسبانيا وشمال أفريقيا في القرن الخامس الميلادي وفي عام ٤٥٥م احتلت روما ونهبتها (قاموس المورد/ منير البعلبكي ١٩٨٦م بيروت). وربما اشتقت مفردة الوندلة Vandalism وتعني التخريب المتعمد للممتلكات العامة والخاصة من أفعال تلك القبائل. (المترجم).

والرومانيين فكانت تجري معارك فاصلة بينهم بين الحين والآخر. أما الأمم الأكثر بساطة وأقل حنكة فقد أخذت تفرض نفسها رغم فضاضتها وقيم فضائلها. وفي وسط هذه الفوضى العارمة جاءت رسالة الإسلام لِتُظهر بوضوح الخطأ من الصواب والخالد من الفاني والعاجز والفاسد من النشيط والنقي.

١١-اعتلى عرش انوشروان ابنه غير السوي (هرمز) ٥٧٩-٥٩٠م. ولو لم يكن معه القائد الملهم البارع بهرام لدمرت إمبراطوريته على أيدي الأتراك من جانب والرومان من جانب آخر. وبالتالي تمرد بهرام وخلع هرمز وقتل. أما ابنه خسرو برويز (كسرى الثاني) فقد لجأ إلى الإمبراطور البيزنطي موريس الذي تبناه ولداً وأعاده إلى العرش الفارسي مع الجيوش الرومانية. وحكم كسرى بلاد فارس من ٥٩٠-٦٢٨م، وهو الذي وجه له الرسول ﷺ إحدى رسائله يدعوه للإسلام. ولم يتم التأكد من إن الرسالة سلمت إليه أو لخليفته حيث لا يوجد حساب تاريخي دقيق للتقويم الميلادي مع سنين الإسلام الأولى في التقويم الهجري.

١٢-تشير المدونات العربية والفارسية إلى كلمة (كسرى) على انه خسرو برويز (كسرى الثاني) وأحيانا إلى كسرى انوشروان (كسرى الأول) بينما تشير كلمة خسرو كلقب إلى ملوك الفرس بشكل عام. ولكن هذه ليست مشكلة بكل حال من الأحوال. وكسرى هو الشكل العربي لـ خسرو وان اسم انوشروان اختصر إلى شروان من زمن الفردوسي فصاعداً. بينما يعني الشكل البهلوي (أنوشك-روان) ذو الروح الخالدة.

١٢-حصل تمرد للجند في جيش الإمبراطور الروماني موريس (٥٨٢-٦٠٢م) وثارت عليه عاصمته. واختار الجيش قائد كتيبة[٢٠] يدعى (فوكاس) إمبراطوراً وأُعدم موريس. وحَكَم مغتصب العرش فوكاس من ٦٠٢-٦١٠م ولكن طغيانه سرعان ما اشمأزت له الإمبراطورية. وقاد (هرقل) حاكم

(٢٠) كان قوام الكتيبة الرومانية مائة مقاتل (قاموس المورد/ منير البعلبكي ١٩٨٧م بيروت).

ولاية بعيدة في أفريقيا تمرداً ضده وأرسل ابنه الشاب وأسمه هرقل أيضاً إلى القسطنطينية لخلع فوكاس وتولي السلطة. وأعتلى هرقل الشاب عرش القسطنطينية عام ٦١٠م وأستمر حكمه إلى عام ٦٤٢م ويسميه التاريخ الإسلامي (هرقل) بينما بالإغريقي (هيراكيليوس).

١٣-أدعى خسرو برويز انه ابن الإمبراطور موريس، وخلال لجوئه في القسطنطينية تزوج امرأة بيزنطية. وفي رومانسيات (النظامي) تعرف بأسم (مريم). وطبقاً إلى بعض المؤرخين فأنها كانت بنت الإمبراطور موريس ولكن (جيبون) يشكك بتلك العلاقة. وعلى أية حال فقد استخدم موارد الإمبراطور الفارسي لمحاربة المغتصب (فوكاس) واجتاح الإمبراطورية البيزنطية عام ٦٠٣م. فأصبحت الحرب بين البيزنطيين والفرس حرباً قومية استمرت الى ما بعد سقوط فوكاس عام ٦١٠م. أكتسح الفرس حلب وفتحوا أنطاكيا والمدن السورية الرئيسية بما فيها دمشق عام ٦١١م.

وسقطت أورشليم[٢١] تحت جيوشهم عامي ٦١٤و٦١٥م وتحديداً قبل الهجرة النبوية بـ ٧ أو ٨سنين. أُحرقت المدينة ونهبت وذُبح المسيحيون وأحرقت كنائسهم وأُهين مدفن السيد المسيح نفسه. وحُملت الكثير من الآثار المقدسة بما فيها (الصليب الحقيقي) الذي يعتقد المسيحيون إن السيد المسيح عليه السلام صُلب عليه إلى بلاد فارس. واحتفل كهنة الدين الفارسي ببهجة لتغلبهم على رهبان المسيح. وساعدت جموع اليهود الفرس في تلك المذابح والنهب لعدم قناعتهم بالهيمنة المسيحية. ورحب الوثنيون العرب بذلك وبكل فرص النهب والدمار. وربما كان ذلك الحدث اللافت للنظر (انتصار الفرس على الإمبراطورية البيزنطية) وهو نفسه الذي أشارت إليه سورة الروم في القرآن الكريم.

ومن الطبيعي أن يقف الوثنيون العرب إلى جانب الفرس في حماستهم

(٢١) هكذا يستخدمها عبد الله يوسف علي بدل (القدس) (المترجم).

المدمرة حيث اعتقدوا إن تدمير القوة المسيحية لروما يعني نكسة لرسالة النبيﷺ الخليفة الحقيقي للسيد المسيح لأن نبينا الكريم بدأ بنشر رسالته وإعلان التنزيل الإلهي عام ٦١٠م. فيما اعتقد كل العالم إن الفرس وأدوا الإمبراطورية الرومانية في حين إن الرسولﷺ أُوحي إليه إن نصر الفرس عمره قصير وفي غضون سنين قليلة سينتصر الرومان ثانية ويكيلوا صفعة مميتة للفرس.

وقد أَمَلَ الوثنيون العرب الذين كانوا يضطهدون الرسولﷺ في مكة بأن اضطهادهم هذا سيدمر التنزيل الجديد للنبي الكريمﷺ وفي الحقيقة إن الاضطهاد والصفعات المميتة التي كان يؤملها الفرس والرومان كل من جانبه كانت أدوات بيد الله لتهيئة تلك الظروف لينمو الإسلام ويزداد إلى أن أصبح القوة المهيمنة في العالم.

١٥-ولم يتوقف الطوفان الفارسي بفتح أورشليم (القدس) بل استمر الى مصر حيث أُحتلت وضُمت للإمبراطورية الفارسية عام ٦١٦م، ووصل الاحتلال الفارسي إلى أقاصي طرابلس في شمال أفريقيا. وفي الوقت نفسه خرّب جيش فارسي آخر آسيا الصغرى ووصل إلى أبواب القسطنطينية. ولم يشترك اليهود والوثنيون العرب في النزاع فقط بل شاركت مختلف المذاهب المسيحية المنشقة التي اضطهدها الرومان، بمساعدة الفرس. أصبحت حالة هرقل يرثى لها حقاً. وفي خضم كل هذه النكبات كان عليه أن يتعامل مع الافارين وهم يهاجمون القسطنطينية المحاصرة عملياً من جهة أخرى. ومما زاد الطين بلّة فقد فتك الطاعون والمجاعة بالمدينة وأضفى رعباً عليها.

١٦-وفي هذه الظروف اليائسة فكر هرقل بخطة ذكية باستعمال قوته البحرية لمهاجمة الفرس من الوراء لعلمه بضعف الفرس في القوة البحرية. ففي عام ٦٢٢م (عام الهجرة النبوية الشريفة) نقل جيشه بحراً عبر بحر إيجة إلى الخليج المحاذي لجبال طوروس جنوباً، وخاض معركة حاسمة مع الفرس في

(أسوس) في الهضبة نفسها التي هَزم فيها الاسكندر الأكبر الفرس في زمنه في مسيرته الشهيرة لسوريا ومصر. فأُخذ الفرس على حين غرة وهزموا شر هزيمة بذلك الفعل المباغت، لكنهم بقوا القوة الكبرى في آسيا الصغرى، ويمكن أن يردوا لهرقل الصاع صاعين ما لم يأتِ بقوة مساوية للسابقة ويندفع بسرعة عن طريق البحر من جهة الشمال. عاد هرقل إلى القسطنطينية بحراً وعقد حلفاً مع الافاريين وبمساعدتهم أبقى الفرس في الخليج حول العاصمة. وقاد ثلاث حملات سنة ٦٢٣و٦٢٤و٦٢٥ على امتداد الساحل الجنوبي للبحر الأسود وباغت الفرس من الوراء في منطقة حول (طرابزون) و (قاس). ومن خلال أرمينيا نفذ إلى بلاد فارس ودخل بلاد الرافدين. وأصبح الآن في موقف أن يضرب في قلب الإمبراطورية الفارسية. وحدثت معركة حاسمة على نهر دجلة قرب مدينة الموصل في كانون الأول عام ٦٢٧م. وقبل هذه المعركة قام بالتحالف مع الأتراك وبمساعدتهم لتخليص القسطنطينية عام ٦٢٦م من الفرس والافاريين الخونة الذين التحقوا بالفرس عام ٦٢٦م.

١٧-أحتفل هرقل بنصره في القسطنطينية في آذار سنة ٦٢٨م. وبعد ذلك عقد السلام بين الإمبراطوريتين على قاعدة العودة إلى الوضع السابق. وكعهد عقده هرقل على نفسه ذهب في الخريف جنوباً إلى إيميسا (حمص) ومن هناك سار على الأقدام إلى القدس للاحتفال بانتصاراته وان يعيد الصليب المقدس الذي نقله الفرس إلى مكانه وهو الشرط الرئيسي للسلام. وقد فُرِشَ طريق هرقل بالسجاجيد الفاخرة واعتقد إن الحرية النهائية جاءت لشعبه وإمبراطوريته.

وفي طريقه أو في أورشليم (القدس) قابل رسولاً من النبي الأكرمﷺ حاملاً رسالة يدعوه إلى الإيمان الحقيقي (الإلهي) الذي تجدد على يد رسول حي في ذلك الزمن. وظاهرياً استقبل الرسول باحترام. لكنه لم يدرك المضمون الكامل للعالم (الإلهي) الجديد والمستقبل الذي

تفتح من خلال التنزيل الجديد من الله تعالى. وربما تأثر بقلبه بالقصة التي سمعها من الأعراب عن النبي الأكرمﷺ لكن عظمة إمبراطورياته وكبرياء شعبه منعته من القبول العلني برسالة الله المجددّة. وطلب البحث عن أي عربي مطّلع على الرسول بشكل كافٍ ليخبره شيئاً عنه. وكان أبو سفيان وهو ابن عم النبيﷺ والذي ينتمي إلى فرع أمية من شجرة العائلة في قافلة تجارية في سوريا فأستدعي إلى القدس.

١٨-وعندما حضر أبو سفيان إلى هرقل سأله الإمبراطور عن هذا النبي الجديد عن قرب. وفي ذلك الوقت كان أبو سفيان خارج الإسلام وعدواً حقيقياً للنبيﷺ ولرسالته السماوية. ومع هذا أخبره بحقيقة وصدق النبي الأكرمﷺ وعن طريق اندفاع الفقراء والطبقة المسحوقة إليه، وعن الازدياد العجيب لقوة تأثيره الروحي، وعن الطريقة التي لم يعد فيها ممن تلقى النور الإلهي وتحرر من الوهم أن يعود إلى حياة الجهل ثانية، وفوق كل شيء النزاهة التي حافظ بها على مواثيقه وعهوده فتركت تأثيراً ايجابياً في ذهن هرقل. وقد ذكر البخاري وكتاب عرب اخرون القصة بالتفصيل.

١٩-أما علاقات الملك الفارسي بالإسلام فقد كانت مختلفة، حيث أستقبل (خسرو برويز أو خليفته) رسول النبيﷺ باحتقار ومزق رسالته. وعندما وصل الخبر للنبيﷺ قال «وكذلك ستمزق مملكته». طلب الملك الفارسي من حاكمه على اليمن أن يذهب ويعتقل الرجل الذي نسي نفسه وهو يخاطب حفيد أنوشروان بكلمات متساوية. وعندما حاول الحاكم الفارسي تنفيذ أمر ملكه كانت النتيجة مختلفة تماماً عما توقعها الملك الفارسي العظيم ملك الملوك. فقد أعتنق عامله الإسلام وخُسِرت اليمن كولاية من ولآيات الإمبراطورية الفارسية وأصبحت جزءاً من الدولة الإسلامية الجديدة.

مات خسرو برويز في شباط عام ٦٢٨م بعد أن خلعه وسجنه أبنه الوحشي غير المطيع الذي حكم سنة

ونصف فقط وترشح ثمان مرشحين للعرش الفارسي في السنين الأربعة المتبقية. وعمت الفوضى السياسية والاجتماعية الإمبراطورية الساسانية حتى انطفأت السلالة بالنصر الإسلامي في معركة المدائن عام ٦٣٧م. حيث وصل العاهل الفارسي المبجل صاحب الكبرياء والطموح إلى نهاية مخزية وفُتحَ فصلٌ جديدٌ لبلاد فارس تحت راية الإسلام.

٢٠-وأخذت الإمبراطورية الرومانية تنكمش تدريجياً تخسرُ مقاطعاتها ليس للفرس بل للدولة الإسلامية الجديدة التي امتصت الإمبراطوريتين القديمتين. وارتفعت الدولة في نشاطها بعقيدة نقية للعالم أجمع. وفي السنين السبعة الأخيرة من حكم هرقل (٦٣٥-٦٤٢م) ضُمت الكثير من الولايات المتاخمة لجزيرة العرب للإمبراطورية الإسلامية التي استمرت بالانتشار الى آسيا الصغرى شمالاً ومصر جنوباً. وأصبحت الإمبراطورية الرومانية الشرقية مجرد شبح أو صورةً باهتة في مناطق صغيرة جداً حول عاصمتها وبالتالي استسلمت القسطنطينية للجيوش الإسلامية عام ١٤٥٣م.

٢١-كانت تلك النهاية الحقيقية للإمبراطورية الرومانية، ولكن في القرن الرائع الذي عاش فيه الرسول ﷺ حدثت ثورة خطيرة أخرى حيث بدأ البابا جريجوري العظيم (٥٩٠-٦٠٤م) بخلق ديانة مسيحية جديدة عندما أخذت المسيحية القديمة تتلاشى تدريجياً فقد أدعى بطريرك القسطنطينية إنه الأسقف العام (الرباني) ذو سلطة قضائية على كل أساقفة العالم المسيحي. وهذا ما أُقترح التصويت عليه من قبل باباوات روما سرياً وتدريجياً، فقد كانوا يبنون طقساً دينياً ونظاماً كنسياً وهيكل نظام لرجال الدين المسيحي مختلفاً عن أنظمة الكنيسة الأرثوذكسية المقدسة وهم يوسعون سلطتهم الروحية في الولايات البربرية في بلاد ألغال وأسبانيا حيث يجمعون العقارات

والأوقـاف ويكـرسـون السلطة غير الدينية العلمانية بأيديهم. وقـد غيّر البابا جريجوري العظيم ديانة الغزاة الانجلو-سكسونيين لبريطانيا إلى شكل الديانة المسيحية الخاصة به. وقد حافظ على ايطاليا من نهب الفرنكيين واللومبارديين ورفع الكرسي الأسقفي لروما إلى منزلة سلطة (ربانية) تمارس السلطان القضائي على العالم الغربي. وهو يُمهّد الطريق للزمن الذي يتوج فيه أحد خلفائه تحت سلطة الشرلمانية الفرانكشية كإمبراطور لروما والغرب (سنة ٨٠٠م). ولاحقاً أنفصل أحد خلفائه عن الكنيسة الأرثوذكسية عام ١٠٥٤م وحرم البابا من حقوق عضوية بطريركية القسطنطينية واليونان.

نافذة

المِصْبَاح

العرض والنّقد والتّعريف

تحقيق القرآن الكريم لعصمة آدم عليه السلام
قراءة في كتاب (براءة آدم)
لسماحة السيد جعفر العاملي

عرض: عبد الحسين مجيد هدو
كربلاء المقدسة - العراق

في حياة الشعوب والامم، افراداً وجماعات، قضايا حساسة واساسية ينطلق منها وعيها، ويقوم على اساسها التكوين الفكري والايماني، ثم العاطفي لها، بل هي تلامس جوهر فطرة تلك الشعوب، فتثير كوامنها، وتكون سبباً في الحاق أنواع من الاذى بها .

ومن أجل ذلك لابد من توخي الحذر، وعدم المبادرة الى إلقاء الكلام في تلك القضايا على عواهنه، وبصورة مرتجله ومن دون تدبّر وتأمّل وتثبت، بل لابد من استحصاف الرأي، واستكناه الامور بروية وبصيرة وبصدق وأمانه وان أخطر هذه القضايا وأشدها حساسية في الاسلام، هي قضايا الايمان والاعتقاد، خصوصاً ما يرتبط منها بالانبياء والائمة الاصفياء الذين هم الأسوة والقدوة، يرتبط بهم تأثيره العميق في بناء شخصية الانسان، وفي تكوين خصائصه الانسانية والايمانية، وفي تبلور ميزاته في مختلف جهات وجوده.

غير اننا قد نواجه في حياتنا مَن يدَّعي المعرفة، ويتاجر بها، ويبيع ويشتري ويهب ويمنح من ألقا بها ماشاء لمن شاء، ويباليه يكتفي برفع شعاراتها، ويلوك عبارتها، بل هو يتعدى ذلك الى حد التطاول على رموزها، ثم الى ان يقنع نفسه بأنه هو طليعة روادها، وغاية جهدها وجهادها فيبادر الى طرح آرائه السقيمة، وافكاره العقيمة في كل اتجاه حتى في قضايا الايمان والاعتقاد.

فاذا رجعنا اليها واليه فلن نجد امامنا الاّ ألعوبة تحركها أيدٍ في الظلام او اضحوكة

لاتُعرف خفاياها لان الناس نيام، فهو ينعق بما لا يسمع كالطبل الأجوف بما له من صوت عالٍ، وجوف خال، لايرجع في دعاواه الى أساس، ولا يعتصم بركن وثيق، بل يرتجل الرأي ويلقي الكلام على عواهنه فيخطئ المرمى، ويقع في المتناقضات، ويضيع في متاهات ما يثيره من عجيج وضجيج، من دون ان يعرف الخطأ من الصواب، والزائغ من السائغ، فما أشد انطباق قوله تعالى عليه: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَلَا هُدًى وَلَا كِتَٰبٍ مُّنِيرٍ ۝٨ ثَانِىَ عِطْفِهِۦ لِيُضِلَّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ لَهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ ۖ وَنُذِيقُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ﴾ [سورة الحج: ٨-٩].

اما اهل العلم والفكر الحقيقيون والرساليون، فانهم الذين يُلزِمون أنفسهم بقواعد ومناهج اثبتت لهم الادلة القاطعة، والبراهين الساطعة حقانيتها وصوابيتها وواقعيتها.

وهؤلاء قد اعطوا هذه الضوابط والمعايير حريّتها -بأمانه وصدق- ليهيمن على كل حركتهم الفكرية، والتزاماتهم الايمانية، ولتحكم وتضبط مسيرتهم في كل موقف، وفي كل مجال، فهي التي تَفرض عليهم القرار وتحدد لهم المسار حتى اذا ما اعتمدوا رأيا او موقفاً ثم ظهر لهم أنه لا ينسجم معها فإنهم يتراجعون عنه بكل رضا وحزم وسيشعرون بالسعادة لانهم اهتدوا الى الحق وبالامتنان وبالعرفان لمن يدلهم عليه او يهديهم اليه على قاعدة (رحم الله من اهدى إليَّ عيوبي) وتصبح هذه المعايير والثوابت هي السبب الاقوى في توحيد النظرة وفي تجذّر الفكر على أسس سليمة وقويمة، وفي الانصهار في بوتقة الحقيقة برؤية صحيحة ملؤها النقاء والصفاء وبها تكون السعادة ويكون البقاء. وحين واجه هؤلاء العلماء الابرار ماينسبه اهل الزيغ والهوى الى الانبياء من امور تنافي عصمتهم الشاملة فإنهم واجهوا ذلك بالموقف الحازم والحاسم، وبالرفض القاطع لكل هذه المقولات لمنافاتها للأدلة القطعية التي تثبت طهارتهم وعصمتهم عليهم السلام ثم عكفوا على تفسير الآيات الشريفة بما ينسجم مع هذا الاتجاه، ويتناغم مع تلكم المعايير.

الرؤية الصحيحة

ممّا لاريب فيه بين الخاص والعام من مذاهب المسلمين هو عصمة الانبياء (صلوات الله وسلامه عليهم) من الخطأ والسهو والنسيان في التبليغ وفي غيره. كما انهم معصومون

ومطهرون من الذنوب صغيرها وكبيرها.غير أن هناك-من غير الشيعة الامامية-من حاول أن يستفيد من بعض الآيات الكريمة انها تنسِبُ للانبياء خلاف ذلك، الامر الذي دعا العلماء الابرار الى بسط القول في هذه الآيات لبيان خطأ هذا الفهم، حفاظاً منهم على صفاء الاعتقاد لدى الناس الطيبين الذين يأخذون الامور بعفوية وصدق، الأمر الذي يجعلهم أقل سعياً لتحصين أنفسهم من الوقوع في الشك والشبهة التي يحاول اصحاب الاهواء أن يوقعوهم بها.

معصية آدم عليه السلام

لعل الآيات التي تحدثت عما جرى لآدم عليه السلام في مواجهة مكر إبليس وفيها قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ﴾ [سورة طـه: ١٢١]. هي الأوفر حظاً والاكثر تردداً على ألسنة السائلين والمجادلين الذين يترددون ما بين قوسي صعود ونزول.

فمن السؤال البريئ الطالب نيلَ الحقيقة والراضي بها، الى سؤال يسعى الى إشباع شهوة حب الظهور، من خلال الاستغراق في المراء والجدال العقيم، بهدف اسقاط الطرف الآخر في دوامة من العجيج والضجيج المرهق والجرئ الى حد الوقاحة وتجاوز كل الحدود، وانتهاءً بما يسعى اليه كثير من اصحاب النوايا السيئة من اهتبال الفرصة لإثارة الشبهة، زعزعة يقين الطيبين من الناس ثم جرهم الى اباطيل وافائك يقدمونها اليهم على انها البديل الصالح والبلسم الشافي في حين إنها السم الزعاف، وما ادراك ما السم الزعاف؟

الآيات الكريمة

١-إن الآيات التي تحدثت عما جرى بين آدم عليه السلام وإبليس هي:

قال تعالى: ﴿وَقُلْنَا يَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ وَكُلَا مِنْهَا رَغَدًا حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ ٱلشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٣٥﴾ فَأَزَلَّهُمَا ٱلشَّيْطَٰنُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ ۖ وَقُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ ۖ وَلَكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَٰعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٣٦﴾ فَتَلَقَّىٰٓ ءَادَمُ مِن رَّبِّهِۦ كَلِمَٰتٍ فَتَابَ عَلَيْهِ ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٣٧﴾ قُلْنَا ٱهْبِطُوا۟ مِنْهَا جَمِيعًا ۖ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَاىَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٥-٣٨]. وقال تعالى: ﴿وَيَٰٓـَٔادَمُ ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ فَكُلَا

مِن حَيْثُ شِئْتُمَا وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ ﴿١٩﴾ فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا وَقَالَ مَا نَهَاكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ ﴿٢٠﴾ وَقَاسَمَهُمَا إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ النَّاصِحِينَ ﴿٢١﴾ فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُل لَّكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ ﴿٢٢﴾ قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿٢٣﴾ قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ ﴿٢٥﴾ يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُوَارِي سَوْآتِكُمْ وَرِيشًا وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾ [سورة الأعراف: ١٩-٢٧].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ عَهِدْنَا إِلَىٰ آدَمَ مِن قَبْلُ فَنَسِيَ وَلَمْ نَجِدْ لَهُ عَزْمًا ﴿١١٥﴾ وَإِذْ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا إِلَّا إِبْلِيسَ أَبَىٰ ﴿١١٦﴾ فَقُلْنَا يَا آدَمُ إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ ﴿١١٧﴾ إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَأُ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ ﴿١١٩﴾ فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ ﴿١٢٠﴾ فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ ﴾[سورة طه: ١١٥-١٢٣].

وقبل الدخول في التفصيل، يرى سماحة السيد العاملي أن السياق في الآيات التي ذكرت قضية آدم قد جاء ليؤكد ان ثمة اتجاهاً بيانياً واضحاً لإبعاد هذه القضية عن توهم أن ثمة معصية حقيقية، ونجد الكثير من المفردات التي تسهم في بيان هذه الحقيقة، وتشير اليها بصورة تقريرية سريعة هنا فتقول:

١-انه تعالى حين حذّر آدم عليه السلام من إبليس لم يزد على القول له: انه عدو لك ولزوجك فقال:

﴿إِنَّ هَٰذَا عَدُوٌّ لَّكَ وَلِزَوْجِكَ﴾[سورة طه: ١١٧]. وانه يريد ان يخرجهما من الجنة فقال: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ﴾[سورة طه: ١١٧].

وان نتيجة ذلك هو الشقاء والتعب الذي ينشأ عن مواجهة حاجات محيط آخر، غير محيط الجنة بعد الخروج منها ثم قال: ﴿فَتَشْقَىٰ﴾[سورة طه: ١١٧].

وقال أيضاً عن الشجرة: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ فَتَكُونَا مِنَ الظَّالِمِينَ﴾[سورة البقرة: ٣٥].

٢-وتحدثت عن فعل الشيطان فقال عنه: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا﴾[سورة البقرة: ٣٦].اي عن الشجرة. وقال: ﴿فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾ [سورة البقرة: ٣٦].

ثم تحدث عن هدف الشيطان فقال تعالى: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾(سورة الأعراف: الآية ٢٠).وفي آية اخرى يقول: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا﴾[سورة الأعراف: ٢٧].

٣-وحين تحدث عن الناتج قال: ﴿فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾[سورة الأعراف: ٢٢]. وقال: ﴿فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾[سورة طه: ١٢١].وقال: ﴿وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِن وَرَقِ الْجَنَّةِ﴾[سورة الأعراف: ٢٢].

وقال سبحانه: ﴿أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ﴾ [سورةالأعراف: ٢٧]. وقال: ﴿يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾[سورة الأعراف: ٢٧].

٤-ثم جاءت الكلمات الاخرى لتتحدث عن المعصية والغواية: ﴿وَعَصَىٰ آدَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[سورة طه: ١٢١]ولتتحدث أيضاً عن التوبة من الله، عليهما فقال تعالى: (فتاب عليهما).

٥-وعن طلبهما المغفرة واعترافهما بأنهما قد ظلما نفسيهما قال تعالى: ﴿قَالَا رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنفُسَنَا وَإِن لَّمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ [سورة الأعراف: ٢٣] وقال سبحانه: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ﴾[سورة طه: ١٢٢].

فكان لابد من التماس الرابط البياني الذي يجعل هذا القسم الرابع متناسقا مع سائر الاقسام التي سبقته.

وليس هذا الرابط أمراً افتراضياً صرفاً، وانما ستجده نهجاً حياً يفرض نفسه في السياقات

البيانية التي يتداولها اللسان في محاوراتهم.

القرآن وترشيد الفكر البشري

الملاحظ أن آيات القرآن الكريم في سياق عرضها لما جرى بين آدمعليه السلام وإبليس هي اخطر قضية ترتبط بأمر اعتقادي بالغ الحساسية، وله مساس عميق جداً بالتكوين الفكري وبالنظرة وبالتعامل والسلوك والتعاطي مع الانبياء ومع تعاليمهم وله تأثير في حقيقة الارتباط بهم.

فالقرآن الكريم قد عرض هذه القضية بطريقةٍ تهدف-فيما تهدف اليه-الى ترشيد الفكر البشري، وتحريك العقل الانساني، وفتح آفاق المعرفة أمام الانسان، وتعميق الرؤية لديه، واطلاقه من أسار السطحية القاتلة التي تشل حركته وتسلبه اقوى مبررات وجوده، وهذا هو ما عودنا عليه القرآن الكريم في سياساته البيانية في مختلف المقامات والاحوال فهو يريدنا ان نصبح قادرين على ادراك اكبر قدر ممكن مما تختزنه الالفاظ في مفرداتها وفي تراكيبها من ايحاءات وإلماحات تنفع في تنمية الفكر، وتعمق الوعي الايماني لدى الانسان المسلم ليقوم على أسس راسخه وقوية.

جذب وشدٌّ

لقد رأينا الكثير حين واجهوا الآيات التي تتحدث عن آدمعليه السلام وعن غيره من الأنبياء قد استسلموا للشبهة التي تثار، وانهاروا امامها، وقد تجلى ذلك في مقولات عجيبة وغريبة، صدرت عنهم في اكثر من اتجاه، حتى قال فريق منهم إن الانبياء غير معصومين مطلقا. وفريق آخر قال: ان الانبياء قبل البعثة غير معصومين، وانما كانت قصة آدمعليه السلام قبل البعثة.

وثالث ذهب الى: أن المراد بإبليس هو القوة الداعية الى الشر في الانسان وليس المراد به إبليس الحقيقي ليقال: انه قد تسلط على واحد من عباد الله المخلصين.

ورابع ادعى: أن المراد بآدمعليه السلام ليس هو الشخص المعروف الذي هو نبي معصوم، وانما المراد به آدم النوعي، والقصة تخييلية محضة ولم يقدم اي دليل على ذلك سوى حدسه، وظنونه التي لم تغنه من الحق شيئاً لانها من دون اي مبرر مقبول او معقول[1]، ومجانبةُ الحقَّ

(١) يراجع تفسير الميزان ج ٨ ص ٣٧.

او تدور في فلك التحكمات الباردة، واطلاق الدعاوى الفارغة من دون اي دليل (على حد تعبير سماحة السيد العاملي).

غير انه قد بقي هنا امران نشير اليهما في ما يأتي بايجاز وهما:

١- القول: بأن لا أوامر مولويه قبل التشريع.

٢- ان ما حصل لآدم عليه السلام كان من قبيل ترك الأَوْلى.

ولقد حاول بعض العلماء الأعلام أن يقول ما ملخصه:

قال تعالى: ﴿قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٣٨﴾ وَالَّذِينَ كَفَرُوا وَكَذَّبُوا بِآيَاتِنَا أُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ [سورة البقرة: ٣٨-٣٩]. فهاتان الآيتان أشارتا الى أن التشريعات التفصيلية قد انزلت على آدم عليه السلام وذريته بعد الأمر الثاني بالهبوط الذي هو أمر تكويني متأخر عن الكون في الجنة. خلاف الأَوْلى.

بينما تجد أن بعضهم قد اختار في توجيه قضية آدم عليه السلام التعبير الذي يقول إن ذلك كان من قبيل ترك الأَوْلى، فقد قال العلامة الطباطبائي (رحمه الله) «ابتلاء آدم عليه السلام كان قبل تشريع الشرايع، فكان المتوجه اليه ارشادياً وما ابتلى به من المخالفة كان من قبيل ترك الأَوْلى»[٢].

وقال أيضاً عن التعبير القرآني الذي يوحي بصدور المعصية من آدم عليه السلام انما هي معصية أمر إرشادي لامولوي، والانبياء عليهم السلام معصومون من المعصية والمخالفة في أمر يرجع الى الدين الذي يوحى اليهم فلا يخطؤون، ومن جهة حفظه فلاينسون ولا يحرفون، ومن جهة إلقائه الى الناس وتبليغه قولاً، فلا يقولون الا الحق الذي اوحي اليهم، وفعلاً فلا يخالف فعلهم قولهم ولا يقترفون معصية صغيرة كانت ام كبيرة، لأن في الفعل تبليغاً كالقول.

واما المعصية بمعنى مخالفة الأمر الارشادي الذي لا داعي فيه الا إحراز المأمور خيراً او منفعة من خيرات حياته ومنافعها بانتخاب الطريق الاصلح، كما يأمر وينهى، فاطاعته ومعصيته خارجتان عن مجرى ادلة العصمة وهو ظاهر، وليكن هذا معنى قول القائل إن

(٢) تفسير المبزان ج ١٤ ص ٢٢٧.

الانبياء على عصمتهم يجوز لهم ترك الأَوْلى ومنه أَكْلُ آدمَ من الشجرة[٣].

ونقول:

اولاً: علينا ان نحمل كلامهم على ان مقصودهم هو ترك المستند الى المقدمات الصحيحة التي تناسب عصمة النبي او الوصي، وحكمته، وعقله، وتدبيره، بحيث يكون تركه للأَوْلى من اجل انه راى في مرحلة الظاهر هذا الترك هو الأَوْلى، وليس المقصود انه عرف انه الأَوْلى ثم تركه.

فاذا ظهر ان الواقع كان مخالفا للظاهر، فان ذلك لايضر لأن تكليفه هو العمل بما ثبت له في مرحلة الظاهر، والسبب في ذلك هو: ان تركه للأَوْلى، اذا كان من اجل انه يدرك اولويته، وكان عدم ادراكه لذلك يمثل نقصاناً في مستوى وعيه وفهمه وحكمته، اي انه لا يدرك ما هو أَوْلى وراجح، ولايدرك ايضاً: أن عليه ان يأخذ بالراجح ويلتزم به، فمن المعلوم أن ذلك لايصح في حق الانبياء وهم اعقل البشر واصحهم ادراكا، واحكمهم حكمة، واصفاهم نفساً، واعدلهم سجية، فلا يمكن ان يكونوا عاجزين عن ادراك ما يعقله ويدركه سائر الناس، خصوصاً فيما هو من قبيل ادراك جهات الحُسْن والقبح، وله علاقة بالتدبير الصحيح، وظائف العقل الكامل، ومقتضيات الحكمة الرشيدة.

الوصايا الإلهية لآدم عليه السلام

في قوله تعالى لآدم عليه السلام: ﴿وَلَا تَقْرَبَا هَٰذِهِ الشَّجَرَةَ﴾[سورة البقرة: ٣٥]يلاحظ السيد المؤلف انه تعالى قد حدد له المنهي عنه بوساطة اسم الاشارة ولكنه لم يذكر له اسم الشجرة ولاصفتها، ولاحالتها، ولاغير ذلك مما يرتبط بها.فهو تعالى:

أ- من جهة قد أنعم في تحديد المنهي عنه لآدم عليه السلام الى حد التجسيد الواقعي له ليصبح أمراً ظاهراً محسوساً تصح الإشارة الحسية اليه بقول (هذه الشجرة) والمعرفة الحسية هي الأقوى والأوضح والأكثر صراحةً.

ومن جهة اخرى الابقاء على درجة عالية من الابهام والغموض بسبب عدم ذكر الصفة والاسم لتلك الشجرة ولا بيّن له طبيعتها وخصوصياتها ومميزاتها وغير ذلك.

(٣) تفسير الميزان ج ١٤ ص ٢٢٧.

وليست تلك الشجرة من الامور البسيطة التي يكون حضورها نفسه كامناً في الكشف عن حقيقتها.

وقد ادّعى بعضهم ان لفظة: (هذه) قد جاءت لتشخيص الشجرة بكل تفاصيلها وصفاتها، وهو ادعاء باطل، ويخالف البديهة، لان الاشارة الحسية تفيد حصر المشاراليه، والاطلاع على ظاهر أمره، ولاتفيد شيئاً في التعريف بباطنه وحالاته وخصائصه غير الظاهرة، اذا لم يكن من البسائط التي تنحصر حقائقها بنفس التوجه اليها وادراكها.

طموح النبي آدم عليه السلام

وبعد فان آدم عليه السلام هو ذلك الانسان الالهي الذي خلقه الله تعالى من تراب-وفي التراب المزيد من الخير والعطاء والزيادة-وقد اراد الله تعالى لآدم عليه السلام ان يكون ذلك الانسان الكامل الخالص والصفوة والرضي في صفاته وحالاته، والعاقل المدرك والحكيم والمتوازن والمد بر الذي يستحق ان يكون أباً للبشر كلهم، ونموذجاً للكمال الانساني فيرتفع الى درجة نبي، له طموح الانبياء وتطلعهم، لايعيش لنفسه، ولا تحركه شهواته ولاغرائزه، بل يعيش لله تعالى ولا يفكر الا في نيل رضاه ،والحصول على درجات القرب والزلفى منه والحلول في منازل الكرامة لديه.

ثم ذكر الله سبحانه لآدم وزوجه ان اكلهما من الشجرة يجعلهما من الظالمين ولم يدخل سبحانه ذلك في دائرة العصيان بمعنى التمرد على المولى وهتك حرمته وكسر هيبته .

واللافت ان النبي آدم عليه السلام بعد أن حدث ما حدث وقال الله لهما ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ وَأَقُلْ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ لم يستعمل التعبير نفسه بالعاصي بل استعمل التعبير الذي ورد في التحذير الإلهي نفسه إذ قال ﴿رَبَّنَا ظَلَمْنَا أَنْفُسَنَا﴾ والظلم هو تجاوز الحدود.

ويحتمل ان يكون المراد بالظلم في الآية:

١- ان يكون التعدي على حدود المخلوقات الاخرى كالبشر او الملائكة او الجن او غير ذلك فيكون هذا التعدي عليها ظلماً لهم.

وليس في أكل النبي آدم عليه السلام من الشجرة ما يشير الى شيء من هذا القبيل.

ويحتمل ان يكون المراد بالحدود هي حدود الله سبحانه وتعالى بحيث يكون التعدي عليها تعدياً عليه، وهتكاً لحرمته وهو ما يدخل في دائرة العصيان، وإرادة هذا المعنى من قوله تعالى ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ تحتاج الى درجة من العناية والتجوُّز في التعبير فكيف اذا كانت الآية قد صرحت بخلافه.

٢- ويحتمل ان يكون المراد بالحدود التي كان التعدي عليها هي حدود طاقة ووسع نفس، فيكون الظلم للنفس دون سواها، بمعنى انه يحمّلها اكثر مما اعتادته فيرهقها بذلك ويتعبها كمن يشتغل ست عشرة ساعة بدلاً من ثماني ساعات ليحصل على ما هو اهم بنظره، وهذا المعنى هو الاقرب بل هو المتعين في معنى الآية إذ جاء الإلماح اليه في قوله تعالى ﴿فَتَكُونَا مِنَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ ثم جاء التصريح به في قول آدم وزوجه ﴿ظَلَمْنَآ أَنفُسَنَا﴾ ولم يقولا اذنبنا او عصينا.

هدف إبليس

والآيات الكريمة تشير الى ان هدف إبليس لم يكن هو اغراء آدم عليه السلام وجرّه الى المعصية، بل ان إبليس كان يعلم ان آدم عليه السلام كان من عباد الله المخلَصين، اي الذين ليست فيهم أيّة شائبة وقد تأكد هذا الأمر له حين أمره الله بالسجود له إعظاماً للنبي آدم وتكريماً واعزازاً وإعلاماً بحقيقة جوهره وأنه خيرة الله وصفوته من خلقه فاستكبر إبليس فاستحق غضب الله والطرد من ساحات قدسه ورحمته.

ثم ان إبليس كان يعلم انه غير قادر على اغراء النبي آدم عليه السلام فتحول الى ذريته واكد انه يحتنك هذه الذرية وسيزين لهم المعاصي وسيقعد لهم الصراط المستقيم ليصدهم عنه، ويردهم الى التيه والضلال.

قال سبحانه: ﴿أَرَءَيْتَكَ هَٰذَا ٱلَّذِى كَرَّمْتَ عَلَىَّ لَئِنْ أَخَّرْتَنِ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ لَأَحْتَنِكَنَّ ذُرِّيَّتَهُۥٓ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [سورة الأسراء: ٦٢]. وقال سبحانه حاكياً قول إبليس: ﴿وَلَأُغْوِيَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٣٩﴾ إِلَّا عِبَادَكَ مِنْهُمُ ٱلْمُخْلَصِينَ﴾ [سورة الحجر: ٣٩ - ٤٠].

فإبليس انما يتوعد آدم عليه السلام بالغواية والإضلال ولا يجرؤ على التفوه بشيء في حق آدم عليه السلام

نفسه لانه يعلم انه عاجز عن ذلك.

ثمة ملاحظة اخرى هي ان هدف إبليس لم يكن جر آدمﷺ الى الجرأة على الله، والتمرد عليه ومعصيته لانه كان يائساً من أن يتمكن من ذلك بل كان إبليس يعلم ان بقاء النبي آدم وذريته في الجنة حيث لاجوع ولا عطش ولاعري ولا...ولا...ولا...سوف يصعب عليه الوصول الى غاياته الخبيثة في الاضلال والاغواء.

ومن أجل ذلك فقد كان هدفه الذي اعلنته الآيات الكريمة هو ان يُخرِج آدمﷺ من الجنة ليواجه هو وذريته الجوع والعطش والعري والحر والبرد والمرض والصحة والالم والموت والحياة والتعب والراحة والغضب والرضى و...و... الخ وليحتاج الناس-ومن ثم-الى الأمر والنهي والبعث والزجر، وتكون هناك هداية وغواية وما الى ذلك.

فانه اذا تم له ذلك فسيكون قادراً على الوسوسة والاغواء والاضلال لذريته، ومما يشهد لذلك من الآيات الكريمة قوله تعالى لآدمﷺ: ﴿فَلَا يُخْرِجَنَّكُمَا مِنَ الْجَنَّةِ فَتَشْقَىٰ﴾ [سورة طه: ١١٧]. وقوله: ﴿فَوَسْوَسَ لَهُمَا الشَّيْطَانُ لِيُبْدِيَ لَهُمَا مَا وُورِيَ عَنْهُمَا مِن سَوْآتِهِمَا﴾ [سورة الأعراف: ٢٠]. وقوله: ﴿يَا بَنِي آدَمَ لَا يَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُم مِّنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا﴾[سورة الأعراف: ٢٧].

وقوله: ﴿فَأَزَلَّهُمَا الشَّيْطَانُ عَنْهَا فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ﴾[سورة البقرة: ٣٦].

وكانت النتائج أيضاً منسجمه مع ذلك كله على وفق ما اشارت اليه الآيات السابقة وغيرها ومنها قوله تعالى: ﴿فَأَكَلَا مِنْهَا فَبَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا﴾[سورة طه: ١٢١].

اذن فقد ظهر ان ما فعله إبليس من تدليتهما بغرور، ووسوسته لهما، انما كان لاجل ابداء سوءاتهما واخراجهما من الجنة ومواجهة البلاء والشقاء لا ليتجرأ آدمﷺ على الله، ويهتك حجاب العبودية، ويتمرد عليه ويعصيه.

وعلى كل حال فان إبليس قد جاء الى آدمﷺ وكلمه فسمع آدمﷺ صوته ولكنه لم يعرف انه هو ذلك الذي أخبره الله بعداوته له ولزوجه.

ولا دلالة في الآيات على ان آدمﷺ كان قد سمع صوت هذا العدو قبل هذا الوقت او

اطلع على سائر خصوصياته، ومنها قدرته على التمثّل بأشكال مختلفة.

اظهار عظمة آدم عليه السلام

وربما يكون السبب في انه تعالى لم يردأن يعرّف آدم عليه السلام بأكثر من ذلك هو أنه يريد ان يُظهر حقيقته وفضله واستحقاقه لمقام النبوة الكريم والعظيم، فلم يطلعه على غيبه بل تركه يواجه الامور بقدراته الذاتيه تماماً كما كان الحال بالنسبة لموسى والخضر عليهما السلام إذ لم يعرّف الله تعالى موسى عليه السلام بالكنز الذي تحت الجدار ولا بالملك الذي يأخذ كل سفينة غصباً ولا بمعاملة ذلك الغلام المجرم لابويه انه تعالى لم يعرّف موسى عليه السلام بذلك تمهيداً لإظهار حقيقته واستحقاقه لمقام النبوة وأن يكون من أولي العزم من الانبياء عليهم السلام هذا بالاضافة الى ان السُّنة الالهية قد قضت بأن يفسح المجال لوسائل الهداية الاخرى لتؤدي دورها لكي لا ينتهي الأمر بنوع من الظلم والجبر حتى لأعدى اعداء الله من الفراعنة والجبارين من المجرمين.

لقد كان إبليس يحتاج لكي يوقع النبي آدم في ما يريد ان يوقعه به الى اقناعه بعدة امور:

الاول: إنّ النهي ليس دائماً لأجل وجود مفسدة في المنهي عنها.

الثاني: انه توجد مصلحة في هذه الشجرة المنهي عنها.

الثالث: ان هذه المصلحة تهم النبي آدم بالذات اكثر من أي شخص آخر.

الرابع: ان يثبت له ان نهي الله عن تلك الشجرة ليس تحريماً ولا الزامياً.

الخامس: ان يثبت له انه ليس نهياً تنزيهياً أيضاً بمعنى انه يريد ان يبعده عما لا يليق به.

السادس: ان يقنعه بأن النهي ليس لاجل أنه يريد ان يعرفه انه لا يستحق هذا المقام الذي يوصل اليه المنهي عنه، وليس أهلاً له.

السابع: عليه بأن يقنعه أن النهي نهي تسهيل وتخفيف ومحبة ورضى.

الثامن: ان يثبت له ان الفائدة التي في الشجرة والتي تعود اليه تنسجم مع غاياته العظمى وداخلة في صميمها وليست من الفوائد الثانوية التي يمكن تأجيلها او الاستغناء عنها.

اجتهاد النبي آدم

هناك من يريد ان يقول إن النبي آدم قد اجتهد فأخطأ، وللمجتهد أجرٌ واحد وكان

أجره هو الاجتهاد الالهي الذي حصل عليه.

واجتهاده عليه السلام يمثل في ترجيحه كون المنهي عنه هو شخص الشجرة لا سنخها وقد أخطأ في ترجيحه هذا، ثم اكل منها بعد وسوسة الشيطان له وبعد تصديقه في قَسَمِهِ، كما بينته رواية الامام الرضا عليه السلام وهذا هو نفس ما يقوله المعتزلة من اجتهاد النبي آدم في المراد من الشجرة وفي استجابته لتدليس إبليس.

ونقول: اننا نعود ونكرر رفضنا لهذا الكلام، للامور الآتية:

اولاً: ان النبي آدم عليه السلام لم يجتهد بل أخذ بالظواهر الواجب عليه الأخذ بها أذ أن هناك اشارة حسية الى شخص شجرة بعينها، وليس ثمة ما يدل على ارادة ما عداها، فلم يكن هناك اي مانع من الأكل مما يسانخها وليس هذا من قبيل الاجتهاد، بل هو أخذ بظاهر الكلام.

ثانياً: إن النبي آدم لم يخطيء في التطبيق ايضاً، بل عمل اولاً بمقتضى ما حملته له قوالب الالفاظ من اوامر او نواهٍ إلهية وطبقها هو حرفيا، وترجيحه لاحد الاحتمالين إنما هو بالاستناد الى الحجج والدلائل والوسائل التي جعلها الله تعالى له، والتي لو لم يأخذ بها لكان مؤاخذاً عند الله ولو بما استحق الحرمان من بعض الحقوق، ومن هذه الوسائل والدلائل: القَسَم، ومنها الاشارة الحسية، فإذا كان هناك خطأ في الترجيح فليس هو خطأ النبي آدم، وانما هو خطأ الوسيلة المطالب بالعمل بها، تماماً كما تخطيء البينة في اثبات الحق لفلان من الناس وفي حرمانه منه.

ثالثاً: ان مقولة (اذا أصاب المجتهد فله اجران، واذا اخطأ فله أجر واحد) ليس لها اصل، وقد تحدثنا عن ذلك في كتابنا (مأساة الزهراء عليها السلام) وغيره.

رابعاً: قول المعتزلة إن النبي آدم عليه السلام قد اجتهد واخطأ في التطبيق معناه ان النبي آدم لم يذنب لكي يهب له الله عقوبة ذنبه، والقول بانه قد ارتكب ذنباً صغيراً موهوباً معناه انه لم يجتهد، بل هو قد تعمد الجرأة على الله وهتك حرمته. فلماذا يعفو الله عنه؟!

وكونه معفواً عنه معناه ثبوت العقوبة، ثم العفو عنها فما معنى قولهم بثبوت المثوبة على ذنب صغير الى حد نيل درجة الاجتباء والاصطفاء!!

وكيف يمكن الجمع بين الاجتهاد وبين كونه ذنبا؟!! ثم الجمع بين كونه قد وهبت عقوبته وبين المثوبة عليه.

خامسا: ان الاجتهاد الذي مارسه النبي آدم انما هو في تعيين المنهي عنه، فاذا اخطأ في معرفة المراد، فلماذا يعاقب؟!!

وموضع وسوسة الشيطان هو بيان سر النهي، وقد سد الطريق على النبي آدم بالقَسَم الذي كان آدم مكلفاً بالعمل بمقتضاه فأين الخطأ من النبي آدم؟!! وأين الاجتهاد؟!! وأين الذنب»!! وأين هبة عقوبته؟!!

ثم ان البعض يطرح سؤالاً هو: مَن من علمائنا الابرار تمسَّك برواية ابن الجهم عن الامام الرضا عليه السلام لتفسير القرآن الكريم؟!!

وكيف يمكن التمسك بها لصرف القرآن الكريم عن ظاهره، مع الاعتراف بضعف سندها.

رواية أُخرى تطرح حلاً آخر للاشكال

روي أن إبليس قد ادعى للنبي آدم عليه السلام ان الله تعالى قد احل له الاكل من الشجرة بعد ان كان نهاه عنها وجعل علامة صحة قوله هذا ان الملائكة الموكلين بها سوف لايمنعونه من الاقتراب منها مع ان سبب عدم منعهم اياه ليس هو الاحلال بعد المنع، وانما هو لانهم لايمنعون من يملك عقلاً واختياراً[٤].

ويمكن ان يقال: انه لا توجد مشكلة بين الروايتين، فان الرواية الثانية قد تكون ناظرة الى النهي والمنع عن جنس الشجرة وان الملائكة لايمنعون من الاقدام على الاكل من شجرة اخرى مشابهة للمنهي عنها بحجة انها قد أحلّت له إذ لايوجد نهي عنها بعد ان حرّمت عليه الشجرة الخاصة وان كانت مجانسة لها.

وعلى كل حال فان الرواية عن الامام الرضا عليه السلام وكذلك هذه الرواية انما نسوقها للتأييد والاستئناس لا الاستدلال، وقد اوضحنا ان رواية ابن الجهم ظاهرة الانسجام مع السياق

(٤) يراجع تفسير الامام العسكري ص ٢٢٢ وص ٢٢٣ وتفسير البرهان ج ١ ص ٨٠ والبحار ج ١١ ص ١٩١ ومستدرك الوسائل ج ٢ ص ٢٨٦.

البياني للآيات.

واما الرواية الاخرى فان امكن الجمع بينها وبين رواية الامام الرضاﷺ فبها... والاّ فاننا نوكل علمها الى اهلها ...ان صح صدورها عنهمﷺ.

الانتظار المر

الذي يثير الانتباه ان الله سبحانه حين ابتلى آدم بالأكل من الشجرة وظهرت عليه عوارض البشرية التي لا تتناسب مع الحياة في تلك الجنة، اصبحت اللحظات الحرجة تمر عليه ببطء شديد، وتثاقل مرهق وقاسٍ، ويتعاظم لديه الشعور بالضيق، واصبح يتلهف للخروج مما هو فيه بأية صورة، واصبح يحس باللحظات التي تمر، وكأن كل لحظة دهرا. وصح التعبير من أجل ذلك بكلمة (ثُمَّ) الدالة على التراخي في قوله: ﴿ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُ﴾ [سورة طه: ١٢٢] و في هذه اللحظات بالذات شملته الرحمة الأهية العارمة، حتى قبل ان يتفوهﷺ بأية كلمة-كما هو ظاهر من السياق القرآني وحباه جل وعلا بوسام الشرف والاستحقاق، وأعطاه جائزة سنية قبل أن يهبطهُ الى الارض، حين أنا لَه مقام الاجتباه الإلهي المتمثل بعوده عليه بالألطاف والرحمات والمواهب الجليلة فقد قال تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُۥ فَغَوَىٰ ﴿١٢١﴾ ثُمَّ اجْتَبَاهُ رَبُّهُۥ فَتَابَ عَلَيْهِ وَهَدَىٰ ﴿١٢٢﴾ قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًۢا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّى هُدًى فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَاىَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَىٰ﴾ [سورة طه: ١٢١-١٢٣].

والجائزة انما تعطى للناجح المميّز الذي انجز عملاً مرضياً وخطيراً ولا تعطى لمن عصى وتمرد او لمن فشل وسقط في امتحان الجدارة.

معنى الاجتباء

الاجتباء كما قاله الراغب هو: (الجمع على طريق الاصطفاء)

وقال ايضاً: اجتباء الله العبد تخصيصه إياه بفيض إلهي ليتحصل منه انواع من النعم بلا سعي من العبد، وذلك للأنبياء وبعض من يقاربهم في المنزلة من الصديقين والشهداء[٥].

وليتأمل المتأمل هنا كيف جاء التعبير في الآية المباركة بكلمة (اجتباه) وكأنها تريد

(٥) المفردات في غريب القرآن ص ٨٧-٨٨.

ان تلمح الى ما كان يعاني منه آدمعليه السلام من توزع مضنٍ، وانتشار وامتداد من موقع الحاجة والعجز، والضعف في مختلف جهات حياته فأصبح يجوع ويعرى ويمرض ويعاني من الحرو البرد، ويضعف ويقوى و...و...

واصبحت به حاجة الى من يساعده على جمع ذلك الشتات، ولملمة ذلك الانتشار، وسد هاتيكم الثغرات، وتقوية ضعفه، ورفع عجزه بما يناسب ذلك كله وبما يتطلبه من تهيئة حاجات ومرافق، وما يفرضه من هدايات ودلالات .

كما ان بعض الاعلام قد المح الى ان المراد: ان الله قد اجتبى آدمعليه السلام اي جمعه اليه سبحانه[٦] وسلك به الى نفسه، لا يشاركه فيه غيره بما أعطاه من هدايات تيسّر له ذلك لأنه تعالى هو الرحيم بعباده العائد عليهم بألطافه وعناياته.

وخلاصة القول: ان النبي آدمعليه السلام قد بادر الى التضحية الحسية والواقعية بكل ما لديه في سبيل الوصول الى مقامات جليلة وعظيمة عند الله وظهرت آثار هذه التضحية في البلاء الذي واجهه.

وبذلك يكون قد اثبت خلوصه وكونه صفوة الله، وأن يجمعه الله اليه، وأن يصطفيه لنفسه، وان يمنحه الاجتباء لنجاحه في الامتحان الذي لاينجح فيه الا صفوة الخلق.

فما صنعه الله له ليس مجرد معونة لمن احتاج الى المعونة بَلْ الموضوع موضوع مكافأة، واعلان لمقام الاجتباء الرفيع الذي يحتاج الى أسباب كامنة في ذات الشخص المجتبى.

دلالات في قوله تعالى (فتلقى)

ولبيان ذلك يقول سماحته: ان هذه الاية قد ألمحت الى الامور الآتية:

اولاً: ان الله سبحانه لم يترك آدمعليه السلام يواجه المصاعب وحده، بل امدّه مباشرة وبدون إمهال بأسباب الخلاص مما هو فيه وكان آدمعليه السلام ينتظر هذه الاسباب ويهيء نفسه لها-كما تشير اليه كلمة (فتلقّى) التي جاءت بـ(فاء) التفريع التي تفيد التعقيب من دون مهلة.

ثانياً: ان التلقي للكلمات كان (من ربه) ويلاحظ ان تلك الكلمات قد تلقاها آدمعليه السلام

(٦) تفسير الميزان ج ١٤ ص ٣٢٣.

من المواقع الربوبية التي توحي بالرعاية والتنشئة الحريصة على مصلحته والمهتمة بحفظه على وفق الحكمة والتدبير الصحيح وتحت رعاية عين العلم الثاقبة والنافذة الى الاعماق والمحيطة بأسرار كل هذا الوجود، ومن هنا نجده تعالى يقول (من ربه) ولم يقل من الله.

ولابد ان تكون الكلمات المذكورة كلمات عظيمة كما تلمح اليه كلمة التلقي. وكما يشير اليه تنوين التنكير الذي جيء به -في ما يظهر- لإفادة التعظيم.

بالاضافة الى كونها آتية اليه من جانب العزة الالهية والفيض الربوبي الذي ينتظره وهو في أمسّ الحاجة اليه بعد ان حدث له ما حدث.

ثالثا: ثم جاءتِ التوبة عليه بعد تلقيه تلك الكلمات مباشرة كما ألمح اليه التعبير بـ(الفاء) في قوله (فتاب عليه) مما يعني ان هذا التلقي الكريم لتلك الكلمات، ووضعها في موقعها اللائق بها، وادراك النبي آدم عليه السلام لمعانيها قد نتج عنه ان اصبح النبي آدم مؤهلاً للتوبة عليه ولتلقي الرحمة الالهية.

ولعل هذا التلقي للكلمات هو الذي نتج عنه الاجتباء او هو نفسه الاجتباء او ملازم له، فان الآية قد جعلت توبة الله على النبي آدم نتيجه للاجتباء تارة، ولتلقي الكلمات تارة اخرى، مما يعني انهما أمران متلازمان على اقل تقدير.

فان الاجتباء لازم لرفع مستوى آدم وتقريبه اليه سبحانه وجمعه شتاته واصطفائه، وهذا ملازم لمزيد من الرقي في الوعي والرسوخ في الايمان.

ووعي تلك الكلمات هو الذي يجسد ذلك الرقي الذي نتجت عنه عودة الله سبحانه على آدم عليه السلام بلطفه وعونه ورعايته، ولهذا فان الله تعالى لم يقل:

دعا آدم ربه فتاب عليه بل قال: ان نفس تلقي النبي آدم للكلمات استتبع عود الله عليه.

ان عظمة هذه الكلمات، ثم تفريع التوبة على تلقيها يشير الى ان دورها في حياة النبي آدم عليه السلام من حيث كونها (كلمات) تدخل في دائرة التلفظ المستتبع للتوبة.

وذلك يشير الى انها كانت مادة اساسية ومحورية في دعائه عليه السلام فهي اذن ليست مجرد قراءة دعاء حتى لو كان هذا الدعاء هو:

لا اله الا انت سبحانك اللهم وبحمدك عملتُ سوءاً وظلمتُ نفسي فأغفر لي وانت خير الغافرين.

وذلك كله يجعلنا لا نقتنع بقول من يقول: ان الكلمات هي خصوص هذا الدعاء، بل لابد ان يكون معه ايضا-او بالاستقلال عنه-ما هو اعظم وأهم وهي اسماء اهل البيت عليهم السلام، وهي محمد وعلي وفاطمة والحسنان صلوات الله عليهم اجمعين ليكونوا شفعاءه ووسيلته كما دلت عليه الروايات الشريفة(٧).

وهذه الاسماء هي التي كان الله قد علمه إياها في وقت سابق حينما أمر الملائكة بالسجود له، وأراد تعالى ان يظهر لهم عظمة آدم، وانه لابد ان يوصل الكون الى كماله من خلال معرفة خاصة مع حقيقة تلك الموجودات العالية، وليس للملائكة مثل هذه القدرات، نعم لقد علمه الله هذه الاسماء، ثم عرضهم على الملائكة ورأى انوارهم وشاهد مقاماتهم وعرف انهم هم الشفعاء الكرماء الذين لا بد أن ينتظر مساعدتهم.

أيّة جنة؟!

تحدثت الايات الشريفة عن إسكان الله آدم وزوجه الجنة فعن أية جنة تتحدث؟ هل هي جنة الخلد؟ ام هي جنة من جنان الدنيا لها طبيعة خاصة بها، لا تنسجم وطبيعة الحياة على الارض؟ لأن الدنيا واسعة سعة كل ما في هذا الوجود.

وهل هي جنة في السماء؟ أم هي في الارض؟

نجد في الايات الكريمة، وفي بعض الروايات الشريفة ما يؤيد الاحتمال الذي يقول: انها من جنان الدنيا ففي قوله تعالى (قلنا اهبطوا منها) له درجة من الظهور في ان الجميع كانوا في محل ما، ثم اخرجوا منه مما يعني ان إبليس كان مع آدم وزوجه في داخل ذلك المكان الذي سماه الله تعالى الجنة.

وقوله تعالى: ﴿قَالَ اهْبِطَا مِنْهَا جَمِيعًا بَعْضُكُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ﴾[سورة طه: ١٢٣].

وقوله تعالى: ﴿وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٢٤﴾ قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ

(٧) الكافي وتفسير الميزان ج ١ ص ١٤٧-١٤٨ وعن الصدوق والعياشي والقمي وغيرهم.

وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ﴾[سورة الأعراف: ٢٤-٢٥].يدل على ان الجميع قد انزلوا الى الارض، بعد ان لم يكونوا فيها.

اما القول: بأن قوله (اهبطا منها جميعاً) فانما تدل على مجرد تنزل المقام والمرتبة فهو كقولنا لمن تغيرت حاله، وخسر مواقعه الدنيوية: لننظر أين كان؟وأين أصبح؟

فهذا لاينافي في الروايات أنه عليه السلام كان في جنة من جنان الدنيا ولا يتناقض مع القول بأنه نزل الى الارض، بل هو يتلاءم مع جميع الاقوال.

وهناك بعض الروايات تقول: إن آدم عليه السلام حين هبط من الجنة أهبط على الصفا، واهبطت حواء على المروة وتلك الرواية تقول أيضاً: سئل الامام الصادق عليه السلام عن جنة آدم أمن جنان الدنيا كانت؟ ام من جنان الآخرة؟

فقال كانت من جنان الدنيا، تطلع فيها الشمس ويطلع فيها القمر ولو كانت من جنان الآخرة ما خرج منها أبداً[٨].

ولكن كونها من جنان الدنيا، لايلزم منه ان تكون في الارض، فأن السماء الدنيا واسعة، ويمكن ان يكون في بعض كواكبها جنة لها حياة وحالات، ويمكن القول بانها برزخية، من شأنها الاعداد للحياة على الارض وتطلع فيها الشمس والقمر.

ثم لما أكل آدم من الشجرة التي تسانخ طبيعة الحياة الارضية أهبطه الله تعالى إليها.

آدم عليه السلام خُلِق للارض

ويبقى هنا سؤال: هو انه اذا كان الله تعالى انما خلق آدم ليكون خليفة في الارض، فلماذا اسكنه تلك الجنة التي ليست في الارض مع ملاحظة ان كلمة (اسكن) انما تعني المكث الطويل، لا مجرد المرور العابر او الحلول القصير.وقد اجاب العلامة الطباطبائي بقوله:

قوله تعالى في صدر القصة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾[سورة البقرة: ٣٠].يفيد أن آدم انما خلق ليحيا في الارض، ويموت فيها، وانما اسكنهما الله الجنة لاختبارهما، ولتبدو لهما سوءاتهما حتى يهبطا منها الى الارض.

(٨) تفسير الميزان ج ١ ص ١٣٨ .

وخلاصة القول فهو﷽ كان مخلوقاً ليسكن الارض، وكان الطريق الى الاستقرار في الارض هو هذا الطريق، وهو تفضيله على الملائكة لاثبات خلافته ثم أمرهم بالسجدة، ثم اسكان الجنة، والنهي من الاقتراب من الشجرة المنهي عنها حتى يأكلا منها فتبدو لهما سوءاتهما فيهبط الى الارض.فآخر العوامل للاستقرار في الارض، وانتخاب الحياة الدنيوية ظهور السوأة[٩].

التعبير القرآني عن الأكل من الشجرة

اللافت أن الايات الكريمة عبّرت تارة بـ(ذاقا) واخرى عبّرت بـ(اكلا منها) وثالثه بـ(ازلهما الشيطان عنها)، وواضح ان ثمة عناية خاصة في إظهار الخصوصيات من خلال هذا التنوع في التعابير.

فهو حين يقول (ذاقا) فانه يكون قد بين ان الاكل لم يكن مجرد ايصال جزء من تلك الشجرة الى جوف آكليه، فان ذلك قد لايكون هو المؤثر في سقوط الحجاب، وظهور السوءات بل المؤثر هو التفاعل مع حقيقتها والاحساس بخصوصيتها من خلال تذوق طعمها.

ولذلك جاء التعبير ليعطي أن ما حصل كان اختراقاً وخروجاً وتجاوزاً للحدود المرتبطة بالشأن التكويني (فازلهما الشيطان عنها) وقوله: (فأزلهما) يشير الى الاسترسال والجري وفق السجية واعتمادَ ظاهر الحال .

واذا كانت هذه الحدود هي حدود التكوين فان اختراقها وتجاوزها سوف يترك اثره التكويني من خلال حتمية الخضوع لنواميس الخلق والتكوين التي اودعها الله في الخلق والخليقة، رحمة منه تعالى بها ووفق مقتضيات التدبير والحكمة البالغة.

وحين قال: (اكلا منها) فانما اراد سبحانه ان يحدد الطريقة التي حصل بها ذلك التفاعل مع حقيقة الشجرة، وإن الأكل هو سبب ظهور السوءات وعوارض البشرية عليهما فهو يريد تأكيد الارتباط المباشر بين هذين الامرين.

واماالتعبير بـ(ازلهما) فانه سبحانه يريد ان يحدد لنا نتائجه الكلية المناسبة لطبيعة التعبير

(٩) تفسير الميزان ج ١ ص ١٢٦-١٢٧ .

بالعنوان العام الذي هو الاسترسال والاعتماد على ظاهر الحال، وينتج الخروج مما كانا فيه والانتقال الى موقع آخر ليواجها حالاته وعوارضه.

السوءات

والآيات الكريمة تكاد تكون صريحة في ان السوءات التي بدت قد كانت مستوره عن آدم وزوجه عليهما السلام لا انها لم تكن ثم كانت.

وهذا يشير الى ان المراد بالسوءات في الايات الكريمة ليس هو العورة بمعناها المعروف، إذ لاشك في ان آدم عليه السلام كان يعرف ان له عورة ولكنه لا يحس بها، ويعرف انه رجل، ويعرف ان زوجه انثى ويعرف الفرق بين الرجل والانثى، ويدرك معنى الزوجية بينهما.

ولكن التعبير جاء بالسوءات التي كانت كامنة وغير بادية للكناية عن تلك الاحوال الصعبة التي من شانها اذا ظهرت من كمونها، أن تدخل الخلل الى حياته، وتوصل المساءة اليه ويحصل له بسببها الشقاء الذي أشار تعالى اليه بقوله (فتشقى) ثمَّ كأنه فسره بقوله بعده: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾[سورة طه: ١١٨-١١٩].

وقد عبر سبحانه عن هذه السوءات بصيغة الجمع لا بصيغة الأفراد أو التثنية ربما ليشير بذلك الى كثرتها وتنوعها.

كما انه قد اضاف كلمة (لهما) فقال-جل وعلا-(بدت لهما)، ليتأكد ان المراد بالسوءات ليس هو العورة لان ظهور عورتيهما لهما مما لا ضير فيه، اذ الانسان يشعر بعورة نفسه ويراها ولا ضير ايضاً في ان تبدو له عورة زوجه ايضاً.

هل نجح إبليس؟

الحديث عن ان مخطط إبليس قد نجح فقد خالف النبي آدم النهي المتوجه اليه فهو غير صحيح فان ما جرى انما كان نجاحاً للنبي آدم كأعظم ما يكون النجاح حتى استحق مقام الاجتباء الالهي.

ولعلنا نقول: كيف يكون النبي آدم هو الناجح ونحن نرى:

انه عليه السلام قد اهبط من الجنة: (اهبطا) و(اهبطوا).

١- انه قد عوتب من قبل الله على اكله من الشجرة قال تعالى: ﴿أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [سورة الأعراف: ٢٢].

٢- انه عوتب على إطاعة إبليس ﴿وَأَقُل لَّكُمَآ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾[سورة الأعراف: ٢٢].

والجواب:

اولاً: لو كان ما عمله آدم عليه السلام امراً مرجوحاً لم يستحق جائزة عليه، بحيث يمنحه الله تعالى مقام الاجتباء والاصطفاء مباشرة، ذلك المقام الذي ذكر قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱجْتَبَٰهُ رَبُّهُۥ﴾ [سورة طه: ١٢٢].وقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ﴾ [سورة آل عمران: ٣٣].

ثانيا: ان ما جرى للنبي آدم من هبوط، انما هو من آثار سعيه لنيل اعلى مقامات الرضا والكرامة الالهية، وان يكون مع الانوار التي رآها عند العرش ولم يكن يعلم انه عاجز عن الوصول اليها، وان لسعيه هذا آثاراً طبيعية وقد حصلت له فعلاً وهذا نظير من يصلي في اليوم والليلة الف ركعة فان من الطبيعي ان تتورم قدماه، وان تصيح له ثفنات من أثر السجود.

ثالثا: ان قوله تعالى: ﴿وَنَادَىٰهُمَا رَبُّهُمَآ أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَن تِلْكُمَا الشَّجَرَةِ﴾ [سورة الأعراف: ٢٢]. انما هو إعلام لهما بحقيقة ما جرى لهما وان سببه هو الاكل من تلك الشجرة اذ ليس ثمة ما يدل على ان الاكل من الشجرة كان هو السبب فيما عرض لهما من حالات الجوع والعري والحر والبرد وغير ذلك مما يعرض لاهل الدنيا.

ولعل الحيرة اخذتهما بعد ان كان لديهما وعد إلهي يقول: ﴿إِنَّ لَكَ أَلَّا تَجُوعَ فِيهَا وَلَا تَعْرَىٰ ﴿١١٨﴾ وَأَنَّكَ لَا تَظْمَؤُا۟ فِيهَا وَلَا تَضْحَىٰ﴾ [سورة طه: ١١٨-١١٩]. كما انه قال للنبي آدم: ﴿ٱسْكُنْ أَنتَ وَزَوْجُكَ ٱلْجَنَّةَ﴾ [سورة البقرة: ٣٥]. فلماذا يخرجهما منها؟! ولماذا يحصل لهما جوع وعري...و...و؟!

فأراد الله ان يعرفهما: ان الاكل من الشجرة هو الذي جعلهما غير قادرين على البقاء في الجنة تكويناً وان ما يجري عليهما من جوع وعري وحر، وبرد إنما هو نتيجة اكلهما منها .

فكلام الله تعالى لهما ليس عتابا، بل هو تسكين لهما بأن الله لا يزال معهما يرعاهما ويلطف

بهما، وأن ما جرى لهما لم يوجب بُعدهما منه بل هو قد اوجب قربهما منه ولذلك اجتباهما وجمعهما اليه على سبيل الاصطفاء.

وسيلة إبليس في اغراء آدمعليه السلام

حاول إبليس ان يغري آدمعليه السلام (فدلاهما بغرور) بأمور منها: (ان الاكل من الشجرة يحقق له أموراً ثلاثة تهمه جداً وقد اشار اليها تعالى بقوله: ﴿هَلْ أَدُلُّكَ عَلَىٰ شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَمُلْكٍ لَّا يَبْلَىٰ﴾[سورة طه: ١٢٠].

وبقوله: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ أَوْ تَكُونَا مِنَ الْخَالِدِينَ﴾[سورة الأعراف: ٢٠].

وهذه الامور الثلاثة هي التي تحل المشكلات الثمانية التي اشرنا اليها آنفاً من ان إبليس كانت به حاجة للتغلب عليها وتجاوزها.

فالامور التي ركّز فيها إبليس هي الآتية:

١- النبي آدم والملك: فاما بالنسبة للمُلك فمرده الى ان إبليس قال لآدم لو اكلت من هذه الشجرة سواء اكلت شخصها ام من جنسها فان ذلك لايضرك بل ان الله سيؤتيك ملكا، ولكن لا لاجل ارضاء شهوة السلطة، والقوة والنفوذ عندك لانه يعلم انك لا تعيش هذا الجو، ولا تهتم لمثل هذه الامور، بل لكي تتهيأ لك الفرص المتنوعة، وتتفتح لك ابواب الطاعات المختلفة إذ تملك الكثير من وسائل القربات التي تمكنك من الحصول على المزيد من درجات القرب والرضا.

٢- لايبلى: وهل يستطيع انسان هو بمستوى نبي ان يتجاهل هذه الحقيقة فيؤثر لذة عارضة على هذه النعمة العظيمة الباقية، ام ان عليه ان يندفع لنيل أمر كهذا ويعمل ما بوسعه للحصول على مثل هذه الوسائل والقدرات.

٣- الملائكة: وقال إبليس للنبي آدمعليه السلام ان فائدة الاكل من الشجرة هي ان يصبح تكوينك يا آدم مسانخاً لتكوين الملائكة، حيث تستاصل من داخل ميولك، وغرائزك، ليكون الخير طبيعتك وسجيتك فلا شهوات لديك، ولا غرائز تعيقك في السعي نحو ما تطمح اليه

من حيث انها تخلق لديك حاجات تحتاج معها الى بذل جهد للحصول على ما يلبيها من الحلال الطيب.

٤- الخلود في طاعة الله: وكان قد قال لآدم عليه السلام أيضاً ان طموحك يا آدم هو ان يكون عمرك مديداً ومديداً جداً ولكن لا لتستفيد من لذائذ الحياة الدنيا ونعمها لانك صفوة الله ليست فيك أية شائبة.

فهذه العروض التي وضعها إبليس امام النبي آدم عليه السلام تنسجم مع اهدافه التي يرى نفسه ملزماً بالسعي اليها والحصول عليها لكن قول الله تعالى: ﴿مَا نَهَىٰكُمَا رَبُّكُمَا عَنْ هَٰذِهِ الشَّجَرَةِ إِلَّا أَن تَكُونَا مَلَكَيْنِ﴾ اشارة الى ان الله لا يريد لكما ذلك، فكيف يطلب النبي آدم عليه السلام ويسعى لأمرٍ لا يريده الله؟!!!

ويجاب عن ذلك: ان عدم ارادة الله له ذلك ليس لحرمته عليه بل لانه لا يريد له ذلك لما فيه من الشقاء والتعب، والعيش الضنك ولكن اذا اختار هو تحمل ذلك فسيكون من المفلحين.

الشيطان ام إبليس

يُثارُ سؤال: كيف يثق النبي آدم عليه السلام بِقَسَم إبليس مع ان الله تعالى قد حذره منه والاجابة عن ذلك:

اولاً: ليس بالضرورة ان يكون النبي آدم عليه السلام عارفاً بحقيقة إبليس بأنه هو الذي كان يخاطبه خصوصاً مع محاولة إبليس التخفي كما ألمحتْ اليه الروايات.

ثانيا: يلاحظ ان الآيات التي تحدثت عن تعريف الله تعالى للنبي آدم بعدوه قد ذكرت اسم (إبليس) ولكن جميع الآيات التي تحدثت عن موضوع الاكل من الشجرة، فكانت باسم (الشيطان) بالرغم من أن بعض الآيات متصل بالبعض الآخر كما في سورة طه.

وهذا يشير الى احتمال ان يكون إبليس قد توسل ببعض جنوده الذين ربما لم يكن النبي آدم عليه السلام يعرفهم اصلاً...أو ان ذلك يشير الى صحة تخفي إبليس عن النبي آدم لكي لايعرفه.

ثالثاً: ان القَسَم يخرج من عهدة المقسِم ويجعله في عهدة غيره، فإذا كان الله هو الذي سوف يكون المطالب، وهو الذي يتولى الأمر ويكون الكفيل والضامن فأن النبي آدم يكون

بريئاً من اية مسؤولية وبعيداً عن اية مؤاخذة.

ولو ان آدمعليه السلام لم يأكل من الشجرة بعد هذا القَسَم فسيجد نفسه: اما مستهيناً بالله سبحانه، بقدرته على ضمان ما جعل في عهدته، واما غير مبالٍ لنيل ما يطمح اليه، ويسعى للحصول عليه من مقامات القرب والزلفى عنده سبحانه، وكلاهما مرفوض جملة وتفصيلا.

وقد قدمنا ان ثمة رواية تقول: ان إبليس قد قال لآدمعليه السلام ان الله سبحانه قد احل له تلك الشجرة بعد تحريمها عليه، وجعل له علامة على صحة قوله: ان الملائكة الموكلين بالشجرة لا يدفعونه عنها كما يدفعون غيره فاكلا منها ولم تدفعهما الملائكة عنها لانهم كانوا موكلين بدفع من لايملك اختياراً وعقلا.

توبة آدمعليه السلام

ان الله تعالى قد قال: انه هو الذي تاب على النبي آدم، ولكنه لم يصرح بتوبة النبي آدمعليه السلام وحتى لو كانت هناك توبة من النبي آدم فان هذه التوبة لاتغني الإقلاع عن المعصية، عن ندم وتصميم على عدم العود، بل هي هنا بمعنى الالتجاء الى الله سبحانه القادر على مدّ يد العون، فان المشكلات التي واجهها قد اكدت حاجته الى التسديد والرعاية الربانية فمن الطبيعي أن يعود النبي آدم الى ربه الرحيم، وان يخشع ويخضع له، ويطلب منه وهو الغني الكريم والرؤوف الرحيم أن يعود اليه بالاحسان والفضل والهداية.

فاستجاب له الله سبحانه، وأمدَّه بالرزق والدواء، وفتح له ابواب الرحمة والهداية الى كل ما ينفع في سد الخلل، ورفع النقص، ودفع العجز.

وقد كان ذلك كله قبل امر الله تعالى له بالهبوط، وأما لو كان المراد بالتوبة هو ما يقولونه فلا معنى لعقوبة النبي آدم بإهباطه من الجنة لان الله قد صرح بأنه قد تاب عليه وانه قد اعطاه الهداية ايضاً قبل إهباطه، فاهباطه بعد ان تاب الله عليه يعطينا ان المراد هو ما اسلفناه وليس ما قالوه.

وفي الختام نقول: اننا لا نريد من القارئ الكريم ان يعلن انه قد انتهى الى درجة اليقين بان ما ذكرناه هو صريح ما تذهب اليه الايات المباركة الذي لا محيص عن الايمان به، فان القرائن، والدلائل والشواهد المتضافرة تأخذ بأيدي بعضها البعض لتعطي ظهوراً قوياً

للآيات فيما نقول، وقد ظهر ان ذلك هو ما ينسجم مع المفاهيم والقواعد العقلية ومع الثوابت واليقينيات.

ولكننا ندعوا القارئ الكريم لامرين هما:

اولا: ان يكون لديه اليقين كل اليقين بِعصمة الانبياء عن كل خطأ وزلل قبل بعثتهم او بعدها حتى لو لم يتمكن من اكتشاف التأويل الصحيح لهذه الآية ومثيلاتها، فليرد علمها الى الراسخين في العلم (صلوات الله عليهم)، وذلك لان هذه العصمة ثابتة بالدلالة العقلية القاطعة التي لا مجال لأية شبهة فيها.

ثانياً: ان يفسح المجال لاعتبار ما ذكرناه في تفسير الآيات الشريفة، التي تحكي لنا قصة آدم عليه السلام كونها امراً محتملاً وقريباً جداً في معنى الايات.

وان الجزم واليقين بخلافه متعسر، بل متعذر الى الحد الذي يجعل الاستدلال بالآيات المذكورة على صدور الذنب، بل حتى على صدور خلاف الأَوْلى من النبي آدم عليه السلام قبل تشريع الشرائع أمراً غير مقبول.

وبعيداً عن الانصاف العلمي -ليس فقط لفقده المسوغات المعقولة والمقبولة بل لوجود موانع كثيرة في هذه الآيات نفسها التي رأينا بوضوح كيف أنها -فضلاً عن الروايات- تبطل تصريحاً، وتلويحاً في كثير من فصولها وتعابيرها أي استنتاج من هذا القبيل، وتبعده عن دائرة الصحة او احتمالها.

ولكن قبولنا الافتراضي هذا ليس معناه القبول باحتمال صدور المعصية من النبي آدم عليه السلام، بل هو يعني -فقط- لزوم الاعتراف بالعجز عن فهم المعنى العميق، والمغزى الدقيق للآيات المباركات.ان على الانسان العاقل في مثل هذه الحالة أن يرجع علمها الى أهلها، فإنما يعرف القرآن من خوطب به.

اما احتمال صدور المعصية فعلاً، بل صدور خلاف الأَوْلى منه عليه السلام مع التفاتٍ الى اولوية المتروك، فقد رفضناه جملة وتفصيلاً. وذلك لوجود الاعتقاد الجازم والاكيد بنزاهة الانبياء والأئمة الطاهرين (صلوات الله عليهم اجمعين) عن كل معصية ونقص واخلال.

إقرأ في العدد القابل

قدم اللغة العربية

الأستاذ الدكتور محمد حسين الصغير

الرؤية القرآنية لمسألة البداء

خالد سيساوي

الصراط والسبيل في القرآن الكريم

الشيخ الدكتور عباس كاشف الغطاء

تربية النزاهة في القرآن الكريم

د. طالب عبد الحسين فرحان

البعد الأخلاقي في آيات التشريع القرآني

د. وئام كاظم سميسم

التنمية في القرآن الكريم

محمد جواد عباس شبع

الرحمن ومضامين الرحمة في القرآن

د. مهدي حسين التميمي

الإعجاز العلمي في القرآن الكريم

د. حيدر عبد الزهرة